الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

تُرجمت روايات ستيفن كينغ إلى 36 لغة وبيع منها أكثر من 300 مليون نسخة!

Stephen King

ستيفن كينغ

اللحظة الأخيرة

THE GREEN MILE

الرواية المتسلسلة كاملة

www.rewity.com
^RAYAHEEN^
WWW.REWITY.COM

www.rewity.com

^RAYAHEEN^

تصدر وسيصدر للروائي ستيفن كينغ

كريستين

الهارب

فصول متنوعة

بؤس

ISBN 978-9953-87-817-1

9 789953 878171

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
ص. ب. 13-5574 شوران 2050-1102
بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+)
فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

WWW.REWITY.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Green Mile
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع مع الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © by Stephen King, 1996
Illustrations © Mark Geyer, 1996
All rights reserved
Arabic Copyright © 2009 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-817-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

www.rewity.com
RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

الجزء الأول

الفتاتان الميتتان

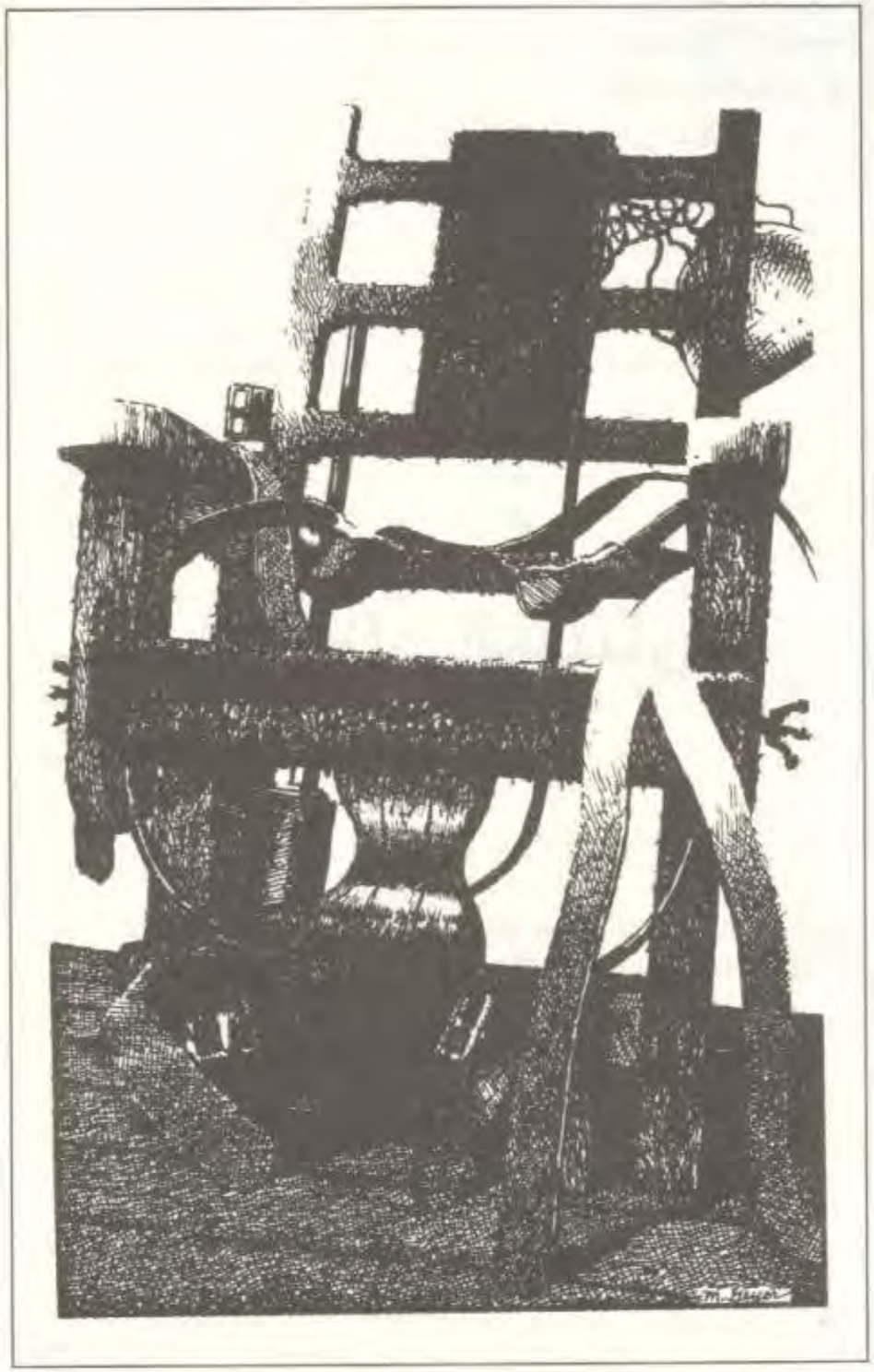

1

حدث ذلك في العام 1932، أيام كان سجن الولاية لا يزال في كولد ماونتن. وطبعا، كان الكرسي الكهربائي لا يزال هناك أيضا.

كان النزلاء يطلقون النكات حول الكرسي، كما يطلق الناس النكات حول الأشياء التي تخيفهم، ولكن لا يستطيعون الفرار منها، فأسموه سباركي العجوز متندّرين بشرره الكهربائي المتطاير، أو جوسي الكبير متندّرين بتعطشه إلى الموت. كما تحادثوا حول فاتورة الكهرباء، وكيف أن موور سيطهو عشاء مناسبة الشكر ذلك الخريف بنفسه نظرا إلى مرض زوجته مليندا.

لكن أولئك ممن سيجلسون على الكرسي حقا، فقد فرت روح المرح هاربة منهم. كنت قد أشرفت على أكثر من ثمانٍ وسبعين عملية إعدام خلال فترة عملي في كولد ماونتن (وهو رقم لن يختلط عليّ أبدا، حتى إنني سأذكره ولو على فراش موتي)، وأظن أنه بالنسبة إلى معظم أولئك الرجال، فقد كانت حقيقة ما يحدث لهم تصدمهم في النهاية لحظة تثبيت كواحلهم بقائمتي سباركي العجوز السميكتين البلوطيتين. كان يظهر عليهم فهم حقيقة أن أرجلهم ما عاد لها من ضرورة (حتى إنك لتلمح الأمر يبرز في عيونهم كنظرة رعب باردة). كان الدم لا يزال يجري في أرجلهم، وكانت العضلات لا تزال قوية، إلا أن كل ذلك كان أمرا منتهيا، فما كانوا سيتمتعون بعد اليوم بمسيرة ميل في الأراضي الخضراء أو برقصة حفلة عامة مع فتاة ما. لقد كان زبائن سباركي العجوز مدركين لموتهم من أخمص أقدامهم وحتى قمة رؤوسهم. وكان هناك كيس حريري أسود يستقر على رؤوسهم ما إن ينتهوا من تخبطهم. لقد

WWW.REWITY.COM

كان يفترض بذلك الكيس أن يكون لهم، إلا أنني كثيرا ما فكّرت فيه مخصصا لنا، ليحمينا من مشاهدة التدهور البشع لرعبهم في عيونهم وهم يدركون أنهم على وشك الموت مقيدي الأرجل.

لم يكن هناك من طابور إعدام في كولد ماونتن، بل مجرد العنبر "هـ"، كان معزولا عن العنابر الأربعة الأخرى وبربع حجمها تقريبا، ومصنوعا من الطوب عوضا عن الخشب، يغطيه سقف معدني كان يلمع تحت شمس الصيف وكأنه نظرة عين محمومة، وكان ذا ست زنزانات تتوزع كل ثلاث منها على أحد جانبي الممر الواسع الذي يمر بينها، وتبلغ مساحة كل واحدة من الزنزانات حوالى ضعف مثيلتها في العنابر الأربعة الأخرى وإن كانت كل واحدة منها لنزيل واحد أيضا. إقامة رائعة بالنسبة إلى سجن (وخصوصا في فترة الثلاثينيات)، إلا أن نزلاء تلك الزنزانات كانوا ليقايضوها بأي من تلك الموجودة في العنابر الأربعة الأخرى. وصدقوني، ما كانوا ليرفضوا المقايضة.

لم يمر عليّ أبدا وقت خلال سنوات خدمتي كمشرف عنبر امتلأت فيه تلك الزنزانات الست كافة بالنزلاء؛ حمدا لله على نعمه. فقد كانت أربع زنزانات شاغرة هي الحدّ الأقصى، (في كولد ماونتن، لم يكن هناك من فصل عرقي بين الأموات الأحياء). كان بين النزلاء سيدة تدعى بيفيرلي ماكول. كانت سوداء كالليل، وجميلة كالخطيئة التي لا يمكن لك أن تتحمل ارتكابها. كانت قد أمضت ست سنوات مع زوج لم يكلّ يوما من ضربها. في أمسية بعد اكتشافها خيانته لها، وقفت بانتظار ليستر ماكول تعيس الحظ الشهير بين أصدقائه بالبتار (ربما لقصر عمر علاقاته الشديد) أعلى السلالم المؤدية إلى الشقة التي تعلو صالون الحلاقة الخاص به. انتظرت حتى خلع نصف معطفه قبل أن تقص خصيتيه الخائنتين لتسقطا على حذائه ذي اللونين الأبيض والأسود، مستخدمة إحدى شفرات الحلاقة خاصته للقيام بذلك. قبل ليلتين من

موعد احتضان سباركي العجوز لها، دعتني إلى زنزانتها لتقول لي إن روح أسلافها الأفارقة قد زارتها في الحلم. وأخبرتها بالتخلص من اسم العبودية الذي تحمله وأن تموت باسم حر هو ماتومي. كان ذلك هو طلبها، أن يتم إصدار شهادة وفاتها باسم بيفيرلي ماتومي. أظن أن روح أسلافها لم تقترح اسما أول أو اسما يعجبها. وعلى كل حال، كان ردي "نعم، حسنا، لا بأس". فإن كانت تلك السنوات في الخدمة قد علمتني أمرا، فهو ألا أرفض أبدا طلبا لمحكوم عليه بالإعدام إلا في حال كنت مجبرا على ذلك بشكل قاطع. وفي حالة بيفيرلي ماتومي، فلم يكن الأمر ليشكل فارقا. وجاء اليوم التالي ليتصل الحاكم حوالى الساعة الثالثة ليستبدل حكم الإعدام بالسجن مدى الحياة في سجن غراسي فالي بينال للنساء، ويمكنني القول إنني سعدت لرؤيتها تتجه يسارا بدلا من اتجاهها يمينا نحو مكتب النماذج.

بعد ذلك بخمس وثلاثين سنة أو نحوها - لا بد من أن تكون خمسا وثلاثين على الأقل - شاهدت ذلك الاسم في صفحة الوفيات في الصحيفة، تحت صورة لسيدة سوداء نحيفة الوجه، تعلو رأسها هالة من الشعر الأبيض، وتضع نظارة مرصعة الزوايا. كانت تلك بيفيرلي. لقد أمضت السنوات العشر الأخيرة من عمرها امرأة حرة كما ذكر في النعي، وأنقذت مكتبة البلدة الصغيرة من الأمطار الغزيرة بمفردها تقريبا. كما قد درست في مدرسة الأحد، وكانت محبوبة جدا في تلك المنطقة الصغيرة المنعزلة. أمينة مكتبة توفيت نتيجة سكتة قلبية كما ذكر في العنوان، وأسفل ذلك بخط أصغر، وكأن الكاتب استدرك نفسه، أكثر من عقدين أمضتهما في السجن لارتكابها جريمة قتل. لم يكن فيها ما ظلّ على حاله باستثناء عينيها المتسعتين الحادتين وراء النظارة. لقد كانتا عيني امرأة لن تتوانى ولو في سن السبعين عن التقاط شفرة من علبتها الزرقاء المعقمة إذا تبدت لها الرغبة ملحة لذلك. يمكنك أن

WWW.REWITY.COM

تعرف القتلة وإن انتهى بهم المطاف كأمناء مكتبات عجائز في بلدات ساكنة. تستطيع ذلك على الأقل إن أمضيت ما أمضيته من وقت أراقب فيه القتلة. كانت هناك مرة واحدة فقط تساءلت فيها عن طبيعة عملي. وأظنني لهذا السبب أخط هذه السطور.

كان الممر الواسع الذي يتوسط العنبر (هـ) مفروشا بمشمع أخضر اللون، ولذلك عرف ما كان يدعى في السجون الأخرى باسم الميل الأخير باسم الميل الأخضر في كولد ماونتن. كان يمتد، في اعتقادي، ستين خطوة واسعة من الشمال إلى الجنوب، أو من الأعلى إلى الأسفل. وفي أسفل الممر، كانت تقع غرفة الحجز، أما في أعلاه، فكان الممر المتقاطع معه أفقيا. في ذلك الممر، كان توجهك يسارا يعني الحياة؛ هذا إذا كنت تستطيع أن تدعو التمارين في لهيب الشمس حياة، وقد فعلها الكثيرون ممن عاشوا لسنوات من دون آثار مرض واضحة. كان اليسار موطن اللصوص، ومفتعلي الحرائق، والمغتصبين ممن يمضون في حديثهم في أثناء تمشية صغيرة يعقدون فيها الاتفاقات.

أما توجهك يمينا فقد كان أمرا مختلفا. فكنت تدخل أولا إلى مكتبي (حيث كانت السجادة خضراء اللون التي فكرت مرارا في تغييرها وإن لم أفعل)، ليواجهك مكتبي الذي يزيّن يساره علم أميركا ويمينه علم الولاية. وفي الطرف البعيد كان هنالك بابان يقودك أحدهما إلى دورة مياه صغيرة أستخدمها وحراس العنبر (هـ) وأحيانا واردن موور أيضا، في حين يفضي الباب الثاني إلى غرفة كالمخزن. هذا ما كان ينتهي به المارّون بالميل الأخضر.

كان الباب صغيرا يضطرني إلى أن أحني رأسي لأمرّ من خلاله، وقد اضطر جون كوفي إلى الجلوس والاندفاع ليمر عبره. وبعد الباب، يمر المرء إلى مساحة صغيرة، ثم ينزل ثلاث درجات إسمنتية إلى أرضية خشبية. كانت غرفة تعيسة من دون تدفئة يعلوها سقف معدني ملحق

بمثيله الذي يمثل سقف العنبر. لقد كان الجو باردا في الشتاء كفاية في تلك الغرفة حتى تستطيع رؤية بخار أنفاسك، وحارا كفاية في الصيف حتى الاختناق. أذكر عند إعدام إيلمر مانفريد في يوليو أو أغسطس في الثلاثينيات أن تسعة شهود أصيبوا بالإغماء.

إلى يسار غرفة التخزين، كانت الحياة مرة أخرى. أدوات (محكمة الإغلاق في خزانات تحيط بها السلاسل والأقفال وكأنها بنادق وليست مجرد مجارف ومعاول)، ومأكولات مجففة، وأكياس من البذور لزراعات الربيع في حدائق السجن، وصناديق من مناديل الحمام الورقية، وحتى أكياس من الكلس لتحديد أرضية لعبتي كرة القاعدة وكرة القدم اللتين كان المحكومون يلعبونهما في ما عرف بالمرعى جاعلين من أمسيات الخريف أمرا يتطلع إليه الكثيرون في كولد ماونتن.

إلى اليمين كان الموت مجددا. كان سباركي العجوز بنفسه راسخا هناك فوق أرضية خشبية في الزاوية الجنوبية الشرقية من غرفة التخزين، بقوائمه البلوطية السمينة، وذراعيه البلوطيتين العريضتين اللتين ارتوتا من عرق خوف الرجال في الدقائق الأخيرة من حياتهم، وغطاء الرأس المعدني الذي غالبا ما كان يتدلى معلقا على ظهر الكرسي. كان يخرج منه سلك يتجه نحو مستديرة في الجدار خلف الكرسي، وإلى أحد الجانبين كانت هناك صفيحة معدنية مطلية بالزنك تجد إذا نظرت إليها دائرة إسفنجية قُصّت لتتلاءم تماما والغطاء المعدني. كنا نغمرها في محلول ملحي قبل عمليات الإعدام لتقوم بتوصيلٍ أفضل للتيار الكهربائي الذي كان يمر عبر السلك، وعبر الإسفنجة، إلى دماغ المحكوم عليه بالإعدام.

WWW.REWITY.COM

2

كانت سنة 1932 سنة جون كوفي. ولا تزال التفاصيل في الصحف، متاحة لأي ممن اهتموا كفاية للبحث عنها؛ ربما شخص أكثر نشاطا بقليل من رجل عجوز جدا يستودع نهاية حياته في مركز جورجيا للمسنين. كان خريفا حارا، ولا أزال أتذكره، حارا جدا في الحقيقة. كان شهر أكتوبر وكأنه أغسطس، وكانت مليندا زوجة واردن في المستشفى في إنديانولا للعلاج. لقد كان الخريف الذي عانيت فيه من أسوأ مرض بولي في حياتي؛ صحيح أنه لم يكن بالسوء الكافي لإبقائي نزيل المستشفى، إلا أنه كان بالنسبة إليّ بالسوء الكافي لدفعي لتمني الموت كلما تبولت. لقد كان خريف ديلاكروا، ذلك الرجل الفرنسي الأصلع ذي الفأر، ذلك الذي حضر في الصيف وقام بتلك الخدعة الظريفة بالخيوط. إلا أن السمة الغالبة لذلك الخريف كانت مجيء جون كوفي إلى العنبر (هـ)، محكوما عليه بالإعدام لاغتصابه وقتله التوأم ديتيريتش.

كان هناك أربعة أو خمسة حراس في العنبر في كل دورية حراسة، ولكن العديد منهم كانوا غير ثابتين في الوظيفة. دين ستانتون، هاري تيروبليجر، وبروتوس هويل (والذي كانوا يدعونه الوحش للمزاح فقط، فهو لم يكن يستطيع إيذاء ذبابة إلا إن اضطر اضطرارا بالرغم من حجمه الهائل). كلهم ماتوا الآن، وكذلك بيرسي ويتمور الذي كان وحشا يحق، ناهيك عن كونه أحمق. لم يكن لبيرسي عمل في العنبر (هـ)، حيث كانت الطبيعة القبيحة بلا فائدة بل وخطرة أحيانا، ولكنه كان قريبا للحاكم بالمصاهرة ولذلك بقي في الوظيفة.

كان بيرسي ويتمور هو من قاد كوفي إلى العنبر صائحا بما يفترض

به أن يكون عبارة تقليدية "رجل ميت يمشي! رجل ميت يمشي!".

كان الجو لا يزال حارا كالجحيم، سواء أكان شهر أكتوبر أم لا. فتح الباب المؤدي إلى ساحة التمرين، ليسمح بدخول دفق من الضوء الباهر ورجل هو أضخم ما رأيت في حياتي باستثناء بعض لاعبي كرة السلة ممن أراهم على شاشة تلفاز غرفة الترفيه لهذا المكان الذي انتهيت إليه مع بعض عشاق هذه اللعبة. كان يضع سلاسل حول ذراعيه تمتد لتحيط بصدره الضخم كالبرميل؛ وكان يضع حلقتين حديديتين حول كاحليه متصلتين ببعضهما بسلسلة تجلجل بصوتها كشلال منهمر من النقود المعدنية على امتداد ارتطامها بالممر الأخضر بين الزنزانات. كان بيرسي ويتمور يقف عند أحد جانبيه، في حين كان الهزيل صغير البنية هاري تيروبليجر يقف عند جانبه الآخر، بدوا كالطفلين يمشيان حول دب أسير حتى بروتوس هويل بدا كطفل مقارنة بكوفي، بالرغم من أن بروتوس كان يبلغ طوله حوالى المترين، وكان عريض البنية بحكم انخراطه في لعب كرة القدم منذ شارك في اللعب مع فريق جامعة لويزيانا حتى أخفق في الفريق وقفل عائدا إلى التلال.

كان جون كوفي أسود كمعظم الرجال ممن أتوا للإقامة في العنبر (هـ) لفترة قبل الموت في أحضان سباركي العجوز، وكان يبلغ طوله المترين. ولم يكن ممشوق القوام كلاعبي كرة السلة الذين أراهم على شاشة التلفاز، بالرغم من أنه كان عريض المنكبين واسع الصدر، بارز العضلات في كل جهة ممكنة. كانوا قد ألبسوه أكبر قياس لزي السجن وجدوه في المخازن، إلا أن نهاية السروال بالكاد تجاوزت ركبتيه لتظل ساقاه الممتلئتان بالخدوش والكدمات ظاهرتين للعيان. كان القميص مفتوحا حتى نهاية صدره، في حين لم يتجاوز الكمّان ساعديه. كان يمسك قبعته الموضوعة على رأسه المكور الأصلع بيده الضخمة، لتبدو كقبعة القرد باستثناء لونها الأزرق عوضا عن الأحمر. كان يبدو وكأنه

WWW.REWITY.COM

يستطيع فك السلاسل المحيطة به بالسهولة التي تستطيع أنت أن تحل بها شريط هدية ما، إلا أن نظرة إلى وجهه كانت تعلمك بأنه لم يكن ليفعلها، لم يكن وجها بليدا بالرغم من أن بيرسي كان يظن ذلك، فلم يمضِ وقت طويل قبل أن ينعته بيرسي بالأحمق. كان لا ينفك ينظر حوله وكأنه يحاول معرفة مكانه، أو حتى معرفة من يكون. كان أول ما تبادر إلى ذهني أنه يبدو كشمشون أسود... ولكن بعد أن حلقت له دليلة رأسه بيدها الغادرة الصغيرة وتركته غارقا في الحزن ولا شيء سواه.

استمر بيرسي في صياحه "رجل ميت يمشي!" جاذبا ذلك الدب بسلاسل ذراعين صنعت للبشر، وكأنه معتقد فعلا أنه يستطيع تحريك كوفي لو قرر الأخير أنه لم يعد يريد الحركة. لم يقل هاري شيئا، ولكنه بدا محرجا. "رجل ميت...!".

"يكفي هذا". صحت بذلك، وأنا داخل ما سيكون زنزانة كوفي، جالسا على سريره. كنت أعلم بالطبع أنه قادم، وكنت هناك لأرحب به وأستلمه، ولكنني لم أدرك للحظة حجمه الحقيقي حتى رأيته. رمقني بيرسي بنظرة تعبر عما نعلمه كلنا عن كونه وغدا (باستثناء ذلك الأحمق الضخم بالطبع الذي لم يكن يعرف سوى اغتصاب الفتيات الصغيرات وقتلهن)، ولكنه لم يقل شيئا.

توقف الثلاثة خارج باب الزنزانة المفتوح. أومأت إلى هاري الذي قال "هل أنت واثق من رغبتك بالتواجد في الداخل هناك معه يا ريس؟". لم أكن معتادا على سماع صوت هاري تيرويليجر عصبيا هكذا؛ لقد كان إلى جانبي أيام الشغب هنا منذ ست أو سبع سنوات ولم يرفّ له جفن، حتى حين انتشرت الشائعات حول حيازة بعض السجناء من مثيري الشغب على الأسلحة؛ ولكنه بدا عصبيا في هذه اللحظة.

من مكاني على السرير وبصوت حاولت ألا يبدو تعيسا بقدر ما شعرت نتيجة لآلام مرضي الذي ذكرته سابقا، ألقيت سؤالي "هل سأواجه

أي مشاكل معك أيها الرجل الكبير؟".

هز كوفي رأسه مرة واحدة نحو اليمين ومثلها نحو اليسار، ثم عاد برأسه إلى الخلف. وما إن التقطتني عيناه حتى التصقتا بي ولم تغادراني مجددا.

كان هاري يحمل ملفا يتضمن النماذج الرسمية الخاصة بكوفي بإحدى يديه. فخاطبته قائلا "أعطه إياه، ضعه بيده". فقدمه هاري إليه، وتناوله ذلك الساذج الضخم وكأنه نائم.

قلت له "والآن مرره إليّ أيها الرجل الضخم"، فمرره كوفي إليّ وصوت سلاسله تتخبط وترن. كان مضطرا إلى إحناء رأسه ليستطيع عبور الزنزانة.

نظرت إليه من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه مرات عدة محاولا التحقق من طوله فعليا. لقد كان الطول المدون صحيحا، فطول الرجل يبلغ المترين. وكان وزنه المدون 100 كيلوغرام، ولكنني أظنه رقما تقديريا فحسب، فلا بد من أن الرجل كان يزن 140 كيلوغراما على الأقل، وتحت خانة الإصابات والعلامات المميزة، كان هناك كلمة واحدة كتبت بحروف كبيرة في الخط المجهد لماغنسون، أمين السجلات العجوز العتيد.

نظرت إلى الأعلى. كان كوفي قد مال جانبا بعض الشيء، واستطعت أن أرى هاري واقفا في الممر أمام زنزانة ديلاكروا؛ كان هو نزيلنا الوحيد في العنبر (هـ) عند وصول كوفي. كان ديل رجلا نحيلا أصلع ذا وجه قلق لمحاسب يعلم أن اختلاساته ستنكشف قريبا. وكان فأره المروّض يربض على كتفه.

كان بيرسي ويتمور منحنيا عند مدخل الزنزانة التي أصبحت زنزانة جون كوفي، وكان قد أخرج هراوته من جرابها المصنوع حسب الطلب ملوحا بها بيده فوق يده الأخرى كرجل يمتلك لعبة يود استخدامها. وفي

WWW.REWITY.COM

لحظة، شعرت أنني لا أطيق وجوده هناك. ربما كانت حرارة الجو هي السبب، وربما كان المرض في جهازي البولي وما ينتج عنه من ألم يجعلني لا أطيق ملابسي هما السبب، أو ربما يكون الأمر علمي أن الولاية قد أرسلت إليّ رجلا أسود يجاور أحمق لإعدامه، أو ربما لأن من الواضح أن بيرسي أراد أن يتسلى به قليلا في البداية. وربما كانت كل تلك الأسباب مجتمعة. بغض النظر عن الأسباب، فقد وجدت نفسي أتجاهل علاقاته السياسية للحظات.

"بيرسي، إنهم ينقلون العيادة".

"بيل دودج مسؤول عن تلك المهمة".

"أعلم ذلك، اذهب لمساعدته".

"ليس هذا عملي. هذا الفارس هو عملي". كان هذا أسلوب بيرسي الساخر في تسمية ضخام الحجم. فقد كان يغتاظ منهم بالرغم من أنه لم يكن هزيلا كهاري تيرويليجر، ولكنه كان قصير القامة. كان من النوع المدعي، ذلك النوع من الرجال ممن يختارون المعارك التي ترجح فيها كفة الميزان لهم، وكان من النوع المهووس بشعره، بالكاد يستطيع إبعاد يديه عنه.

"إذا، لقد انتهى عملك. اذهب إلى العيادة".

لوى شفتيه امتعاضا. كان بيل دودج ورجاله ينقلون الصناديق وحزم الملاءات والأغطية وحتى الأسرة؛ كانت العيادة كلها تنتقل إلى مبنى جديد في الجانب الغربي من السجن. عمل شاق وثقيل الحمل، ولم يكن بيرسي ويتمور يرغب بحصة في أي من ذلك.

"لديهم كل ما يحتاجون إليه من الرجال هناك".

"إذا، اذهب إلى هناك وأشرف عليهم". قلتها بصوت أعلى.

ظننت لوهلة أنه سيعاند وتحدث هناك مشكلة جدية، ومع كوفي الواقف هناك، كان الأمر وكأن الزمن توقف في لحظة من التحدي. ثم

ربت بيرسي على معدته بهراوته الحمقاء، وانصرف عبر الممر. لا أذكر أي حارس كان حاضرا يومها، ولكن كان لا بد من وجود أحد أولئك المناوبين الذين يتغيرون باستمرار، ولا بد من أن بيرسي لم يعجبه منظره لأنه صاح فيه في أثناء خروجه أن "امسح تلك الابتسامة الحمقاء عن وجهك وإلا أزلتها أنا عنه". كانت هناك جلبة مفاتيح، ولفحة شمس ساخنة من ساحة التمارين، ومن ثم اختفى بيرسي ويتمور، لهذه اللحظة على الأقل. أخذ فأر ديلاكروا بالجري بين كتفيه، وشاربه لا ينفك يقفز معه.

"اثبت مكانك سيد جينغلز"، قالها ديلاكرويكس، فتوقف الفأر فورا على كتفه اليسرى وكأنه فهم ما قاله. واستمر ديلاكروا بلكنته الغريبة الهادئة قائلا "اثبت واهدأ".

قلت له "اذهب واستلقِ يا ديل. استرح قليلا، فهذا الأمر ليس من شأنك".

فعل ما طلبته منه. كان قد اغتصب فتاة صغيرة وقتلها، ومن ثم ألقى بجثتها خلف المبنى الذي كانت تقطن فيه، وغطاها بالزيت، وأحرقها آملا أن يخفي جريمته. امتدت النار لتصل المبنى نفسه، فتبتلعه، وتقتل ستة آخرين من سكانه ومن بينهم طفلان. لقد كانت جريمته الوحيدة، ولم يعد الآن سوى رجل لطيف المعشر ذي ملامح قلقة، ورأس أصلع ينتهي بشعر طويل يتدلى على ياقته. كان سيجلس في حضن سباركي العجوز قريبا ليقضي عليه... إلا أن أيا كان الذي قام بذلك العمل الرهيب، فقد اختفى الآن. وهو يستلقي الآن على سريره، سامحا لرفيقه الصغير بالجري بين يديه. بشكل ما، كان ذلك أسوأ ما في الأمر؛ فسباركي العجوز لم يحرق أبدا ما بداخلهم، وحتى العقاقير التي يحقنونهم بها اليوم لا تؤدي بما في داخلهم إلى الهدوء. فلا يهم ينتقل قافزا إلى غيرهم، ليتركنا نقتل أجسادا ليست حية على كل حال.

WWW.REWITY.COM

وجهت انتباهي إلى الضخم.

"لو طلبت من هاري أن يزيل تلك الأصفاد عنك، فهل ستكون مهذبا؟".

أومأ برأسه. كانت كهزة رأس إلى الأعلى، إلى الأسفل، ومن ثم عائدا إلى المركز مكانه. نظرت عيناه الغريبتان إليّ، وكان فيهما نوع من السلام، ولكنه ليس من النوع الذي كنت أستطيع الثقة به. أشرت بإصبعي إلى هاري الذي تقدم وفك السلاسل. لم يظهر خوفا الآن، حتى وهو ينحني بين قدمي كوفي ليحل أصفاد قدميه، الأمر الذي جعلني أشعر ببعض الراحة. لقد كان بيرسي هو من يتسبب بعصبية هاري، وقد كنت أثق بفطرة هاري. كنت أثق بفطرة كل من يشاركونني الدوام يوما بيوم في العنبر (هـ)، باستثناء بيرسي.

كان لديّ خطاب صغير ألقيه أمام الرجال الجدد من نزلاء العنبر، ولكنني ترددت مع كوفي، فقد بدا غير عادي على الإطلاق، وليس في ما يتعلق بحجمه فقط.

حين تراجع هاري (وكان كوفي قد ظل ثابتا كالصنم خلال عملية حل الأصفاد كاملة)، نظرت نحو سجيني الجديد مرتا على ملفه في يدي قائلا "هل يمكنك الكلام أيها الرجل الكبير؟".

"أجل يا سيدي، يا ريس، يمكنني الكلام". كان صوته عميقا ورخيما نوعا ما. حتى إنه ذكرني بصوت محرك جرار جديد. لم يكن لديه لكنة جنوبية حقيقية - فقد قال عبارته بلكنة ثقيلة - لكن لكنته اتسمت ببنية جنوبية لاحظتها لاحقا، وكأنه كان من الجنوب، ولكن غير متأصل فيه. لم يبدُ جاهلا، ولكنه لم يبدُ متعلما أيضا. كان بلكنته كما بأمور أخرى عديدة... غامضا. وكانت عيناه أكثر ما يربكني؛ فقد كان فيهما غياب مسالم وكأنهما تطفوان بعيدا، بعيدا جدا.

"اسمك جون كوفي".

"نعم يا سيدي، يا ريس، كاسم المشروب، ولكن بتهجئة مختلفة".

"إذا، أنت تستطيع التهجئة أليس كذلك؟ أنت تكتب وتقرأ؟".

رد بهدوء "اسمي فقط، يا ريس".

تنهدت، ثم ألقيت عليه نسخة مختصرة عن خطابي المعتاد. كنت قد قررت مسبقا أنه لن يمثل مشكلة. وكنت محقا في ذلك وغير محق في آن معا.

قلت له "اسمي بول إيدجكومب. وأنا مشرف العنبر (هـ). إذا أردت مني شيئا فاطلبني بالاسم. وإن لم أكن هنا، فاطلب هذا الرجل الآخر؛ اسمه هاري تيروليجر. أو اطلب السيد ستانتون أو السيد هويل. هل تفهم ما أقوله؟".

أومأ كوفي برأسه.

"فقط لا تتوقع أن تحصل على ما تريده إلا إن قررنا أنك تحتاج إليه؛ فهذا ليس فندقا. هل تفهمني؟".

أومأ برأسه مجددا.

"هذا مكان هادئ أيها الرجل الكبير؛ ليس كبقية السجن. فلا يوجد سواك أنت وديلاكروا هنا. لن تعمل، فستمضي معظم وقتك جالسا. سيمنحك ذلك بعض الوقت للتفكير". كان الوقت أطول من اللازم لمعظمهم ولكنني لم أذكر ذلك. "أحيانا نشغل المذياع حين لا يكون لدينا عمل نقوم به. هل تحب المذياع؟".

أومأ برأسه بشكل متردد نوعا ما وكأنه لم يكن يعلم ما هو المذياع. واكتشفت لاحقا حقيقة الأمر، فكوفي يعرف الأشياء حين يمر بها مجددا، ولكنه ينساها في ما بين ذلك. كان مثلا يعرف الشخصيات في المسلسل اليومي، ولكنه لم يكن ليذكر أحداث الحلقة الماضية.

"إذا التزمت، فستتناول وجبات طعامك في مواعيدها، ولن تدخل

WWW.REWITY.COM

الحبس الانفرادي في الزنزانة في نهاية الممر، أو تضطر إلى ارتداء قميص الأربطة الذي يثبت يديك وراء ظهرك. وسيكون لديك ساعتان تتنزه خلالهما في الساحة بعد الظهر من الرابعة إلى السادسة، باستثناء أيام السبت حين يكون بقية نزلاء السجن ينظمون مبارياتهم. وسيسمح لك بالزيارات أيام الأحد فترة الظهيرة إن كان لديك من يزورك. هل لديك أحد يزورك كوفي؟".

هز رأسه قائلا "لا أحد يا ريس".

"ماذا عن محاميك؟!".

"لقد شاهدته ينصرف. كان قد ترافع عني بالدَّين. ولا أظنه سيجد طريقه إلى قمم هذه الجبال!".

نظرت إليه عن قرب لأرى إن كان يحاول العبث، ولكنه بدا جادا. ولم أكن حقا أتوقع أي اختلاف. فلم تكن محاكمات الاستئناف لأمثال جون كوفي، حينها على الأقل، تحدث فرقا؛ ففي تلك الأيام كان أمثاله ينساهم العالم حتى ظهورهم مجددا في صحيفة ما تذكر إعدامهم في منتصف الليل. إلا أن رجلا ذا زوجة أو أطفال أو أصدقاء يتطلع إلى لقياهم أيام الآحاد كان شخصا أسهل من حيث السيطرة عليه، لو أن المشكلة كانت في السيطرة. وهي مشكلة لم تبرز في هذه الحالة؛ الأمر الذي يعد جيدا بالنظر إلى حجم هذا الضخم.

ملت قليلا على السرير، ثم قررت أنني قد أشعر براحة أكبر في نصفي السفلي إذا وقفت، ولذلك وقفت. تراجع قليلا باحترام، وشبك يديه أمامه.

"يمكن للوقت الذي ستمضيه هنا أن يكون إما سهلا أو صعبا أيها الضخم، فالأمر بأكمله يعتمد عليك. أنا هنا لأخبرك أيضا أنك قد تسهّل الأمور علينا جميعا لأن الأمر ينتهي بنفس الشكل دائما. سنعاملك كما تستحق. هل لديك أي أسئلة؟".

"هل تتركون النور مضاء فترة النوم؟" ألقى سؤاله فورا وكأنه كان بانتظار هذه الفرصة.

نظرت إليه بدهشة. كنت قد سمعت العديد من الأسئلة الغريبة من القادمين الجدد إلى هذا العنبر، حتى حول مفاتن زوجتي، ولكن، كانت تلك المرة الأولى التي أتلقى فيها سؤالا مماثلا.

كان كوفي يبتسم بتردد، وكأنه يدرك أننا سنظن به الحماقة، إلا أنه واصل "لأنني أشعر ببعض الخوف في العتمة أحيانا، وكأنه مكان غريب".

نظرت إليه - إلى حجمه المهول - وشعرت ببعض الشفقة. يمكن للمرء أن يشعر بالشفقة تجاههم، فلم يكن قد شهدهم في أسوأ لحظاتهم وهم يصبون جحيمهم.

"أجل، إن المكان هنا مضاء نوعا ما طوال الليل. فنصف الأنوار على طول الميل تظل مضاءة من الساعة التاسعة وحتى الخامسة كل صباح". ثم اكتشفت أنه لن يدرك ماهية الميل الأخضر، ولذلك وضحت قولي "في الممر".

أومأ برأسه مرتاحا، وإن شككت في أنه أدرك ما أعنيه بالممر حتى، ولكنه كان على كل حال يستطيع رؤية الأضواء في مكانها.

عندها، قمت بأمر لم أقم به مع أي سجين من قبل؛ مددت له يدي لمصافحتها. وحتى الآن لا أعلم لماذا قمت بذلك. ربما كان سؤاله حول الضوء. سببت حركتي هذه الدهشة لهاري تيروليجر، نظر كوفي إلى يدي بدهشة ممزوجة بالود، لتختفي يدي في يده، وانتهى الأمر. كان لديّ ضحية أخرى للإعدام في عنبري، وانتهى الأمر.

خرجت من الزنزانة. وسحب هاري الباب لإغلاقه، وأحكم إغلاق قفليه العلوي والسفلي. وقف كوفي مكانه للحظة أو اثنتين، وكأنه لم يكن يعلم ما عليه فعله الآن، ثم جلس على سريره، شابكا يديه بين

WWW.REWITY.COM

ركبتيه، وحانيا رأسه كرجل حزين أو مُصَلٍّ. قال شيئا ما بلكنته الغريبة شبه الجنوبية. سمعتها بوضوح تام، وبالرغم من أنني لم أعلم الكثير حول ما قد يقوم به لاحقا - ولا يحتاج المرء حقا إلى معرفة ما يفعله رجل للعيش منتظرا نهايته - إلا أنه ألقى رهبة في قلبي ولا يزال.

قال "لم أستطع مواجهة الأمر يا ريس. لقد حاولت إيقافه ولكن الوقت كان قد تأخر جدا!".

3

قال لي هاري في طريق عودتنا إلى مكتبي "ستواجه بعض المشاكل مع بيرسي". كان دين ستانتون، الرجل الثالث بعدي - وإن لم يكن لدينا مثل تلك المناصب، بالرغم من أن بيرسي ويتمور كان ليضع نصابها في لحظة - جالسا وراء مكتبي يحدّث الملفات، وهي مهمة لم يبدُ أنني سأقوم بها يوما. بالكاد نظر إلينا حين دخولنا، فحرك نظارته قليلا، وعاد لينهمك في عمله الورقي.

"إنني أواجه المشاكل مع ذلك الطاووس منذ حضوره إلى هنا. هل سمعت ما كان يصرخ به حين أحضر ذلك العملاق إلى العنبر؟".

"بالتأكيد فعلت، لقد كنت هناك حينها".

قال دين "كنت في الحمام حينها، وسمعت ما قاله بمنتهى الوضوح"، ثم سحب ورقة من أمامه وأمسكها بمواجهة الضوء، فاستطعت أن أرى أثر دائرة فنجان القهوة عليها بالإضافة إلى بعض الكلام المطبوع، ثم ألقاها في سلة المهملات. "رجل ميت يمشي"، لا بد من أنه قرأ تلك العبارة في إحدى تلك المجلات التي يحب قراءتها!".

لقد كان ذلك مصدر العبارة على الأغلب. فقد كان بيرسي ويتمور قارئا جيدا للمجلات الهزلية ومجلات المغامرات. كانت هناك قصة حول السجن في كل عدد على ما يبدو، وكان بيرسي يقرأها بشغف كرجل يقوم ببحث ما. كان الأمر وكأنه يحاول معرفة كيفية التصرف، وكان يظن أن المعلومات متوافرة في تلك المجلات. جاءنا بيرسي بعد إعدامنا أنتوني راي القاتل بالفأس، ولم يكن قد شارك في عملية إعدام بعد بالرغم من أنه شهد واحدة من غرفة التحكّم.

WWW.REWITY.COM

قال هاري "إنه يعرف أشخاصا، وصِلاته واسعة. سيكون عليك مواجهة محاسبة بشأن إرساله خارج العنبر، وسيكون بانتظارك حساب أشد لتوقعك قيامه ببعض الأعمال الحقيقية".

"لا أتوقع ذلك". ولم أكن أتوقع ذلك، ولكنني كنت آمل حصوله. فلم يكن بيل دودج من النوع الذي يقف مشرفا ليتابع الأمر من موقع سلطة. "إنني أكثر اهتماما برجلنا الكبير، هل تظنونه سيكون مصدرا للمشاكل؟".

هز هاري رأسه برد واضح.

قال دين "كان وديعا كالحمل في المحكمة في مقاطعة ترابينغاوس". رفع نظارته، وبدأ بتنظيفها. "كانوا بالطبع يكبلونه بسلاسل كثيرة، ولكنه كان ليركل ديكنز لو أراد. بقصد التورية طبعا".

"أعلم"، كنت أكره السماح لدين ستانتون بالتفوق عليّ.

قال دين "إنه ضخم بالفعل أليس كذلك؟".

"بلى، ضخامة وحشية".

"قد يكون علينا أن نرفع شحنة سباركي العجوز إلى أقصاها قبل أن تؤثر فيه!".

"لا تقلق على سباركي العجوز. فهو الأقدر على جعل أضخم الأمور أصغرها".

دلّك دين طرفي أنفه حيث الاحمرار الغاضب من أثر وضع النظارة وأومأ موافقا "صحيح، لا أجادلك في ذلك".

"هل يعلم أحدكما من أين أتى قبل أن يظهر في... تيفتون؟ كانت تيفتون أليس كذلك؟".

"أجل"، قال دين. "تيفتون في مقاطعة ترابينغاوس. لا يبدو أن أحدا يعلم من أين أتى قبل أن يظهر هناك ويفعل فعلته. أظنه كان يتنقل، فحسب. قد تجد المزيد حول الأمر في الصحف في مكتبة السجن،

إذا كنت مهتما بالفعل. فهم على الأغلب لن ينقلوا تلك الصحف قبل الأسبوع القادم. وقد يكون عليك أن تستمع إلى صديقك الصغير يشكو وينوح في الأعلى بالرغم من ذلك".

"قد أذهب، وألقي نظرة على كل حال". قلتها وقمت بها فعلا تلك الظهيرة.

كانت مكتبة السجن خلف المبنى الذي كان سيصبح محل السجن للعابرين؛ على الأقل، كان ذلك هو المخطط. كان المال الحكومي الفائض عن الحاجة في جيب أحدهم كما ظننت، ولكن الانزعاج كان طاغيا، فاحتفظت بأفكاري لنفسي؛ كما كان ينبغي أن أبقي فمي مغلقا بخصوص بيرسي، ولكن يمكن للمرء أحيانا ألا يتحمل الصمت. يمكن للسان المرء أن يقحمه في مشاكل أكثر مما يمكن لشهوته أن تفعل معظم الوقت. لم يقم ذلك المحل أبدا على كل حال؛ ففي الربيع التالي، انتقل السجن ستين ميلا في نهاية الطريق إلى برايتون. كان هناك المزيد من الغرف الخلفية، والمزيد من فرص العمل المتاحة. لم يكن الأمر بلا شيء بالنسبة إليّ.

انتقلت الإدارة إلى مبنى جديد في الجانب الشرقي من الساحة، وكانت العيادة قيد النقل (لم يكن أحد يعلم أي نايغة كانت فكرته هي نقل العيادة إلى الطابق الثاني في الأساس)؛ وكانت المكتبة لا تزال معدة جزئيا للنقل - وإن لم تكن أبدا ممتلئة لهذه الدرجة - وشبه فارغة. كان المبنى القديم كصندوق مغلف حار كالمعلق بين العنبرين (أ) و(ب). وكانت الحمامات أعلاه تسبب غرق المبنى الدائم في رائحة قبيحة نفاذة كانت تمثل سببا كافيا للانتقال منه. وكانت المكتبة تقع في زاوية لا تتجاوز مساحتها مساحة مكتبي بكثير. بحثت عن مروحة، فلم أجد واحدة. لا بد من أن درجة الحرارة كانت تبلغ المئة هنا، وكنت أستطيع الشعور بذلك النبض الحار في ثناياي حين جلست؛ وكأنها حرارة ضرس

WWW.REWITY.COM

مصاب. أعلم أن الأمر يبدو سخيفا عند التفكير في الإقليم الذي نحن بصدد الحديث عنه هنا، ولكنه التشبيه الوحيد الذي أمكنني المقارنة به. وأصبح الأمر أسوأ بكثير بعد تبولي قبل المشي.

كان هناك شخص آخر؛ أمين سجل أعجف اسمه غيبونز يغالب النعاس في الزاوية مع رواية حول الغرب الوحشي في حضنه وقبعته تغطي نصف عينيه. لم تكن الحرارة تزعجه أو حتى أصوات النخير والأصوات المكتومة وحتى اللعنات التي تصب من العيادة في الأعلى (حيث كانت الحرارة أعلى بعشر درجات على الأقل، وكنت أتمنى أن يكون بيرسي ويتمور مستمتعا بها). لم أزعجه أنا أيضا، ولكنني توجهت إلى الطرف الأقصر من زاوية المكتبة حيث كنا نحتفظ بالجرائد. كنت بالرغم مما قاله دين أظن أن الجرائد قد نقلت كالمراوح، ولكنها كانت لا تزال مكانها، وكان من السهل العثور على موضوع التوأم ديتيريتش؛ فقد كانت من أخبار الصفحة الأولى منذ حصول الجريمة في شهر يونيو وحتى المحاكمة في أواخر أغسطس وبداية سبتمبر.

في وقت قصير، نسيت الحرارة، والأصوات في الأعلى، وشخير غيبونز العجوز. فقد كان من الصعب، بل من المستحيل، تجاهل التفكير في الفتاتين بشعرهما الأصفر وسنواتهما التسع وابتسامتيهما المرتبطتين بسواد كوفي الهائل. ومع أخذ حجمه في الاعتبار، كان من السهل تصوره يأكلهما حتى كغول في قصة جنيات. بل إن ما فعله كان أسوأ من ذلك حتى، وقد كان محظوظا كفاية ألا يعدم من دون محاكمة على ضفة النهر هناك. هذا إذا ما كان المرء ليعتبر انتظار المشي على الميل الأخضر والجلوس في أحضان سباركي العجوز حظا.

4

لم يعد القطن ملكا متوجا في الجنوب حتى من قبل أن تقع تلك الأحداث بسبعين سنة، ومن المحال أن يعود ملكا من جديد، إلا أن سنوات الثلاثينيات شهدت بوادر صحوة لذلك الأمل. ومع اندثار كل تلك المساحات الشاسعة المزروعة قطنا، إلا أن هناك أربعين أو خمسين مزرعة قطن هي التي بقيَت مزدهرة في ذلك الجزء الجنوبي من ولايتنا. امتلك كلاوس ديتيريتش إحداها. قد يُعدّ - بمعايير الخمسينيات - واحدا من الأناس الذين بالكاد نجوا من براثن الفقر، ولكن الناس في تلك الثلاثينيات عدّوه من بين أثرياء القوم لأنه استطاع دفع إيجار مخزنه الشهري نقدا عند نهاية أغلب الشهور، ولم يكن لديه ما يخجل منه أمام رئيس المصرف إن حدث والتقاه في الشارع. كان منزله في المزرعة نظيفا رحبا. وبالإضافة إلى القطن، كان هناك الدجاج وبضع أبقار. وكان لديه وزوجته ثلاثة أولاد؛ هاوارد، الذي كان في الثانية عشرة من عمره أو يناهز ذلك، والبنتان التوأم... كورا وكائي.

في ليلة دافئة من ليالي يونيو في تلك السنة، وافقا على طلب البنتين أن تناما في السقيفة الجانبية التي يحميها ستار، كانتا تجدان متعة عظيمة في هذا. وقبل التاسعة بقليل، ومع تبدد آخر ضوء في السماء، قبلتهما أمهما وتمنت لهما ليلة هانئة. وكانت هذه آخر مرة تراهما فيها على قيد الحياة، فلم ترهما بعدها إلا داخل تابوتين، قبل أن يواريهما الحانوتي الثرى.

كانت العائلات الريفية تأوي إلى فراشها في وقت مبكر في تلك الأيام أو "ما إن يحل الظلام" كما كانت أمي تقول لي قبل أن تستسلم

WWW.REWITY.COM

بدورها لسلطان النوم. ومن المؤكد أن كلاوس، وميرجوري، وهواي ديتيريتش قد ناموا في الليلة التي اختفت فيها البنتان. ومن المؤكد أن كلاوس كان ليستيقظ على صوت نباح باوزر، كلب العائلة الكبير نصف الهجين، إذا ما نبح، ولكن باوزر لم ينبح. ليس في تلك الليلة... بل لم ينبح مجددا أبدا.

استفاق كلاوس عند الفجر ليحلب الأبقار. كانت السقيفة بجانب البيت بعيدة عن الحظيرة، ولم يخطر ببال كلاوس أن يلقي نظرة على البنتين. كما لم يجد في عدم مرافقة باوزر له ما يدعو للقلق. فقد كان ذلك الكلب يأنف أن يكون في مكان واحد مع الأبقار والدجاج، وعادة ما يختبئ في بيته الصغير وراء الحظيرة في أثناء القيام بعادات الصباح الرتيبة هذه، ما لم يناده... وما لم يجد في ذلك النداء ما يبعث على النشاط، وعندها يهرع إليه.

نزلت ميرجوري بعد أن خلع زوجها حذاءه الثقيل داخل غرفة الأحذية وخرج من الحظيرة. بدأت بإعداد القهوة، ثم وضعت اللحم في المقلاة. اجتذبت تلك الروائح المتمازجة الشهية هواي من غرفته القابعة تحت الإفريز، ولكنها لم تجتذب البنتين من السقيفة. فأرسلت هواي إلى الخارج ليناديهما بينما تكسر البيض على دهن اللحم. وكان كلاوس ينوي إرسال البنتين لجمع البيض الطازج حالما تنتهيان من فطورهما. إلا أن أحدا من آل ديتيريتش لم يتناول فطوره ذلك الصباح. فقد عاد هواي من السقيفة وقد شحب وجهه واتسعت عيناه بشدة... وقد تبدد عنه أي أثر للنعاس.

قال لهما "لقد ذهبتا".

فهرعت ميرجوري إلى السقيفة بكل انزعاج الدنيا. قالت في ما بعد إنها كانت تعتقد - هذا إن كان لعقلها أن يعتقد أي شيء في تلك اللحظات - أن البنتين قررتا التريض والتقاط الأزهار مع تباشير الصباح.

هذا أو أي شيء غبي آخر مما يخطر بعقول البنات أن يفعلنه... وما هي إلا نظرة واحدة حتى فهمت سبب شحوب وجه هواي.

صرخت تنادي كلاوس... صرخت بكل قوتها، فهرع كلاوس إليها، وحذاؤه عالي الساق الذي ينتعله في الحظيرة أصبح أبيض اللون من أثر انسكاب نصف ما يحويه دلو الحليب عليه. كان ما وجده عند السقيفة كفيلا بأن يشل ساقي أشجع أب في هذا العالم. كانت الملاءات التي يفترض أن تتدثر فيها البنتان مع برودة أواخر الليل منحاة جانبا عند أحد الأركان. وكان الباب السلكي مسحوبا من مفصلته العليا وبالكاد معلقا نحو الفناء. وعلى ألواح كل من السقيفة والعتبات وراء الباب السلكي المخرب، كانت هناك... بقع من الدم.

استجدت ميرجوري زوجها ألا يذهب بحثا عن بنتيه وحده، وألا يصطحب ابنهما إن شعر أن عليه الذهاب وراءهما، لكنها لم تجد منه أذنا صاغية. فقد تناول بندقيته التي كان يحتفظ بها على رفّ عالٍ داخل غرفة الأحذية بعيدا عن أيدي الصغار، وأعطى هواي المسدس عيار 22 ملم الذي كانا يحتفظان به كهدية له في ذكرى ميلاده في يوليو، ثم ذهبا؛ ومن دون أن يعيرا أي انتباه إلى تلك المرأة التي تصرخ وتبكي وهي تريد أن تعرف ما سيفعلانه لو التقيا عصابة من الأفاقين أو مجموعة من الزنوج الأشرار الذين هربوا من مزرعة المقاطعة في لادوك. في هذا أعتقد أن الرجالين كانا على حق، كما تعلم. فالدم لم يعد سائلا، ومع هذا فهو أقرب إلى اللون الأحمر من ذلك اللون الداكن المميز للدم الجاف. إذا، لم يحدث الاختطاف منذ وقت طويل. فلا بد من أن كلاوس كان عنده أمل في العثور على بنتيه، وكان عازما على أن يفعل.

لا أحد منهما يجيد اقتفاء الأثر... فقد اعتادا جمع الأشياء، لا صيدها، مثلهم مثل الرجال الذين يدخلون الغابة بحثا عن الراكون والأيل في مواسمها وليس لأنهم يهوون صيدها، ولكن لأنه أمر بديهي

WWW.REWITY.COM

يتوجب عليهم القيام به. كان الفناء حول المنزل بقعة تالفة من الأوساخ تشقها مسارات أقدام غير منتظمة. بحثا حول الحظيرة، وعندها تبين لهما سبب عدم نباح باوزر؛ والذي لا يجيد شيئا كإجادته للنباح. فقد رقد لا يظهر سوى نصف جسده خارج بيته الذي بني له من بقايا ألواح الحظيرة (كانت هناك لافتة تحمل اسم باوزر مطبوعا بعناية على الفتحة المقوسة لمدخل بيته؛ هكذا رأيت الصورة في إحدى الصحف)، كان رأسه معقوصا حول رقبته. وهو أمر يتطلب قوة هائلة من أي إنسان يريد أن يفعل ذلك مع مثل هذا الحيوان كبير الحجم، وهذا ما أدلى به الادعاء لهيئة محلفي قضية جون كوفي لاحقا... وبعد ذلك، أخذ ينظر مليا نظرة ذات مغزى إلى المتهم ضخم الجثة، والذي يجلس وراء طاولة الدفاع بنظرات منكسرة، مرتديا زي عمال جديد أعطته إياه الولاية، فبدا وكأنه دليل إدانة جديد... وجد كلاوس وهواي بجانب الكلب بقايا لحم سجق مطبوخ. تبدو النظرية الآن وجيهة، فليس لديّ ذرة شك في أن كوفي قد أغرى الكلب أولا، وبعدها، وبينما بدأ باوزر بالتهام آخر قطعة، مد يديه وكسر رقبته بطقة هائلة بين رسغيه.

وراء الحظيرة، يقع مرعى ديتيريتش الشمالي، حيث لن ترعى الأبقار اليوم. كان مبللا بندى الصباح. سارا عبره ليريا مسارا قطريا نحو الشمال الغربي واضحا كضوء النهار، كان مسارا ينم عن أن رجلا قد مر من هنا.

وحتى مع ما هو عليه من هستيريا، فإن كلاوس ديتيريتش تردد بادئ الأمر في أن يتبع هذا المسار. لم يكن خوفا من الرجل أو الرجال الذين أخذوا بنتيه؛ بل كان خوفا من أن يكون هو المسار الذي أتى منه المختطف وليس الذي ذهب خلاله... ما عنى الذهاب في الاتجاه غير الصحيح في وقت يحتاج فيه إلى كل ثانية.

حل هواي تلك المعضلة بأن سحب قصاصة قماش قطنية صفراء

من وسط أجمة تنمو عند حافة الفناء. عُرِضت على كلاوس نفس هذه القصاصة حين جلس على مقعد الشهادة، وبدأ يبكي بينما أدلى بأقواله إن هذه القطعة كانت جزءا من ثياب نوم ابنته كاثي. وعلى بعد عشرين ياردة، معلقة على شجيرة عرعر، وجدا قطعة قماش خضراء باهتة كانت في الأصل جزءا من ثياب نوم كورا التي كانت ترتديها حين قبّلت أمها قبل أن تخلد إلى النوم.

ركض الأب وابنه مُشهِرَين سلاحيهما، كما يفعل الجنود عند عبور أرض المعركة تحت وابل من النيران. وإن كان لي أن أتعجب من أي شيء حدث ذلك اليوم، فإنني أتعجب من ذلك الصبي، وهو يركض بكل عزم خلف أبيه (وهو يفكر في كل لحظة في أنه قد يفشل في اللحاق به)، فهو لم يسقط أبدا فتنطلق رصاصة لتستقر في ظهر كلاوس ديتيريتش.

كان جيرانهم يرون في ذلك المنزل الريفي إشارة تنم عن أن آل ديتيريتش ينجحون، نسبيا على الأقل، في أوقات كارثية. وهرعت ميرجوري إلى السنترال لتهاتف أكبر عدد تعرفه من الجيران الذين تجمهروا حولها وهي تخبرهم عن الكارثة التي حلت بهم كومضة برق خاطفة هوت على غير توقع من سماء صافية، كانت تعرف أن كل مكالمة ستتلوها مكالمات أخرى، وكأنها حجر يخترق بقوة سطح بركة مياه ساكنة. ثم رفعت سماعة الهاتف للمرة الأخيرة، ونطقت بتلك الكلمات التي كانت تقريبا علامة مسجلة للمكالمات الهاتفية التي كانت وليدة ذلك الوقت، في الجنوب الريفي على الأقل "هالو، السنترال، هل أنت على الخط؟".

بالفعل كانت عاملة السنترال على الخط، ولكنها وللحظة لم تتفوه بشيء، فهذه المرأة مستثارة. ولكنها استطاعت أخيرا أن تقول، "نعم، سيدتي. السيدة ديتيريتش، أنا على الخط، أدعو من الله الآن أن تكون

WWW.REWITY.COM

ابتاك الصغيرتان بخير -!".

قاطعتها ميرجوري قائلة "نعم، شكرا لكِ... ولكن أرجو أن تؤجلي هذا حتى توصليني بمكتب مدير الشرطة في تيفتون، هلا فعلت؟".

كان مدير شرطة مقاطعة ترابينغاوس عجوزا أحمر الأنف، ضخم الكرش، يعلو رأسه شعر أبيض خفيف حتى إنه يبدو كزغب أنبوب التنظيف. كنت أعرفه جيدا؛ فقد صعد إلى كولد ماونتن في كثير من الأوقات لتوديع من كان يسميهم "أولاده". إن شهود تنفيذ الإعدام يجلسون على نفس الكرسي المطوي الذي ربما جلست أنت نفسك عليه مرة أو مرتين، في جنازة أو في عشاء دار العبادة (وفي الحقيقة، كنا قد استعرناه من المزرعة رقم 44 في تلك الأيام)، وفي كل مرة يجلس فيها الشريف مدير شرطة هومير كريباس إلى واحد منها، أنتظر سماع ذلك الصوت الجاف الذي يخبر بتهاوي ذلك الكرسي. كانت مشاعر الرغبة والرهبة من حدوث ذلك تعتريني في نفس اللحظة، لكنه أمر لم يحدث أبدا. ولم يمر وقت طويل - ليس أكثر من صيف واحد بعد اختطاف ابنتي ديتيريتش - قبل أن يصاب بنوبة قلبية وهو في مكتبه، حدث هذا على ما يبدو بينما كان يقيم علاقة مع فتاة زنجية في السابعة عشرة تدعى دافني شيرتليف. كان هناك الكثير من الكلام حول ذلك الحادث، وهو الذي كان لا يفارق زوجته وأولاده الستة في أي مكان وقت الانتخابات في أيام كان الشعار القائم - إذا ما كنت ترشح نفسك لأي منصب - هو "كن معمدانيا أو لن تكون شيئا". لكن الناس يحبون النفاق، فهم يرون في مثل هذه الأشياء أنفسهم، ويشعرون بابتهاج كبير عندما يمسكون بشخص مفضوح وخاصة لو كانت الفضيحة جنسية، خاصة... حين لا يكون أي منهم طرفا في فضيحة كهذه.

إضافة إلى كونه منافقا، فقد كان عاجزا، من النوع الذي يفضل الصيت على الغنى، يدير المنطقة الجنوبية الشرقية عبر التلال المشجرة

المنخفضة حيث لا تزال عائلات اسمها كراي وروبينيت ودبليسي تصنع آلات الماندولين الخاصة بهم ويبصقون في أغلب الأحيان أسنانهم المتعفنة وهم يحرثون الأرض؛ ريف عميق حيث يتعامل الرجال مع الأفاعي في صباح الأحد ثم يضطجعون في عناق جسدي مع بناتهم في الليلة نفسها. عرفت أفراد عائلاتهم؛ كان معظمهم يرسلون وجبة طعام إلى سباركي من وقت إلى آخر. على الجانب البعيد للنهر، يمكن لأعضاء الجماعة أن يروا شمس يونيو بأشعتها اللامعة تلتمع على القضبان الفولاذية للفرع الجنوبي من سكة الحديد الكبرى. لحوالى ميل مع امتداد النهر عن يمينهم، مجتازا الحقول الغربية.

هنا، وجدا رقعة عريضة في العشب والشجيرات الصغيرة تظهر أن أحدهم قد مر من هنا... رقعة دامية جدا لدرجة أن الرجلين تراجعا في فزع نحو الغابة ليفرغا ما في معدتيهما من إفطار بعدما اعتراهما من غثيان. فقد وجدا بقية ثياب نوم كورا ملقاة في هذه الرقعة الدامية، أما سواي، الذي كان رابط الجأش حتى ذلك الحين، فقد انحنى نحو أبيه وهو يكاد يغيب عن الوعي.

هنا خاضت كلاب بوب مارشانت خلافها الأول والوحيد في ذلك اليوم. كانت ستة إجمالا، كان هناك كلبان بوليسيان، وكلبا مطاردة، وكلبان من تلك الكلاب الشبيهة بكلاب الصيد الصغيرة النشيطة والتي يقتنيها الجنوبيون لصيد الراكون. كان هذان الأخيران يريدان الاتجاه إلى المنطقة الشمالية الغربية، ضد التيار وعلى امتداد الترابينغاوس؛ أما البقية فكانت تريد أن تسلك الاتجاه الآخر، نحو المنطقة الجنوبية الشرقية. فتشابكت الأدلّة، وبالرغم من أن الصحف لم تورد شيئا عن هذا الجزء، إلا أنه في وسعي أن أتخيل السباب الفظيع الذي انهال به بوبو عليها بينما يستعمل يديه - وهما بالتأكيد الجزء الأكثر استخداما في جسده - قبل أن يسيطر عليها ثانية. لقد عرفت بضعة من مدربي كلاب الصيد في

WWW.REWITY.COM

زمني، وعلمتني التجربة أنهم سرعان ما يتطبعون بطباعها.

نجح بوبو في السيطرة عليها وإبقائها كمجموعة واحدة محكما زمامها، ثم جعلها تشم بقايا ثياب نوم كورا ديتيريتش الممزقة، وكأنه يذكرها بالمهمة التي خرجت من أجلها في هذا النهار الذي وصلت فيه درجة الحرارة إلى منتصف التسعينات فهرنهايت مع حلول الظهيرة. أخذ كلبا الصيد الصغيران يشتمّانها مرة أخرى، قبل أن يقررا المضي قدما مع بقية الكلاب الأربعة وفي نفس المسار... في اتجاه تيار النهر.

ما هي إلا عشر دقائق حتى توقف الرجال، وهم يدركون أنهم يسمعون أصواتا أخرى غير نباح الكلاب. كان عواء وليس نباحا، كان صوتا لا يمكن لكلب أن يحدثه، حتى ولو كان يحتضر. كان صوتا لم يسمعه أحد منهم من قبل في حياته، لكنهم ميزوه من فورهم، جميعهم... إنه عويل رجل. هكذا قالوا، وهكذا صدقتهم. وأعتقد أنني كنت لأميزه بدوري. فقد سمعت رجالا يصرخون بنفس الطريقة، على ما أعتقد، وهم في طريقهم إلى الكرسي الكهربائي. هم ليسوا بالعدد الكبير - فأغلبهم يذهبون رابطي الجأش إما ساكتين أو ممازحين، وكأنهم في نزهة. أما أولئك الصارخون فهم في العادة ممّن يعتقدون بوجود الجحيم، ويعرفون أنه ينتظرهم في نهاية ذلك الميل الأخضر.

أحكم بوبو زمامه على كلابه مجددا. فقد كانت ثمينة، وهو لا ينوي أن يضيعها بسبب هذا العويل وثرثرة ذلك المهووس مضطرب العقل هناك في الأسفل. أعاد الرجال الآخرون حشوَ أسلحتهم بالذخيرة. فقد أصابهم ذلك العويل بالخوف، وتصبب العرق البارد تحت أذرعتهم وعبر ظهورهم وكأنه الثلج. عندما يصل الرجال إلى حالة كهذه، فإنهم يحتاجون إلى زعيم إن أرادوا تكملة المسيرة، وهكذا قادهم النائب ماكجي، خرج أمامهم، ومشى بسرعة (مع أنني أراهن على أنه لم يكن يشعر بنفسه حينئذ) حتى مجموعة من شجر الألدر عند الطرف الأيمن

من الغابة، بينما تبعه البقية بخطوات متسارعة بسبب المنحدر وهم وراءه بخمس خطوات. توقف مرة واحدة فقط، حتى يشير إلى الرجل الأضخم جثة بينهم - سام هوليس - كي يبقى جوار كلاوس ديتيريتش.

على الجانب الآخر للألدر، كانت هناك أرض منبسطة وأشد رحابة، تمتد إلى الغابة على اليمين. أما على اليسار فكان هناك منحدر طويل حتى ضفة النهر. توقفوا جميعا حيث كانوا... مصعوقين. وأعتقد أنهم كانوا على استعداد لفعل أي شيء حتى يتفادوا رؤية ما كان أمامهم الآن، ولن ينسى أحد منهم ما رآه؛ كان أقرب إلى كابوس، أشد ما يكون وضوحا تحت هذه الشمس، ذلك الذي يقبع وراء ستائر وأثاث كل إنسان عادي منهم... يرتاد دار العبادة ويحيا حياة عادية ويمشي على طول تلك الدروب الريفية، ويعمل بصدق، ويمارس الحب في الفراش الزوجي. هناك جمجمة في كل إنسان، وأنا أقول لك بأن هناك جمجمة في حياة كل إنسان. لقد رأوها ذلك اليوم، أولئك الرجال؛ لقد رأوا ذلك الذي أحيانا ما يبتسم ابتسامة عريضة وراء شبح ابتسامة.

ها هو ذا... يجلس عند ضفة النهر - مرتديا زيَّ عامل باهتا ملطخا بالدم - أضخم رجل رآه أي منهم في حياته؛ جون كوفي. كانت قدماه هائلتا الحجم مفلطحتا الأصابع حافيتين. غطى رأسه بمنديل أحمر باهت اللون، بنفس الطريقة التي تغطي بها أي امرأة رأسها قبل أن تذهب إلى دار العبادة. يحيط به البعوض وكأنه غيمة سوداء. على كل ذراع جثة بنت عارية. شعرهما الأشقر، الذي كان ذات يوم مجعدا وخفيفا كأنه الزغب، يلتصق الآن برأسيهما مخضبا بالدماء. والرجل الذي يحملهما يصرخ نحو السماء في خوار وكأنه عجل معتوه، ووجنتاه السمراوان الداكنتان تبللهما الدموع، ووجهه متشنج في أسى بشع، كان يزفر أنفاسه بقوة، وصدره يرتفع وينخفض بعنف حتى إن حمالتي ردائه تكابدان للسيطرة عليه. أنت تقرأ في الصحف وفي أغلب الأحيان مقولة "...

WWW.REWITY.COM

ولـم يبـدِ القاتـل أي نـدم..."، لكنهـا لا تنطبـق علـى تلك الحالة هنا. فقد كان النـدم يعتصـر جـون كوفـي علـى ما اقترفـه... لكنه لن يموت كمدا. أما البتان... فلا. فقد مزق جسديهما تمزيقا.

لا أحد منهم يدري كم مر عليه من وقت وهو متسمر في مكانه، فجميعهم كانوا ينظرون إلى هذا الرجل العاوي والذي كان بدوره، وعبر صفحة النهر العريضة الساكنة، ينظر نحو قطار يمر على الجانب الآخر، مارّا عبر مساره نحو الجسر الذي يعبر النهر. بدا أنهم بقوا ينظرون لساعة أو لدهر كامل، ومع هذا فقد بدا وكأن القطار نفسه لم يبتعد، بدا وكأنه يسير في مكانه، وبدا أن الشمس لم تختفِ وراء غيمة، وأن بصرهم لم يخدعهـم. فهـا هـو ذا أمامهـم، حقيقيـا كعضـة كلب. كان جسـد الرجل الأسود يهتز ذات اليمين وذات اليسار؛ ومعه تهتز جثتا كورا وكائي مثل دمـى بيـن ذراعـي عمـلاق. العضلات الملطخة بالـدم في ذراعي الرجل الضخمتيـن العاريتيـن تتقلـص وترتخـي... تتقلـص وترتخـي... تتقلص وترتخي.

كان كلاوس ديتيريتـش هـو مـن كسـر هـذه اللوحة الصامتة. حينما ألقـى بنفسـه وهـو يصـرخ نحو ذلك الوحش الـذي اغتصب وقتل ابنتيه. عـرف سـام هوليـس عملـه وحـاول أن يطبقه، لكنـه عجز عن ذلك. كان أطول بست بوصات من كلاوس ويزن أكثر منه بسبعين رطلا على الأقل، لكـن كلاوس نجـح فـي أن يزيـح ذراعيـه اللتيـن أحاطتـا به. طار جسـد كلاوس عبر الأرض الفاصلة، وانطلق يسدد ركلة إلى رأس كوفي. كان حذاؤه الثقيل الذي تكتل الحليب المسكوب عليه وداخله والذي استحال رائبا في ظل هذه الحرارة، ليصيب صدغ كوفي الأيسـر بضربة مباشـرة، لكن كوفي بدا وكأنه لم يشـعر بأي شـيء. بل بقي جالسـا هناك، جاثيا وجسده يهتز، بينما يحدق عبر النهر؛ أتخيله صورة وسط صور الاحتفال بالحصاد، ذلك التابع المخلص وهو ينظر نحو أرض غوشين... إن لم

يكن ينظر إلى الجثتين.

تطلـب الأمـر جهـود أربعـة رجـال لسـحب هذا المـزارع المفجوع بعيدا عن جون كوفي، وكان قد سدد إلى كوفي عددا كبيرا من الركلات واللكمات قبل أن ينجحوا في إبعاده أخيرا. لم يبدُ أن كوفي كان يلقي بالا لأي مما يحدث له أو حوله؛ بل استمر فقط في التحديق إلى النهر وهو يترنح. أما بالنسبة إلى ديتيريتش، فقد صار ساكنا كما لو أنه أصيب بمس من تيار كهربائي يمر عبر هذا الرجل الأسود ضخم الجثة (اعتدت أن أفكر عبر مجازات واستعارات كهربائية؛ وعليك أن تعذرني)، وعندما انقطع الاتصال أخيرا بين ديتيريتش وذلك المصدر الكهربائي، رقد الرجل هزيلا بلا حراك وكأنه سقط من فوق سلك حي. جثا مباعدا بين ساقيه عند ضفة النهر ويداه على وجهه، ينشج. لحق به هواي ليعانقا بعضهما وقد أسند كل منهما جبهته إلى جبهة الآخر.

راقبهما رجلان بينما شكل البقية حلقة حول الرجل الذي لم يتوقف عن النواح وهم يشـهرون أسـلحتهم. لا يزال يبدو غير مدرك لأي ممن هـم حولـه عـداه. تقـدم ماكجـي، وهو ينقل قدميه في حيرة، قبل أن يقرر أن يجلس.

قـال بهـدوء "يـا سـيد"، فسـكت كوفـي من فـوره. نظر ماكجي إلى عينين محتقنتين من البكاء. ولا تزال دموعهما تجري، كما لو أن أحدهم قد نسي صنبورا مفتوحا في الداخل. هاتان العينان بكتا، ومع هذا فهما وحتى الآن غير متأثرتين بشـيء... تبدوان محايدتين وهادئتين. ظننتهما أغرب عينين رأيتهما في حياتي، وشعر ماكجي تقريبا بنفس الشيء. "كانتا كعيني حيوان لم ير بشريا من قبل قط"، هكذا وصف الموقف لصحفي اسمه هامر سميث قبيل انعقاد المحاكمة.

سأله ماكجي "يا سيد، هل تسمعني؟".

ببـطء... أومـأ كوفـي برأسـه. وهـو لا يـزال يطـوّق ذراعيـه حـول

WWW.REWITY.COM

ضحيتيه، كان ذقنا الفتاتين على صدريهما لذا، فلم يكن من السهل تبين وجهيهما بوضوح، وكانت هذه رحمة من الله.

"هل لك اسم؟".

"جون كوفي"، قالها بنبرة متحشرجة يغلفها البكاء، "نفس اسم الشراب، إلا أن التهجئة مختلفة".

أومأ ماكجي برأسه، ثم أشار بإبهامه نحو جيب رداء كوفي المنتفخ. بدا لماكجي أنه من الممكن أن يكون ما بداخله مسدسا؛ وهذا لا يعني أن رجلا بحجم كوفي يحتاج إلى مسدس حتى يتسبب بكل هذا الضرر، هذا إن قرر أن ينفجر. "ما الذي تضعه هنا، جون كوفي؟ هل هو سكين؟ مسدس؟".

"كلا يا سيدي"، قالها كوفي بنفس الصوت السميك، وهاتان العينان الغريبتان المغرورقتان بالدموع والعذاب تنظران إلى الأعلى، وتبدوان بعيدتين وهادئتين بشكل غريب، كما لو أن جون كوفي الحقيقي في مكان آخر غير هذا، يطل على منظر طبيعي آخر حيث لا وجود لهاتين البنتين الصغيرتين الصريعتين؛ أردف وهو ينظر إلى عيني النائب ماكجي "وجبة غدائي".

سأله ماكجي "أوه، الآن تقول لي... بعض الطعام، هل ذلك صحيح؟". أومأ كوفي بالإيجاب ودموعه تسيل ومعها بعض المخاط من أنفه. "ومن أين لأمثالك الحصول على وجبة غداء، جون كوفي؟". كان يجبر نفسه على أن يكون هادئا، بالرغم من أن رائحة جثتي البنتين في أنفه الآن طيلة الوقت، بل ويمكنه أن يرى الذباب يتحسس طريقه نحو جثتيهما المخضبتين بالدماء. قال لاحقا إن الشعر كان أسوأ ما في الأمر... وهو ما لم يُبح به لأي صحيفة؛ كان يعتبر أنه من غير اللائق أن تقرأ أي عائلة مثل هذا الوصف. كلا، ولكنني حصلت عليه من الصحفي الذي كتب الموضوع، السيد هامر سميث. بحثت عنه لاحقا،

فقد أصابني في ما بعد نوع من الهوس بجون كوفي. لقد أخبر ماكجي هذا لهامر سميث بأن شعرهما الأشقر لم يعد أشقر. بل صار كستنائيا. يسيل الدم من الشعر على الوجنات وكأنه صباغ شعر سيئ، وليس من اللازم أن تكون طبيبا حتى تدرك أن ذراعيه وحدهما قد سحقتا الجمجمتين الهشتين سحقا. من المحتمل أنهما كانتا تبكيان. ومن المحتمل أنه كان يريد إسكاتهما. ولو كانت البنتان محظوظتين، فإن هذا قد حدث قبل الاغتصاب.

كان من الصعب على أي إنسان أن يفكر بصورة سليمة أمام منظر كهذا، حتى ولو كان رجلا مصمما على أداء عمله بوصفه النائب ماكجي، مساعد الشريف. إن التفكير السيئ يمكن أن يتسبب بالأخطاء، وربما بالمزيد من إراقة الدماء. فأخذ ماكجي نفسا عميقا وهدأ نفسه. أو حاول هذا على كل حال.

قال كوفي بصوت متحشرج في حزن "حسنا يا سيدي، أنا لا أتذكر بالضبط، لأنقلب كلبا لو كنت أتذكر... لكنها وجبة الغداء، حسنا، أعتقد أنه بعض البيض والمخلل".

فقال ماكجي "ربما أعرف هذا بنفسي، فليس هناك من فارق بالنسبة إليك... لا تتحرك الآن، جون كوفي. لا تفعل يا فتى، فهناك من الأسلحة حولك ما يكفي لمحو نصفك العلوي تماما لو أنك فكرت مجرد تفكير في أن تتحرك".

نظر كوفي إلى النهر ولم يتحرك بينما مد ماكجي يده بلطف إلى جيب صدره وسحب شيئا ملفوفا في صفحة صحيفة ومربوطا بإحكام بخيط جزار. قطع ماكجي الخيط بأسنانه ثم فتح الورقة، وبالرغم من أنه كان متأكدا جدا من أن محتواها كان كما أخبره كوفي، أي وجبة الغداء. كانت هناك شطيرة لحم بالطماطم مع طبقة من الهلام. كما كان هناك أيضا بعض المخلل، ملفوف بدوره في صفحة من الصحيفة تحوي تسالي

WWW.REWITY.COM

مضحكة لا يمكن لجون كوفي أن يسبر أغوارها. ولكن... لم يكن هناك سجق. فقد تناوله باوزر من وجبة غداء جون كوفي الصغيرة.

ناول ماكجي وجبة الغداء من ورائه إلى أحد الرجال الآخرين من دون أن تفارق عيناه كوفي. قبع هكذا لفترة، وهو يصارع رغبته بإبعاد نظره عنه ولو لثانية. انتهى المطاف بوجبة الغداء، بعدما أعيد لفها بإحكام، عند بوبو مارشانت، والذي وضعها بدوره في حقيبته، حيث يستبقي طعام كلابه (ولم أندهش حين علمت أن في الحقيبة بعض صيد السمك). لم يتم تقديم تلك الوجبة كدليل في المحاكمة - فالعدالة في هذا الجزء من العالم سريعة، ولكن ليس لدرجة استعراض وجبة من اللحم والطماطم - ولكنني رأيت بعض الصور لها.

سأله ماكجي بصوت خافت مخلص "ما الذي حدث هنا، جون كوفي... أتريد أن تخبرني بما حدث؟".

عندها سرد كوفي على مسامع ماكجي والآخرين نفس التفاصيل التي حكاها لي؛ كما كانت هي أيضا آخر كلمات قالها المدعي العام لهيئة المحلفين بمحاكمة كوفي. قال جون كوفي وهو يحمل جثتي البنتين العاريتين المنتهكتين الصريعتين بين ذراعيه "لم أستطع أن أمنع هذا الشيء بداخلي". بدأت الدموع تسيل على خديه من جديد، وهو يردف "حاولت أن أمنع نفسي... لكن الوقت كان قد فات!".

فقال ماكجي "ألقي القبض عليك أيها الفتى... بتهمة القتل". ثم بصق على وجهه.

خرجت هيئة المحلفين للتشاور لمدة خمس وأربعين دقيقة. وهو وقت كافٍ لتناولهم وجبة غداء صغيرة... فهل كانت لديهم شهية لتناول أي طعام بعد كل هذا؟

5

أعتقد أنك تعلم أنني لم أقع على كل هذا في أثناء ظهيرة يوم حار من أيام أكتوبر داخل مكتبة السجن التي سرعان ما ستصبح أثرا بعد حين، وعبر واحدة من مجموعات الصحف القديمة التي كُدِّست في زوج من صناديق بومونا البرتقالية، لكنني علمت ما يكفي لأن يطير النوم من عيني في تلك الليلة. وعندما نهضت زوجتي في الثانية بعد منتصف الليل ووجدتني أجلس في المطبخ، أشرب اللبن الرائب، وأدخن سيجارة تبغ لففتها بنفسي، سألتني عما إذا كنت على ما يرام، فكذبت عليها، وهو أمر لم يحدث سوى نادرا طيلة سنوات زواجنا الطويلة. قلت لها إنني قد تشاجرت مجددا مع بيرسي ويتمور. كنت قد تشاجرت معه، بالطبع، ولكن ذلك لم يكن السبب وراء سهادي. كنت عادة ما أترك بيرسي وشأنه في المكتب.

قالت في دلال "حسنا، انسَ أمر ذلك العفن وعُد معي إلى الفراش... لديّ شيء سيساعدك على النوم، ويمكنك أن تنال منه كل ما تريد".

فقلت متهربا "يبدو لي ذلك جيدا، ولكن أرى أنه من الأفضل ألا نقوم به... أشعر ببعض الألم عند التبول، ولا أريد أن ينتقل هذا إليك".

رفعت حاجبيها متعجبة. "بعض التعب عند التبول... هاه... لا بد من أن العاهرة التي واقعتها حين كنت في باتون روج كانت مريضة هذه المرة". إلا أنه لم يسبق لي أن كنت في باتون روج ولم يسبق لي أن واقعت أي عاهرة، وكلانا نعرف ذلك.

WWW.REWITY.COM

"إنها مجرد عدوى بسيطة في مجرى البول... كانت أمي تقول إن الأولاد يصابون بها عندما يتبولون في الهواء الطلق وقت هبوب ريح الشمال".

"كانت أمك أيضا معتادة على البقاء طوال النهار في البيت تشاؤما كلما أراقت الملح... ما رأيك بالدكتور سادلر؟".

قلت وأنا أرفع يدي وكأنني أقسم لها "كلا، سيطلب مني أن أتناول السلفا، وعندها سأتقيأ على كل قادم إلى مكتبي بحلول نهاية الأسبوع. لندع هذه العدوى تأخذ دورتها وتمضي لحالها، ولكن وفي هذه الأثناء، أظن أنه من الأفضل أن نتوقف قليلا عن المرح".

قبلت جبيني فوق حاجبي الأيسر، وجانيس تعلم تماما ما يفعله بي هذا. "يا لطفلي المسكين. وكأن بيرسي ويتمور لا يكفيك. إذا، لا تتأخر عن الفراش!".

بالفعل لم أتأخر، ولكنني وقبل أن آوي إلى الفراش خرجت إلى السقيفة الخلفية لإفراغ مثانتي (وتأكدت حينها من اتجاه الريح بإبهام مبلل قبل أنا أفعل؛ إن ما يخبرنا به آباؤنا وقت الصغر نادرا ما ينسى، ولا علاقة لهذا بما إذا كان ما نتلقنه هراء أم لا). إن التبول في الهواء الطلق واحد من مباهج حياة الريف والتي لم يتناولها الشعراء أبدا، إلا أنني لم أشعر بأي بهجة تلك الليلة؛ فقد كان البول الخارج مني يحرقني وكأن ما أتبوله كيروسين أمسكت فيه النيران. وبالرغم من ذلك، فقد كنت أرى أن هذا لا شيء مقارنة بما أحسست به تلك الظهيرة، وأن الأسوأ كان قبل هذه اللحظة بيومين أو ثلاثة. كان عندي أمل في أن ينصلح حالي. إلا أنه كان أملا بلا أساس. لم يخبرني أحد بأن ذلك الفيروس الذي يستقر هناك، حيث الدفء والرطوبة، يمكن أن يرتاح ليوم أو اثنين قبل أن يشتد من جديد. كان هذا كفيلا بأن يدهشني. وكنت لأدهش أكثر لو علمت أنهم وفي غضون خمس عشرة أو عشرين سنة سيتمكنون

من ابتكار أقراص تتناولها فتبيد تلك العدوى في زمن لا يكاد يذكر... وفي حين قد تصيبك تلك الأقراص ببعض الغثيان بالمعدة أو بإدرار البول، إلا أنها لن تدفعك أبدا للتقيّؤ كما هو الحال مع سلفا الدكتور سادلر. لم يكن هناك في العام 1932 الكثير مما يمكن للمرء أن يفعله في هذا الصدد عدا أن يصبر، وأن يحاول تجاهل ذلك الإحساس الناري المتدفق من مثانته.

فرغت، ثم توجهت إلى غرفة النوم، واستسلمت في النهاية للنعاس. لأبصر في أحلامي بنتين خجولتي البسمات... يسيل الدم من بين خصلات شعرهما.

WWW.REWITY.COM

6

وجدت في الصباح التالي رسالة قصيرة على ورقة وردية اللون فوق مكتبي، يُطلب مني المرور على مكتب المراقب حالما أقرأها. كنت أعرف الغرض من هذا - فهناك قواعد غير مكتوبة ولكنها مهمة جدا في هذه اللعبة، وكنت قد توقفت عن تطبيقها بالأمس - لذا كنت أعمل على تأجيل مروري هذا بقدر الإمكان، مثلما أفعل بشأن الذهاب إلى طبيب المسالك البولية... كنت محبا دوما لتسويف الأمور.

على كل حال... لم أعجل إلى مكتب المراقب موور. وبدلا من ذلك، خلعت عني المعطف الصوفي الرسمي، وعلقته على مقعدي، وأدرت المروحة القابعة في الركن؛ كان اليوم حارا. ثم جلست أطالع التقرير الليلي الذي تركه لي بروتوس هويل. لم يكن فيه ما يستدعي القلق. لقد بكى ديلاكروا لبعض الوقت قبل أن ينام - وهو أمر اعتاده أكثر الليالي، كان يبكي على حاله وليس على أولئك الناس الذين شواهم أحياء، هذا ما أنا متأكد منه، وبعد ذلك أخرج السيد جينغلز، الفأر، من صندوق السيجار الذي يحتفظ به في داخله. كان هذا يبعث الهدوء في نفس ديلاكروا، لينام بعدها كطفل لبقية الليلة. بينما ينام السيد جينغلز فوق بطن ديلاكروا، وذيله أسفل كفيه، وعيناه لا ترمشان. يبدو الأمر كما لو أن ديلاكروا بحاجة إلى ملاك حارس، لكن الحكمة اقتضت أن يكون الملاك الحارس لهذا القاتل القادم من لويزيانا فأرا. لم يرد كل هذا في تقريره بالطبع، لكنني قمت بعدد من النوبات الليلية لما يكفي لأن أقرأ ما بين السطور. كانت فيه ملحوظة قصيرة حول كوفي "رُقد مستيقظا، هادئا في الغالب، وربما بكى لبعض الوقت. حاولت التحدث

إليه، لكنني لم أحصل سوى على بضع تمتمات مزمجرة غير مفهومة من كوفي، فصرفت النظر عن الفكرة. ربما صادف بول أو هاري حظ أفضل مني".

إن "المبادرة بالكلام" هي جوهر عملنا... حقا. لم أكن أعلم هذا وقتها، ولكن المرء حين يتأمل الأمر الآن وهو في وضعية الشيخوخة التأملية الغريبة هذه (أعتقد أن السن المتقدمة تبدو غريبة بالنسبة إلى القوم الذين يصلون إليها)، فإنه يفهم أن هذا كان صحيحا بالفعل، ولا أدري لماذا لم أتبينه آنذاك، فقد كان ذلك جوهريا لعملنا تماما كما هو التنفس لحياتنا. لم يكن من المهم أن يجيدوا هم "المبادرة بالكلام"، ولكنه كان أمرا حيويا بالنسبة إليّ ولهاري وبروتال ودين... وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلت بيرسي ويتمور أشبه بكارثة تتحرك على قدمين. فالنزلاء كرهوه، والحراس كرهوه... وكل شخص كرهه، ولم تسانده سوى علاقات رجال السياسة ببيرسي نفسه، وربما (أقول ربما) بأمه. كان مثل جرعة من الزرنيخ الأبيض قام أحدهم برشها فوق كعكة زفاف، وأعتقد أنه سبب الكارثة منذ البداية. كان أشبه بحادث ينتظر الجميع حدوثه. أما بالنسبة إلى بقيتنا، فكنا سنسخر من فكرة أن أهمية عملنا ليست في كوننا حراسا لهؤلاء المدانين ولكن في كوننا أطباء نفسانيين لهم - ولا يزال جزء مني يسخر من تلك الفكرة حتى اليوم - لكننا كنا نجيد المبادرة بالكلام معهم... فمن دون الكلام، يصاب هؤلاء الرجال الذين ينتظرون صاحبنا - الكرسي الكهربائي - بالجنون لا محالة.

دوّنت ملاحظة في أسفل تقرير بروتال حول الكلام مع جون كوفي لأحاول معه - على الأقل - وبعد ذلك انتقلت إلى ملاحظة تركها لي كيرتيس أندرسن، مساعد المراقب الرئيسي. قال إنه، أي أندرسن، توقّع ورود أمر بتنفيذ حكم الإعدام على إدوارد ديلاكروا (أخطا أندرسن في تهجئة اسم الرجل من جديد)... قريبا جدا. وطبقا لهذه الملاحظة، فإن

WWW.REWITY.COM

كيرتيس كان قد علم من مصدر موثوق بأن ذلك الفرنسي الصغير سيعدم قبيل السابع والعشرين من أكتوبر حسبما يعتقد، وعادة ما تكون تخمينات كيرتيس أندرسن مطّلعة جدا. ولكن قبل ذلك الوقت نتوقع ورود نزيل جديد، اسمه ويليام وارتون. يقول كيرتيس "يمكنك أن تسميه الطفل المشاغب... فهو متوحش مجنون ويفتخر بهذا. أثار الفزع في جميع أنحاء الولاية طيلة السنة الأخيرة، إلى أن نجحوا في الإمساك به. قتل ثلاثة أشخاص بضربة واحدة، وامرأة حبلى، ورابعا عند بوابة الولاية... هو شرطي دورية حكومي. ولكنه فشل في قتل ناذرة عفة وأعمى!"، ابتسمت بعض الشيء أمام هذا التعليق الأخير. وتابع قائلا "وارتون في التاسعة عشرة من عمره، يميزه وشم ببلي ذا كيد على ساعده. سيكون عليك أن تعرّفه قدره وتتعامل معه بعنف، وأنا أضمن لك نجاح ذلك، على أن تتوخى الحذر وأنت تفعل ذلك. فهذا الرجل لا يهمه أحد". واضعا خطين تحت هذه العبارة بالذات، ثم أنهى تقريره بهذه الجملة "اعلم كذلك بأنه قد لا يمكث هنا طويلا. فهو قد استأنف الحكم، مستغلا حقيقة كونه قاصرا".

صبي مجنون، يستأنف حكمه، ومن المتوقع ألا يمكث هنا طويلا. لا بأس بهذا. صار اليوم بغتة أشد حرارة مما يحتمل، ولم يعد باستطاعتي تأخير لقاء موور لأكثر من هذا.

لقد تعاملت مع ثلاثة مراقبين طيلة سنوات عملي كحارس في كولد ماونتن؛ وكان هال موور آخرهم وأفضلهم. وهو بسيط، وصادق، ويفتقر حتى إلى ذكاء كيرتيس أندرسن، ولكنه يتصف فقط بحنكة سياسية مكنته من البقاء في منصبه طيلة تلك السنوات... ويتصف كذلك بنزاهة تمنعه من الانجراف نحو غواية هذه اللعبة. إلا أنه لن يرتقي إلى أي منصب أعلى، ولكنه غير مهتم لذلك. لقد كان حينها في الثامنة أو التاسعة والخمسين من عمره، مع وجه أقرب إلى وجه كلب بوليسي مدرب، حتى

إنني متيقن من أن بوبو مارشانت يشعر بالألفة حين رؤيته. شعره أشيب، ويداه ترتعشان معانيتين نوعا من الشلل، لكنه قوي البنيان. ففي السنة السابقة، وعندما هاجمه سجين في ساحة التمرين بلوح خشبي انتزعه من أحد الصناديق، ثبت موور في مكانه، وقبض على رسغ مهاجمه، ولواه بقسوة حتى إن العظام تهشمت وكأنها غصن جاف ألقي وسط اللهب. جثا المهاجم أرضا على ركبتيه، وبدأ يصرخ متوسلا، وينادي أمه. فقال له موور بلكنته الجنوبية المثقفة "لست بأمك... ولو كنت مكانها لرفعت ثورتي وتبولت عليك من نفس المكان الذي أتى بك إلى هذه الدنيا".

عندما وصلت مكتبه، همّ بالنهوض، فأشرت إليه ألا يفعل. جلست على المقعد قبالة مكتبه، وبدأت بسؤاله عن حال زوجته... وهو في الحقيقة أمر غير لائق، ما عدا في هذا الجزء من العالم. سألته "كيف حال جميلتك؟"، كما لو أن مليندا في الربيع السابع عشر لها وليست في سن الثانية أو الثالثة والستين. كان اهتمامي بها حقيقيا، فقد كان من الممكن أن أحب وأتزوج تلك المرأة لو كان لمسارَي حياتينا أن يتقاطعا؛ لكنني كنت أهدف كذلك إلى أن أشغله بعض الشيء عن مقصده الرئيسي من لقائي.

تنهد بعمق. "ليست على ما يرام، بول. مطلقا".

"المزيد من نوبات الصداع؟".

"نوبة واحدة فقط هذا الأسبوع، لكنها كانت الأسوأ؛ أرقدتها على ظهرها أغلب النهار أول أمس. وقد زاد الآن معها ذلك الضعف في يدها اليمنى...". رفع يده اليمنى المنمشة. راقبناها ترتعش فوق نشافته للحظة أو اثنتين، وبعدها أنزلها مجددا. كنت أعلم أنه لم يكن ليخبرني بأي شيء مما يخبرني به الآن لولا أنه لم يكن يجد بدّا من هذا، مع أنني كنت لأبذل ما في وسعي حتى لا أسمع أي شيء مما أسمعه الآن.

WWW.REWITY.COM

لقد بدأت نوبات صداع مليندا في الربيع، وكان طبيبها يقول طيلة ذلك الصيف إنه نوع من صداع الشقيقة الناجم عن التوتر العصبي، ربما سببه التوتر السائد مع اقتراب هال من التقاعد. إلاّ أن أيا منهما لا يسعه الانتظار حتى تقاعده، وقد أخبرتني زوجتي بأن داء الشقيقة ليس من بين أمراض الكبار بل الشباب؛ وحينما يصل من يعانون منه إلى سن مقاربة لسن مليندا موور، فإنهم عادة ما يتحسنون، وليس أن تتحول حالتهم إلى الأسوأ. والآن تطور الأمر إلى ضعف في اليد. لذا يبدو لي أن ما تعانيه ليس ناجما عن التوتر العصبي؛ بل هي بوادر نوبة قلبية مميتة.

قال موور "يرغب الدكتور هافرستروم بذهابها إلى مستشفى في إنديانولا. لتجري بعض الفحوصات، وأشعة إكس لرأسها. إنه يشك في أمر ما. وهي تكاد تموت خوفا!... وأصارحك القول إنني أشد خوفا منها".

"بلى، ولكن عليك أن تحرص على إجراء تلك الفحوصات. لا تنتظر. فلو كان هناك شيء تظهره تلك الأشعة، فمن المؤكد أنهم سيسارعون بعلاجه".

وافقني الرأي قائلا "أجل"، وبعد ذلك، وللحظة واحدة - كانت هي الوحيدة طيلة ذلك الجزء من لقائنا - تلاقت أعيننا فكسر كل منا نظرته. بيننا نوع مثالي من التفاهم لا نحتاج معه إلى كلمات. من المحتمل أن تكون تلك بوادر نوبة قلبية مميتة، أجل هذا محتمل. كما يمكن أن يكون ورما سرطانيا استوطن في دماغها، وإذا كان ذلك، فإن فرص نجاح أطباء إنديانولا في علاجها تكاد تكون معدومة. تذكر أننا لا نزال في العام 1932، حيث لا علاج لشيء بسيط نسبيا كعدوى المسالك البولية إلاّ أن تتعاطى السلفا وتتحمل الرائحة أو أن تعاني وتصبر.

"أشكرك على اهتمامك، بول. ولكن دعنا الآن نتحدث بشأن بيرسي ويتمور!".

عندها أغلقت عيني كمن كان يتوقع الحديث حول هذا الموضوع.

قال المراقب بصوت محايد "لقد تلقيت مكالمة من عاصمة الولاية هذا الصباح... كانت مكالمة غاضبة جدا، وأنا متأكد أنه بمقدورك تخيُّل هذا. بول، إن الحاكم مشغول جدا بزواجه لدرجة يمكنك معها أن تعتبره غير موجود، إذا كنت تفهم ما أقصده. ولدى زوجته أخ لديه ولد واحد. وذلك الولد هو بيرسي ويتمور. ولقد دعا بيرسي أباه ليلة أمس، ودعا أبو بيرسي عمة بيرسي. هل عليّ أن أستمر في سرد شجرة العائلة طويلا؟".

قلت "كلا، فبيرسي يشتكي. مثله مثل أي طفل مدلل في الصف يشي لمعلمه عن زملائه".

وافقه موور قائلا "أجل، هذا هو تقريبا ما حدث".

سألته "أتعرف ما حدث بين بيرسي وديلاكروا عندما حضر ديلاكروا إلى هنا؟".

"قصة بيرسي وتلك الهراوة الملعونة؟".

"نعم، ولكن...".

"وأنت تعلم كيف يمرر تلك الهراوة على قضبان زنزانته أحيانا، وكأنها عادة لديه. هو وقح، وغبي، ولا أعلم كم سيمضي من وقت قبل أن ينفد صبري تجاهه. تلك هي الحقيقة".

نعرف بعضنا منذ خمس سنوات. يمكن أن يكون ذلك وقتا طويلا كي يعتاد شخصان على بعضهما، وخاصة عندما يكون جزء من عملنا هو مقايضة الحياة بالموت. ما أقصده هو أنه يفهم ما أعنيه. وليس أنني أنوي الاستقالة؛ على الأقل ليس وهذا الكساد يضرب خارج جدران هذا السجن مثل مجرم خطير يجول بحريته، كساد لا يمكن للمرء أن يحبسه كما هو حال المذنبين هنا. فهناك رجال أفضل مني، إما على

WWW.REWITY.COM

قارعة الطريق أو يعيشون حياة بائسة. كنت محظوظا وأعرف ذلك؛ لقد كبر الأولاد وانزاح همّ الرهن، رهن تلك الكتلة الرخامية ذات المئتي رطل، عن صدري خلال السنتين الماضيتين. ولكن على المرء أن يأكل، وأن يطعم زوجته أيضا. كما تعودنا على أن نرسل إلى ابنتنا وصهرنا عشرين ألفا متى أمكننا ذلك (وحتى حينما لا يمكننا ذلك أحيانا، إذ تبدو لنا رسائل جين مستميتة جدا). كان مدرسا في مدرسة ثانوية ولكنه الآن عاطل عن العمل، وإذا لم يكن هذا يعني البؤس في تلك الأيام، إذا، فلا معنى لهذه الكلمة. لذا، لا يمكن... لا يمكن أن تترك عملا يمنحك دخلا ثابتا كعملي هذا... ليس عن عمد، كان ذلك هو الحال معي. لكن دمي ليس إلى هذه الدرجة من البرود. فقد كانت درجات الحرارة في الخارج أعلى من معدلاتها في مثل هذا الوقت من السنة، وتلك العدوى تزحف داخلي وترفع درجة حرارتي لدرجة أكبر. وعندما يصل إنسان إلى مثل حالتي هذه، فإن قبضته أحيانا ما تطيش على غير هدى. ولو أنك لكمت رجلا "له ظهر" مثل بيرسي ويتمور، فمن الأفضل لك أن تستمر في اللكم، فأنت بالفعل تخطيت نقطة اللاعودة.

بقي موور على هدوئه وهو يقول "عليك أن تكون عونا له. هذا ما دعوتك لأخبرك به. لقد علمته من شخص ذي منصب رفيع، وهو نفس الشخص الذي هاتفني هذا الصباح، في الحقيقة، لقد قدّم بيرسي طلبا للإقامة في بريار ريدج، وسيتم قبول هذا الطلب".

"بريار". إن بريار ريدج هو واحد من مستشفيين حكوميين. "ما الذي ينويه هذا الصبي؟ يتجول بين المرافق الحكومية؟".

"إنه عمل إداري. والراتب أفضل، والتعامل مع الورق أفضل بكثير من دفع أسرّة المستشفى خلال ساعات اليوم الحارة". ثم تبسّم بعض الشيء وهو يعقّب. "تعرف، بول، كان بإمكانك التخلص منه بالفعل

لو لم تضعه ضمن فريق تنفيذ حكم الإعدام مع فان هاي بينما كان الرئيس يمر".

للحظة بدا لي كلامه غريبا جدا حتى إنني لم أفهم ما كان يرمي إليه. وربما كنت أنا من لا يريد أن يفهم.

سألته "وأين كان من الممكن أن أضعه سوى في ذلك المكان؟ تبا، بالكاد كان يعرف ما يفعله! ولو جعلته واحدا من ضمن فريق تنفيذ أحكام الإعدام فـ..."، لم أتمم كلامي. لم أستطع أن أتمم كلامي. فقد كان لساني على وشك أن ينفلت بكلام لا لزوم له.

"بالرغم من هذا، فقد كان من الأفضل أن تبعده عن ديلاكروا. هذا إن لم تكن تريد أصلا التخلص منه".

نظرت إليه فاغر الفيه. لقد فهمت أخيرا الهدف الذي يسير إليه كل هذا الحديث، وصار من الممكن أن أتكلم. "ماذا تقول؟ أنه يريد التعامل مع أحدهم عن قرب... وبالأخص مع شخص على هذه الدرجة من العته؟".

هز موور كتفيه. كانت عيناه هادئتين حينما كان يتكلم عن زوجته، أما الآن فبدتا متصلبتين جدا. "إن عته ديلاكروا موجود ومقيم سواء أكان ويتمور في الفريق أم لا. أليس هذا صحيحا؟".

"نعم، ولكنه قد يفسد الأمور. بل إنه في الحقيقة، هال، أقرب إلى أن يفسد الأمور. ونحن نتحدث هنا عن ثلاثين أو أكثر من شهود تنفيذ الأحكام... وعن مراسلين صحفيين من كل مكان...".

"ستعملان أنت وبروتوس هويل على ألا يحدث هذا... وحتى إن حدث هذا، فسيتم تسجيل هذا في ملفه، وسيبقى هذا ملفه إلى أن يخرج قريبه ذاك من منصبه. أفهمتني؟".

فهمته. وهو ما جعلني أشعر بالخوف والغثيان في آن معا، لكنني فهمته.

WWW.REWITY.COM

"قد يريد البقاء حتى تنفيذ الحكم في كوفي، ولكننا إن كنا محظوظين، فسوف يكفيه أن يشارك في تنفيذ حكم ديلاكروا. عليك فقط أن تتأكد من أن تشركه في تنفيذ ذلك الحكم بالذات".

كنت قد خططت لإبقاء بيرسي ضمن فريق غرفة التحكم من جديد، وذلك حتى تنفيذ الحكم في ديلاكروا ونقل جثته إلى تلك العربة القابعة قبالة السجن، ولكن ها هي تلك المخططات تبتعد أكثر من أن يحمّلني أحدهم مسؤولية المبادرة بها. فأومأت له متفهما. كنت أعلم أنها مجازفة قد قبلتها، لكنني لم أعقّب على كلامه. فإذا كان هذا كفيلا بتخليصي من بيرسي ويتمور، فأنا على استعداد للتحالف مع أي كان لأجل هذا. فليشارك في إعدامه، وليثبت على رأسه القبعة، ولينظر إليه بعد ذلك من خلال الشبكة وليخبر فان هاي بأن يحرك القابس؛ وليراقب ذلك الفرنسي ضئيل الحجم وهو يرتعش بفعل التيار الساري في جسده، والذي أخرج بيرسي ويتمور عفريته من مصباحه. دعه يستمتع، إذا كان تنفيذ الأحكام يجلب له كل هذه المتعة الحقيرة. دعه يستمر حتى يصل إلى بريار ريدج، حيث سيحصل على مكتبه الخاص ومروحة تبرد له المكان. وحينما يخرج عمه ذاك من منصبه في الانتخابات القادمة ويكون عليه أن يجد عملا مثله مثل بقية البؤساء، وفي عالم لا يدخل فيه كل الأشرار السجون، وحيث سيجد حتما من سيلقنه الدرس قاسيا، عندها سيكون الحال أفضل.

قلت له وأنا أنهض "حسنا. سأُلحقه بفريق تنفيذ الحكم على ديلاكروا. أما في هذه الأثناء فسأعمل على تهدئة الجو معه".

فقال وهو ينهض بدوره "جميل. بالمناسبة، ما الذي حل بك؟". كان يشير مباشرة إلى موضع الداء فيّ.

"يبدو لي أنه تحسن قليلا".

رافقني حتى الباب. "لا بأس. بالمناسبة، ماذا عن كوفي؟ هل

سيشكل لك مشكلة؟".

"لا أعتقد هذا. إنه هادئ تماما حتى الآن. لديه عينان في غاية الغرابة، لكنهما هادئتان. إلا أننا سنبقيه تحت المراقبة. فلا تقلق!".

"تعلم ما اقترفه، بالطبع".

"بالتأكيد".

كنا قد وصلنا إلى المكتب الخارجي، حيث تقبع الآنسة هانا من دون أي عمل حقيقي، وهذا هو حالها منذ رأيتها... على ما يبدو. كنت سعيدا لانتهاء هذه المقابلة. وأشعر أنني لم أخرج منها بخسائر. وكان من الجميل أن أعرف أن هناك فرصة للخلاص من بيرسي في نهاية المطاف.

قلت "أرجو أن تبلغ ملينداً سلامي. وعليك ألا تقلق وتغتم لحالها. فربما تبين لنا أنها لا تعاني سوى من داء الشقيقة".

قال وابتسامة ترتسم أسفل عينيه المرهقتين "كم أتمنى هذا". كان هناك تنافر عجيب بين ابتسامته ونظرات عينيه.

أما بالنسبة إليّ، فقد عدت إلى العنبر (هـ) لأبدأ يومي. كان هناك الكثير من الأوراق التي عليّ أن أقرأها وأكتبها، وأن أشرف على تنظيف الأرضيات، وتقديم الوجبات، وترتيب أعمال الأسبوع التالي... مئات التفاصيل الصغيرة. ولكن الأهم هو التعامل مع هؤلاء الذين ينتظرون دورهم للرحيل. انتظار إدوارد ديلاكروا حتى يسير الميل الأخضر، وانتظار ويليام وارتون حتى يصل بشفتيه المزمومتين ووشم يبلي ذا كيد على ساعده، والأهم من كل هذا هو انتظار خروج كابوس بيرسي ويتمور من حياتي.

WWW.REWITY.COM

7

كان فأر ديلاكروا أحد الألغاز. لم أرَ فأرا في العنبر (هـ) قبل ذلك الصيف، ولم أرَ أي فأر بعد انقضاء ذلك الخريف، بعدما رحل ديلاكروا عن عالم الأحياء في ليلة حارة من ليالي أكتوبر؛ وقد رحل منه بأسلوب شنيع جدا حتى إنني أعجز عن إجبار نفسي على تذكره. زعم ديلاكروا أنه قد درب ذلك الفأر، الذي صار له اسم بيننا... ويلي ستيمبوت، ولكنني أعتقد أن الفأر هو من درب ذلك الرجل. وكذلك شعر دين ستانتون، ووافقنا بروتال. كلاهما كانا موجودين في الليلة التي ظهر فيها الفأر للمرة الأولى، وكما قال بروتال، "إن هذا الفأر أليف بطبيعته، وأذكى مرتين من ذلك الغبي الذي يعتقد أنه يمتلكه".

كنت ودين في مكتبي، نراجع سجلات السنة الماضية، ونستعد لكتابة رسائل متابعة ترسل إلى شهود خمسة أحكام إعدام نفذت، ولكتابة متابعات لستة أحكام أخرى تعود إلى العام 1929. كنا نريد بالأساس معرفة شيء واحد فقط: هل كانوا مرتاحين للخدمة التي قدّمت؟ أعلم أن هذا يبدو غريبا وبشعا، لكنه أمر مهم بالنسبة إلينا. وهم كدافعي ضرائب يعدون بمثابة عملاء لنا، عملاء لهم خصوصيتهم. فالنساء والرجال الذين سيأتون عند منتصف الليل لمراقبة رجل يموت يكون لديهم من الأسباب الملحة والخاصة التي تدفعهم لأن يكونوا حاضرين، هذا احتياج خاص، ولو كان الإعدام عقابا سليما، فلا بد من تلبية ذلك الاحتياج. فهم في كابوس. والغرض من تنفيذ الإعدام هو أن نؤكد لهم أن الكابوس قد انتهى. وربما يكون هذا هو المقصد. أحيانا.

نادانا بروتال من خارج الباب، حيث كان يجلس إلى المكتب عند

رأس القاعة. "هاي، أنتما الاثنان! تعالا إلى هنا!".

نظرت ودين إلى بعضنا بعضا بتعبير تنبه متماثل، ونحن نعتقد أن شيئا ما قد حدث إما لذلك الهندي الأحمر القادم من أوكلاهوما (كان اسمه آرلن بيتربك، لكننا اعتدنا مناداته بالزعيم... أو - كما في حالة هاري تيروويليجر - زعيم الجبن، لأنه كان يدعي أن رائحته توحي بذلك)، أو لصاحبنا الذي سميناه الرئيس. لكن بروتال بدأ عند تلك اللحظة بالضحك، فعجّلنا لنرى ما كان يحدث. فالضحك في العنبر (هـ) خطيئة... تماما كالضحك داخل دار العبادة.

كان صاحبنا العجوز توت توت، الوفي الذي كان يدير عربة الطعام في تلك الأيام، بصحبة عربته المحملة بالمأكولات، وكان بروتال قد أعد لنفسه ثلاث شطائر تأهبا لليلة طويلة، ومعها الفوشار، وفطيرتا قمر. هذا إلى جانب سلطة البطاطا التي سرقها توت توت بلا شك من مطبخ السجن، والذي كان من المفترض أن يكون محرما عليه دخوله. كان دفتر اليوميات مفتوحا أمام بروتال، والعجيب أن أيا من بقايا الطعام لم تقع عليه حتى الآن. ولكنه كان في البداية بالطبع.

سأله دين "ماذا؟ ما الأمر؟".

"لقد فك المجلس التشريعي كيسه بما يكفي لتعيين غبي آخر هذه السنة وبالرغم من كل شيء"، ثم أردف وهو ما يزال يضحك. "انظرا إلى هناك".

أشار فوجدنا الفأر. بدأت أضحك بدوري، وشاركني دين الضحك. لم يكن من الممكن عدم الضحك، فذلك الفأر كان أشبه بحارس يقوم بدورات مراقبة؛ حارس وَبَريّ صغير جدا يتأكد من أن أحدا لم يحاول الهرب أو الانتحار. يتجه قليلا نحونا على طول الميل الأخضر، ثم يتلفت من جانب إلى آخر، كما لو أنه يفحص الزنزانات. ثم يتقدم إلى الأمام. وزاد من طرافة المنظر تلك الزمجرة والسخرية التي بدأ نزلاؤنا

WWW.REWITY.COM

الحاليون بإطلاقها بالرغم من الصيحات والضحكات.

فأر بني عادي، عدا الطريقة التي يحاكي بها عملية تفقد الزنـزانات. بـل إنـه دخـل إلـى واحـدة أو اثنتيـن منهـا، وهو يمر من بين القضبان في سلاسة أجزم بأن العديد من نـزلائنا الحاليين والسابقين يحسدونه عليها. إلا أن هؤلاء المجرمين لا يسعون إلى الدخول إلى زنـزاناتهم، بل إلى الخروج منها بلا عودة.

لم يدلف الفأر إلى أي من الزنـزانات المشغولة؛ بل الفارغة فقط. حتى اقترب في النهاية من المكان الذي نقف فيه. وتوقعت أنه سيعود أدراجه من جديد، إلا أنه لم يفعل. بدا غير خائف منا على الإطلاق.

فقال دين بشيء من التوتر "ليس من الطبيعي أن يقترب الفأر من البشر بهذه الطريقة. ربما كان مسعورا".

فقال بروتال وفمه ممتلئ بقضمة كبيرة من شطيرة لحم مملح "آه، تبـا لـك. هـل صـرت خبيـرا في الفئـران. أيها الرجل الفأر. إذا، هل ترى الزبد يخرج من فمه، أيها الرجل الفأر؟".

فقال دين "بل إنني لا أرى فمه أصلا". فضحكنا جميعا على هذه العبارة. وبدوري لم أكن أرى فمه، إلا أنني أرى عينيه كنقطتين سوداوين، ولكنهما لم تحملا أيا من مظاهر الجنون أو السعار. بل الذكاء واليقظة. لقد أشرفت على إعدام أناس أغبى بكثير من هذا الفأر.

انطلق عبر الميل الأخضر حتى بقعة على بعد أقل من ثلاث أقدام مـن مكتـب المنـاوب... والـذي لـم يكن بذلـك المكتب الفخم، كما قد تتخيل، لكنه أقرب إلى منضدة معلم في مدرسـة ثانوية. وهناك توقف، وهو يضفر ذيله حول كفوفه وكأنه سيدة عجوز تسوي تنورتها.

توقفـت عـن الضحـك فـورا، وأنـا أشـعر برجفة باردة تسـري فجأة عبر جسـمي وحتى العظام. أريد القول إنني لا أعرف سببا لما شـعرت به - فلا أحد يحب أن يكون في موقف يجعله يبدو أبله - لكنني بالطبع

أعلم السبب، وإذا كان من الممكن أن أبوح بالحقيقة عن بقية ما حدث، فأحزر أنني يمكن أن أبوح بحقيقة هذا. فللحظة تخيلت نفسي ذلك الفأر، ليس كحارس ولكن كمجرم مدان آخر يسير على الميل الأخضر، مدان ومصيري معروف، ولكنني لا أزال قادرا على النظر بشجاعة نحو مكتب يبدو أعلى مني بأميال، وأنظر إلى هؤلاء العمالقة أصحاب الرداء الأزرق والصوت الجهوري، ممن يجلسون خلفه. عمالقة يطلقون على مثل هذا الفأر الرصاص، أو يسحقونه بالمكانس، أو يضعون الأفخاخ له، الأفخاخ التي تكسـر ظهره بينما يزحف بحذر فوق أحرف كلمة (فيكتور) لقضم قطعة الجبن فوق الصحن النحاسي الصغير.

لم تكن هناك مكنسـة بجوار مكتب المناوب، لكن كان هناك دلو ممسـحة لا تزال ممسـحته في النشـافة؛ كنت قد أخذت دوري في مسـح الميل الأخضر وكل الزنـزانات الست قبل فترة قليلة من الجلوس لفرز صندوق السـجلات مع دين. رأيت أن دين يهم بإمسـاك عصا الممسـحة ليبعد بها الفأر. فمسست رسغه بينما أصابعه تلامس المقبض الخشبي الرفيع. "دعه وشأنه".

فهز كتفيه ساحبا يده. شعرت بأنه لم يكن راغبا بسحقه بها، مثلي تماما.

قطـع بروتـال قطعـة مـن شـطيرة اللحـم، ومـد يـده بهـا أمامه فوق المكتب، وحركها برفق بين إصبعيه. بدا الفأر ناظرا إلى الأعلى باهتمام ونشـاط أكبر، كما لو أنه يعرف بالضبط ما هو ذاك. ومن المحتمل أنه يعرف؛ يمكنني أن أرى وبره ينتفض بينما يتشمم أنفه الهواء.

صاح دين متعجبا "آه... كلا يا بروتال!"، ثم التفت إليّ وهو يردف "لا تدعـه يفعـل ذلـك، بـول! فلـو أنـه أطعم هذا اللعين فإنه بالتالي يفتح باب هذا المكان أمام أسراب من كل المخلوقات ذوات الأربع".

فقـال بروتـال "أريـد فقـط أن أعـرف ما الذي سـيقوم بـه. لنقل إنه

WWW.REWITY.COM

اهتمام علمي". نظر إليّ؛ كنت أنا الرئيس هنا، حتى في ما يتعلق بأمر يخرج عن روتين العمل مثل هذا الموقف أمامنا. فكرت في الأمر ثم هززت كتفي وكأن الأمر لم يعد يهم. في الحقيقة، كنت بدوري راغبا بمعرفة ما الذي سيقوم به.

حسنا... لقد أكلها بالطبع. ويبدو أنه يدرك أننا نعيش في زمن الكساد. لكن الطريقة التي أكلها بها هي ما أدهشني. فقد اقترب من قطعة الشطيرة، وتشمم طريقه حولها، ثم انتصب بجسده أمامها مثل كلب يقوم بحركة تدرب عليها، وأمسكها، وفتح الخبز حتى يمكنه الوصول إلى اللحم. فعلها بتعمد وبمعرفة مسبقة، كأنه رجل يتناول عشاءه من اللحم البقري المشوي جيدا في مطعمه المفضل. لم يسبق لي أن رأيت حيوانا يأكل بهذه الطريقة، ولا حتى أي كلب أليف جيد التدريب. ولم يشح بنظراته عنا طوال الوقت الذي أمضاه في تناول الطعام.

أتانا صوت جديد "إما إنه فأر ذكي أو إنه يتضور جوعا". كان ذاك هو بيتربك. كان قد استيقظ وهو يقف الآن عند قضبان زنزانته، لا يرتدي سوى سروال قصير مترهل. بين أصابع يده اليمنى سيجارة لفها بنفسه، وينسدل شعره الأشيب على كتفيه؛ ربما كانتا مفتولتي العضلات في السابق، لكنهما الآن متهدلتان.

سأله بروتال، وهو يراقب الفأر يأكل "هل لديك أي معرفة بالفئران، يا زعيم؟". كنا جميعا مأخوذين بالطريقة اللطيفة التي يحمل بها قطعة اللحم بين مخالبه، وهو يديرها من حين إلى آخر أو ينظر فيها، في إعجاب وتقدير... أو هكذا بدا لي.

فقال بيتربك "كلا... لكنني عرفت من قبل شجاعا زعم بأن قفازه مصنوع من جلد الفئران، لكنني لم أصدقه!". ثم ضحك، كما لو أن الأمر كله دعابة، وابتعد عن القضبان، وسمعنا صوت قرقعة السرير وهو يستلقي عليه من جديد.

وكما لو أن هذا الصوت إشارة للفأر كي يذهب. فقد أنهى ما في يديه، وتشمم ما تبقى (وكان في أغلبه خبزا والخردل الأصفر يغطيه)، وبعد ذلك التفت إلى الوراء نحونا، كما لو أنه يريد أن يتذكر وجوهنا إذا ما قدر له أن يرانا مجددا. ثم دار على أعقابه، وانطلق عائدا من حيث أتى، ولم يتوقف للقيام بتفقد الزنزانات هذه المرة. ذكرتني عجلته هذه بالأرنب الأبيض في مغامرات أليس في بلاد العجائب، فابتسمت. لم يتوقف عند باب غرفة الحبس الانفرادي، ولكنه اندس أسفله. لغرفة الحبس الانفرادي جدران ناعمة، لتتناسب مع الذين اختلت أدمغتهم بعض الشيء. كنا نحافظ على نظافة المعدات المخزنة هناك حين لا نحتاج إلى الغرفة للغرض الذي خصصت لأجله، وبضعة كتب (أكثرها كانت روايات عن الغرب مما يكتبه كلارينس مولفورد، إلا واحدة). كانت هناك أدوات حرفية أيضا، ومنها الطبشور الملون الذي استطاع ديلاكروا لاحقا أن يجيد الاستفادة منه. لم يكن وقتها يمثل مشكلة من ضمن مشاكلنا اليومية؛ بل كان هذا في وقت سابق. وهناك أيضا في غرفة الحبس الانفرادي السترة التي لا يريد أحد أن يرتديها؛ بيضاء، مصنوعة من القماش الذي حيك بخيط مزدوج، وأزرارها وأربطتها من الخلف. جميعنا نجيد إلباس هذا الرداء للمشاغبين. مع أنه من النادر أن يتصرف هؤلاء الضائعون بعنف، لكنهم متى فعلوا ذلك، فلن يمكنك إلا أن تمتلك أنت زمام الموقف.

مد بروتال يده إلى درج المكتب، وأخرج المجلد الكبير الذي انطبعت على غلافه بأحرف ذهبية كلمة (زوار)، يبقى ذلك المجلد في المعتاد داخل الدرج شهرا تلو الآخر. عندما يأتي زائر لسجين – ما لم يكن محاميا أو مسؤولا – يتم إدخاله إلى حجرة الزيارة. كنا نسميها (الرواق). ولا أدري سببا لهذه التسمية.

سأله دين وهو يحدق إليه من فوق نظارته "ما الذي تفعله بحق

WWW.REWITY.COM

الله؟". كان بروتال قد فتح المجلد، وأخذ يتصفحه مطالعا سنوات مضت من زوار صار أغلبهم الآن في عداد الأموات.

قال بروتال وهو يصل إلى صفحة العام الحالي "أتبع المادة 19 في اللائحة". تناول القلم ولعق سنه - وهي عادة قميئة لم يستطع التخلص منها - وتهيأ للكتابة. المادة 19 تفيد وبكل بساطة "لا بد من أن يُبرِز كل زائر للعنبر (هـ) بطاقة الدخول الصفراء وأن تدوّن بياناته الشخصية بالتفصيل".

فقال لي دين "ها هو قد فَقَد عقله".

بينما قال بروتال "إنه لم يُبرِز لنا بطاقته، ولكنني سأغض الطرف عن هذا هذه المرة". لعق سن القلم مرة أخرى لأجل الحظ الحسن، ثم كتب 949 في خانة الوقت.

فقلت "بالتأكيد، لِمَ لا؟ فالرؤساء يمنحون في العادة استثناء للفئران".

وافقني بروتال قائلا "إنهم بالطبع يفعلون ذلك. توفيرا للنفقات". ثم التفت ليلقي نظرة على ساعة الحائط خلفه، ثم دوّن 1001 في خانة وقت الخروج. بينما كانت الخانة الأطول بين هاتين الخانتين هي خانة اسم الزائر. وبعد لحظات أمضاها في التفكير العميق - ربما ليتملك شيئا من مهاراته المحدودة في التهجئة، فقد كنت متيقنا مما يفكّر فيه لحظتها - فقد دون بروتوس هويل الاسم... (ويلي ستيمبوت)، على ما كان يسميه أغلب الناس وقتئذٍ (ميكي ماوس). كانوا يقصدون بذلك أهم شخصية في أول فيلم رسوم متحركة ناطق، الفأر الذي يقلب عينيه الواسعتين ويهز خصره ويجذب الحبل فيطلق نفير السفينة البخارية.

قال بروتال وهو يغلق المجلد بصوت مسموع ويضعه في الدرج "ها قد انتهينا".

ضحكت، بينما كان دين - وهو الذي لا يستطيع التخلص من

جديته حتى وهو يعلم أن ما يراه ليس سوى مزحة - يتميز غيظا وهو يمسح زجاج نظارته بعصبية. "ستورط نفسك في مشكلات لو أن أحدهم رأى هذا"، وتردد قبل أن يردف "أقصد أي شخص يريد لك الأذى". تردد مجددا، وهو يتلفت حوله كما لو أنه يتوقع رؤية تجسيد المثل القائل (للجدران آذان)، قبل أن يقول "شخص مثل ذلك المتحذلق بيرسي ويتمور".

فقال بروتال "هاه... إن اليوم الذي سيجلس فيه بيرسي ويتمور على كرسي هذا المكتب سيكون هو نفسه اليوم الذي سيشهد استقالتي".

فقال دين "لن يكون عليك القيام بهذا. فسيفصلونك بسبب استخفافك بمجلد الزوار لو استطاع بيرسي أن يشي بك إلى الشخص المناسب، وهو قادر على ذلك. تعلم أنه قادر على فعلها".

حدق إليه بروتال، ولكنه لم يعقّب بشيء. حسبت أنه وفي وقت لاحق من تلك الليلة سيمحو ما كتبه. وإذا لم يفعلها، فسأفعلها أنا.

في الليلة التالية، وبعد أن ذهبت بصحبة بيتربك وبعدها الرئيس إلى العنبر (د)، حيث الاستحمام، وبعد التأكد من إحكام إغلاق زنزانات المشاغبين المعتادين، سألني بروتال عما إذا كان من الضروري أن نبحث عن ويلي ستيمبوت هناك في غرفة الحبس الانفرادي.

فقلت "أعتقد أنه علينا القيام بذلك". كنا قد ضحكنا كثيرا بسبب ذلك الفأر في الليلة السابقة، ولكنني أعلم أن بروتال لو نجح في العثور عليه هناك - وخاصة لو تبين لنا أنه كان قد بدأ يتخذ مسكنا له داخل أحد الجدران المتداعية - فسنضطر إلى قتله. فمن الأفضل أن تقتل الفأر، مهما بدا مدهشا في نظرك، بدلا من أن تضطر إلى أن تعيش برفقة ذريته. وليس عليّ أن أقول لك إن أيا منا لم يكن ليتردد لحظة عن قتل ذلك الفأر. فالولاية تدفع لنا أجورنا لقاء أمور، منها قتل تلك الفئران.

لكننا لم نعثر تلك الليلة على ويلي ستيمبوت - والذي سيعرف

WWW.REWITY.COM

في ما بعد بالسيد جينغلز – لم يكن معششا في أحد الجدران، أو وراء أي من الخردة التي جمعناها في الممر. كان هناك الكثير من الخردة، وبأكثر مما توقعت، فلم نضطر إلى استخدام تلك الغرفة منذ زمن طويل. إلا أن هذه الحقيقة ستتغير مع حضور ويليام وارتون، ونحن بالطبع لم نكن نعلم ذلك حينها. وهذا لحسن حظنا.

"أين ذهب؟". تساءل بروتال وهو يمسح العرق عن رقبته بمنديل أزرق كبير. "لا ثقوب، لا شقوق... ولكن...". أشار إلى بالوعة المياه في الأرضية. أسفل حاجز القضبان، حيث يمكن للفأر أن يمر، توجد شبكة دقيقة من الصلب لا يمكن حتى لذبابة أن تمر عبرها. "كيف دخل من هنا؟ وكيف خرج من هنا؟".

"لا أدري". أجبته بحيرة.

"ولكنه دخل إلى هنا بالفعل، أليس كذلك؟ أعني أننا قد رأيناه يفعلها".

"بالفعل، من أسفل الباب. مط جسده قليلا، ولكنه مر".

"يا ويلتاه". قالها بروتال، فبدت غريبة وهي تخرج من فم رجل بمثل هذه الضخامة. "من حسن حظنا أن هؤلاء الأوغاد ليسوا بمثل هذا الحجم الصغير... أليس كذلك؟".

"هذا من حسن حظنا"، قلتها وأنا أمسح بعيني الجدران للمرة الأخيرة، بحثا عن أي ثقب أو شق فيها... أي شيء. لم يكن هناك شيء. "هيا بنا... لنخرج من هنا".

ظهر لنا ويلي ستيمبوت بعد ذلك بثلاث ليالٍ، حينما كان هاري تيرويليجر هو المناوب. وكان بيرسي موجودا أيضا، وطارد الفأر عبر الميل الأخضر، بنفس عصا الممسحة التي كان دين يفكر في استخدامها. إلا أن الفأر انسل من أمام بيرسي بسهولة، ليندس عبر عقب باب غرفة الحبس الانفرادي. كان بيرسي يسب ويلعن وهو يفتح الباب ليخرج كل

تلك الكراكيب من جديد. كان المشهد مضحكا ومخيفا في ذات الوقت، كما وصفه لي هاري. كان بيرسي يقسم على الإمساك بذلك الفأر اللعين وتمزيق رأسه تمزيقا، ولكنه فشل بطبيعة الحال. عاد إلى المكتب بعد نصف ساعة، متسخا يتصبب عرقا، وذيل قميصه النظامي يخرج من سرواله لجهة ظهره، وهو يزيح شعره عن عينيه ويخبر هاري (والذي بقي جالسا يقرأ برصانة طيلة تلك الفوضى) بأنه سيضع شريطا لاصقا على امتداد عقب الباب؛ وهو ما سيحل المشكلة، كما أخبره.

فلم يَسَع هاري سوى أن يقول له وهو يقلب صفحة في الرواية الرخيصة التي كان يقرأها "افعل ما تراه صوابا، بيرسي". ظن أن بيرسي سريعا ما سينسى هذا الأمر... وقد كان محقا في ذلك.

WWW.REWITY.COM

8

في وقت متأخر من ذلك الشتاء، وبعد انتهاء تلك الأحداث بوقت طويل، جاء بروتال إليّ في إحدى الليالي ولم يتواجد معنا أي شخص آخر، فقد كان العنبر (هـ) خاليا بصفة مؤقتة وباقي الحراس الآخرين تم تعديل مواقعهم مؤقتا. وذهب بيرسي إلى برار ريدج.

"تعالَ إلى هنا"، قالها بروتال بصوت مرح متحشرج، مما جعلني ألتفت إليه. كنت قد دخلت لتوي، وكانت الليلة باردة يتساقط فيها الثلج، وقمت بإزالة ما علق على كتفَي سترتي قبل تعليقها على المشجب.

وسألت "ما الخطب؟".

"لا شيء... ولكنني اكتشفت أين كان يوجد السيد جينغلز. عندما جاء للمرة الأولى، أعني، عندما استولى عليه ديلاكروا. هل تريد أن ترى؟".

"بالتأكيد". تتبعته باتجاه الميل الأخضر إلى غرفة الحبس الانفرادي. وقد كانت جميع الأغراض التي قمنا بتخزينها هناك موجودة في الردهة؛ ويبدو أن بروتال قد استغل الهدوء المسيطر للقيام ببعض أعمال النظافة. كان الباب مفتوحا، ورأيت دلونا ذا الممسحة بالداخل. كانت الأرضية جافة وذات خطوط طولية، وبها نفس الظلال الجيرية الباهتة، تماما مثل الميل الأخضر. كان يوجد في وسط الأرضية السلم المدرج، ذلك السلم الذي كان يوضع عادة في المخزن، هذه الأرضية التي تصادف أنها كانت تستخدم كمحطة أخيرة لمن تغضب عليهم الولاية. وكان هناك جزء من رف يبرز خارج ظهر السلم عند قمته، من نوع الأشياء التي يستخدمها أحد العمال لتعليق حقيبة عدة العمل أو يستخدمها أحد النقاشين لتعليق الدلو

الذي يعمل به. وكان عليه كشاف يدوي قام بروتال بمناولتي إياه.

"اصعد إلى الأعلى. إنك أقصر مني، وبذلك يتسنى لك أن تقترب كثيرا، إلا أنني سأمسك بساقيك!".

قلت له "إنني أرتجف"، وشرعت في الحركة مرددا. "ركبتاي على وجه الخصوص!".

"سأراعي ذلك. لا تقلق!".

قلت له "حسنا، إن كسر المقعدة يعد ثمنا باهظا لاكتشاف مكان أحد الفئران".

"هه؟".

"لا تقلق". كان رأسي قد وصل في ذلك الوقت إلى مكان الإضاءة الموجودة في منتصف سقف الغرفة، وأحسست بالسلم يهتز قليلا تحت ثقل وزني. وفي الخارج كنت أسمع صوت رياح الشتاء. "فقط تمسك بي".

"لقد أمسكت بك، لا تقلق". ثم أمسك بأسفل ساقي بقوة وصعدت أنا درجة أخرى من درجات السلم. حتى أصبحت قمة رأسي تبعد أقل من قدم واحدة عن السقف، وكان بإمكاني رؤية خيوط العنكبوت التي نسجتها بعض العناكب المغامرة في الفواصل بين كمرات السقف. ثم قمت بتسليط الضوء حولي إلا أنني لم أرَ أي شيء يستحق تواجدي في الأعلى حيث كنت.

"لا"، أردف بروتال. "إنك تنظر بعيدا جدا يا بول، انظر إلى يسارك، حيث تتلاقى الكمرتين. هل تراهما؟ واحدة منهما ممسوحة الطلاء قليلا".

"أدرك ذلك".

"سلّط الضوء على الوصلة!".

فعلت ذلك، ورأيت على الفور تقريبا ما أرادني أن أراه. لقد تم

WWW.REWITY.COM

إسناد الكمرتين معا بواسطة ستة أوتاد، إلا أن أحدهما كان مفقودا، تاركا فتحة سوداء صغيرة بحجم ربع دولار. نظرت إليها، ثم استدرت إلى بروتال بنظرة فيها ريبة. قلت له "إنه فأر صغير، ولكن بهذا الصغر؟ يا رجل، لا أظن ذلك".

"ولكنه ذهب إلى هناك"، أردف بروتال. "أنا متأكد أنه قد يكون مأوى له".

"أنا لا أعرف كيف يكون هكذا".

"اقترب أكثر، بأن تميل إلى الأمام، لا تخشَ شيئا فأنا ممسك بك، هل تشتمّ رائحة ما".

قمت بما طلبه مني، وتحسست بيدي اليسرى إحدى الكمرات الأخرى، وشعرت بقليل من التحسن عندما أمسكت بها. عاودت الريح هبوبها في الخارج، واندفع الهواء من تلك الفتحة نحو وجهي. كان في إمكاني أن أشم رائحة ليلة من ليالي الشتاء عند الحدود الجنوبية... ورائحة شيء آخر أيضا.

رائحة النعناع.

لا تدع أي شيء يحدث للسيد جينغلز، يمكنني سماع ديلاكروا يقولها بصوت لا يثبت على وتيرة واحدة، في إمكاني سماع ذلك، كما أنه في إمكاني الإحساس بدفء السيد جينغلز عندما يقدمه الرجل الفرنسي إليّ، إنه مجرد فأر، وهو أذكى من معظم المخلوقات، بلا شك، ولكنه يظل في النهاية مجرد فأر. قد يقول لا تدع شيئا يؤذي فأري، لقد وعدته، كما كنت أعدهم دائما في النهاية عندما لم يعد السير باتجاه الميل الأخضر خياليا أو افتراضيا، ولكنه صار أمرا عليهم بالفعل القيام به. أرسل هذه الرسالة إلى أخي الذي لم أره منذ عشرين سنة؟ إنه وعد. ادعُ لروحي خمس عشرة مرة؟ إنه وعد. دعني أموت تحت اسمي الروحي وتأكد أنه يذهب معي إلى القبر؟ إنه وعد. لقد كان هذا هو

الأسلوب الذي يجعلهم يذهبون ويكونون على ما يرام، الأسلوب الذي تراهم به جالسين عند نهاية الميل الأخضر وهم في حالة عقلية سليمة. بالطبع، لم أتمكن من الوفاء بكل تلك الوعود، إلا أنني وَفيتُ بوعدي الذي وعدت به ديلاكروا. فقد توجب إنفاق الكثير، بالنسبة إلى الرجل الفرنسي. فأسوأ ما في الإساءة إلى ديلاكروا هو أن يتأذى كثيرا. آه، أنا أعلم جيدا ماذا فعل، ولكن، لا يوجد أحد يستحق ما حدث لإدوارد ديلاكروا عندما وقع في أحضان الكرسي الكهربائي القاسية.

رائحة النعناع.

وشيء ما آخر أيضا. شيء ما داخل تلك الفتحة الصغيرة.

قمت بسحب قلم من جيبي بيدي اليمنى مع الاستمرار في الإمساك بالكمرة بيدي اليسرى، ولم أعد أهتم بدغدغة بروتال لركبتي الحساستين رغما عنه ومن دون قصد. نزعت غطاء القلم، ثم دفعت بسن القلم داخل الفتحة، أفتش، وأخرجت شيئا ما. كانت شظية صغيرة من الخشب يميل لونها إلى الاصفرار، وسمعت صوت ديلاكروا مرة أخرى، ولكن بوضوح شديد هذه المرة كما لو كان شبحه يختبئ في تلك الحجرة معنا؛ حيث أمضى ويليام وارتون الكثير من وقته.

أهلا... شباب! قالها الصوت هذه المرة؛ الصوت الضاحك المندهش لرجل قد نسي، ولو لبرهة، أين هو وماذا ينتظره. تعالوا لتروا ماذا يمكن أن يفعل السيد جينغلز!

"يا الله" همست لنفسي. لقد شعرت كما لو كانت الرياح قد دفعتني بقوة.

"هل وجدت واحدة أخرى، أم لا؟"، سأل بروتال. "لقد وجدت ثلاثا أو أربعا".

ثم نزلت، وسلّطت الضوء على راحته الكبيرة الممتدة إليّ. لقد كانت هناك عدة شظايا من الخشب مبعثرة وكأنها لعبة جاكستروز صنعت

WWW.REWITY.COM

لأقزام. ثلاث منها كانت صفراء اللون مثل تلك التي وجدتها. وواحدة كانت خضراء وأخرى حمراء. لم تكن تلك الشظايا مدهونة ولكنها كانت ملونة بأقلام تلوين مصنوعة من الشمع.

"يا سلام"، قلتها بصوت خفيض ومهتز. "هيه. إنها قطع من تلك البكرة، أليس كذلك؟ ولكن لماذا؟ لماذا هي هناك في الأعلى؟

"عندما كنت صبيا لم أكن ضخما كما أنا الآن"، أردف بروتال. "لقد اكتسبت معظم الزيادة في حجمي بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة. وحتى ذلك الوقت كنت لا أزال نحيلا جدا. وعندما ذهبت إلى المدرسة، كنت أشعر أنني بحجم...، يمكنك أن تقول، بحجم الفأر. لقد كنت مذعورا جدا. إذا، فأنت تعرف ما الذي فعلته؟".

هززت برأسي. وفي الخارج، هبت الريح من جديد. في الزاويا الموجودة بين كمرات السقف، كانت خيوط العنكبوت تهتز في زغب متطاير كالخيوط المهترئة. إنني لم أتواجد أبدا في مكان شعرت فيه أنني مطارد بهذا الشكل، وحينها تماما، بينما كنا نقف هناك ننظر إلى البقايا المفتتة من البكرة التي سببت الكثير من المشاكل، بدأ رأسي يعرف ما أدركه قلبي منذ سار جون كوفي إلى الميل الأخضر؛ لم يعد في استطاعتي القيام بهذا العمل بعد الآن. سواء أحدث الكساد أم لم يحدث، لم أعد أستطع مشاهدة المزيد من الرجال وهم يمرون بمكتبي في طريقهم لملاقاة حتفهم. وحتى شخص واحد آخر سيعد كثيرا عليّ أن أراه.

"لقد طلبت من والدتي إعطائي أحد مناديلها"، استطرد بروتال "هكذا شعرت بأنني بكّاء وصغير، تمكنت من سحبه منها، وشم العطر الخاص بها، وتحسنت حالتي بعد ذلك".

"أتدري؟ قام ذلك الفأر بقرض بعض أجزاء تلك البكرة الملونة ليتذكر بهذا ديلاكروا؟ يا لهذا الفأر!"، ونظر إلى الأعلى. لقد اعتقدت

لبرهة أنني رأيت دموعا في عينيه، ولكن يبدو أنني كنت غير مصيب بهذا الخصوص. "أنا لم أقل أي شيء يا بول. ولكنني وجدتها في الأعلى هنا، وقد اشتممت رائحة النعناع، مثلك تماما، وأنت تعرف أن ذلك حدث لك. وأنا لا أستطيع الاستمرار في القيام بذلك. ولن أقوم به بعد الآن. إن رؤيتي لرجل آخر في أحضان ذلك الكرسي قد تقتلني. سأتقدم بطلب لنقلي إلى إصلاحية الصبية يوم الاثنين. وسيكون من الجيد إن تمكنت من الحصول على موافقة قبل وصول الشخص التالي. وإذا لم أحصل عليها، فإنني سأستقيل وأعود إلى الزراعة".

"وما الذي قمت بزراعته في حياتك، بجانب الصخور؟".

"لا يهمني هذا الأمر".

قلت له "أنا أعلم أنه لا يهمك، وأعتقد أنني سأقوم بذلك معك".

حدّق إليّ ليتأكد من أنني لم أكن ألاعبه، ثم أومأ برأسه كما لو أن الأمر قد حسم. هبت الريح من جديد، بقوة هذه المرة، مما أدى إلى صرير الكمرة واستقرارها، وتلفت كلانا بقلق نحو الجدران المبطنة. لقد اعتقدت للحظة أنه في إمكاننا سماع ويليام وارتون - وليس بيلي ذا كيد، ليس هو، لقد كان وايلد بيل بالنسبة إلينا من اليوم الأول في ذلك المبنى - يصرخ ويضحك، يخبرنا أننا سنكون أكثر من سعداء لتخلصنا منه، ويخبرنا أننا لن ننساه أبدا. لقد كان على حق بالنسبة إلى تلك الأمور.

بالنسبة إلى ما اتفقت عليه مع بروتال في تلك الليلة في حجرة الحبس الانفرادي، تحول الأمر ليصبح في الأغلب كما لو كنا قد تعاهدنا في ما يتعلق بتلك الشظايا الصغيرة الملونة من الخشب. لم يشترك أي منا بعد ذلك في عملية إعدام أخرى... وكان جون كوفي هو الأخير.

WWW.REWITY.COM

الجزء الثاني

الفأر في الميل الأخضر

www.rewity.com
RAYAHEEN

WWW.REWITY.COM

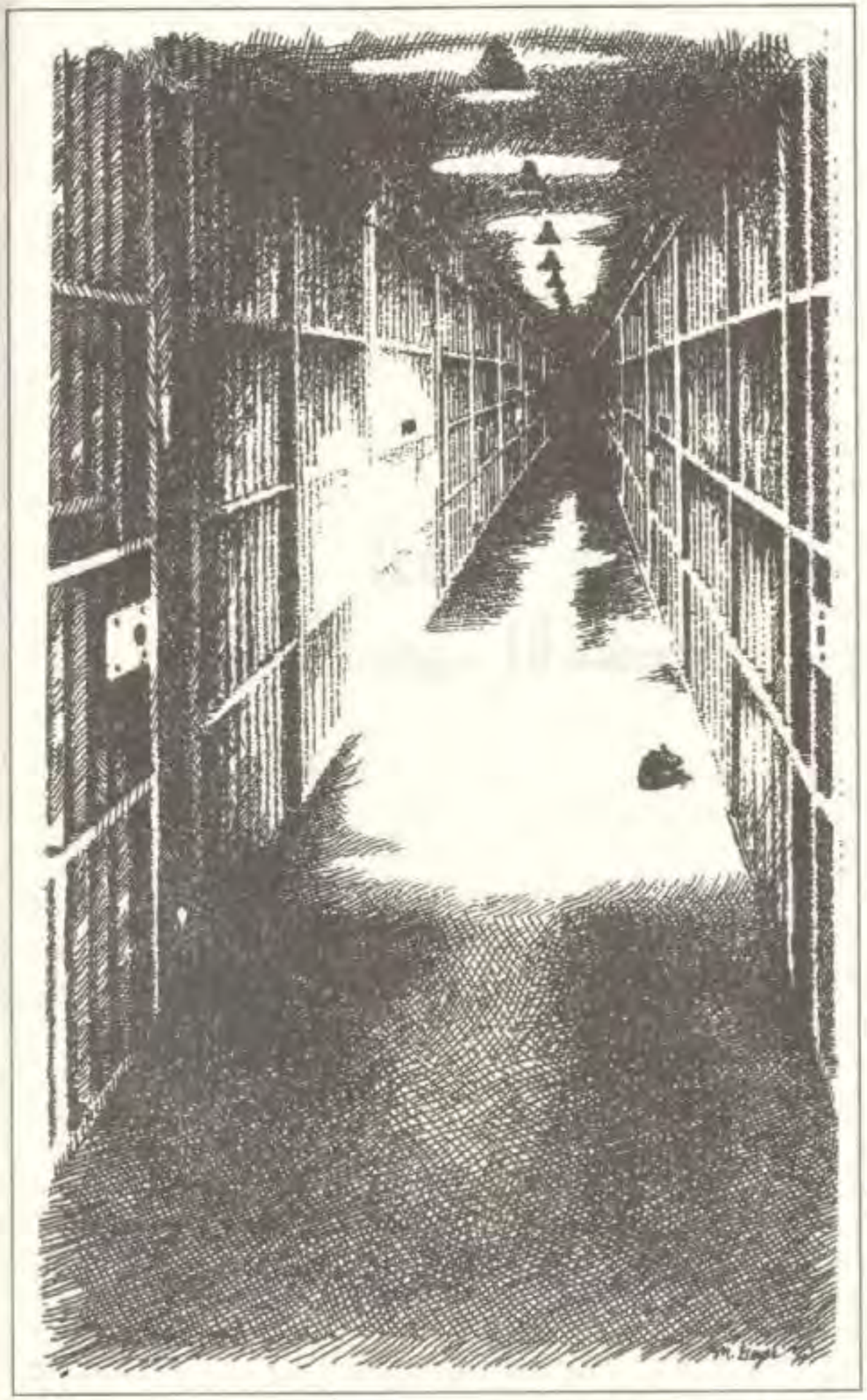

1

يسمون دار المسنين هنا بجورجيا سنايبز... وهو المكان الذي آل إليه مصيري الآن. تبعد الدار حوالى الستين ميلا عن أتلانتا، وأكثر من مئتي سنة ضوئية عن الحياة كما يعيشها أكثر الناس، لنقل وبصراحة إنني أقصد الذين تعدّوا سنّ الثمانين. وعليك يا من تقرأ هذا أن تنتبه إلى أن مكانا مثل هذا لن يكون بانتظارك في المستقبل. إنه ليس بالمكان القاسي، ليس أغلبه هكذا على الأقل؛ فهناك تلفاز متصل بقنوات الكابل، والطعام جيد (مع أنه من الصعب أن تجد في هذا المكان رجلا قادرا على مضغه)، ولكنه وبصورة ما أشبه بذلك العنبر (هـ) هناك في كولد ماونتن.

بل إن هنا زميلا يذكرني بعض الشيء ببيرسي ويتمور، والذي كان قد حصل على منصبه في الميل الأخضر لقرابته بحاكم الولاية. ولكنني أشك في أن يكون هذا الزميل ذا صلة بأي شخص مهم، حتى ولو كان يتصرف على هذا الأساس. براد دولان... هذا هو اسمه. يمشط شعره على الدوام، مثلما كان يفعل بيرسي، ودوما تجد في جيبه الخلفي أي شيء يصلح للقراءة. كان بيرسي يقرأ مجلات من قبيل آرجوسي و مينز أدفينتشر؛ أما براد فيقرأ تلك الكتب ذات الأغلفة الورقية الصغيرة والتي تحوي النوادر بأنواعها... العادية والقذرة. تجده دائما يسأل من حوله أسئلة طريفة من قبيل... لماذا عبر الفرنسي الطريق؟ أو كم بولنديا نحتاج حتى نفك مصباحا كهربيا؟ أو كم حامل تابوت يوجد في جنازة هارلم؟ وهو مثل بيرسي، فبراد أبله يعتقد أن لا شيء مضحك ما لم يكن فيه شيء من الدناءة.

WWW.REWITY.COM

قال لي براد شيئا قبل أيام وجدت فيه ضربا من الذكاء في الحقيقة، لكنني لا أرجع إليه الكثير من الفضل في ما قاله؛ وحسب المثل: "حتى الساعة المعطلة تعطيك الوقت الصحيح مرتين في اليوم". "أنت محظوظ لأنك لم تصب بألزهايمر، بولي"، كان هذا ما قاله لي. وأنا أمقت أن يناديني بولي، لكنه لا يتوقف عن هذا على كلّ حال؛ فتوقفت عن الطلب منه ألا يفعل. بالمناسبة، هناك الكثير من الأقوال المأثورة - وهي ليست أمثالا بالضرورة - والتي تنطبق على براد دولان؛ "يمكنك أن تقود الحصان إلى مكان الماء، لكنك لن تستطيع أن تجبره على الشرب"، هذه واحدة؛ "يمكنك أن تلبسه ملابسه ولكنك لن تستطيع أن تجبره على الخروج"، وتلك ثانية. فهو لا يقل عن بيرسي عنادا.

كان ينظف أرضية القاعة المشمسة حينما علّق على موضوع ألزهايمر هذا، كنت حينها أراجع الصفحات التي فرغت من كتابتها. كنت قد كتبت مسوّدات صفحات كثيرة، وأعتقد أنه لا يزال هناك المزيد والمزيد قبل أن أنتهي. "أتدري ما هي حقيقة مرض ألزهايمر؟".

فقلت "كلا، لكنني متيقن من أنك ستخبرني، براد".

"إنه إيدز المسنين"، قالها وأخذ يضحك، تلك الضحكة الأشبه بالحازوقة، والتي كثيرا ما يضحكها على تلك النكات الغبية التي يلقيها.

لم أضحك... لأن ما قاله أصاب وترا حساسا داخلي. ليس لأنني غير مصاب بألزهايمر؛ مع كثرة عدد المصابين به هنا في دار جورجيا سنايبز الجميلة، بل إنني أعاني من مشاكل الذاكرة التي يعاني منها أي مسنٍّ عادي. وهي مشاكل تتعلق بالأزمنة أكثر منها بماهيات الأشياء من حولي. وحينما طالعت ما كتبته حتى الآن، خطر لي أنني أتذكر كل شيء حدث في العام 1932؛ ولكن ترتيب الأحداث مشوش في عقلي. وبالرغم من ذلك، ولو توخيت الدقة، فسأتمكن من ترتيبها كما

حدثت... تقريبا.

لقد أتى جون كوفي إلى العنبر (هـ) والميل الأخضر في أكتوبر من تلك السنة، وهو مدان لقتله توأم ديتيريتش اللتين كانتا تبلغان من العمر تسع سنوات. كان ذلك هو أهم تاريخ لديّ، ولو أبقيته كمحور للأحداث، فسأتمكن من ترتيبها. أعقب كوفي حضور ويليام وارتون، أو وايلد بيل كما أسميناه؛ وكان ديلاكروا قد جاء قبل ذلك. وكذلك الفأر، ذلك الذي أسماه بروتوس هويل أو بروتال، ويلي ستيمبوت والذي أسماه ديلاكروا في نهاية المطاف بالسيد جينغلز.

أيا كان اسمه، فإن الفأر أتى أولا، حتى قبل ديل. لم يكن الصيف قد انقضى بعد حينما حضر، وكان لدينا سجينان آخران في الميل الأخضر الزعيم، آرلن بيتربك، والرئيس، آرثر فلاندرز.

لقد أحب ديلاكروا هذا الفأر اللعين حبا جما، إلا أن بيرسي كان يمقته.

كان يمقته منذ أول لحظة رآه فيها...

WWW.REWITY.COM

2

عاد الفأر بعد حوالى ثلاثة أيام من مطاردة بيرسي له أول مرة في الميل الأخضر. كان دين ستانتون وبيل دودج يتحدثان في السياسة، وهو ما كان يعني في تلك الأيام أن الحديث يدور حول روزفلت وهوفر هربرت، وليس جي إدغار. كانوا يأكلون قطع بسكويت مملح من صندوق اشتراه دين من توت توت العجوز منذ ساعة تقريبا. كان بيرسي واقفا عند مدخل المكتب يجرب أدراجا بالهراوة التي يحبها كثيرا، وهو منصت إلى ما يدور. يقوم بسحب تلك الهراوة من ذلك الجراب الذي كان قد حصل عليه في مكان ما، ثم يبرمها (أو يحاول ذلك؛ حيث إنها في معظم الأحيان كانت تسقط منه بسبب السوط الذي كان يلفه على رسغه)، ثم يعيد وضعها في الجراب. لقد كنت في إجازة تلك الليلة، إلا أنني حصلت على كل المعلومات من دين في الليلة التالية.

أتى الفأر إلى الميل الأخضر كما كان يأتي من قبل، بقفزات سريعة، ثم يتوقف فيبدو وكأنه يتفقد الزنزانات الخاوية. بعد فترة وجيزة قد يقفز إلى الأعلى، بحرية تامة، كما لو كان يعرف جيدا أن بانتظاره الكثير من البحث والتنقيب، وقد كان أهلا لذلك.

كان الرئيس مستيقظا هذه المرة، يقف عند باب زنزانته. لقد كان هذا الرجل حالة خاصة، ففي استطاعته أن يبدو أنيقا حتى في الأحوال الكئيبة للسجن الذي كان فيه. لقد علمنا من الهيئة التي كان يبدو عليها أنه لم يخلق ليعدم على كرسي سباركي العجوز هذا، وقد كنا على صواب؛ فبعد أقل من أسبوع واحد من مطاردة بيرسي لذلك الفأر، كانت عقوبة الرئيس قد خُفِّضت إلى المؤبد، وانضم إلى المجموعة المقيمة.

"أقول لكم!" نادى الرجل. "يوجد فأر هنا! ما نوع المكان الذي تديرونه يا شباب على كل حال؟"، كان يبدو ضاحكا، إلا أن دين قال إنه يبدو أيضا غاضبا، كما لو كانت صدمة جريمة القتل غير كافية لنزع التعصب من روحه. كان الرجل رئيسا إقليميا لمؤسسة تسمى شركة الجنوب الأوسط للعقارات، وتَوَسَّم في نفسه الذكاء الذي يمكنه من الإفلات من جريمة إلقاء والده الكهل الخرف من نافذة الطابق الثالث، وقبض مبلغ بوليصة التأمين المزدوج على حياته. كان غير مصيب في هذا الخصوص، ولكن عدم إصابته لم تكن كبيرة.

قال بيرسي "اخرس يا تافه". ولكن بشكل تلقائي تماما. كانت عيناه على الفأر. ثم أعاد الهراوة إلى جرابها، وأخرج إحدى مجلاته، إلا أنه عاد، وألقى بالمجلة على مكتب المناوبة، وأخرج الهراوة مرة أخرى من الجراب. بدأ ينقر بها بشكل عفوي على مفصل يده اليسرى.

قال دودج "الوغد، أنا لم أرَ فأرا هنا قبل الآن".

قال دين "آه، إنه فأر لطيف، وليس خائفا على الإطلاق".

"كيف عرفت ذلك".

"لقد كان هنا في إحدى الليالي. ورآه بيرسي أيضا. يسميه بروتال ويلي القارب البخاري".

نظر بيرسي بتهكم، ولكنه لم يقل شيئا. كان ينقر بهراوته على ظهر يده بشكل أسرع الآن.

قال دين "شاهد ما يحدث، لقد توجه إلى أعلى المكتب الذي أمامه. أريد أن أرى إن كان سيفعلها مرة أخرى".

لقد فعلها، وانطلق مبتعدا عن الرئيس، كما لو أن رائحة رئيسنا قاتل والده لم تعجبه. تفحص زنزانتين خاويتين، وأسرع نحو إحدى الفرش ليتشممها، ثم عاد أدراجه إلى الميل الأخضر. لقد كان بيرسي يقف هناك طوال الوقت، ينقر وينقر ولا يتكلم، على سبيل التغيير، منتظرا

WWW.REWITY.COM

منه أن يأسف على عودته. فهو يريد أن يلقنه درسا.

"إنه لشيء حسن يا شباب ألا تكونوا بحاجة إلى أن تضعوه في أحضان سباركي، هناك متسع من الوقت لوضع الكلابات واعتمار القبعة".

ظل بيرسي صامتا، إلا أنه قام بالإمساك بهراوته بين أصابعه ببطء، كما لو كان يمسك بسيجار من النوعية الفاخرة.

توقف الفأر حيث كان يقف قبل ذلك، على مسافة لا تزيد عن ثلاث أقدام من مكتب المناوبة، وهو ينظر إلى الأعلى نحو دين كالسجين خلف الحاجز. التفت نحو بيل للحظة، ثم عاد ينظر إلى دين. يبدو أنه لم يلاحظ وجود بيرسي على الإطلاق.

قال بيل "إنه وغد صغير شجاع، يستحق أن يوصف بذلك"، ورفع صوته قليلا. "هي! هي! ويلي القارب البخاري!".

تراجع الفأر قليلا وهز أذنيه، ولكنه لم يجرِ، أو حتى يظهر أي علامة عن رغبته بالجري.

قال دين "راقب الآن ما سيحدث"، وهو يتذكر كيف أطعم بروتال الفأر من شطيرة اللحم المحفوظ. "أنا لا أعرف إن كان سيفعل ذلك مجددا، إلا أنه -" وقام بكسر قطعة من البسكويت المملح، ووضعها على الأرض أمام الفأر. نظر الفأر فقط إلى الكسرة البرتقالية بعينيه السوداوين لثانية أو ثانيتين، وكان شاربه الرفيع يهتز وهو يشتمّ القطعة التي أمامه. ثم تقدم، وأخذ قطعة البسكويت بيديه، وجلس وبدأ يأكلها.

قال بيل متعجبا "إنه يأكل كما يأكل قسيس في أبرشيته ليلة السبت!".

فعلّق بيرسي بقوله "بالنسبة إليّ، يبدو كزنجي يأكل بطيخا". إلا أن أحدا من الحارسين لم يعره اهتماما. كذلك لم ينتبه رئيس السجن إليه. انتهى الفأر من أكل البسكويت، ولكنه ظل جالسا، وبدا رصينا في

جلسته على ذيله الملتوي تحته.

قال بيل "دعني أحاول". ثم كسر قطعة أخرى من البسكويت، وانحنى أمام المكتب، ووضعها بحرص. شمها الفأر ولكنه لم يمسّها.

قال بيل "هه، لا بد من أنه شبع".

قال دين "لا، إنه يعلم أنك أفّاق، هذا كل ما في الأمر".

"أفّاق، أنا؟ أنا أحب ذلك! أنا أمكث هنا قدر ما يمكث تيرويليجر! وربما أكثر منه!".

قال دين وهو يبتسم "اهدأ، أيها الرجل العجوز، اهدأ، لكن انظر لترى إن كنت محقا أم لا". ألقى بقطعة أخرى من البسكويت جانبا، وهو واثق من النتيجة. قام الفأر بالتقاط القطعة، وبدأ في الأكل مجددا، وظل متجاهلا تماما ما قام به دودج. إلا أنه قبل أن يأخذ قضمة أو اثنتين، قذف بيرسي بهراوته نحوه، موجها إياها كالحربة.

كان الفأر هدفا صغير الحجم، ولنعطه حقه فقد كانت رمية خبيثة جيدة، وكان يمكن أن تطيح برأس ويلي، لولا أن رد فعل الفأر كان حادا كشظايا الزجاج المكسور. لقد غطس - نعم، تماما كما قد يفعل الإنسان - وأسقط قطعة البسكويت. لقد مرت الهراوة الصلبة الثقيلة فوق رأس الفأر وظهره حتى كادت تلامسهما مما جعل جسمه ينكمش (هذا ما قاله دين، على كل حال، وهذا ما تقبلته، على الرغم من عدم تأكدي من تصديقي له)، ثم أصابت مشمع الأرضية الأخضر، وارتدت صوب قضبان زنزانة خاوية. لم ينتظر الفأر ليرى إذا ما كان ذلك قد حدث بطريق الخطأ، فربما تذكر حادثة سابقة في مكان ما، وبسرعة البرق، استدار، وانطلق في الممر باتجاه غرفه الحبس الانفرادي.

زأر بيرسي بخيبة أمل - كان يعلم أن الفأر قد اقترب جدا - وعاد لمطاردته من جديد. أمسكه بيل دودج من ذراعه، ربما بشكل فطري، إلا أن بيرسي جذب نفسه بعيدا عنه. قال دين إنه يظل هناك احتمال أن

WWW.REWITY.COM

تكون تلك المسكة هي التي أنقذت حياة ويلي القارب البخاري، فقد كان لا يزال قريبا جدا. لم يرد بيرسي قتل الفأر فحسب بل سحقه أيضا، فانقضّ عليه بوثبات كوميدية واسعة، كالغزالة، يدب في الأرض بحذاء العمل الأسود الثقيل. بالكاد تمكن الفأر من تفادي الوثبتين الأخيرتين لبيرسي، واندفع بشكل متعرج في اتجاه، ثم بشكل متعرج في اتجاه آخر، وانسل تحت الباب ساحبا ذيله القرنفلي بسرعة، ثم اختفى.

صرخ بيرسي "اللعنة!"، وصفع الباب براحة يده المفتوحة. ثم أخذ يبحث في مفاتيحه، بما ينذر أنه سيدخل غرفة الحبس الانفرادي ويواصل المطاردة.

توجه دين إلى الممر خلفه، وهو يمشي ببطء متعمد ليتمكن من السيطرة على أعصابه. لقد كان جانب منه يود أن يضحك على بيرسي، هذا ما قاله لي، إلا أن جانبا آخر أراد أن يمسك بالرجل، ويطيح به يمينا ويسارا، ويلصقه بباب غرفة الحبس الانفرادي، ويوسعه ضربا حتى يغيب عن الوعي. كان في الغالب يريد ترويعه؛ فقد كانت وظيفتنا في العنبر (هـ) هي الحدّ من نشاط رمبس، وهو عمليا الاسم الأوسط لبيرسي ويتمور. لقد كان العمل معه بمثابة محاولة إبطال مفعول قنبلة مع وجود شخص خلفك يقوم بين الفينة والأخرى بقرع زوج من الصنجات. باختصار، إنه مزعج. قال دين إنه كان بمقدوره رؤية هذا الانزعاج في عيني بيتربك... وحتى في عيني الرئيس، على الرغم من أن هذا السيد كان في العادة باردا كعتاة القصص التاريخية.

كما كان هنالك شيء آخر أيضا. ففي جزء من عقله، كان دين قد بدأ بالفعل بتقبّل الفأر، ربما ليس كصديق، وإنما باعتباره جزءا من الحياة في العنبر. وهو ما جعل ما فعله بيرسي وما كان يحاول فعله خطأ. حتى ولو كان ما يفعله موجها لفأر من الفئران. إن حقيقة كون بيرسي لن يفهم أبدا كيف كان ذلك خطأ، هي أبلغ مثل لكونه غير صالح تماما

للوظيفة التي اعتقد أنه يؤديها.

حالما وصل دين إلى نهاية الممر، كان قد تمكن من السيطرة على أعصابه مرة أخرى، وعرف مدى رغبته بمعالجة الأمر. فالشيء الوحيد الذي كان لا يتحمله بيرسي هو أن يبدو غبيا، كنا جميعا نعلم ذلك.

قال وهو يبتسم ابتسامة باهتة "يا للحسرة، هزمت مرة أخرى". وذلك بهدف إغاظة بيرسي.

رمقه بيرسي بنظرة قاسية، ورفع بيده شعرة عن جبينه. "انتبه إلى كلامك، يا ذا العيون الأربع. إنني حانق. فلا تجعل الأمر أسوأ!".

قال دين "إذا، فهو يوم الانتقال مرة أخرى، أليس كذلك؟"، قالها وهو لا يضحك بشكل واضح... ولكنه كان يضحك بعينيه. "حسنا، عندما تخرج كل شيء هذه المرة، هل من الممكن أن تمسح الأرض؟".

نظر بيرسي إلى الأرض. ونظر إلى مفاتيحه، وفكّر في أشياء أخرى طويلة وساخنة وغير مجدية بالحجرة ذات الجدران الناعمة، بينما وقف الجميع حوله يتابعونه... رئيس السجن والرئيس المسجون أيضا.

قال بيرسي "ملعون أنا إذا كنت أفهم ما الممتع في الأمر". لسنا بحاجة إلى فئران في عنبر الزنزانات، فلدينا هنا بالفعل ما يكفي من الهوام، من دون إضافة الفئران".

قال دين "كما ترى، يا بيرسي"، رافعا يديه إلى الأعلى. كانت هنالك لحظة اعتقد فيها أن بيرسي سيتبع خطاه، هذا ما قاله لي في الليلة التالية.

عندئذ هرول بيل دودج، وهدّأ الموقف. قال بيل "أرى أن تلك قد سقطت منك، بوصة واحدة، وكنت قد كسرت ظهر ذلك الوغد الصغير". وناوله هراوته.

اتسع صدر بيرسي عند سماعه ذلك. فرد بيرسي "بلى، لم تكن رمية سيئة"، وقام بحرص بإعادة هراوته داخل جرابها. "لقد كنت الرامي

WWW.REWITY.COM

في المدرسة الثانوية. رميت رميتين من دون إصابة الكرة".

تساءل بيل "هل هذا معقول؟"، وكانت نبرة الاحترام كافية لإتمام تسوية الموقف (بالرغم من أنه غمز لدين عندما استدار بيرسي).

قال بيرسي "بلى، بل ورميت رمية إلى الأسفل في نوكسفيل. إن فتيان المدينة أولئك لم يدركوا ما ألمّ بهم. كان يمكن أن تكون مباراة مثالية لو لم يكن الحكم أفّاقا هكذا".

كان بإمكان دين المغادرة عند هذا الحد، إلا أنه كان رئيسا لبيرسي، وجزء من وظيفة هذه الرئاسة هو أن يقوم بالتدريب، وفي ذلك الحين - قبل القهوة، وقبل ديلاكروا - فهو لا يزال يعتقد أن بيرسي قد يكون قابلا للتعلم. لذا، فقد قام بمد يده، وأمسك برسغ الرجل الأصغر. "أنت بحاجة إلى التفكير في ما كنت تفعله الآن". كانت نيته، كما قال في ما بعد، أن يبدو جادا، ولكن ليس معترضا. أو على الأقل ليس معترضا بدرجة كبيرة.

لم ينجح ذلك من قبل إلاّ مع بيرسي. إنه قد لا يتعلم... ولكن في النهاية سيتعلم.

"أقول، يا ذا العيون الأربع، إنني أعلم ماذا كنت أفعل؛ أحاول النيل من هذا الفأر! ماذا تكون، أعمى؟".

قال دين "لقد أخفت بيل لدرجة كبيرة أيضا، وأنا أيضا، وهما كذلك"، مشيرا باتجاه بيتربك وفلاندرز.

"وماذا في ذلك؟" تساءل بيرسي، واستقام واقفا. "إنهم ليسوا في الحضانة، إذا كنت لم تلاحظ. بالرغم من أنكم يا شباب تعاملونهما على هذا الأساس نصف الوقت".

تمتم بيل قائلا "حسنا، أنا لا أحب أن يخيفني أحد، وأنا أعمل هنا يا ويتمور، في حال كنت لم تلاحظ. أنا لست واحدا من أصحابك الأفّاقين".

رمقه بيرسي بنظرة ضم فيها عينيه وكان فيها مسحة شك.

قال دين وكان لا يزال محافظا على صوته منخفضا "نحن لم نعد نخيف أمثالهما (الرئيس والزعيم) أكثر مما يجب علينا، لأنهم يثنون تحت الكثير من الضغط. إن الرجال الواقعين تحت ضغط كبير يمكن أن ينفجروا. ليؤذوا أنفسهم. ويؤذوا الآخرين. وفي بعض الأحيان ليسببوا المشاكل لأناس مثلنا، أيضا".

ارتجف فم بيرسي عند تلك الكلمات. المشاكل كانت فكرة لها سلطان عليه. افتعال المشاكل كان مقبولا. أما الوقوع فيها فلم يكن هكذا.

قال دين "إن عملنا هو الكلام، وليس الصراخ. إن الرجل الذي يصرخ في السجناء هو رجل فقد السيطرة".

كان بيرسي يعلم من كتب هذا السيناريو؛ وهو أنا.

لم يكن هناك حب مفقود بين بيرسي ويتمور وبول إيدجكومب، وكان الوقت لا يزال صيفا، أتذكر أنه كان قبل بدء فعاليات الاحتفالات الحقيقية بوقت طويل.

قال دين "يمكن أن تكون أمورك أفضل إذا ما فكّرت في هذا المكان كما لو أنه جناح عناية مركزة في مستشفى. يفضل أن يكون هادئا -!".

رد بيرسي قائلا "أنا أفكّر فيه كدلو فيه بول لإغراق الفئران، وهذا كل شيء. والآن دعني أذهب".

ثم أفلت نفسه من يد دين، وخطا بينه وبين بيل، وسار بتعالٍ عبر الدهليز. سار قريبا جدا من جانب الرئيس؛ بحيث كان بإمكان فلاندرز الوصول إليه والإمساك به وربما خنقه بهراوته الخشبية الصلبة، إذا ما كان فلاندرز من هذا النوع من الرجال. لم يكن من هذا النوع بالطبع، إلا أن الرئيس ربما كان هكذا. فالرئيس، إذا ما أعطي الفرصة، ربما

WWW.REWITY.COM

كان يتولى عملية الضرب تلك لمجرد تلقين بيرسي درسا. إن ما ذكره دين لي عن هذا الموضوع عندما روى لي هذه القصة في الليلة التالية قد التصق بذاكرتي منذ ذلك الوقت، حيث ظهر بعد ذلك أنه نوع من التوقع. قال دين "إن ويتمور لا يفهم أن لا سلطة له عليهم، وأنه ليس هناك شيء مما يفعله يمكنه بالفعل جعل الأمور أسوأ حالا بالنسبة إليهم، فلا يمكن إعدامهم بالكهرباء سوى مرة واحدة فقط. وحتى يقوم بإعادة حساباته في هذا الموضوع، فسيظل خطرا على نفسه وعلى كل شخص موجود هنا".

دخل بيرسي مكتبي، وصفق الباب خلفه.

قال بيل دودج "يا الله، أليس هو ذا الخصيتين المتورمتين الملتهبتين بشدة".

قال دين "بل أنت لا تعرف سوى نصف الحقيقة".

فرد بيل "آه، انظر إلى الجانب المضيء". لقد كان دائما ما يقول للناس أن ينظروا إلى الجانب المضيء؛ ووصل الأمر إلى الرغبة بلكمه على أنفه كلما خرجت تلك الكلمات من فمه. "على الأقل، هرب فأرك المخادع".

قال دين "نعم، ولكننا لن نراه بعد الآن. أتصور أن بيرسي اللعين قد أخافه هذه المرة مما يجعله يختفي إلى الأبد".

3

كان هذا رأيا منطقيّا إلا أنه سرعان ما أثبت عدم صحته. فلقد عاد الفأر في الأمسية التالية، والتي تصادف أنها كانت أولى ليلتين في إجازة بيرسي ويتمور قبل أن ينتقل إلى وردية المدافن.

ظهر ويلي ستيمبوت قرابة الساعة السابعة. كنت هناك أترقب عودته للظهور؛ وكذلك كان دين. ومعنا هاري تيروويليجر. وكان الأخير جالسا إلى المكتب. كانت نوبتي خلال ساعات النهار، إلا أنني بقيت لساعة إضافية مع الزعيم، فموعد تنفيذ حكم إعدامه يقترب. كان بيتربك يبدو ساكن النفس، وهي تقاليد قبيلته على كل حال، إلا أنني أحسست بذلك الخوف من النهاية الحتمية يتنامى داخله وكأنه زهرة سم. لذا، كان من الضروري أن نتحدث سويا. يمكنك أن تتحدث معهم خلال ساعات النهار ولكن الحديث لا يكون له أي وقع، بالنظر إلى ذلك الصياح والثرثرة (والمشاحنات بالطبع) في أنحاء ساحة التمارين، وضجيج ماكينات السحق في ورشة الخردة، وصياح حارس بين الحين والآخر معلنا عن أي أمر يخطر بباله أن يضايق غيره بتنفيذه. يهدأ الجو قليلا بعد الساعة الرابعة، ويخيم السكون نسبيا بعد السادسة. أما ما بين السادسة والثامنة فهو أنسب أوقات اليوم. بعدها تبدأ تلك الأفكار التي كانت بعيدة عن وعيهم بالعودة لتنهش عقولهم نهشا، وأنا أشعر بذلك من خلال نظرة إلى أعينهم... إنها أشبه بظلال الأصيل... من الأفضل أن توقفها عند حدها. يسمعون بالطبع ما تقوله، إلا أن كلامك في ذلك الوقت يفقد أي معنى يحمله. فهم بعد الثامنة يتهيئون لخيالات الليل، وكيف سيكون حالهم وذلك الغطاء يطوق رؤوسهم، وما هي رائحة

WWW.REWITY.COM

الهواء داخل ذلك الكيس الأسود بعدما ينزلون به فوق وجوههم التي تصببت عرقا.

لكنني وجدت الزعيم هادئ البال. حكى لي عن زوجته الأولى، وكيف أنهما قاما ببناء منزل ريفي في مونتانا. كانت تلك أسعد أيام حياته، هكذا وصفها. كان الماء من النقاء والبرودة لدرجة أنك لا تشعر بفمك كلما شربت منه.

قال لي "أنت يا سيد إيدجكومب. هل تعتقد أن المرء لو ندم حقًا على ما اقترفه، فسيمكنه أن يعود إلى تلك الأوقات الأسعد في حياته وأن يحيا هناك إلى الأبد؟ هل ذلك هو النعيم؟".

قلت إنني لا أعتقد بالشيء نفسه. وهو أمر لا أندم عليه. علمتني أمي وأنا صغير الكثير عن تلك الأمور، أما ما أعتقد به فهو ما ذكره الله في كتابه بشأن القتلة. فالجحيم مصيرهم، يتحرقون فيها إلى أن يأذن الله بقيام الحساب. وحينها قد يغفر لهم. إلا أنني لم ألمح بشيء من هذا لبيتربك، أو لأي منهم. ولكنني أظن أنهم متيقنون من هذا، وإن كانوا يحاولون الاقتناع بنقيضه.

كان الزعيم يبتسم حينما تركته، ربما يتذكر ذلك المنزل الريفي في مونتانا وزوجته ترقد بجوار المدفأة. سرعان ما سيؤول مصيره إلى نيران أقوى... أنا متيقن من هذا.

عدت إلى الممر، وأخبرني دين عن مشاحنته مع بيرسي في الليلة الماضية. أعتقد أنه قد تأخر حتى يحكي لي عن هذا، فاستمعت إليه بإنصات. كنت دوما ما أنصت باهتمام كلما تعلّق الموضوع ببيرسي، لأنني أتفق مع دين تماما بشأنه؛ كنت أرى أن بيرسي من تلك النوعية التي تسبب المتاعب أينما حلت، سواء لمن حوله أو حتى لنفسه.

بينما كان دين ينهي حكايته، اقترب منا توت توت العجوز بعربته الحمراء، فابتعنا منه بعض الشطائر والفوشار. كان دين يبحث عن بعض

الفكة في جيبه وهو يقول بأننا لن نرى ويلي ستيمبوت من جديد، وأن بيرسي ويتمور اللعين قد أرعبه إلى الأبد، حينما قال توت توت، "إذا، ما هذا؟".

نظرنا، فوجدنا الفأر... بشحمه ولحمه، وهو يتهادى في منتصف الميل الأخضر. اقترب بعض الشيء؛ ثم توقف، وهو يتلفت ناظرا حوله بعينيه المتمتمتين اللامعتين، ثم اقترب من جديد.

فقال الزعيم "أنت أيها الفأر!"، فتوقف الفأر ينظر إليه، وشاربه يتراقص. أؤكد لك أن هذا المخلوق يدرك أن أحدا ينادي عليه. "هل أنت روح مرشدة؟".

ألقى بيتربك للفأر قطعة من الجبن تبقت من عشائه. فسقطت مباشرة أمام الفأر الذي لم يعرها اهتماما، بل استمر في طريقه عبر الميل الأخضر، يتفحص الزنزانات الخاوية.

نادى الرئيس من مكمنه "أيها الرئيس إيدجكومب! هل تعتقد أن ذلك الوغد الصغير يعرف أن ويتمور ليس هنا؟ أنا أعتقد هذا!".

شعرت بالأمر نفسه... ولكنني لم أكن لأصرح بمثل هذا علانية.

خرج هاري إلى القاعة، وهو يحكم تزرير سرواله كما اعتاد أن يفعل عندما يخرج من دورة المياه، ووقف في مكانه فاغر الفيه. كان توت توت بدوره يحدق، وعلى وجهه ابتسامة زادت فمه الخالي من الأسنان قبحا.

فقد توقف الفأر عند نفس البقعة المعتادة، وهو يلف ذيله تحته، وأخذ ينظر إلينا. تذكرت مجددا صورا كنت قد رأيتها لقضاة وهم يتلون أحكامهم على المساجين معدومي الحيلة... ولكنني لم أرَ من قبل مسجونا في مثل ضآلة جسمه ونظرته الجريئة هذه. إنه ليس بسجين بالطبع؛ ففي وسعه أن يذهب حيث يشاء. إلا أن تلك الصورة لم تفارق خيالي، وخطر لي مجددا أن أغلبنا سنشعر بنفس هذه الضآلة حينما يقترب

WWW.REWITY.COM

موعد حسابنا يوم القيامة، إلا أن قليلين لهم نفس هذه النظرة الجريئة.

قال توت توت "أقسم لكم. ها هو يقف أمامكم بكل جرأة الدنيا".

فقال له هاري "إنك لم ترَ شيئا بعد، توت... التقط هذه". مد يده في جيبه فأخرج قطعة من كعكة القرفة كانت مغلفة بورق مصقول. كسر قطعة، وألقى بها إلى الأرض. كانت قاسية جافة حتى ظننت أنها سترتد بعيدا عن الفأر، إلا أنه مد لها يدا، بحركة غير مبالية وكأنه رجل يبعد ذبابة في سأم، فأسقطها أرضا بجانبه.

ضحكنا جميعا إعجابا ودهشة، وكان لصوت ضحكاتنا المفاجئة أن يدفع الفأر إلى الهرب، إلا أنه لم يحرك ساكنا. بل التقط القطعة بين مخالبه، وأخذ يلعقها، ثم أسقطها لينظر إلينا، كما لو أنه يخبرنا بأنها طيبة المذاق، ولكن ما الذي بجعبتكم غير هذا؟

فتح توت توت عربته، وأخرج منها شطيرة، وأزاح عنها الخبز، واستقطع قطعة من النقانق.

فقال دين "لن يتناولها".

فتساءل توت توت بدهشة "ما الذي تعنيه؟ هل تعتقد أن أي فأر يمكنه أن يتجاهل النقانق أينما وجدها. أنت مجنون يا صاح!".

إلا أنني كنت أعلم أن دين على حق، وأرى على وجه هاري الشيء نفسه. فهناك أنواع من النقانق، تلك التي من لحم خالص، والأخرى الممزوجة. ويبدو أن هذا الفأر يمتلك القدرة على التمييز بينها.

ألقى توت توت العجوز بقطعة النقانق، وبالفعل تجاهلها الفأر؛ بعدما تشممها مرة قبل أن يقترب أكثر.

فقال توت توت وكأنما وجد في هذا إهانة له "يا لي من وغد".

فمددت له يدي قائلا "أعطها لي".

"هي ذاتها؟".

"نفسها... وسأدفع لك ثمنها".

ناولني توت توت إياها. أزحت الخبز، وقطعت قطعة أخرى من النقانق، ثم ألقيت بها أمام مكتب المناوب. فاقترب منها الفأر على الفور. والتقطها بين مخالبه، وبدأ يأكل. وسرعان ما اختفت قطعة النقانق.

فصاح توت توت "تبا لي! ناولني هذه عليك اللعنة!".

اختطف مني الشطيرة، وقطع قطعة أكبر بكثير من النقانق، ثم ألقى بها بقرب الفأر حتى إنها كادت تسقط على رأس ويلي ستيمبوت. تراجع مجددا، وهو يتشمم الهواء (من المؤكد أن فأرا مثله لم يحظَ بمثل هذه القطعة من النقانق في زمن الكساد هذا... ليس في ولايتنا على الأقل)، ثم نظر إلينا.

فقال له توت توت وهو أشد إحساسا بالإهانة من ذي قبل "هيا... تناولها! ما الذي تفعله؟".

تناول دين الشطيرة، وأسقط قطعة من النقانق؛ بدا الأمر حينها وكأنما هي خدمة عامة يشارك فيها الجميع. فالتقطها الفأر من فوره ليسقطها أرضا. ثم استدار، وعاد أدراجه عبر الممر إلى غرفة الحبس الانفرادي، وفي الطريق توقف بما يكفي لتفحص زنزانتين فارغتين ولجولة تفقدية لزنزانة ثالثة. خطر لي مجددا أنه كان يبحث عن شخص بعينه، ولكنني طردت هذا الخاطر بشيء من الاقتناع بصحته هذه المرة.

قال هاري "لن أبوح بشيء من هذا". لم أستطع أن أحدد ما إذا كان يقول ذلك مازحا أم لا. "هذا لأن ما رأيناه لا يهم أحدا. ولأن أحدا لن يصدقني الآن".

بينما قال توت توت "لم يأكل سوى من أصحابك فقط". هز رأسه غير مصدق، ثم مال يلتقط ما أنف الفأر من الاقتراب منه، ورمى به بين فكيه، ثم أخذ يحاول مضغها بفم لا أسنان فيه. "أخبروني الآن... ما الذي دفعه لفعل ما فعله؟".

WWW.REWITY.COM

فقال هاري "بل السؤال الأهم هو... كيف عرف أن بيرسي غير موجود؟".

قلت "بل لم يعرف. كانت مجرد صدفة أن يخرج الفأر في هذه الليلة".

إلا أن تصديق هذا القول كان أمرا يزداد صعوبة مع مرور الأيام، ومع عدم ظهور الفأر إلا في الأوقات التي لا يكون بيرسي خلالها في الخدمة، أو خلال وردية أخرى، أو في مكان آخر داخل السجن. رأيت أنا وهاري ودين وبروتال أنه يعرف ذلك من خلال تمييزه لصوت بيرسي أو رائحته.

كنا نتفادى الانغماس في مناقشات حول الفأر. اعتقادا منا - وهو أمر اجتمعنا عليه من دون اتفاق - أن هذا يفسد علينا شيئا شديد الخصوصية والجمال، لغرابته ورقته في آن واحد. لقد اختارنا ويلي ولسبب لا أعرفه حتى الآن. ربما كان هاري محقا حينما قال إن لا فائدة ترجى من إخبار الآخرين بهذا، ليس لأنهم لن يصدقونا... ولكن لأن أحدا منهم لا يلقي بالا لأمر كهذا.

4

بعد ذلك حان وقت إعدام آرلن بيتربك، وهو في الواقع ليس زعيما بل كبير قبيلته في واشيتا رزرفيشن، وهو أيضا عضو مجلس الشيروكي. لقد قتل رجلا وهو ثمل؛ في الحقيقة كان الاثنان في حالة سكر. قام الزعيم بتحطيم رأس الرجل بقالب إسمنتي بسبب خلاف على زوج من الأحذية. وهكذا، في السابع عشر من يوليو من ذلك الصيف الممطر، انتوى مجلسنا نحن إنهاء حياة الرجل.

لقد كانت ساعات الزيارة لسجناء كولد ماونتن صارمة كقضبان الصليب، إلا أن ذلك لم يسرِ بنفس الصرامة بالنسبة إلى أصحابنا في العنبر (هـ). وهكذا، وفي السادس عشر، سُمح لبيتربك بالذهاب إلى الغرفة الطويلة المجاورة للكافيتيريا؛ الأوركيد. كانت الغرفة مقسومة عند المنتصف بشبكة منسوجة من الأسلاك الشائكة. هنا يمكن للزعيم أن يلتقي بزوجته الثانية وبعض أولاده الذين كانوا لا يزالون يتعاطون معه. لقد حان وقت الوداع.

اصطحبه بيل دودج واثنان آخران إلى هناك. أما بقيتنا فكان لدينا ما نقوم به؛ ساعة واحدة من أجل تجربتي أداء على الأقل. أو ثلاث تجارب إذا تمكنا من تدبر ذلك.

لم يبدِ بيرسي الكثير من الاحتجاج على وضعه في غرفة التحكّم مع جاك فان وقت إعدام بيتربك؛ فقد كان من السذاجة بحيث لا يمكنه تمييز ما إذا كان قد وضع في موقع جيد أم في موقع سيئ. إنما الذي يعرفه جيدا هو أن لديه نافذة مستطيلة بشبكة سلكية لينظر من خلالها، وبالرغم من أنه قد لا يكون مهتما بكونه ينظر إلى ظهر المقعد بدلا من

WWW.REWITY.COM

واجهته، فهو سيظل قريبا بما يكفي لمشاهدة الشرر يتطاير.

كان يوجد مباشرة هاتف حائطي أسود من دون قرص أو أرقام عليه خارج النافذة. فهذا الهاتف كان للاستقبال فقط، ومن مكان واحد فقط وهو مكتب المحافظ. على مر السنوات، كنت قد رأيت الكثير من الأفلام التي تظهر فيها سجون حيث كان الهاتف الرسمي يرن عندما يكونون على وشك إعدام أحد الأبرياء المساكين، ولكن هاتفنا لم يرن طوال سنوات عملي في العنبر (هـ)، ولا حتى لمرة واحدة. الإنقاذ في آخر لحظة أمر بسيط في الأفلام السينمائية، وكذلك البراءة. فأنت تدفع ربع دولار، وتحصل على ما يساوي هذا الربع. أما الحياة الحقيقية فتكلفتها أكثر، وأغلب الإجابات مختلفة عما يحدث في الأفلام.

كانت لدينا دمية قماشية في النفق من أجل التجارب، وكان لدينا توت توت العجوز لبقية التجارب. مع مرور السنوات، أصبح توت توت وبشكل من الأشكال هو البديل التقليدي للمدان، له نفس الرمزية التي لديك الحبش الذي تتناوله في الميلاد، سواء أكنا نحب ديك الحبش أم لا. ولقد أحبه معظم الحراس الآخرين، وكانوا مستمتعين بلكنته الغريبة؛ فرنسية أيضا، ولكنها كندية أكثر منها أميركية من أصل كندي، وقد خفف من وطأتها تواجده الطويل في الجنوب. حتى بروتال أصابه شيء من مقالب توت توت العجوز. أما أنا فلم يحدث ذلك لي. كنت أعتقد أنه، بطريقته تلك، نسخة أقدم وأعتم من بيرسي ويتمور، رجل أكثر أناقة من أن يقتل ويقوم بطبخ لحمه بنفسه، غير أنه أحب فقط رائحة الشواء.

حضرنا جميعا من أجل تجارب الأداء، تماما مثلما نتواجد جميعا من أجل الحدث الرئيسي. وتم استبعاد بروتوس، كما نقول، وهو ما كان يعني أنه هو الذي سيضع القبعة، ويراقب خط هاتف المحافظ ويستدعي الطبيب من مكانه عند السور إذا ما كانت هناك حاجة إليه، ويعطي الأمر الفعلي للتنفيذ عندما يحين الموعد. فإذا مر الأمر على ما يرام،

فلن يكون هناك فضل لأي شخص. أما إذا حدث ما لا تحمد عقباه، فسيضع الشهود اللوم على بروتال، ويضع مدير السجن اللوم عليّ أنا. لم يشتكِ أي منا من هذا الموضوع؛ فلم يكن ليجدي ذلك نفعا. العالم يدور، هذا كل ما في الأمر. يمكنك أن تواصل حياتك وتدور معه، أو أن تقف مكانك لتحتج ويُقذف بك خارج العالم.

مشيت أنا ودين وتيروبليجر إلى زنزانة الزعيم للقيام بالتجربة الأولى بعد أقل من ثلاث دقائق من اصطحاب بيل ورفاقه لبيتريك خارج العنبر إلى الأوركيد. كان باب الزنزانة مفتوحا وقد جلس توت توت العجوز على سرير الزعيم، وشعره الأبيض الخفيف يتطاير.

علّق توت توت قائلا "الملاءة مليئة بالبقع... لا بد من أنه كان يحاول التخلص من حياته قبل أن تقوموا أنتم بإعدامه". وصدرت منه ضحكة كصياح الدجاج.

فقال دين "اصمت يا توت... دعونا نلعبها بجدية".

قال توت توت "وهو كذلك". ومن فوره وضع على وجهه تعبير الإحساس بخطورة صاعقة. إلا أن عينيه لمعتا. لم يكن توت توت العجوز يبدو أبدا بهذا القدر من الحيوية مثل ما يكون عندما يلعب دور الميت.

تقدمت خطوة إلى الأمام. "آرلن بيتربك، بصفتي ضابطا قضائيا ومن ولاية كذا كذا، لديّ تفويض كذا كذا، أعلن أن الإعدام سيتم عند الساعة الثانية عشرة... آه... الواحدة... يوم كذا كذا، تقدم إلى الأمام لو سمحت".

فنهض توت توت عن سريره. وقال "إنني أتقدم... إنني أتقدم... إنني أتقدم".

قال دين "استدر"، وعندما استدار توت توت، تفحص دين أعلى فروة رأسه. كانت قمة رأس الزعيم ستحلق مساء اليوم التالي، لذا فإن

WWW.REWITY.COM

فحص دين سببه التأكد من أنه لن يكون بحاجة إلى المزيد من الحلاقة. فزغب الشعر يمكن أن يعيق التوصيل الكهربائي، ويجعل الأمور أشد صعوبة. فكل ما كنا نفعله اليوم كان من أجل أن نجعل الأمور أكثر يسرا.

قلت لتوت توت "حسنا، آرلن، دعنا نذهب". ثم غادرنا.

قال توت توت "أنا أسير في الممر... أنا أسير في الممر... أنا أسير في الممر". أزحته إلى اليسار، وجعلت دين إلى اليمين. كان هاري خلفه مباشرة، وعند نهاية الممر استدرنا يمينا، بعيدا عن ساحة التمارين التي تعج بالحياة، وباتجاه الموت حيث تنتهي حياته في غرفة الإعدام الكهربائي. ثم ذهبنا إلى مكتبي، وجثا توت توت على ركبتيه من دون أن يطلب منه ذلك. إنه يعرف السيناريو، بشكل جيد، ربما أفضل من أي منا. ويعلم الله أنه مكث هناك وقتا أطول منا جميعا.

قال توت توت "أنا أصلي... أنا أصلي... أنا أصلي". رافعا يديه الخشنتين إلى الأعلى. كانت تشبه المنحوتة الشهيرة، ربما تعرف ذلك النحت الذي أعنيه.

سأل هاري "من سيأتي لبيتربك؟... لن يأتي إلى هنا طبيب من قبيلة الشيروكي، أليس كذلك؟".

"في الواقع...".

إلا أن صوت توت توت كان أعلى من صوتي "لا أزال أصلي... لا أزال أصلي... لا أزال أصلي... مباشرة مع...".

قال دين "اصمت، أيها العجوز الغبي".

"أنا أصلي!".

"إذا، صلِّ بصوت خفيض".

صاح بروتال من غرفة الإعدام الكهربائي "ما الذي يؤخركم يا شباب؟". كانت الغرفة قد أخليت لنقوم باستخدامها. كنا في منطقة

WWW.REWITY.COM

القتل مرة أخرى، بالفعل؛ وهو شيء تكاد تشمه.

رد عليه هاري صائحا "تمهل! لا تكن قليل الصبر هكذا!".

قال توت توت "أنا أصلي"، وهو يكشر تكشيرته العابسة. "أصلي للصبر، فقط قليلا من الصبر اللعين".

قلت لهم "في الحقيقة، إن بيتربك رجل نصراني؛ هو يقول ذلك، وهو سعيد للغاية من الرجل المعمداني الذي حضر من أجل تيلمان كلارك. تشستر، هذا هو اسمه. وأنا معجب به أيضا. وهو سريع، ولا يجعلهم جميعا مضطربين. قف على قدميك، يا توت توت. لقد صليت بالقدر الكافي بالنسبة إلى يوم واحد".

قال توت توت "أنا أمشي... أمشي ثانية... أمشي مجددا، نعم سيدي، أمشي عبر الميل الأخضر".

كان عليه أن ينحني قليلا ليدلف خلال الباب الذي على الطرف البعيد من المكتب، بالرغم من قصر قامته. كما كان على البقية الانحناء بقدر أكبر. هذا هو أهم وقت نكون فيه مع أي سجين حقيقي، وعندما نظرت باتجاه المنصة حيث يقبع سباركي العجوز، ورأيت بروتال ساحبا مسدسا، أومأت راضيا... جيد جدا.

نزل توت توت الدرجات وتوقف. حوالى أربعين مقعدا خشبيا من النوع الذي ينطوي موجودا بالفعل في المكان. سيكون على بيتربك عبور المنصة بزاوية مما يجعله في مأمن من النظارة الجالسين، وسيتم إضافة ستة حراس للتأمين. وسيكون بيل دودج مسؤولا عن أولئك الحراس. لم يكن لدينا أبدا شاهد مهدد من قبل سجين محكوم عليه على الرغم من وجود استعدادات لذلك، هذا ما يتم عادة، وهو أيضا ما عنيت المحافظة عليه.

"جاهزون، يا شباب؟". تساءل توت توت عند عودتنا في تشكيلنا الأصلي عند نهاية السلم الذي يؤدي إلى الأسفل من مكتبي. أومأت

برأسي، ثم اتجهنا صوب المنصة. لقد كنا أشبه بالحرس الاستعراضي الذي نسي علمه، ذلك ما كنت أفكّر فيه كثيرا.

نادى بيرسي من خلف الشبكة السلكية بين غرفة الإعدام الكهربائي وغرفة التحكّم الكهربائية "ماذا عليّ أن أفعل؟".

أجبته "شاهد وتعلّم".

تمتم هاري "وأبعد يديك عن أعضائك". سمعه توت توت، بالرغم من ذلك، وقهقه ضاحكا.

قمنا بعد ذلك باصطحابه إلى المنصة، واستدار توت توت لوحده؛ ها هو المخضرم العجوز يؤدي دوره. قال توت توت "أنا أجلس... أنا أجلس... أنا أجلس، أتخذ جلستي في حضن سباركي العجوز".

جثوت على ركبتي اليمنى أمام ساقه اليمنى. وجثا دين على ركبته اليسرى أمام ساقه اليسرى. حتى هذه اللحظة كنا أنفسنا معرضين لهجوم بدني، إذا ما اهتاج الرجل المحكوم عليه، وهو ما كان يحدث منهم من آنٍ إلى آخر. قمنا نحن الاثنان بلف الركبة المحنية قليلا إلى الداخل، لحماية منطقة ما بين الفخذين. ثم خفضنا ذقنينا لحماية حلقينا. ثم، بالطبع تحركنا لتأمين كواحلنا، وصد الخطر بأسرع ما يمكن. قد يكون الزعيم مرتديا شبشبه حين يقوم برقصته الأخيرة، ولكن موضوع "كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ حالا" لا يشكل فارقا بالنسبة إلى رجل قد تمزقت حنجرته. أو يتلوى على الأرض مع انتفاخ خصيتيه وكأنهما دلو، بينما ما يقارب الأربعين مشاهدا - كثير منهم صحفيون - يجلسون على تلك المقاعد من النوع المستخدم في قاعة جرانج، يتابعون الأمر كله.

شددنا الوثاق على كاحلي توت توت. كان القفل ناحية دين أكبر قليلا، كونه الذي يحمل التيار الكهربائي. عندما يجلس بيتربك غدا مساء، فإنه سيفعل ذلك وساقه اليسرى حليقة. إن الهنود لديهم القليل جدا من

الشعر على أجسادهم كقاعدة عامة، إلا أننا لن نجازف بأي حال من الأحوال.

بينما كنا نشد الوثاق على كاحلي توت توت، قام بروتال بتثبيت رسغه الأيمن. ثم تقدم هاري إلى الأمام وربط الأيسر. وعند انتهائهما، أومأ هاري لبروتال، فنادى بروتال على فان هاي "ابدأ العد. واحد!".

سمعت بيرسي يسأل جاك فان هاي عما يعنيه ذلك (كان من الصعب تصديق قلة ما كان يعرفه، وقلة ما يمكن أن يلتقطه في أثناء عمله في العنبر (هـ) وتمتم فان هاي متعجبا. فالعد اليوم لا يعني شيئا، إلا أنه عندما سيسمع بروتال يقولها مساء الغد، فإن فان هاي كان عليه إدارة ذلك المفتاح الذي يشغل مولد كهرباء السجن الذي كان خلف العنبر (ب). وعندئذ يمكن للمشاهدين سماع الهمهمة الخفيضة المنتظمة، ويزيد توهج الأنوار في جميع أنحاء السجن. ويمكن أن يلاحظ المساجين في باقي العنابر هذا التوهج في الأنوار ويعتقدون أنه قد حدث، وأن الإعدام قد تم، بينما يكون في الواقع قد بدأ للتو.

دار بروتال حول الكرسي حتى يتمكن توت توت من رؤيته. "آرلن بيتربك، لقد حكم عليك بالموت باستخدام الكرسي الكهربائي، وقد اتخذت القرار هيئة محلفين من أقرانك وأصدره قاضٍ له مكانته في هذه الولاية. فليحفظ الله سكان هذه الولاية. هل لديك أي شيء تقوله قبل تنفيذ الحكم؟".

قال توت توت "نعم"، وعيناه تلمعان، وشفتاه تنقبضان في ابتسامة سعيدة بلا أسنان. "أريد عشاء من الدجاج المحمر مع بطاطا عليها مرقة لحمة، وأريد التبرز في قبعتك، وأريد أن تجلس ماي وست أمامي، فأنا زير نساء لعين".

حاول بروتال وقف سيل الكلمات المتدفق، إلا أن ذلك كان مستحيلا. وألقى برأسه إلى الخلف، وبدأ بالضحك. انهار دين عند حافة

WWW.REWITY.COM

المنصة كما لو كان قد أصيب بطلق ناري، رأسه بين ركبتيه، يعوي ضاحكا كالذئب، وإحدى يديه تربت على جبهته كما لو كان يحاول الحفاظ على مخه في مكانه. كان هاري يطرق برأسه في الحائط، ويصدر عنه هه هه هه كما لو كانت هناك قطعة طعام ملتصقة بحلقه. حتى جاك فان هاي، وهو رجل غير معروف بروح الدعابة، كان يضحك. شعرت أنا نفسي بمثل ذلك، بالطبع كان هذا هو شعوري، ولكنني تحكمت به بشكل ما. فغدا مساء سيكون ذلك حقيقيا، وسيموت رجل هناك حيث كان يجلس توت توت. قلت له "اصمت يا بروتال، وأنت أيضا يا دين. هاري وتوت توت، إن التعليق التالي المشابه الذي يصدر منكما سيكون الأخير. سأجعل فان هاي يعد إلى اثنين بشكل حقيقي".

نظر إليّ توت توت مبتسما كما لو كان يقول إن ذلك كان جيدا مني، الرئيس إيدجكومب، كان جيدا بالفعل. إلا أنها تداعت إلى نظرة ضيقة ومرتبكة عندما رأى أنني لم أكن متجاوبا معه. سألني توت توت "ما الخطب أيها الجميل؟".

قلت له "إن ذلك ليس ممتعا، هذه هي مشكلتي، وإذا لم تكن ذكيا بالقدر الكافي حتى تعرفها، فمن الأفضل أن تبقي فمك مقفلا". عدا أن ذلك كان مضحكا، بهذا الشكل، وأظن أن ذلك هو ما أثار جنوني بالفعل.

التفت حولي، ورأيت بروتال يحدّق إليّ، ولا تزال على وجهه ابتسامة خفيفة.

قلت "تبا، لقد كبرت على هكذا تصرّف".

قال بروتال "من قال هذا، إنك لا تزال شابا يا بول". ولكنني لم أكن ولا هو كان، ليس بالنسبة إلى ما كان يسير عليه هذا العمل اللعين، وكلانا كنا نعرف ذلك. المهم أن الجزء المضحك في الموضوع قد ولّى. كان ذلك جيدا، لأن آخر ما كنت أريده هو شخص يتذكر ملاحظة توت توت

المغرورة غدا مساء ويواصل حياته مرة أخرى. يمكنك أن تقول أن هذا محال، أن يضحك حارس وهو يرافق محكوما عليه عبر المشاهدين إلى الكرسي الكهربائي، ولكن عندما يقع الرجال تحت ضغط، فإن أي شيء يمكن أن يحدث. وشيء كهذا، يتحدث عنه الناس لمدة عشرين سنة".

سألته "هل ستبقى هادئا، يا توت؟".

قال توت توت "نعم"، وكان وجهه وهو يتجنب النظر إليّ يبدو كوجه طفل عاجز.

أومأت لبروتال أن عليه الاستمرار في التجربة. تناول القناع من مكانه خلف الكرسي، وسحبه فوق وجه توت توت، وأنزله حتى أسفل ذقنه بإحكام، مما أدى إلى اتساع الفتحة لأكبر قطر لها. ثم انحنى بروتال والتقط الإسفنجة المستديرة من الدلو، وضغط عليها بإصبعه، ثم لعق طرفه. أتم هذا الجزء، وأعاد وضع الإسفنجة في الدلو. ذلك لن يحدث غدا. فقد كان سيدسها داخل القبعة المعلقة خلف الكرسي. وليس اليوم، فلم يكن هناك من داعٍ لأن نبلل رأس توت توت العجوز.

كانت القبعة من الصلب، بشرائط تتدلى على الجانبين، كانت تبدو وكأنها خوذة واقية. وضعها بروتال فوق رأس توت توت العجوز، وثبتها من الأسفل بإحكام فوق الفتحة الموجودة في غطاء الرأس الأسود.

قال توت توت "أنا أعتمر القبعة... أعتمر القبعة... أعتمر القبعة"، والآن بدا صوته مكتوما. والشرائط التي تمسك بفكيه مقفلة تقريبا، وكنت أشك في أن بروتال قد ثبتها من الأسفل بشدة أكثر مما كان يتحتم عليه فعله لأغراض التجربة. تراجع خطوة إلى الخلف، مواجها المقاعد الخاوية، وقال "آرلن بيتربك، سيمر الآن التيار الكهربائي عبر جسدك حتى تموت، طبقا لقانون الولاية. فليرحم الله روحك".

ثم استدار بروتال باتجاه النافذة المستطيلة المغطاة بالشبك. "انتقل إلى اثنين!".

WWW.REWITY.COM

بدأ توت توت العجوز، ربما محاولا استعادة ما كان عليه من وهج العبقرية الكوميدية، يشب ويتحرك في كرسيه، كما لم يفعل أحد من زبائن سباركي العجوز الفعليين أبدا... تقريبا. "أنا الآن أُقلى!" صاح توت. "أقلى... أقلى! جيييياه!... أنا ديك رومي ناضج!".

لم يكن هاري ودين، كما رأيت، يتابعان ذلك على الإطلاق. فقد استدارا بعيدا عن سباركي ينظران عبر غرفة الإعدام الخاوية إلى الباب المؤدي إلى مكتبي. قال هاري "حسنا، تبا لي. لقد حضر أحد الشهود مبكرا عن موعده بيوم واحد".

ها هو ذا... يجلس عند المدخل وذيله يلتف برشاقة تحته، ينظر بعينيه اللتين تشبهان نقطتي زيت سوداوين كالخرز... الفأر.

5

مر الإعدام على خير - هذا إذا كان لعملية كهذه أن توصف بهذا الوصف أصلا (وهو منطق أشك فيه بقوة) - ثم كانت عملية إعدام آرلن بيتريك، شيخ قبيلة واشيتا شيروكي. فككنا ضفائره - كانت يداه ترتجفان في أثناء ذلك وبشدة - وسمحنا لابنته الكبرى، كانت امرأة في العقد الثالث من عمرها، بأن تضفر له شعره بشكل لطيف. كانت تريد تثبيت الريش في أعلاها، ريش صقر، وكان طائره الأثير، ولم يكن من سلطتي أن أسمح لها بهذا. فقد تمسك بها النيران وتشتعل وتحترق. لم أخبرها بذلك، بالطبع، قلت لها فقط بأن هذا كان منافيا للتعليمات. لم تبدِ أي احتجاج، أحنت رأسها فقط، ووضعت يديها على صدغيها مبدية إحباطها ورفضها. كانت تتصرف بعزة كبيرة، تلك المرأة، وهي بذلك تضمن عمليا أن يتصرف أبوها بالأسلوب نفسه.

فارق الزعيم زنزانته من دون احتجاج أو تراجع حينما حان الوقت. كنا أحيانا ما نضطر إلى أن نبعد قبضاتهم عن القضبان - بل لقد كسرت إصبعا أو إصبعين خلال فترة عملي وأبدا ما نسيت ذلك الصوت المكتوم - لكن الزعيم لم يكن من هؤلاء، وشكرت الله على ذلك. مشى بخطوات قوية عبر الميل الأخضر وحتى مكتبي، وهناك جثا على ركبتيه للصلاة مع الأخ تشستر. لم يكن الموقف سيئا بالرغم من ذلك، فلا هستيريا، ولا شيء من ذلك. فكرت في أنه يتخيل تلك المياه بصفائها وبرودتها لدرجة أنك لا تحس بفمك في كل مرة تشرب منها.

كنت في الحقيقة أرتاح حين أراهم يبكون قليلا. وأقلق دوما حين لا يبكون.

www.rewity.com RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

كثير منهم يعجزون عن النهوض على أقدامهم من دون مساعدة، إلا أن الزعيم لم يكن واحدا منهم. ترنح قليلا في البداية، وكأنما أصابه الدوار، فأسنده دين بيده، إلا أن بيتربك استعاد توازنه وحده من جديد، وهكذا خرجنا.

كان الشهود يشغلون غالبية المقاعد، وهم يتبادلون الحديث همسا، وكأنهم في انتظار إتمام مراسم زفاف أو جنازة. كانت هذه هي آخر مرة يمشي فيها بيتربك مضطربا. ولا أعلم إن كان هناك شخص بعينه هو من أصابه بالاضطراب، أم أنهم جميعا، إلا أنني كنت أسمع أنينه وأنا على هذا القرب منه، وصارت ذراعه التي أمسك بها أشد تصلبا من أي وقت مضى. لمحت بطرف عيني هاري تيرويليجر وهو يتحرك ليسد الطريق عليه في حال انفلتت أعصابه بغتة.

أحكمت قبضتي على مرفقه، وربت على ذراعه بإصبعي. "حنانيك، زعيم". قلت له هامسا، من دون أن أحرك شفتيّ. "إن الشيء الوحيد الذي سيتذكره هؤلاء عنك هو الطريقة التي ستخرج بها، فبيّن لهم كيف يواجه زعيم الواشيتا هذا الأمر".

رمقني وهو يومئ إليّ إيماءة بسيطة. ثم تناول إحدى الضفائر التي ضفرتها له ابنته وقبلها. فنظرت إلى بروتال، وهو يقف وقفة عسكرية ليست مشدودة خلف الكرسي، متألقا في زيه الأزرق لامع الأزرار، وقبعته محكمة فوق رأسه الكبير، أومأت إليه إيماءة سريعة، فرد عليها بأخرى أسرع، وهو يتقدم خطوة ليساعد بيتربك على الجلوس على الكرسي في حال احتاج إلى ذلك. إلا أنه لم يكن محتاجا إلى أحد.

ما هي إلا دقيقة ما بين جلوس بيتربك على الكرسي وصوت بروتال الجهوري وهو يقول في التفاتة إلى الوراء "أدر على الدرجة الثانية!". خبت الأنوار من جديد، ولكن بدرجة أقل؛ حتى إنك لم تكن لتلاحظها لو أنك غير متنبه إليها. وهو ما يعني أن فان هاي قد جذب الذراع إلى

درجة أعلى أسميناها مازحين (مجفف شعر مابيل). صوت طنين القبعة منخفض، وتوتر جسد بيتربك إلى الأمام، وأخذ يرتجف بينما تحكم قيوده والحزام ويتم تثبيته إلى الكرسي. كان طبيب السجن يراقب من مكانه عند الجدار من دون أن يبدي أي تعبير، شفتاه مزمومتان حتى كاد الفم أن يختفي. لم يكن هناك أي من التخبطات والتقافزات التي كان يفتعلها توت توت العجوز متهكما خلال التجربة التي أجريناها، إلا أن تلك الرجفة التي تأخذ الجسد إلى الأمام، هي تماما كما يرتجف جسد الرجل مرتعشا إلى الأمام في أثناء ذروة النشوة. يكاد القميص الأزرق الذي يرتديه الزعيم يتمزق عند الصدر، وقد تبدى لحم جسده من بين أزراره.

ثم كانت هناك تلك الرائحة. لم تكن رائحة سيئة في حدّ ذاتها، ولكنها تبعث على الغثيان بسبب ما تعنيه. لهذا السبب لم أتمكن قط من أن أجبر نفسي على النزول إلى القبو في منزل حفيدتي مهما حاولوا معي، بالرغم من أن الاحتفال وقتها كان احتفاء بصغيرها، ويود أن يشاركه فيه جده الأكبر. لا أستطيع تحمل طنين تلك المحولات. وحينما يسخن تكون له تلك الرائحة. وحتى بعد كل تلك السنوات، فإن هذه الرائحة لا تزال تذكرني بذلك الجبل البارد... (كولد ماونتن).

أمهله فان هاي ثلاثين ثانية، ثم قطع التيار. تقدم الطبيب من مكانه ووضع السماعة على صدره. كان الشهود صامتين الآن. ثم وقف الطبيب وهو ينظر عبر الفرجة المغطاة بشبكة حديدية. "النبض مضطرب"، قالها وهو يشير بإصبعه لمعاودة المحاولة. كان قد سمع بعض النبضات العشوائية تنبعث من صدر بيتربك، ربما كانت الأخيرة في كل الأحوال، ولكن كانت معاودة المحاولة أفضل من تحمل المخاطرة. فلا أحد يود أن يجده جسدا حيا يحترق ويتعذب، بعد أن قطع كل هذا الطريق نحو العالم الآخر.

WWW.REWITY.COM

نقل فان هاي التيار إلى الدرجة الثالثة وعاد جسد الزعيم يرتجف من جديد، وهو يتمايل بشدة من جانب إلى آخر تحت رحمة التيار الكهربائي. وحينما وضع الطبيب سماعته هذه المرة كان الأمر قد انتهى. كنا قد نجحنا مرة أخرى في أن نميت ما لا يمكننا أن نحييه... نفسا بشرية. عاد الهمس يعلو بين الشهود؛ وأغلبهم يقبع مكانه خافض الرأس، ينظر إلى الأرض، مصدوما. أو خجلا.

ظهر هاري ومعه دين يحملان النقالة. كان من المفترض أن يحملها بيرسي من أحد الطرفين، إلا أنه لم يكن يعرف ولم يهتم أحد بإبلاغه. وضعت وبروتال جثمان الزعيم - ولا يزال رأسه مغطى بذلك القناع الأسود - وحملنا النقالة عبر الباب المفضي إلى النفق بأسرع ما أمكننا ولكن ليس إلى درجة الركض. كان هناك الكثير من الدخان المتصاعد من أعلى القناع... كانت الرائحة نتنة.

لقينا بيرسي، فصاح بصوت يرتجف "آه... ما هذه الرائحة؟".

فصاح فيه بروتال وهو يسارع نحو الجدار حيث مطفأة الحريق "تنحى عن طريقنا وابتعد عنا الآن فحسب". كانت من النوع القديم الذي يحتاج إلى أن تضخّه ضخًا. كان دين في هذه الأثناء قد نزع القناع. فوجدنا أن المنظر أسوأ مما تخيلنا. وضفيرة بيتربك اليسرى تحترق ككومة من ورق الشجر الأخضر.

قلت لبروتال "لا تهتم لهذا الشيء". لم أكن أريد الاضطرار إلى تنظيف كومة من الرغوة الكيماوية عن وجه الجثة قبل أن تحملها العربة إلى مثواها الأخير. بادرت بلطم رأس الزعيم بيدي (بينما يحدق بيرسي بعينين متسعتين طيلة الوقت) حتى خمد الدخان. ثم حملنا الجثمان عبر العتبات الخشبية الاثنتي عشرة، والمفضية إلى النفق. ها هو ذا، بارد رطب، وصوت قطرات المياه المألوف يتردد صداه عبره. مصابيح معلقة تعكس ضوءها أكمة من صفيح - صنعوها داخل ورشة السجن

- تنير المكان الأشبه بأنبوب حجري يمتد مسافة ثلاثين قدما أسفل الطريق السريع. كلما مررت عبر هذا المكان أشعر بأنني شخصية في قصة لإدغار آلان بو.

كانت بانتظارنا نقالة ذات عجلات. وضعنا جثمان بيتربك عليها، بعد أن تأكدت مرة أخيرة من أن لا دخان ينبعث من شعره. وكنت حزينا حينما رأيت أن شعره الجميل لم يعد سوى كتلة متفحمة.

لطم بيرسي خد الصريع. فزعنا جميعا لصوت اللطمة. بينما نظر بيرسي إلينا وابتسامة مزهوة ترتسم على فمه، وعيناه تلتمعان خبثا. ثم عاد لينظر إلى جثمان بيتربك من جديد. قال "وداعا، زعيم. أتمنى أن تجد الجحيم محرقة بما يكفي".

"لا تفعل ذلك"، صاح فيه بروتال بصوت جهوريٍّ آمرٍ داخل النفق الذي تتقاطر منه المياه. "لقد سدد دينه. ولم يعد يدين لأحد بشيء. فأبعد يدك عنه".

فقال بيرسي باستفزاز "آه... أخرج ما في مكنون صدرك"، لكنه تراجع مضطربا حينما تحرك بروتال نحوه، وظله يعلو من خلفه مثل ظل ذلك القرد في قصة شارع المشرحة. ولكنه بدلا من أن يمسك ببيرسي، قبض على النقالة، وبدأ يدفع جثمان آرلن بيتربك ببطء نحو النهاية البعيدة للنفق، حيث كانت تنتظر الجثمان رحلته الأخيرة، داخل عربة متوقفة إلى جانب الطريق السريع. عجلات النقالة المطاطية الصلدة تصر فوق الألواح؛ وظلها يمر على الجدار القرميدي الناتئ، أمسك دين وهاري الغطاء عند القدمين وجذباه ليغطي وجه الزعيم، الذي كان قد بدأ بالفعل يتخذ السحنة الشمعية المحايدة التي تميز الأموات... أبرياء كانوا أو مذنبين.

WWW.REWITY.COM

6

توفي عمي بول عندما كنت في الثامنة عشرة – عمي الذي سميت على اسمه – جراء أزمة قلبية. أخذني أبي وأمي معهما إلى شيكاغو لحضور جنازته وزيارة أقاربي من جهة أبي، ولم أكن قد رأيت الكثير منهم قبل ذلك. أمضينا هناك حوالى الشهر. من عدة نواحٍ، كانت الرحلة جيدة، ضرورية ومثيرة، ولكن في جانب من جوانبها كانت مرعبة. فقد كنت واقعا في الغرام، غرام فتاة كان يفترض أن تصبح زوجتي بعد أسبوعين من ذكرى ميلادي التاسعة عشرة. وفي إحدى الليالي وحينما كان شوقي إليها يشبه النار التي أضرمت في قلبي وعقلي (نعم، بل وفي أجزاء أخرى من بدني أيضا)، كتبت لها خطابا مسهبا أفرغت فيه كل ما في قلبي، ولم أتوقف للنظر في ما كنت قد كتبته، فقد كنت خائفا من أن يوقفني الجبن عن الكتابة. لم أتوقف، وعندما صاح صوت في عقلي بأنه سيكون من الجنون إرسال خطاب كهذا، أن أسلم ما في قلبي إليها بهذا الشكل، تغاضيت عنه باستخفاف طفل لاهث لا يعبأ بالعواقب. كنت غالبا أتساءل ما إذا كانت جانيس قد احتفظت بذلك الخطاب، إلا أنها لم تواتني الشجاعة أبدا لأسأل هذا السؤال. وكل ما كنت واثقا منه هو أنني لم أجده عندما كنت أفتش في أغراضها بعد الجنازة، وبالطبع لم يكن ذلك يعني أي شيء في حدّ ذاته. وأعتقد أنني لم أسأل عنه أبدا بسبب خوفي من اكتشاف أن الخطاب المشتعل لا يعنيها بقدر ما يعنيني.

كان الخطاب عبارة عن أربع صفحات، وقد ظننت أنني لن أكتب أبدا أي شيء أطول منه في حياتي، والآن انظر إلى ذلك. كل هذا، والنهاية

لا تزال بعيدة. وإذا ما كنت أعلم أن القصة ستطول بهذا الشكل، لكان من الممكن ألا أبدأ أبدا. وما لم أدركه كان عدد الأبواب التي تؤدي عملية الكتابة إلى فتحها، كما لو أن قلم والدي القديم لم يكن قلما حقيقيا على الإطلاق، ولكن تشكيلة من المفاتيح الهيكلية. قد يكون الفأر هو أفضل مثال عما أتكلم عنه؛ ويلي القارب البخاري، السيد جينغلز، الفأر الموجود في الميل الأخضر. لم أدرك مدى أهميته حتى بدأت بالكتابة. الشكل الذي كان يبدو أنه يبحث به عن ديلاكروا قبل أن يصل على سبيل المثال؛ ولا أعتقد أنه سبق أن حدث لي ذلك، ليس بالنسبة إلى عقلي الواعي، على كل حال، إلى أن بدأت بالكتابة والتذكر.

أعتقد أن ما أقوله هو أنني لم أدرك مدى ما كان عليّ القيام به من العودة بالذاكرة كي أحدثك عن جون كوفي، أو كم من الوقت كان علي تركه هناك في الزنزانة، رجل بغاية الضخامة بحيث إن قدمه لا تمتد فقط خارج سريره ولكنها تتدلى إلى الأسفل حتى الأرض. لا أريدك أن تنساه، اتفقنا؟ أريدك أن تقابله هناك، ينظر إلى سقف زنزانته، يبكي بدموع صامتة، أو يضع ذراعيه فوق وجهه. أريدك أن تسمعه، تأوهاته التي تضطرب كالشهقات، وأناته الدامعة من وقت إلى آخر. لم تكن تلك الأصوات التي نسمعها في بعض الأحيان في العنبر (هـ) أصوات ألم وأسى، فقد كانت صرخات حادة فيها مسحات من الندم، مثل تلك العينين الدامعتين، وكانت بعيدة عن الألم الذي تعودنا أن نتعامل معه. بشكل من الأشكال – أنا أعلم كم سيبدو ذلك جنونا، أعلم تماما بالطبع، ولكن ليس من الواجب كتابة شيء بهذا الطول ما لم تعلم ما الذي تشعر بأنه حقيقي في قلبك – بدا ذلك كما لو كان شعورا بالأسى على العالم أجمع، في بعض الأحيان أسى بغاية العظم بحيث يكون من الصعب التخفيف منه بشكل كامل. كنت أحيانا أجلس وأتحدث معه، كما كنت أفعل معهم جميعا؛ فقد كان الكلام هو وظيفتنا الكبرى الأكثر أهمية،

WWW.REWITY.COM

وهو ما أظن أنني كنت قد ذكرته؛ وحاولت تهدئته. لا أشعر أنني قد فعلت ذلك، وقد كان جزء من قلبي سعيدا أنه كان يعاني، تعرف ما أعني. شعرت أنه استحق المعاناة. حتى إنني فكّرت في بعض الأحيان أن أتصل بالمحافظ (أو أجعل بيرسي يطلبه. تبا، لقد كان عم بيرسي اللعين، وليس عمي أنا) وأسأله تأجيل الإعدام. كان يمكنني القول، إنه ليس علينا أن نحرقه بعد، فذلك لا يزال يؤذيه كثيرا، ويحز في نفسه كثيرا، ويتلوى بداخله كعصا حادة مدببة. أعطه تسعين يوما بعد، سيدي صاحب الفخامة. دعه يواصل ما يفعله بنفسه وهو ما لا يمكننا أن نفعله به.

إنه جون كوفي - وأريد هنا أن تحفظ ذلك في جانب من عقلك بينما ألحق أنا بما كنت قد بدأته - إنه جون كوفي الذي كان يرقد على سريره، جون كوفي الذي كان يخشى الظلام ربما لسبب وجيه، هو أنه في الظلام ربما يكون هناك منظران لشكلين لهما شعر أصفر مجعد - لم يعد لبنتين صغيرتين وإنما لمستهترتين منتقمتين - في انتظاره. إنه جون كوفي الذي كانت عيناه تنغمر دائما بالدموع، مثل الدماء التي تسيل من جرح لن يلتئم أبدا.

7

هكذا تم إعدام الزعيم بينما وصل الرئيس إلى العنبر (ج)، والذي كان على كل حال مأوى لأغلب نزلاء كولد ماونتن المئة والخمسين. إلا أن عقوبة السجن مدى الحياة بالنسبة إلى الرئيس لم تستمر سوى اثنتي عشرة سنة. فقد غرق في حوض السجن في العام 1944. ليس داخل حوض كولد ماونتن؛ فقد أغلقوه في العام 1933. ولا أعتقد أن هذا قد مثل فارقا لدى السجناء، فالجدران هي الجدران، كما يقول السجناء، ولم يفقد سباركي العجوز أي جزء من قدرته على القتل، سواء داخل غرفة الموت الحجرية الصغيرة، أو هناك في المخزن في كولد ماونتن.

أما بالنسبة إلى الرئيس، فقد أقدم أحدهم على وضعه داخل حوض التنظيف الجاف واحتجزه هناك حتى مات. وعندما سحب الحراس جثته، كانت معالم وجهه مشوهة كليا. حتى إنهم قد اضطروا إلى أن يحددوا هويته من خلال بصمات أصابعه. وفي المجمل، أرى أنه قد كان من الأفضل لو انتهت حياته في أحضان سباركي العجوز... لكنه لم يكن عندها سيعيش تلك السنوات الإضافية الاثنتي عشرة، أليس كذلك؟ على أنني أشك في أنه قد فكّر في هذا الأمر مليا خلال آخر دقيقة من حياته، حين كانت رئتاه تتشبعان بالمنظفات ومطهرات الغسيل.

لم ينجحوا قط في إلقاء القبض على من فعل ذلك. كنت حينها قد تركت العمل في الإصلاحية، إلا أن هاري تيروبليجر كتب لي يقول "لقد خففوا عقوبته لأنه أبيض في الأغلب، إلا أنه نالها في نهاية المطاف. وعن نفسي أعتقد بأنها كانت عقوبة إعدام تأجل تنفيذها".

مرت علينا فترة هادئة في العنبر (هـ)، ما إن ذهب الرئيس. ووكلت

www.rewity.com
RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

هاري ودين مهام مغايرة لفترة من الوقت، فلم يعد سواي أنا وبروتال وبيرسي في الميل الأخضر. كان هذا في الحقيقة يعني أن اللذين يقومان على المكان هما أنا وبروتال فحسب، فقد كان بيرسي يمضي أغلب وقته بمعزل عنا. وهذا الرجل عبقري في ابتكار الأشياء التي لا يقوم بها. وكثيرا ما يأتي بقية الرفاق (حينما لا يكون بيرسي متواجدا) لنمضي بعض الوقت سويا في "ثرثرة ممتعة"، كما وصفها هاري ذات مرة. وكان الفأر يشاركنا في عديد من المرات. نطعمه فيبقى قريبا يتناول ما نلقيه إليه وهو يراقبنا...

كانت تلك بضعة أسابيع ممتعة، هادئة، حتى مع مشاكسات بيرسي بين الحين والآخر. لكن لكل شيء جميل نهاية سريعة، ففي يوم اثنين ممطر من أواخر يوليو - ألم أخبركم بعد بأن ذلك الصيف كان ممطرا رطبا؟ - وجدت نفسي أجلس على فراش زنزانة خاوية أنتظر إدوارد ديلاكروا.

أتاني بضجة غير متوقعة. فقد انفتح الباب المفضي إلى ساحة التمارين بعنف، لينير المكان، مع أصوات خشخشة سلاسل القيود، وصوت يصيح بكلمات هي مزيج من الإنجليزية والفرنسية، بينما يصيح بروتال بدوره، "أنت! توقف عن هذا بالله عليك! توقف عن هذا، بيرسي!".

كنت أغالب النعاس وأنا راقد على الفراش الذي سرعان ما سيكون لديلاكروا، لكنني نهضت من فوري، وقلبي يضطرب بشدة. لم تكن هناك ضجة من هذا النوع قبل أن يحل علينا بيرسي في هذا المكان؛ أتى بها معه وكأنها رائحة سيئة لا تزول.

كان بيرسي يصيح باستفزاز، متجاهلا بروتال تماما "هيا... أيها الفرنسي المخنث!". كان يجر الرجل النحيف جرا من ذراعه. كان بيرسي يحمل هراوته. على وجهه المحمر ابتسامة مقيتة. لكن سعادته هذه لم

تكن تامة. فقد كان ديلاكروا يحاول أن يجاريه، لكن قيوده تكبله، ومهما حاول نقل قدميه بسرعة، فإن بيرسي كان أسرع. فهرعت خارجا من الزنزانة في اللحظة المناسبة، واستطعت أن ألحق به قبل أن يسقط أرضا، وعندها تعارفنا.

أحاط به بيرسي، رافعا هراوته، فأعدته بذراع واحدة. بينما لحق بنا بروتال وهو يلهث، وكان مثلي... مصدوما، محتارا.

تمتم ديلاكروا "لا تدعه يضربني، سيدي... أرجوك... سيل فو بليه!".

بينما صاح بيرسي وهو ينقض عليه "دعني أضربه، دعني أضربه!". بدأ يضرب كتفي ديلاكروا بهراوته. فرفع ديلاكروا ذراعيه ليحمي نفسه، وهو يصرخ، بينما لم يتوقف بيرسي عن ضربه بهراوته. رأيته تلك الليلة بعد أن خلع عنه قميص السجن الأزرق، لأجد أن الكدمات تغطي ظهره. فشعرت بالشفقة تجاهه. كان قاتلا، لا يحبه أحد، إلا أننا لم نعتد أن نتعامل معهم بهذه الطريقة في العنبر (هـ). إلى أن أتانا بيرسي.

زمجرت صائحا في بيرسي "هيه! هيه! توقف عن هذا! ما الذي جرى لعقلك؟". كنت أحاول أن أقحم جسدي بين ديلاكروا وبيرسي، إلا أنني لم أستطع. بينما واصلت هراوة بيرسي الضرب. كنت أعلم أنها ستهوي إن عاجلا أو آجلا على جسدي، وعندها لن يكون أمامي سوى أن ألقنه درسا لن ينساه هنا في الممر، أيا كانت صِلاته التي يهددنا بها. لن يمكنني أن أضبط أعصابي، ومن المؤكد أن بروتال سينتهز الفرصة لينتقم منه بدوره. كم كنت أتمنى في قرارة نفسي لو حدث هذا. لكان هذا كفيلا بتغيير ما قدر له أن يحدث في ما بعد.

"أيها المخنث اللعين! سأعلمك كيف تبعد يديك عني، أيها العفن!".

أخذ يضربه ويضربه. حتى نزف الدم من إحدى أذني ديلاكروا

WWW.REWITY.COM

وصرخ. يئست من محاولة حمايته، وجذبته من كتفه، لأسرع به نحو زنزانته، حيث ارتمى فوق فراشه. دار بيرسي حولي، ونجح في ضربه ضربة أخيرة على مقعدته، قبل أن يتركه ويمضي. عندها أمسك بروتال بكتفي بيرسي، وأطاح به عبر الممر.

أما أنا فجذبت باب الزنزانة وأغلقته بقوة قبل أن أوصده. ثم استدرت نحو بيرسي، وقد تحولت صدمتي وارتباكي إلى غضب عظيم. كان قد مر على بيرسي عدة أشهر حينها، وبما يكفي لأن نكرهه جميعا، ولكن كانت هذه هي المرة الأولى التي أيقنت فيها تماما أنه من غير الممكن السيطرة عليه.

وقف يراقبني، بشيء من الخوف - فهو جبان بطبيعته، لا شك لديّ في هذا - ولكنه يثق بأن صِلاته ستحميه. كان محقا في ذلك. ومع أنني أشك في أن هناك من لا يفهم سبب ذلك، بعد كل ما رويته، إلا أن هناك من لا يعرف عن فترة الكساد العظيم سوى الكلام الذي قرأه في كتب التاريخ. ولو كنت هناك وقتئذ، لعلمت أن الأمر يفوق وبمراحل أي شيء قرأته عن تلك الفترة، ولو كانت لديك وظيفة ثابتة، أخي، لبذلت كل شيء لأجل ألا تطرد منها.

شحب وجه بيرسي بعض الشيء حينها، إلا من احمرار في وجنتيه، وصار شعره الآن - الذي يحافظ على تصفيفه ولمعانه دوما - أشعث فوق جبينه.

سألته "لماذا بحق الله فعلت هذا؟ لم يحدث من قبل، لم يحدث أبدا من قبل أن تعرض مسجون لديّ للضرب داخل هذا العنبر!".

"لقد حاول هذا الوغد الشاذ أن يمسك عضوي بينما كنت أنزله من عربة السجن. لقد أخرجه، فكان عليّ أن أضربه".

نظرت إليه، وأنا أبحث عن كلمات مناسبة. فلا يمكن لي أن أتخيل أن ما قاله صحيح. فلم يكن أشد الشواذ شبقا ليفعل ما وصفه بيرسي

الآن. فلا أجد في هذا الاقتياد إلى واحدة من زنزانات الميل الأخضر أيا من الأسباب التي تثير شهوة أي شاذ على وجه هذه الأرض.

عدت أنظر نحو ديلاكروا، الذي رقد الآن متكورا في فراشه بينما يحمي وجهه بيديه. كانت هناك أصفاد حول رسغيه وقيد يربط قدميه. ثم عدت إلى بيرسي قائلا "اخرج من هنا. ستتحدث في هذا الأمر في ما بعد".

فقال في ضراوة "هل سيرد هذا الذي حدث في التقرير؟ لأنه لو تم هذا، فسأكتب تقريري الخاص، كما تعلم".

لم أكن أنوي كتابة أي تقرير؛ كان كل ما أتمناه هو أن يغرب عن وجهي الآن. وقد أخبرته بذلك.

أنهيت كلامي قائلا "لقد أغلقنا هذا الموضوع". رأيت بروتال ينظر إليّ بعدم رضا، إلا أنني تجاهلت نظراته. "هيا... اخرج من هنا. اذهب إلى المبنى الإداري، وأطلب منهم أن يوكلوا إليك بعض الأعمال الكتابية".

"بالتأكيد". كان قد استعاد رباطة جأشه، أو لنقل أنه استعاد تلك الوقاحة والتبجح. أعاد شعره إلى الوراء بيديه بعيدا عن جبينه - كانت يداه صغيرتي الحجم، ناعمتين، بيضاوين، وكأنهما لفتاة - ثم اقترب من الزنزانة. رآه ديلاكروا، فتراجع أكثر في فراشه، يتمتم بمزيج من الكلمات الإنجليزية والفرنسية... بلا معنى.

"لم أنتهِ من أمرك بعد، بيير"، ما إن قالها حتى جفل بينما وضع بروتال يديه الضخمتين على كتفيه.

قال له بروتال "بالطبع لم تنتهِ بعد. هيا، امضِ إلى حال سبيلك".

"أنت لا تخيفني... لا تخيفني أبدا... سواء أنت أو هذا". إلا أننا كنا نخيفه بالفعل. يمكنك أن تجد هذا في عينيه، ولكن هذا كان يزيد

WWW.REWITY.COM

من خطورته. فشخص مثل بيرسي لا يعرف هو نفسه ما قد يقترفه بين لحظة وأخرى.

ابتعد عنا خارجا عبر الممر، بخطوات متبجحة وقحة. فهو يرى أنه قد بيّن للعالم ما الذي جرى لهذا الفرنسي الأصلع حينما حاول الإمساك بعضوه، وها هو يغادر الميدان منتصرا.

انتهيت من كلمتي التي كنت قد أعددتها لألقيها على مسامع هذا النزيل الجديد، وعن مدى ما سيتمتع به هنا من حسن معاملة. إلا أنه كان يبكي خلال كلامي معه، وهو يجلس مهدّل الكتفين إلى طرف فراشه، بعيدا عني ما أمكنه هذا. كان يرتجف في كل مرة أتحرك فيها، ولا أعتقد أنه قد سمع كلامي أساسا. أنا نفسي لم أكن لأجد في كلام الترحيب هذا أي أهمية بالنسبة إلى سجين.

بعدها بخمس عشرة دقيقة كنت قد عدت إلى مكتبي، حيث كان يجلس بروتوس هويل، يلعق سن قلمه الخاص بدفتر الزوار. "ألن تتوقف عن تلك العادة قبل أن يميتك السم؟".

قال وهو يضع القلم "لم أتخيل أبدا أن نتعرض لموقف كهذا خلال إدخال سجين إلى هذا العنبر".

"كان والدي يقول لي دوما إن المصائب لا تأتي فرادى".

"إذا، أتمنى أن يكون أبوك غير مصيب في قوله هذا"، قالها بروتال، وهو يعلم بالفعل أن المصائب لا تأتي فرادى. لقد كانت هناك تلك العاصفة حينما حضر جون كوفي إلى هنا، وعاصفة رعدية حينما انضم إلينا وايلد بيل، وهو أمر مضحك، إن الأشياء تأتي ثلاثة ثلاثة... كما يقول المثل القديم. وأروي لك عما قريب قصة لقائنا بوايلد بيل، وكيف أنه أتى إلى الميل الأخضر حتى يرتكب جريمة قتل.

سألته "ماذا عن حكاية أن ديلاكروا أمسك بعضو بيرسي؟".

فقال بروتال ساخرا "لقد كانت قدماه مقيدتان بينما يجذبه بيرسي

WWW.REWITY.COM

بسرعة مبالغ فيها، هذا كل شيء. وقد تعثر وكاد يسقط بينما كان يخرج من العربة. فمد يده كأي شخص على وشك السقوط، فلامست يده مقدمة سروال بيرسي. عن غير قصد أبدا!".

سألته "هل تعتقد أن بيرسي يعلم أنها حركة غير مقصودة؟ هل اتخذها ذريعة للنيل من ديلاكروا؟ ليبين له أن له كلمة في هذا المكان؟".

أومأ بروتال برأسه ببطء "بالفعل. أعتقد أن هذا مقصده في الغالب".

قلت وأنا أمسح بيدي على شعري "إذا، علينا أن نراقبه"، كما لو أن مهام وظيفتنا غير كافية، "كم أمقت هذا. كم أمقت ذلك المخلوق".

"كلنا نمقت هذا الرجل. أتدري، بول، إنني أعتقد أنني لا أفهمه. لديه أقارب مهمون، هذا مفهوم، فلماذا استعان بهم للحصول على وظيفة عادية في هذا الميل الأخضر اللعين؟ لماذا لم ينل أي وظيفة في مكاتب الولاية؟ كموظف في مجلس الولاية مثلا، أو سكرتير للحاكم؟ من المؤكد أن أقاربه قادرون على توفير وظيفة من هذا القبيل لو أنه طلب منهم ذلك، فما الذي أتى به إلى هنا؟".

هززت رأسي في حيرة. فأنا لا أدري. هناك الكثير مما أجهله هنا... كم أنا غرّ ساذج.

8

عادت الأمور إلى طبيعتها مرة أخرى، على الأقل لمدة قصيرة. فهناك على مقعد المقاطعة، كانت الولاية تستعد لتقديم جون كوفي للمحاكمة، وكان هومر كريبس مأمور مقاطعة ترابينغاوس لا تروقه فكرة أن إعدام الغوغاء من دون محاكمة قد يعجل بتحقيق العدالة. لم يكن أي من ذلك يعني شيئا بالنسبة إلينا؛ لم يلتفت الكثيرون في العنبر (هـ) إلى الأخبار. كانت الحياة في الميل الأخضر تشبه، إلى حدّ ما، الحياة في غرفة عازلة للصوت. تسمع من آنٍ إلى آخر تمتمات يمكن أن تكون فرقعات في العالم الخارجي، إلا أنها هنا مجرد كلام. لم يكونوا ليسرعوا الخطى مع جون كوفي، فقد كانوا يريدون التأكد من حالته بشكل تام.

في مناسبتين كان بيرسي يمازح ديلاكروا، وفي المرة الثانية أزحته جانبا وطلبت منه الحضور إلى مكتبي. لم تكن أول مقابلة لي مع بيرسي بخصوص تلك التصرفات، ولن تكون الأخيرة، فربما يكون ما أدى إليها هو أوضح فهما لما كان هو عليه. كان له قلب الصبي القاسي الذي يذهب إلى حديقة الحيوان لا ليتمكن من إجراء دراسة حول الحيوانات وإنما ليرميها بالحجارة في أقفاصها.

قلت له "ابقَ بعيدا عنه، الآن، أتسمع؟" "ابقَ بعيدا جدا عنه، إلاّ إذا أصدرت لك أمرا محددا بخلاف ذلك".

أزاح بيرسي شعره إلى الخلف، ثم ربت عليه بيديه الرقيقتين الصغيرتين. إن هذا الفتى يحب لمس شعره. قال "لم أكن لأفعل شيئا له. كنت أسأل فقط كيف كان الأمر عند معرفة أنه قام بحرق بعض

الأطفال، هذا كل ما في الأمر". ووجه إليّ بيرسي نظرة جريئة وبريئة.

قلت له "ابتعد عن ذلك، وإلا سيكون هناك تقرير".

ضحك بيرسي. قال "اكتب أي تقرير تريده، ثم سأستدير وأكتب أنا التقرير الخاص بي. تماما كما قلت لك عندما حضر إلى هنا. وسنرى أي منا سيفوز".

انحنيت إلى الأمام، مطبقا بيدي على مكتبي، وتحدثت بنبرة كنت آمل أن تبدو كنبرة صديق كتوم. قلت له "بروتوس هويل لا يحبك كثيرا، وحيث إن بروتال لا يحب أي شخص، فإنه من المعروف عنه أنه يضع تقريره الخاص به. إنه لا يكتب كثيرا، ولا يمكنه التوقّف عن لعق قلمه، إنه في الغالب سيكتب تقريره بقبضته. إذا كنت تفهم ما أقصده".

اضطربت ابتسامة بيرسي الصغيرة الراضية. "ماذا تحاول أن تقول؟". قلت له "أنا لا أحاول أن أقول شيئا، وإذا قلت لأي... من أصدقائك... عن هذه المناقشة، فسأقول إنك اخترعت الأمر كله". نظرت إليه بعينين مفتوحتين وبكل جدية. "وإلى جانب ذلك، فأنا أحاول أن أكون صديقك يا بيرسي. وكما يقولون، كلمة واحدة للشخص الحكيم تكون كافية. ثم لماذا تريد أن تزج بنفسك في الأمر مع ديلاكروا من البداية؟ إنه لا يستحق ذلك".

لفترة ما نجح ذلك. وعمّ الهدوء. وحتى في مرتين سابقتين كان في إمكاني إرسال بيرسي مع دين أو هاري عندما كان يحين دور ديلاكروا في الاستحمام. كان لدينا المذياع في المساء، وبدأ ديلاكروا بالاسترخاء ضمن الروتين القليل في العنبر (هـ)، وكان هناك سلام.

ثم حدث في إحدى الليالي، أن سمعته يضحك.

كان هاري تيرويليجر يجلس إلى المكتب، وسرعان ما شرع بالضحك أيضا. نهضت وتوجهت إلى زنزانة ديلاكروا لأرى ما الذي يمكن أن يكون قد أضحكه.

www.rewity.com RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

وحالما رآني قال "انظر يا كابتن". "لقد قمت بترويض أحد الفئران!".

كان ذلك الفأر هو ويلي القارب البخاري. كان داخل زنزانة ديلاكروا. والأكثر من ذلك كان جالسا على كتف ديلاكروا يرنو إلينا بهدوء في الخارج من خلال القضبان، بعينيه اللتين تشبهان نقطتي الزيت. وكان ذيله ملتويا حول قدميه، وبدا في سلام تام. أما صديقه ديلاكروا، لم تكن لتعرف أنه كان نفس الرجل الذي جلس يبكي ويرتجف عند قدمي سريره قبل أقل من أسبوع. لقد بدا كابتني وهي تقوم بما اعتادت عليه في صباح يوم الميلاد، عندما تنزل الدرج وترى الهدايا.

قال ديلاكروا "انظر إلى ذلك". كان الفأر جالسا على كتفه اليمنى. ومد ديلاكروا يده اليسرى إليه. تسلق الفأر، ووصل إلى قمة رأس ديلاكروا، مستغلا شعر الرجل (والذي كان كثيفا في الجزء الخلفي، على الأقل). ثم ركض نازلا على الجانب الآخر، وقهقه ديلاكروا حيث كان ذيله يدغدغ جانب رقبته. ثم هبط الفأر إلى رسغه، وعاد وتسلق إلى كتفه اليسرى، ولف ذيله حول قدميه مرة أخرى.

قال هاري "اللعنة".

ثم أردف ديلاكروا. "لقد دربته على فعل ذلك"، وفكرت، ما قيمة ذلك، إلا أنني لم أتفوه ببنت شفة. قال هاري بحسن نية "اسمه السيد جينغلز".

"لا"، قال ديلاكروا، "إنه ويلي القارب البخاري. هكذا أسماه الزعيم هويل".

قال ديلاكروا "إنه السيد جينغلز". في أي موضوع آخر كان سيقول لك إن ذلك الشيء اسمه شينولا، إذا أردت منه ذلك، أما في ما يتعلق باسم الفأر فإنه كان بالغ العناد. همس في أذني "كابتن هل لي بصندوق له؟ هل أستطيع أن أحصل على صندوق لفأري، حتى يمكنه النوم هنا

WWW.REWITY.COM

معي؟" وبدأ صوته ينخفض إلى نبرة متملقة سمعتها ألف مرة قبل ذلك. "سأضعه تحت سريري ولن يكون خائفا بعد الآن من أي مشكلة، ولا واحدة".

قلت له محاولا كسب الوقت "تتحسن إنجليزيتك كثيرا عندما تريد شيئا".

تمتم هاري وهو يلكزني "آه، هكذا تأتي المشاكل".

ولكن بيرسي لم يَبدُ لي كمشكلة، ليس في تلك الليلة. لم يكن يمسح بيديه على شعره أو يعبث بأصابعه بهراوته، وكانت أزرار سترة الزي الذي يلبسه مفكوكة. وكانت المرة الأولى التي أراه فيها على هذا النحو، لقد كان ذلك مذهلا، يا له من تغيير يمكن لشيء صغير كهذا أن يحدثه. إلا أن أكثر ما أثار دهشتي كان التعبير الذي بدا على وجهه. كان هناك هدوء. لم يكن طمأنينة - فأنا لا أعتقد أن بيرسي ويتمور لديه عظمة مطمئنة في بدنه - ولكنها هيئة رجل اكتشف أن في إمكانه انتظار الأشياء التي يريدها. كان ذلك تغيرا هاما مقارنة بالشاب الذي كان علي تهديده بقبضتي بروتوس هويل قبل عدة أيام.

لم يرَ ديلاكروا التغير الذي حدث؛ فانكمش عند حائط زنزانته، ضاما ركبتيه إلى صدره. وكان يبدو كما لو أن عينيه تكبران حتى إنهما احتلتا نصف وجهه. تسلق الفأر إلى صلعة رأسه وجلس فوقها. لا أدري إن كان قد تذكر أيضا أن لديه سببا لعدم الثقة ببيرسي، ولكن بدا كما لو أنه قد تذكر ذلك. ربما كان ذلك مجرد الشعور بخوف الفرنسي صغير الحجم، ورد فعل على ذلك.

قال بيرسي "حسنا، حسنا. يبدو أنك وجدت صديقا، يا إيدي".

حاول ديلاكروا الإجابة - قد يكون تخميني أنه بعض التحدي الأجوف لما سيحدث لبيرسي إذا ما سبب بيرسي أذى لصديقه الجديد - إلا أن شيئا لم يحدث. ارتجفت شفته السفلى قليلا، إلا أن ذلك

كان كل ما حدث. وقف السيد جينغلز على قمة رأسه، غير مضطرب. جلس بثبات تام وقدماه في شعر ديلاكروا ويداه منبسطتان على صلعة ديلاكروا شاخصا إلى بيرسي، كما لو أنه يقيس حجمه. الشكل الذي تقيم به حجم عدو قديم.

نظر بيرسي إليّ "أليس هذا نفس الفأر الذي كنت قد طاردته؟ الفأر الذي يعيش في غرفة السجن الانفرادي؟".

أومأت برأسي. كانت لديّ فكرة أن بيرسي لم يرَ الفأر بالاسم الجديد؛ السيد جينغلز، منذ تلك المطاردة الأخيرة، ولم يبدُ ما يشير إلى رغبته بمطاردته الآن.

قلت له "نعم، هذا هو، فقط ديلاكروا هو الذي يقول إن اسمه السيد جينغلز وليس ويلي القارب البخاري. من الممكن أن يكون الفأر قد همس باسمه في أذنه".

قال بيرسي "هل هذا صحيح، عجبا، إنهم لا يتوقفون أبدا، أليس كذلك؟"، كنت قد توقعت قيامه بسحب هراوته وبدء الطرق على القصبان، لمجرد أن يبيّن لديلاكروا من هو الزعيم، إلا أنه وقف هناك ويداه في وسطه، يتأمل.

قلت "ديلاكروا كان يسأل عن صندوق يا بيرسي، إنه يعتقد أن الفأر سينام فيه، هذا ما أخمنه. وأن يحتفظ به كحيوان أليف". حملت صوتي نبرة سخرية، وأحسست أكثر مما رأيت، أن هاري ينظر إليّ مندهشا. "ما رأيك في ذلك؟".

قال بيرسي بحزم "أعتقد أنه ربما يقضم أنفه في أثناء نومه في إحدى الليالي ويهرب، إلا أنني أرى أن هذا هو ما عليه الولد الفرنسي. لقد رأيت صندوق سيجار قيم عند توت توت في إحدى الليالي. لا أعلم إن كان يمكن أن يستغني عنه، ربما يطلب فيه خمسة أو عشرة سنتات".

الآن تجرأت على النظر إلى هاري، ورأيته فاغرا فاه. لم يكن ذلك

يماثل تماما التغير في إينيزر كروج في صباح يوم الميلاد، بعد رحيل الأشباح عنه، إلا أنه قريب جدا من ذلك.

مال بيرسي ليقترب من ديلاكروا، واضعا وجهه بين القضبان. وانكمش ديلاكروا إلى الخلف أكثر من ذي قبل. وأقسم إنه كان يمكن أن يذوب داخل تلك الجدران إذا ما كان ذلك في مقدوره.

وسأل "هل لديك ما يساوي خمسة سنتات أو ربما عشرة لتدفعها مقابل صندوق السيجار، يا متشرد".

قال ديلاكروا، "لديّ أربعة سنتات، أنا أدفعها مقابل الصندوق، إذا كان صندوقا جيدا، سيلي بون".

قال بيرسي "أقول لك، إذا ما باع لك هذا الداعر صندوق الكرونا هذا بأربعة سنتات، فإنني سأسرق بعض القطن من الصيدلية وأبطنه به. سنعمل على أن نكون هيلتون للفئران، قبل أن ننتقل من هذا المكان". وحول نظره إليّ. وقال "من المفترض أن أكتب تقريرا عن غرفة التحكّم، بخصوص بيتربك". "هل هناك بعض الأقلام في مكتبك، يا بول؟".

قلت له "فعلا، ونماذج أيضا، في الدرج أعلى اليسار".

قال "حسنا، هذا عظيم". ثم انطلق مختالا.

أنا وهاري، نظر كل منا إلى الآخر. وسأل هاري، "هل هو مريض، هل تعتقد ذلك؟ ربما يكون قد ذهب إلى طبيبه واكتشف أنه ليس أمامه في الحياة سوى ثلاثة أشهر؟".

فأخبرته أنه ليس لديّ أدنى فكرة عما يحدث. كانت تلك هي الحقيقة حينئذ، ولفترة ما بعدئذ، ولكنني اكتشفت الحقيقة في الوقت المناسب. فبعد عدة سنوات، كان لي حديث شيق مع هال مورس على مائدة عشاء. وكان بإمكاننا حينها التحدث بحرية، كان هو قد تقاعد وأنا في إصلاحية الأحداث. كانت وجبة من تلك الوجبات التي تشرب فيها بكثرة وتأكل القليل، وتنفلت فيها الألسنة. أخبرني هال بأن بيرسي

WWW.REWITY.COM

كان هنا ليشتكي مني ومن الحياة في الميل بشكل عام. كان ذلك بعد قدوم ديلاكروا إلى العنبر مباشرة، ومنعي أنا وبروتال له من ضربه حتى الموت. وكان قولي له بأن يغرب عن وجهي هو أكثر ما منع بيرسي من التمادي. لم يكن يظن أن رجلا له قرابة مع المحافظ يكون قابلا للتهديد بكلام كهذا الكلام.

حسنا، أخبرني مورس أنه قد قام بتحييد بيرسي لأطول فترة ممكنة، وعندما صعب عليه أن يقوم ببيرسي بمحاولات ليتم تأنيبي ونقلي إلى جزء آخر من السجن، على أقل تقدير، فإنه، أي مورس، قام بإحضار بيرسي إلى مكتبه وأخبره أنه إذا ما توقف عن هز القارب، فإن مورس سيحرص على أن يكون بيرسي في مقدمة من يحضرون إعدام ديلاكروا. وأنه، في الواقع، سيكون بجانب الكرسي مباشرة. قد أكون المسؤول، كما هو الحال دائما، إلا أن المشاهدين لن يعلموا ذلك، فبالنسبة إليهم سيكون السيد بيرسي ويتمور هو قائد الأوركسترا. لم يكن مورس يعد بشيء أكثر مما كنا قد ناقشناه بالفعل وقمت بتنفيذه، إلا أن بيرسي لم يكن على علم بذلك. وقد وافق على أن يقلع عن تهديداته بأن يجعلني أستقيل، ومن ثم خفّت حدة التوتر في العنبر (هـ). حتى إنه وافق على أن يحتفظ ديلاكروا بغريم بيرسي القديم كحيوان أليف. إنه من المدهش كيف يمكن أن يتغير بعض الرجال، عند إعطائهم الدافع المناسب؛ ففي حالة بيرسي، كان كل ما على المأمور مورس أن يقدمه هو فرصة إنهاء حياة رجل فرنسي صغير الحجم.

9

شعر توت توت بأن صندوق سيجار الكرونا أثمن بكثير من تلك الستات الأربعة، خاصة وأن صناديق السيجار السليمة من الأشياء ذات القيمة الكبيرة داخل السجن. حيث يمكن تخزين ألف شيء صغير فيها، كما أن رائحتها لطيفة، وفيها شيء يذكر زبائنه بالوقت الذي كانوا فيه رجالا أحرارا. فالسجائر مسموح بها في السجن أما السيجار فلا، كما أتخيل.

فأضاف دين ستانتون، الذي كان قد عاد إلى العمل في العنبر في ذلك الوقت، ستتا، وأضفت أنا آخر. وحينما بدا لنا أن توت توت لا يزال ممانعا، حاول بروتال إقناعه، فأخبره أولا بأنه يجب عليه أن يكون خجلا من نفسه لتصرفه بهذا الأسلوب، ثم وعده بأنه، أي بروتوس هويل، سيعيد الصندوق إليه في اليوم التالي ليوم إعدام ديلاكروا. "قد تكون ستة ستتات كافية أو غير كافية إذا كنت تتكلم عن بيع صندوق السيجار، ويمكن أن نتجادل طويلا حول ذلك الأمر"، هكذا قال له بروتال، "لكن عليك أن تعترف بأنه مبلغ كبير إذا ما كنا نتحدث عن تأجير هذا الصندوق. إنه سيمشي الميل في غضون شهر، ولنقل ستة أسابيع كأقصى حدٍّ. أي أن هذا الصندوق سيعود إليك وإلى ذلك الرف تحت عربتك قبل أن تشعر حتى بغيابه عنك".

فقال توت توت "يمكن أن يعطف عليه قاضٍ طيب القلب، ويمنحه وقفا لتنفيذ الحكم فيبقى هنا يغني أغنيته تلك... يجب أن ننسى أصدقاءنا القدامى"، لكنه كان يعرف أن هذا لن يحدث، وبروتال يعرف أنه يعرف. فتوت توت العجوز يتجوّل بتلك العربة في أرجاء كولد ماونتن منذ

www.rewity.com RAYAHEEN WWW.REWITY.COM

أيام (بوني إكسبريس)، ولديه العديد من المصادر، ومعلوماته أفضل من معلوماتنا، هذا ما كنت أظنه حينها. كان يعلم أن ديلاكروا قد عرض للتو على قضاة طيبي القلب. ولم يبقَ له أمل سوى في الحاكم، ومن البديهي أنه لن يصدر عفوا عن شخص أقدم على إحراق ستة من ناخبيه.

فجادل توت توت قائلا "وحتى إذا لم يحصل على وقف لتنفيذ الحكم، فإن ذلك الفأر سيبقى في ذلك الصندوق حتى أكتوبر، بل وربما حتى مناسبة الشكر"، لكن بروتال كان يشعر بأن جداله صار يضعف. "فمن هذا الذي سيشتري صندوق سيجار استعمله فأر كمرحاض؟".

فقال بروتال "آه، هذه أضعف حجة سمعتك تقولها، توت توت. فأولا، ديلاكروا سيبقي الصندوق نظيفا جدا، فهو يحب هذا الفأر حبا جما، حتى إنه على استعداد لأن يلعقه بلسانه إن تطلّب الأمر ذلك".

فقال توت توت وهو يحك أنفه "وثانيا؟".

تابع بروتال "ثانيا، إن فضلات الفأر ليست بالكثيرة على كل حال. إنها أشبه بفضلات الطيور. فما إن تنفض الصندوق حتى لا يبقى شيء عالقا به".

كان توت توت العجوز يعلم أنه لم يعد هناك باب للجدال؛ فقد تعامل معنا بما يكفي لأن يعلم متى يمكنه المقاومة ومتى يجدر به أن ينحني للعاصفة حتى تمر. بالطبع، لم يكن هذا الأمر بالشيء الخطير، لكننا صرنا نحب هذا الفأر، ونحب أن يكون بصحبة ديلاكروا، وهو ما يعني أن الأمر مهم بالنسبة إلينا على الأقل. وهكذا حصل ديلاكروا على صندوقه، والتزم بيرسي بوعده – فبعد ذلك بيومين كانت أرضية الصندوق مبطنة بقطع من القطن الناعم والتي جاء بها من الصيدلية. كنت أرى الخوف في عيني ديلاكروا وهو يمد يده من بين القضبان ليتناولها منه. كان يخشى أن يجذب بيرسي يده ويكسر أصابعه. بدوري كنت أشعر ببعض القلق أيضا، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث. كانت تلك

اللحظة الوحيدة التي أمكنني فيها أن أرى ذلك الجانب الطيب الضئيل داخله، ومع هذا، فقد كان من الصعب ألا ألاحظ تلك النظرة الباردة في عينيه. كان لدى ديلاكروا حيوانه الأليف؛ وكذلك حال بيرسي. سيحتفظ ديلاكروا به، ليحبه ويحنو عليه بقدر ما يمكنه؛ بينما سينتظر بيرسي بصبر يليق بشخصية رجل مثله، وبعدها يحصل على جائزته... إشرافه على إعدام ديلاكروا نفسه.

علّق هاري قائلا "وهكذا افتتحنا فندقا للفئران. ويبقى السؤال، هل سيستخدم الفأر هذا الفندق أم لا؟".

جاءت الإجابة ما إن وضع ديلاكروا السيد جينغلز فوق كفه ثم أنزله بلطف داخل الصندوق. سرعان ما ارتاح الفأر إلى القطن وكأنه وسادة فاخرة، وصار الصندوق بيته منذ تلك اللحظة... وعما قريب سأعود لأحكي لك بقية قصة السيد جينغلز... عما قريب.

ثبت لتوت توت العجوز أن قلقه بشأن امتلاء صندوق السيجار بفضلات الفأر لم يكن له أي أساس. فلم أشاهد أبدا ولو واحدة صغيرة، كما أخبرني ديلاكروا أن الفأر لم يتبرز داخل الصندوق أبدا، كما أنه لم يكن يتبرز في أي مكان داخل زنزانته. بعد ذلك بفترة، وحينما أراني بروتال ذلك الثقب الذي وجدنا فيه تلك الشظايا الصغيرة الملونة، حركت مقعدا كان يقبع في الركن الشرقي من غرفة الحبس الانفرادي لأجد كومة صغيرة من براز الفأر هناك. فقد كان يقضي حاجته دوما في ذات المكان، والذي اختاره أبعد ما يكون عنا. كما أنني اكتشفت شيئا آخر، لم يسبق لي أن رأيته يتبول، مع أنه من المعروف عن الفئران أنها تتبول كثيرا، خاصة في أثناء تناولها الطعام. لا تقل لي أنني لم أخبرك بأن هذا الوغد الصغير كان لغزا من الألغاز.

بعد قرابة أسبوع من استقرار السيد جينغلز في صندوق السيجار، ناداني ديلاكروا أنا وبروتال حتى ندلف إلى زنزانته لنرى شيئا. كان معتادا

WWW.REWITY.COM

على هذا بصورة بدأت تضايقنا - فلو أن السيد جينغلز كان يتدحرج فوق ظهره بينما مخالبه إلى الأعلى، فإن هذا في نظر ذلك الفرنسي أجمل منظر على وجه البسيطة - ولكنه أرانا هذه المرة أمرا أصابنا بالدهشة والعجب.

كان العالم قد نسي قصة ديلاكروا ما إن صدر بحقه حكم الإعدام، ما عدا إحدى قريباته - وكانت عمة عجوزا له، أو هذا ما أعتقده - كانت تكاتبه مرة كل أسبوع. كما أرسلت إليه كيسا كبيرا من حلوى النعناع، من النوع الذي يبيعونه تحت اسم كندا مينتس هذه الأيام. كانت تبدو كأقراص وردية كبيرة. ولم يكن من المسموح له بالاحتفاظ بكامل الكيس لديه، فوزنه خمسة أرطال، وكان من الممكن أن يبتلعها بكمية كفيلة بأن ترسله إلى المستشفى بحجة معاناته من تقلصات في المعدة. فهو لا يختلف عن أي قاتل جاءنا إلى هنا في الميل الأخضر، فجميعهم متطرفون في كل شيء يفعلونه. كنا نعطيه عشرة أقراص في كل مرة، هذا إن تذكر أن يطلب منا ذلك.

كان السيد جينغلز يجلس بجوار ديلاكروا على الفراش حينما دلفنا إلى زنزانته، وهو يحمل واحدة من تلك الأقراص الوردية بين مخالبه، منهمكا في التهامها. أما ديلاكروا فكانت البهجة طاغية على محياه؛ كان أشبه بعازف بيانو كلاسيكي يراقب ابنه الصغير وهو يعزف أول مقطوعة موسيقية له بشكل سليم. ولا تفهمني خطأ؛ فقد كان ما نراه مسليا بالفعل، بل وغاية في الغرابة. فقد كان حجم قطعة الحلوى يصل إلى نصف حجم السيد جينغلز، أما بطنه أبيض الوبر فقد كان بارزا بالفعل، بعد ما احتواه من قطع الحلوى الصغيرة.

فقال بروتال وصوته يجمع بين الضحك والفزع "خذها منه، بالله عليك، فهو لن يتوقف عن التهامها حتى تنفجر معدته. بل إنني أشم رائحة النعناع من مكاني هنا. كم قطعة تركته يتناول؟".

فقال ديلاكروا بعصبية بعدما تنبه إلى منظر بطن الفأر "هذه الثانية. هل تعتقد حقا أنه سيمزق... سيمزّق بطنه؟".

"قد يحدث هذا".

كأن ديلاكروا كان ينتظر هذا الرد. فقد مد يده يأخذ تلك القطعة التي اختفى نصفها في بطن الفأر. وتوقعت أن يبدي الفأر عدم رضاه، إلا أن الفأر تخلى عمّا تبقى من قطعة الحلوى بشيء من اللطافة. فنظرت إلى بروتال، الذي كان يهز رأسه وكأنما يقول لي لا، لم يكن بدوره يفهم كيف يفعل الفأر كل هذا. ثم قصد الفأر صندوقه حيث رقد على جانبه وكأنه رجل منهك، فضحكنا نحن الثلاثة على غرابة المنظر. بعدها صرنا معتادين على رؤية الفأر جالسا بجوار ديلاكروا، وهو يحمل قطعة النعناع يقرضها وكأنه سيدة عجوز في حفلة شاي، وكلاهما محاط بما شممته في ما بعد في تلك الفجوة؛ رائحة النعناع التي تجمع بين الحلاوة والمرورة.

هناك شيء آخر أود أن أخبرك به عن السيد جينغلز قبل الانتقال إلى الحديث عن وصول ويليام وارتون، وكان ذلك يوم أن حط الإعصار على العنبر (هـ). بعد أسبوع من نادرة حلوى النعناع - عندما منعنا ديلاكروا من أن يطعم فأره حتى الموت - دعاني الفرنسي إلى زنزانته. كنت وحدي في العنبر، حيث كان بروتال عند النائب لإنهاء أمر ما، ولم يكن من المفترض طبقا للتعليمات أن اقترب من سجين في مثل هذه الظروف. ولكنني رأيت - مع فارق القوة الكبير بيني وبين ديلاكروا - أن أتجاهل التعليمات لأرى ما يريده.

قال لي "راقب هذا، أيها الرئيس إيدجكومب... سترى ما يمكن للسيد جينغلز أن يفعله!"، ثم مدّ يده وراء صندوق السيجار، وتناول بكرة خشبية صغيرة.

سألته، مع أنه من المفترض أنني أعرف "من أين أتيت بهذه؟".

WWW.REWITY.COM

فلم يكن هناك سوى مصدر وحيد لمثل هذه الأشياء.

فقال "من العجوز توت توت... راقب هذا".

كنت أراقب بالفعل، وأرى السيد جينغلز في صندوقه، واقفا وكفاه الأماميتان الصغيرتان تستندان إلى الحافة، وعيناه السوداوان مثبتتان على البكرة التي كان ديلاكروا يحملها بين إبهامه وسبابته في يده اليمنى. شعرت بقشعريرة باردة في ظهري. فما سبق لي أن رأيت فأرا يراقب شيئا بمثل هذا الذكاء الحاد. أنا لا أعتقد يقينا أن السيد جينغلز روح خارقة، وحتى إذا كنت قد تركت لديك هذا الانطباع، فإنني أعتذر، ولكنني لم أشك لحظة في أنه عبقري... عبقرية تليق بكونه فأرا.

انحنى ديلاكروا، وألقى بالبكرة لتتدحرج عبر أرضية زنزانته. فذهبت بسهولة، وكأنها زوج من العجلات موصول عبر محور. خرج الفأر من صندوقه بلمح البصر وأسرع عبر الأرضية وراءها، مثل كلب يلاحق عصا. ندت مني صيحة عجب، بينما ابتسم ديلاكروا ابتسامة عريضة.

ارتطمت البكرة بالحائط وارتدت. فدار السيد جينغلز حولها وامتطاها وهو يدفعها نحو الفراش من جديد، وهو يتحول بجسده من طرف إلى آخر كلما وجد أن البكرة ستخرج عن مسارها المنشود. دفع البكرة حتى اصطدمت بقدم ديلاكروا. ثم نظر إليه للحظة، كما لو أنه يريد أن يتأكد من أن ديلاكروا لا يحتاج إليه في مهام أكثر أهمية من هذه المهمة (بضع مشاكل حسابية يحلها، أو جمل لاتينية يود إعرابها... ما المانع؟). وبعدما رضي على ما يبدو بما قام به، عاد السيد جينغلز إلى صندوق السيجار، واستقر فيه ثانية.

قلت له "لقد علمته ذلك؟".

فقال ديلاكروا وهو عاجز عن إخفاء ابتسامته "نعم سيدي، إيدجكومب، إنه يجلبها في كل مرة. أليس يعبقري؟".

سألته "وماذا عن البكرة؟ كيف تعرف أنه يريد أن يلهو بها، إيدي؟".

فقال برصانة "إنه يهمس في أذني بأنه يريدها، تماما كما يهمس باسمه لي".

عرض ديلاكروا على كل الرجال مهارة فأره... عدا بيرسي. لم يتغير موقف ديلاكروا تجاهه، حتى بعد أن كان هو من اقترح فكرة صندوق السيجار، وأحضر القطن لتبطينه. كان ديلاكروا أشبه بنوع من الكلاب ما إن تركلهم مرة حتى يفقدوا الثقة بك إلى الأبد، مهما كنت لطيفا معهم بعد ذلك.

يمكنني أن أسمع ديلاكروا الآن، يصرخ مبتهجا!... أنتم يا رجال... تعالوا وشاهدوا ما يمكن أن يقوم به السيد جينغلز! وأراهم يتجمعون بزيهم الأزرق... بروتال، وهاري، ودين، حتى بيل دودج. كلهم مندهشون ولهم الحق، أيضا، تماما مثلما اندهشت.

بعد ثلاثة أو أربعة أيام منذ بدء السيد جينغلز استعراض مهارته في التعامل مع البكرة، قرر هاري تيروليجر أن يفتش في الأدوات التي نحتفظ بها في غرفة الحبس الانفرادي، فوجدنا بعض الطبشور الملوّن، وأحضرناه لديلاكروا مع ابتسامة خجلى. "رأينا أنك قد تحب أن تلون تلك البكرة"، قال له هاري. "وأن يكون فأرك أقرب ما يكون إلى فأر سيرك، أو شيء من هذا القبيل".

"فأر سيرك!"، قالها ديلاكروا وهو يبدو في غاية الانتشاء. إنه يعيش الآن أسعد لحظات حياته، ربما للمرة الأولى خلال كامل حياته البائسة. "إنه كذلك بالفعل! فأر سيرك! عندما أخرج من هنا، سيجعلني هذا الفأر غنيا، سترون".

لا شك في أن بيرسي ويتمور لو كان موجودا لما تردد لحظة في تذكير ديلاكروا أنه لن يفارق كولد ماونتن إلا داخل عربة إسعاف لا

WWW.REWITY.COM

تحتاج إلى أنوارا أو صافرة إنذار، أما هاري فرأى أنه من الأفضل ألا يعلق. ولكنه طلب من ديلاكروا أن يلون البكرة بأسرع ما يمكنه هذا، لأنه يجب أن يعيد الطبشور الملوّن بعد العشاء.

لونها ديلاكروا... لونها بمهارة. وحينما انتهى، كان أحد طرفي البكرة أصفر اللون، أما الطرف الآخر فكان أخضر، وأوسطها أحمر فاقع اللون. كنا قد اعتدنا على أن نسمع ديلاكروا وهو يدندن:

"Maintenant, m'sieurs et mesdames! Le cirque presentement le mous' amusant et amazeant!".

قد لا تكون هذه هي الكلمات بالضبط، ولكنها تعكس لك فكرة عن لكنته الفرنسية. بعدها يأخذ في محاكاة صوت أشبه بصوت طبلة إيقاع؛ ثم يدحرج البكرة ليلحق بها السيد جينغلز بغمضة عين، وإما أن يعيدها تتدحرج بخطمه أو يمتطيها ليدحرجها بمخالبه. تلك الطريقة الثانية هي التي تستحق فعلا أن تدفع لقاء مشاهدتها أي نقود. وإنني لأعتقد أن ديلاكروا وفأره وبكرته مصدر المتعة والتسلية الوحيد بالنسبة إلينا، حتى حضر جون كوفي، وقد بقي الحال هكذا لفترة. إلى أن عاودتني تلك العدوى في مجرى البول، وإلى أن حضر ويليام وارتون... وعندها تحول المكان إلى قطعة من الجحيم.

10

تكاد التواريخ تسقط من عقلي. ربما كان عليّ أن أطلب من حفيدتي، دانييل، أن تبحث عن بعضها في ملفات الصحف القديمة، ولكن ما جدوى هذا؟ وهناك منها ما هو مهم؛ مثل ذلك اليوم الذي أتيا فيه إلى زنزانة ديلاكروا ووجدنا الفأر يجلس على كتفه، أو اليوم الذي حضر فيه ويليام وارتون إلى العنبر وكاد يقتل دين ستانتون؛ ولكن الصحف لم تورد عنه أي شيء بطبيعة الحال. ربما كان من الأفضل أن أسترسل على سجيتي؛ فأنا لا أرى أن للتواريخ تلك الأهمية، لو كنت تتذكر الوقائع التي رأيتها ويمكنك ترتيب تسلسلها التاريخي.

أعلم أن الأحداث صارت تتوالى. حينما أتتني أوراق تنفيذ حكم الإعدام الخاصة بديلاكروا من مكتب كيرتيس أندرسن، دهشت حينما تبيّن لي أن موعد صديقي الفرنسي مع سباركي العجوز قد تم تقديمه عن التاريخ الذي كنا نتوقعه، وهو شيء يكاد يكون غير مسبوق، حتى في تلك الأيام التي لم يكن الصخب يحيط فيها بكل عملية إعدام كما هو الحال هذه الأيام. لم يكن التقديم سوى ليومين، على ما أتذكر، من السابع والعشرين من أكتوبر إلى الخامس والعشرين منه. لا تعوّل كثيرا على دقة التواريخ، ولكنني متيقن من أن الاختلاف ليس بكبير؛ وأتذكر أنني فكّرت وقتها في أن توت توت سيحصل على صندوق السيجار خاصته بأسرع مما توقعت.

في هذه الأثناء كان وارتون قد وصل إلينا في وقت متأخر عما كان متوقعا. ومن أسباب هذا أن المحاكمة قد طالت عن المدة التي توقعتها مصادر أندرسن الموثوق بها (وحينما يتعلق الأمر بوايلد بيل،

WWW.REWITY.COM

فإن لا شيء موثوق به، وهو الأمر الذي سرعان ما سنكتشفه، بما في ذلك تجربة أساليبنا في السيطرة على المساجين). بعدما تمت إدانته - والأمور تجري حتى الآن حسبما هو متعارف عليه - نقل إلى مستشفى إنديانولا العام لإجراء فحوصات. كان قد تعرض لعدد من نوبات الصرع خلال المحاكمة، ومنها نوبتان كانتا من القوة حتى أسقطتاه أرضا، حيث ظل يرتجف ويتقافز وهو يضرب بقدميه على الأرضية الخشبية. كانت محكمة وارتون قد وكلت محاميا ادّعى أن موكله يعاني من نوبات صرع وأنه قد ارتكب جرائمه وهو مغيب العقل؛ بينما قال الادعاء بأنها ليست سوى محاولة جبانة لإنقاذ حياته من مصيرها المحتوم. بعد أن عاينت هيئة المحلفين تلك النوبات المزعومة تحققت من أنها ليست سوى تمثيل. وقد أيدهما القاضي، ولكنه أمر بإجراء سلسلة من الفحوصات بعد إصدار الحكم. ربما أصدر هذا القرار فضولا منه.

من أعاجيب القدر أن وارتون لم يهرب من المستشفى (ومن مفارقات القدر أيضا أن زوجة الآمر مووري، مليندا، كانت في نفس المستشفى). أظن أن الحراسة حوله كانت مشددة، وربما كان الأمل لا يزال يراوده في أن يصدر قرار بأنه لم يكن يعي ما يفعل حين ارتكابه جرائمه، وأن تتم تبرئته بسبب الصرع، هذا إن كان يعاني بالفعل من صرع.

لكنه لم يكن مصابا بالصرع. فلم يجد الأطباء خللا في عقله؛ إنه خلل نفسي بالطبع، وهكذا صار من الحتمي أن يكون بيلي ذا كيد وارتون نزيلا في كولد ماونتن. ربما حضر إلينا في السادس عشر أو الثامن عشر من الشهر؛ وأذكر أن وارتون قد وصل بعد وصول جون كوفي بأسبوعين، وقبل أسبوع أو عشرة أيام من تنفيذ حكم الإعدام في ديلاكروا.

كان يوم التحاق هذا المجنون بنا يوما حافلا بالأحداث بالنسبة إليّ.

فقد استيقظت عند الرابعة من فجر ذلك اليوم وأنا أعاني من آلام مبرحة في مجرى البول، وأشعر بتورم وسخونة في عضوي. كنت أعلم أن تحسنا لم يطرأ على تلك العدوى، حتى من قبل أن أبارح الفراش.

خرجت إلى الخلاء لأتبول - كان هذا قبل ثلاث سنوات على الأقل من تركيبنا لأول مرحاض في منزلنا - إلا أنني أدركت استحالة تمالك نفسي لأكثر من هذا قبل أن أصل إلى كومة الحطب عند ركن المنزل. فأنزلت سروال النوم في ذات اللحظة التي بدأ بولي فيها يتدفق، صاحب ذلك أشد الآلام تعذيبا في حياتي كلها. كنت في العام 1956، قد أنزلت حصاة في أثناء تبولي، وكثيرون يرون في هذا عذابا لا حدّ له، إلا أن تلك الحصاة كانت في نظري مجرد قطرة في بحر تلك الآلام التي لا تطاق.

عجزت ركبتاي عن حملي، فجثتا بقوة على الأرض، وتمزق سروالي حينما باعدت بين ساقي كي لا أفقد توازني وأسقط على وجهي في البقعة التي أتبوّل فيها. وكان من الممكن أن أنكب على وجهي بالفعل لولا أن قبضت على واحدة من كومات الحطب بيدي اليسرى. لم يكن يهمني سوى ذلك الألم المحرق؛ كنت أشعر وكأن نيرانا قد شبت في أريبتي، وكأن عضوي يذوب؛ حتى توجست من النظر إلى الأسفل فأرى الدم يتدفق منه، إلا أنني وجدت أنه بول عادي في نهاية المطاف.

تشبثت بكومة الحطب بيد، ووضعت الأخرى فوق فمي، حتى لا تصدر منه أي صرخة. لم أكن أود أن أصيب زوجتي برعب الاستيقاظ على أصوات صراخي. وبدا لي أنني أتبوّل إلى ما لانهاية، ولكن البول توقف في النهاية لحظة تسلّل الألم إلى معدتي وأمعائي وهو يعضني وكأنه أسنان ثلمة. بقيت لبرهة - ربما لم تدم أطول من دقيقة - عاجزا عن النهوض. بعدها بدأ الألم ينحسر، واستطعت النهوض على قدمي. نظرت إلى بولي، الذي يبلل الأرض، وأنا أتعجب. فكرت في طلب

WWW.REWITY.COM

إجازة مرضية، والذهاب إلى الدكتور سادلر. لم أكن أستطيع أن أتحمل ما يفرزه جسدي من عرق كريه الرائحة وما أشعر به من غثيان نتيجة ما سيصفه لي من أقراص السلفا، إلا أن أي شيء سيكون أفضل من موقفي هذا وأنا جاثٍ بجوار كومة الحطب، أحاول ألا أصرخ بينما أشعر وكأن النار قد شبت في حقل نفط اكتشفوه داخل أريبتي.

بينما كنت أتناول الأسبرين في مطبخنا، وأسمع صوت شخير جانيس الخفيف في الغرفة، تذكرت أن اليوم هو يوم وصول ويليام وراتون إلى العنبر، وأن بروتال لن يكون هناك؛ فهو سيناوب وفق جدول الخدمة في الجهة الأخرى من السجن، ليساعد على نقل بقية المكتبة وبعض ما تبقى من المهام إلى المبنى الجديد. كنت أشعر بالقلق حيال توكيل دين وهاري مهمة استلام وارتون. هما حارسان جيدان، إلا أن تقرير كيرتيس أندرسن يقترح توخي الحذر في التعامل مع ويليام وارتون. وقد وضع أكثر من خط تحت عبارة واحدة بالذات في تقريره... "ذلك رجل لا يلقي بالا لأي شيء".

كان الألم قد انحسر كثيرا حينئذ، أو هكذا شعرت. ووجدت أن أنسب تصرف الآن هو أن أتوجه إلى السجن مبكرا. في وسعي أن أكون هناك بحلول السادسة، وهو الوقت نفسه الذي يحضر فيه الآمر موور عادة. ويمكنه أن يطلب إعادة تكليف بروتوس هويل في العنبر (هـ) وقت قدوم وارتون، وبعدها يكون بمقدوري أن أتوجه إلى الطبيب. فكولد ماونتن في الطريق إلى هناك.

غالبتني الحاجة إلى التبول مرتين وأنا أقطع العشرين ميلا في طريقي إلى مبنى السجن. وتمكنت في المرتين من إيقاف السيارة والتبول من دون أن أهين نفسي (ليس لشيء سوى أنه كان من النادر أن تمر سيارة أخرى على هذا الطريق الريفي في مثل هذه الساعة). لم يكن الألم شديدا في هاتين المرتين مقارنة بتجربتي في خلاء منزلي، ولكنني اضطررت

خلالهما إلى أن أتشبث بمقبض باب سيارتي الفورد الصغيرة حتى لا أسقط أرضا، وشعرت بالعرق يتصبب فوق جبيني الذي ارتفعت حرارته. كنت مريضا بالفعل.

لكنني نجحت في الوصول إلى السجن، وعبرت بالسيارة البوابة الجنوبية، لأركنها في المكان المعتاد، ثم توجهت من فوري إلى الآمر. كانت الساعة السادسة. وجدت مكتب الآنسة هانا خاويا - لم تكن لتصل على كل حال قبل موعدها الرسمي في السابعة - لكن الضوء ينير مكتب موور؛ كنت أراه من خلف الزجاج الخشن. طرقت الباب بروتينية ثم فتحته. رفع موور رأسه ونظر إليّ، وهو مندهش من رؤية أحد في مثل هذه الساعة، وعن نفسي لم أكن أحب أن أراه على هذه الحالة التي وجدته عليها، فقد شاهدت وجهه على حقيقته ومن دون تصنع رسمي. شعره الأبيض - الذي يصففه عادة بأناقة - كان متعرقا ملاصقا لرأسه؛ ويداه فوقه، تشدانه بعنف لحظة دلفت إلى مكتبه. عيناه حمراوان، بينما انتفخ وتورم أسفلهما. كان يمر بأسوأ نوبات ما يعانيه من ارتجاف قهري؛ فبدا لي أشبه برجل دلف إلى هنا للتو من بعد مسيرة دامت ليلة باردة طويلة واجه فيها الأهوال.

بادرت فقلت له "هال... معذرة، سأعود إليك...!".

"كلا. أرجوك، بول، ادخل. أغلق الباب، وادخل. كم أود أن أكون بصحبة أحد الآن. أغلق الباب، وادخل".

لبّيت طلبه، وقد نسيت آلامي الآن، ولأول مرة منذ أن استيقظت ذلك الصباح.

قال لي "إنه ورم في المخ. صوروه بأشعة إكس. كانوا سعداء بجودة الصورة. أخبرني أحدهم بأنها من بين أفضل الصور التي أخذوها لأي مريض، حتى الآن على الأقل؛ بل قال إنهم سينشرونها في إحدى الدوريات الطبية المرموقة في نيو إنغلاند. وأخبروني أنه بحجم الليمونة،

WWW.REWITY.COM

وفي عمق المخ، بطريقة تمنعهم من إجراء أي عملية جراحية. انتهوا إلى أنها ستموت بحلول الميلاد. لم أخبرها بشيء. لا أعرف كيف أخبرها بذلك. كيف لي أن أقول لها هذا؟".

ثم بكى... أخذ ينشج وينتحب بشدة، حتى إنني شعرت بمزيج من الشفقة واللوعة؛ فكم هو مفزع أن تجد رجلا مثل هال موور، يحافظ على رباطة جأشه في كل المواقف، وقد فقد السيطرة على أعصابه. بقيت واقفا في مكاني للحظات، ثم اقتربت منه، وأحطت ذراعي بكتفيه. تمسك بذراعي كغريق، ودفن وجهه في جسدي وهو يبكي بشدة، وقد زال بيننا كل تكلف. وقد اعتذر لي بعدها، بعد أن استعاد رباطة جأشه. فعلها بنظرة هادئة من عينيه، كأي رجل وجد نفسه في موقف شديد الإحراج، لدرجة لا يمكنه معها سوى أن يخرج من هذه الحالة. قد يكره المرء صاحبه الذي رآه على ذلك الحال. لكنني علمت أن الأمر موور أرفع مستوى من هذا، ولكن لم يخطر ببالي أبدا أن أخبره بالأمر الذي أتيت من أجله، وحينها غادرت مكتبه، توجهت فورا إلى العنبر (هـ) بدلا من العودة إلى سيارتي. كان مفعول الأسبرين قد بدأ حينئذ، ولم يعد متبقيا من ذلك الألم في أربيتي سوى بضع خفقات. وجدت أن بمقدوري أن أخوض غمار هذا النهار، وأن أنتهي من أمر وارتون، وألتقي هال موور عند الظهيرة، وأن أؤجل الحصول على الإجازة المرضية إلى الغد. فقد مرّ الأسوأ، أو هكذا خيل إليّ، فلم تكن لديّ أدنى فكرة عن أن أسوأ ما في هذا النهار لم يأتِ بعد.

11

"اعتقدنا أنه لا يزال مخدرا من الفحوصات"، قال لي دين في وقت متأخر من ذلك العصر. كان صوته منخفضا، أبحّ، أشبه بالنباح، وكدمات سوداء أرجوانية تظهر على رقبته. يمكنني أن أرى أنه كان يجد صعوبة في الكلام، وفكّرت في أن أطلب منه ألا يتكلم، ولكن أحيانا ما يكون السكوت أكثر ضررا من الكلام. كان هذا أحد تلك الأوقات، فقررت أن أبقى صامتا. "كلنا اعتقدنا بأنه مخدر، أليس كذلك؟".

فأومأ هاري تيرويليجر برأسه موافقا. وحتى بيرسي، الذي كان يجلس وحده بمعزل عنا، أومأ بدوره.

رمقني بروتال، وللحظة تلاقت أعيننا. كنا نفكّر تقريبا في الشيء نفسه، وأن هذا هو ما حدث. كان كل شيء يسير وفق ما خطط له هويل، حتى ارتكبتم خطأ واحدا، وفجأة فسد كل شيء. اعتقدوا أنه مخدر، كانت فرضية معقولة، ولكن أحدا منهم لم يسأل إن كان مخدرا أم لا. وأعتقد أنني رأيت شيئا آخر في عيني بروتال أن هاري ودين سيتعلّمان من خطأهما. وخصوصا دين، الذي كان يمكن وبكل سهولة أن تتلقاه عائلته ميتا اليوم. أما بيرسي فلا. بل ربما لا يستطيع بيرسي. كل ما أمكن لبيرسي أن يفعله هو أن يقبع في الركن من دون أن يقحم نفسه في أمر لا علاقة له به.

سبعة منهم كانوا قد ذهبوا إلى إنديانولا لاستلام وايلد بيل وارتون؛ هاري، ودين، وبيرسي، وحارسان آخران في الخلف (نسيت اسميهما، على الرغم من أنني متيقن من أنني كنت أعرفهما ذات مرة)، بالإضافة إلى اثنين في المقدمة. استقلوا ما كنا نسميها شاحنة اللجنة؛ وهي عربة

WWW.REWITY.COM

من طراز فورد مدعمة بالفولاذ ومجهزة بزجاج مضاد للرصاص. كانت مزيجا في مظهرها بين عربة الحليب وسيارة مدرعة.

كان هاري تيرويليجر من الناحية الفنية مسؤولا عن هذا الفريق. وقد سلم الأوراق الرسمية إلى مدير شرطة المقاطعة (ليس هومر كريبس، وإنما شخص ساذج منتخب آخر مثله، كما أتخيل)، والذي سلمهم بدوره السيد ويليام وارتون المشاغب. كانوا قد بعثوا له بزي سجناء كولد ماونتن، لكن مدير الشرطة ورجاله لم يهتموا أن يرتديه وارتون؛ تركوا تلك المهمة لرجالنا. كان وارتون يرتدي ثياب نوم مستشفى قطنية رخيصة وينتعل خفا عندما التقوه أولا في الطابق الثاني للمستشفى العام، إنه رجل هزيل ذو وجه مسحوب ممتلئ بالبثور، وشعر أشقر أشعث طويل. كانت مؤخرته - المغطاة بالبثور - تظهر من سروال نومه الضيق. كان ذلك أول جزء رآه هاري ورفاقه منه، لأن وارتون كان عند النافذة ينظر إلى ساحة الوقوف حينما جاؤوا. لم يلتفت إليهم بل ظل واقفا هناك، يزيح جزءا من الستائر بيده، ويقف ساكنا كدمية، بينما كان هاري يشتكي إلى مدير شرطة المقاطعة من التكاسل عن إلباس وارتون زي السجن، فيما حدّثه مدير شرطة المقاطعة - كما يفعل كل مسؤول مقاطعة وكأنما هذه المحاضرة من متطلبات وظيفته - عما هو مسؤول عنه وعما هو غير مسؤول عنه.

عندما مل هاري من ذلك الجزء (وأشك في أن هذا قد استغرق مدة طويلة)، طلب من وارتون أن يستدير. واستدار وارتون. بدا، كما حكى لنا دين بصوت متحشرج أبحّ، مثل أي شخص ألِف الحياة في المناطق غير المأهولة، والذي آلت حياته إلى كولد ماونتن في أثناء سنواتنا هناك. ولو أنك حلّلت تلك النظرة، فستجد أمامك شخصا بليد الفكر. أحيانا ما تكتشف أيضا صفارا في عينيه، ما إن يصيبهما اليأس، ولكنك لا تجد في أغلب الأحيان أكثر من الشجار والغل، ثم الشجار

والغل. هناك أناس يجدون نبلا في أشخاص من قبيل بيل وارتون، لكنني لست أحدهم. أي جرذ سيقاتل، أيضا، طالما وجد نفسه محاصرا وليس لديه ما يخسره. بدا لي ألا فارق بين وجه هذا الرجل ومؤخرته المرصعة بالبثور، كما حكى لنا دين. فاغرا فاه، عيناه غائبتان، كتفاه متهدّلتان، يداه متدليتان. بدا أن مفعول حقنة المورفين لا يزال ساريا، حسنا، لا فارق في هذا بينه وبين غيره.

عندها، أومأ بيرسي بواحدة من إيماءاته المتجهمة.

قال له هاري "ارتدِ هذه". وهو يشير إلى الزي الرسمي القابع عند الفراش - كانوا قد أخرجوه من الورقة البنية التي كان ملفوفا فيها ولكن أحدا لم يمسه - لا يزال مطويا كما كان في السجن، مع زوج من السراويل القطنية القصيرة البيضاء مع لباس داخلي وزوج من الجوارب البيضاء.

بدا وارتون راغبا بالامتثال، لكنه لم يكن ليتعدى هذه الرغبة إلى الفعل من دون مساعدة. نجح في ارتداء السروال القصير، ولكنه ظل يحاول أن يدخل كلتا ساقيه في نفس فتحة السروال. وأخيرا ساعده دين، فأدخل ساقيه في كلتا الفتحتين ثم سحب السروال إلى الأعلى، ثم أغلق الزمام، وأحكم السروال على خصره. اكتفى وارتون بالوقوف في مكانه، من دون حتى أن يساعد دين. كان يحدق شاردا عبر الغرفة، يداه متدليتان، ولم يخطر لأي منهم أنه كان يمثل. ليس بأمل الهروب (أنا على الأقل لا أعتقد أنه كان يفكر في هذا) ولكن فقط يأمل أن يفتعل أكبر قدر من المشكلات عندما يحين الوقت المناسب.

تم توقيع الأوراق. ومعها انتقلت ملكية ويليام وارتون من المقاطعة حيث اعتقل إلى الدولة. اقتيد عبر الدرج الخلفي وعبر المطبخ محاطا برجالنا. كان يمشي محني الرأس تتدلى يداه طويلتا الأصابع. بادئ ذي بدء سقطت القبعة فالتقطها دين ووضعها على رأسه. أما في المرة التالية، فقد دسها في جيبه الخلفي.

WWW.REWITY.COM

واتته فرصة أخرى لافتعال المشاكل وهو قابع في الجزء الخلفي من العربة، حينما كانوا يقيدونه، إلا أنه لم يفعل. ولو أنه فكّر في هذا (وأنا حتى الآن لست متأكدا مما إذا كان قد فكّر في هذا أم لا، أو إلى أي مدى فكّر في هذا)، لا بد من أنه رأى أن المساحة صغيرة جدا والعدد كبير. وهكذا قيدوه بالسلاسل، مجموعة تمر بين كاحليه ومجموعة أخرى أطول جدا، كما علمت، بين رسغيه.

كان الطريق إلى كولد ماونتن يستغرق ساعة. وفي أثناء ذلك الوقت بالكامل جلس وارتون على المقعد الأيسر للجزء الخلفي من العربة، رأسه محني، ويداه المصفدتان تتدليان بين ركبتيه. قال لي هاري إنه كان يدندن بين الحين والآخر، بينما أخرج بيرسي نفسه من جبنه بما يكفي لأن يقول إن فم السجين يقطر لعابا من شفته السفلى المتدلية، حتى تكونت بركة بين قدميه. وكأنه لعاب كلب يتقاطر من طرف لسانه في يوم صيفي حار.

مرت العربة عبر البوابة الجنوبية عندما وصلوا إلى حراسها. قام الحارس بفتح الباب الكبير بين موقف العربات وساحة التمرين، فعبرت العربة من خلاله. كان الهدوء يخيم على الساحة، ولم يكن هناك العديد من الرجال في الخارج، وكان معظم الموجودين يعملون في الحديقة. أتذكر أنه كان وقت زراعة القرع العسلي. عبرت العربة أمام العنبر (هـ) وتوقفت. فتح السائق الباب وأخبرهم بأن عليه أن يذهب بالعربة إلى الورشة لتغيير الزيت، وأنه قد سعد بصحبتهم بالطبع. أما الحراس الإضافيون فذهبوا مع العربة، يجلس اثنان منهم في الخلف يأكلان التفاح، وقد تركا بابي العربة مفتوحين الآن.

هكذا بقي دين وهاري وبيرسي مع سجين مكبل. من الواجب أن يكون هذا كافيا، بل إنه كافٍ بالفعل، لولا أنهم قد استخفوا بهذا الولد الريفي النحيف الواقف منكس الرأس وسط التراب مكبلا بالسلاسل حول رسغيه وكاحليه. تقدموا أمامه عبر الاثنتي عشرة خطوة حتى الباب

الذي يفضي إلى العنبر (هـ)، وهم يصطفون بنفس التشكيل الذي تصطف به عند مرافقة أحد السجناء عبر الميل الأخضر. هاري على يساره، ودين على يمينه، أما بيرسي فكان وراءه، وهراوته في يده. لم يخبرني أحد بذلك، لكنني متيقن من أنها كانت بيده؛ فقد كان بيرسي يعشق ذلك الإحساس الذي تمنحه إياه تلك الهراوة. أما بالنسبة إليّ، فقد كنت أجلس داخل زنزانة وارتون حتى يجيء وقت نزوله في هذا المكان الحار، كانت أول زنزانة إلى اليمين وأنت تسلك الممر نحو غرفة الحبس الانفرادي. كانت حافظة الأوراق بجعبتي ولا أفكّر في شيء سوى إلقاء تلك الكلمات الروتينية عليه والخروج من هنا في أسرع وقت. كان الألم في أربيتي يتنامى مجددا، وكل ما أتوق إليه هو أن أعود إلى مكتبي لأرتاح حتى يزول هذا الألم.

تقدم دين لفتح الباب. واختار المفتاح الصحيح من مجموعة مفاتيح في حزامه ثم أدخله في القفل. وما إن فعل هذا حتى دب النشاط بغتة في وارتون. بدأ يصرخ، ويتصايح بطريقة جمدت هاري في مكانه وأخرجت بيرسي ويتمور منذ البداية من حلبة المعركة. سمعت تلك الصرخة من خلال الباب الموارب إلا أنني لم أعتقد أنها صرخة بشر في بادئ الأمر؛ ظننت أنه كلب دخل الساحة بطريقة ما وتعرض لأذى؛ أو أن أحد المساجين معدومي الشفقة قد ضربه بمجرفة.

رفع وارتون ذراعيه، وسرعان ما أسقط السلسلة التي تربط بين رسغيه على رأس دين، وبدأ يخنقه بها. أطلق دين صيحة مخنوقة وهو يترنح إلى الأمام، محاولا التشبث بالحياة. كان وارتون سعيدا وهو يتبع خطواته، بل إنه دفعه إلى الأمام، وهو يصرخ ويثرثر طيلة الوقت، ويضحك. كان يثني ذراعيه إلى الخلف وهو يضغط بقبضتيه فوق أذني دين، وهو يزيد من ضغطه بالسلسلة بأقصى درجة ممكنة، وهو يحركها إلى الأمام وإلى الخلف.

WWW.REWITY.COM

ألقى هاري بجسده فوق ظهر وارتون، وهو يقبض بيد على شعر هذا الوجه الجديد ويلكم بقبضته الأخرى جانب وجهه بأقسى ما يمكنه. كانت بجعبته هراوته ومسدسه، لكنه وفي غمرة حماسته لم يسحب أيا منهما. لقد واجهنا مشكلات مع السجناء قبل ذلك، لكن أيا منهم لم يأخذنا على حين غرة بالطريقة التي فعلها وارتون. كان مكره أشد من خبراتنا. لم يسبق لي أن رأيت مثيله قبل ذلك، وأبدى ما رأيته بعد ذلك.

كما كان قويا. واختفت كل تلك الرخاوة المصطنعة في غمضة عين. قال لي هاري لاحقا إن الأمر كان أشبه بالقفز داخل عش من الزنبركات الفولاذية التي دبت فيها الحياة فجأة. انسل وارتون - الذي صار الآن داخل وقرب مكتب المناوب - إلى يسار مكتب المناوب وأطاح بهاري ليرتطم بالمكتب، وينقلب خلفه، ثم يسقط أرضا.

كان وارتون يضحك "هيا يا أولاد. أليست هذه حفلة، أم ماذا؟ أليست كذلك؟".

عاد وارتون وهو لا يزال يصرخ ويضحك ليضغط مجدّدا على رقبة دين بسلاسله. لِمَ لا؟ فوارتون يعرف ما نعرفه كلنا حيث لن يكون في وسعهم سوى أن يقتلوه لمرة واحدة فقط عن كل جرائمه.

"اضربه، بيرسي، اضربه!"، صرخ فيه هاري، وهو يكافح من أجل أن يقف على قدميه. ولكن بيرسي تسمر في مكانه، والهراوة بين يديه، وعيناه مفتوحتان على وسعهما. كنت ستقول إن هذه هي الفرصة التي كان يبحث عنها، فرصته الذهبية كي يستعرض عضلاته، إلا أنه كان أكثر جبنا من أن يفعلها. فلم يكن هذا مثل الفرنسي الخائف صغير الجسد أو ذلك العملاق الأسود الذي بالكاد يحتويه جسده؛ فقد كان هذا أشبه بعفريت.

خرجت من زنزانة وارتون، مسقطا حافظة الأوراق وساحبا

مسدسي عيار 38. نسيت أمر العدوى التي كانت تحرق نصف جسدي السفلي للمرة الثانية ذلك اليوم. لم أشك في القصة التي حكاها لي الآخرون عن وجه وارتون الخالي من التعابير وعن عينيه الشاردتين، لكن ذلك لم يكن هو وارتون الذي رأيته. فمن رأيته كان وجه حيوان؛ ليس حيوانا ذكيا، ولكنه وجه مخادع... حقير... بهيج. أجل. فقد كان يؤدي دوره الذي خلق من أجله. لا يهمه المكان ولا الظروف. أما الشيء الآخر الذي رأيته فكان وجه دين ستانتون الأحمر، المتورم. كان يحتضر أمام عيني. رأى وارتون المسدس، فأدار جسد دين نحوه، حتى لا يمكنني أن أصوب إليه سلاحي من دون المخاطرة بأن أقتل دين بدلا منه. كانت عيناه الزرقاوان تتحدياني أن أفعلها... وأطلق النار.

WWW.REWITY.COM

الجزء الثالث

يدا كوفي

WWW.REWITY.COM

1

بالتأمل في ما كتبته، أرى أنني قد أسميت جورجيا سنايبز، حيث أعيش الآن، بدار المسنين. لن يكون أصحابنا الذين يديرون المكان في غاية السعادة بهذا! فتبعا للمنشور الدعائي الذي يحتفظون به في اللوبي ويرسلونه إلى من يستهدفونه من العملاء، فقد كان "مجمع تقاعد رفيع المستوى لكبار السن". بل إن فيه مركزا للموارد؛ كما ورد في المنشور الدعائي. أما من كانوا يعيشون هنا (والمنشور الدعائي لا يسمينا نزلاء، ولكنني أحيانا ما أطلق هذا الوصف) فكانوا يسمونه قاعة التلفاز.

يراني الرفاق هنا منطويا على نفسي لأنني لا أنزل إلى قاعة التلفاز كثيرا خلال النهار، ولكن الحقيقة هي أنني لا أحتمل مشاهدة هذه البرامج السخيفة، وليس الرفاق - أوبرا... ريكي ليك... كارني ويلسون... رولاندا - ها هو العالم يتداعى من حولنا، وكل ما يهتم به هؤلاء هو العلاقات الجسدية بين الرجال والنساء. ولو شئت أن أمضي الوقت مع أحد، فإنني أسير مسافة ميلين حتى قاعة سيارات هابي ويلز، حيث تأتي سيارات الشرطة ليلتي الجمعة والسبت وهي تطلق أبواقها المصاحبة للوميض الأزرق المميز. وصديقتي المقربة، إيلين كونيللي، تقاسمني نفس هذه المشاعر. إيلين في الثمانين من عمرها، طويلة القامة نحيفة، لا تزال تحتفظ بعينين مفعمتين بالحياة والذكاء. تسير ببطء شديد لآلام تعاني منها في فخذيها، وأعلم أن مفاصل يديها تسبب لها آلاما فظيعة، إلا أن عنقها طويل جميل، كعنق البجعة، ويغطي رأسها شعر جميل ينسدل حتى كتفيها، حينما ترغب هي بذلك.

الأهم من كل هذا، أنها لا تعتقد أنني حالة خاصة، أو شخص

WWW.REWITY.COM

انطوائي لا يحب العشرة. كنا نمضي وقتا طويلا معا. ولولا أنني قد وصلت إلى هذه السن الخيالية الغريبة، لكنت قد وصفتها بأنها صديقة. إلا أنه من الجيد أن يكون للمرء - وبالرغم من كل شيء - صديق خاص. لا نعاني من الكثير من المشكلات التي تكون عادة بين الصديق وصديقه أو صديقته. ومع أنني أعلم أن أي شخص لا يناهز عمره الخمسين لن يصدق هذا الذي أقوله، فإن جمرة النار أحيانا ما تكون أفضل من كامل النار. وهذا غريب، إلا أنه صحيح.

لذا، فأنا لا أشاهد التلفزيون خلال اليوم. أحيانا أمشي؛ وأحيانا أخرى أقرأ؛ وكان أغلب ما فعلته خلال الشهر الأخير هو كتابة هذه المذكرات وأنا جالس بين النباتات في القاعة المشمسة. أعتقد أن الأوكسجين في تلك القاعة أكثر، وهو ما ينشط ذاكرتي العجوز. أؤكد لك هذا.

حينما أعجز عن النوم، فإنني أحيانا ما أتسلل إلى الأسفل عبر الدرج، وأجلس أمام التلفاز. ليست لدينا في جورجيا سنايبز خدمات قنوات الكابل غالية الثمن - أعتقد أنها أغلى بكثير من أن يتحمل مركزنا هذا الاشتراك بها - ولكن لدينا خدمات القنوات الأساسية، وهو ما يعني أن قناة أميركان موفيز موجودة في هذه الباقة من القنوات. وتلك هي القناة (هذا لمعلوماتك... إن لم تكن أنت نفسك مشتركا في الباقة الأساسية) التي تعرض في أغلب ما تعرضه أفلام الأبيض والأسود ولا يوجد في أفلامها تلك المشاهد المخلة بالآداب. وعجوز مثلي يجد راحة في الجلوس أمام قناة مثل هذه. مرت علي ليالٍ كثيرة تسللت فيها لأنام على تلك الأريكة الخضراء القبيحة أمام جهاز التلفاز بينما كان فرانسيس ذا توكينج ميول يسحب مقلاة دونالد أوكونور عن النار، أو جون واين وهو ينظف الدودج، أو جيمي كاني وهو يصف أحدهم بأنه جرذ قذر قبل أن يسحب مسدسه. شاهدت بعض تلك الأفلام مع

زوجتي، جانيس (والتي كانت أفضل صديق)، وهي الآن تبعث في نفسي السكينة. تلك الملابس التي يرتدونها، وطريقة المشي والكلام، وحتى الموسيقى التصويرية؛ كلها أشياء تبعث السكينة في نفسي. تذكرني حين كنت رجلا له شخصيته في هذا العالم، وليس مجرد جثة أكلتها العتة وهي تبلى داخل دار مسنين يضع أغلب نزلائه الحفاضات تحت السراويل المطاطية.

لم يكن في ما شاهدته هذا الصباح أي مما يبعث السكينة في نفسي. بل على العكس.

أحيانا ما تتبعني إيلين لمشاهدة برنامجها المفضل، والذي يبدأ عرضه عند الرابعة فجرا؛ لم تحدثني بالكثير عنه، ولكنني كنت أعلم أن السبب الحقيقي وراء نزولها في هذا الوقت المبكر لم يكن التلفاز، ولكنها آلام المفاصل الفظيعة، والأدوية التي لا تجلب لها سوى الأرق.

حينما أتتني هذا الصباح، تسير بسلاسة وكأنها شبح داخل هذا الرداء الأبيض، وجدتني جالسا على الأريكة القديمة، أميل مستندا بمرفقي إلى عصوين كانتا في الماضي ساقين حقيقيتين، قابضا على ركبتي حتى أوقف تلك الارتجافة التي انتابتني كريح عاتية. كنت أشعر بالبرودة تسري في جسدي كله، إلا أربيتي التي بدت وكأنها تحترق بشبح عدوى مجرى البول تلك التي أربكت حياتي خلال خريف العام 1932؛ خريف جون كوفي، وبيرسي ويتمور، والسيد جينغلز... الفأر المدرب.

كان خريف ويليام وارتون أيضا.

"بول... ما الأمر، بول؟"، صاحت بي إيلين، وهي تهرع إليّ بقدر ما أمكنها وبقدر ما تسمح لها عظام حوضها الصناعية.

"أنا بخير". لكن الكلمات لم تكن مقنعة؛ فقد خرجت محايدة، عبر أسنان تصطك. "أمهليني دقيقة... بعدها سأكون على ما يرام".

جلست بجواري وهي تحيط كتفيّ بذراعها. "هذا أكيد. ولكن ما

WWW.REWITY.COM

الذي حدث؟ بحق الله، بول، فأنت أشبه بمن رأى شبحا للتو".

قلت لنفسي بأن هذا هو ما حدث بالفعل، ولم أدرك أنني قد بحت بهذا بصوت عالٍ إلا حينما لاحظت اتساع عينيها دهشة.

"ليس إلى هذه الدرجة". ربّت على يدها (بلطف!). "ولكن هذا ما خيل إليّ للحظة. إيلين!".

سألتني "ألهذا علاقة بالزمن الذي كنت فيه مشرف عنبر في السجن؟ تلك الفترة التي كنت تكتب عنها وأنت جالس في القاعة المشمسة؟".

أومأت برأسي. "كنت أكتب عن تجربتنا مع كرسي الإعدام...".

"أعلم هذا...".

"إلا أننا كنا نسميها الميل الأخضر. بسبب لون ذلك المشمع الذي فرشنا به الأرضية. في خريف العام 1932 وصل إلينا ذلك الشاب؛ وصل إلينا شرس اسمه ويليام وارتون. كان يحب أن يظن أنه بيلي ذا كيد جديد، بل أنه وشم على ذراعه هذا الاسم. كان صغير السن، إلا أنه خطر. لا أزال أتذكر ما كتبه عنه كيرتيس أندرسن الذي كان الحارس المساعد وقتئذ. إنه شرس مجنون، وهو فخور بذلك. وارتون في التاسعة عشرة من عمره، في غاية الطيش؛ لقد وضع خطا تحت هذه العبارة الأخيرة".

تجاوزت يدها كتفيّ لتدلك ظهري برقة. كان الهدوء قد بدأ يعرف طريقه إليّ. في تلك اللحظة أحببت إيلين كونيللي، وكان من الممكن أن أغمر وجهها بالقبلات، بل وبحت لها بذلك. وربما كان عليّ أن أفعل. فمن المريع أن تكون وحدك تشعر بالخوف، أيا كانت سنك، ولكن الأفظع أن يحدث لك هذا وأنت في هذه السن. ولكن عقلي مشغول بهذه المهمة المقيمة، كل تلك الذكريات القديمة.

قلت لها "على كل حال، لقد كنتِ محقة، كنت أدون وصفا لليوم الذي أتى فيه وارتون إلى العنبر وكاد حينها أن يقتل دين ستانتون أحد مَن كان يعمل معي وقتها".

"وكيف تمكن من فعل هذا؟".

قلت بشبه ابتسامة "إنه مزيج من الطيش وانعدام الأخلاق. كان وارتون وضيعا، أما الطيش فقد كان من نصيب الحراس الذين أتوا به. كان الخطأ في القيود التي كبلوا بها رسغيه... كانت طويلة أكثر من اللازم. وحينما فتح دين باب العنبر، كان وارتون خلفه. والحراس على الجانبين، لكن أندرسن كان محقا - فهذا الوايلد بيل لا يحمل هم أي شيء. فقد أحاط عنق دين بهذه القيود في لمح البصر وبدأ يخنقه".

ارتعدت إيلين إلى جواري.

"كنت أفكر في كل هذا، لذلك لم يغالبني النوم، فنزلت إلى هنا. خطر لي أن أجلس لأشاهد قناة أميركان موفيز، وقلت إن من الممكن أن تنزلي إلى هنا، فننعم بلقاء متأخر...".

ضحكت على دعابتي وهي تقبل رأسي فوق الحاجب مباشرة. كانت جانيس تعلم أن قبلة كهذه كفيلة بأن تشعل بداخلي نيران الشوق إليها، ولا زال هذا هو حالي حينما فعلتها إيلين هذا الصباح. يبدو أن هناك أمورا لا تتغير مهما مر الزمن.

"... وجدت أنهم يعرضون فيلم عصابات يعود إلى الأربعينيات. اسمه قبلة الموت".

انتابني شعور بالارتجاف من جديد، ولكنني حاولت كبته.

"يمثل فيه ريتشارد ويدمارك. في أول دور رئيسي يلعبه، على ما أعتقد. لم يسبق لي أن ذهبت لمشاهدته مع جانيس - كنا لا نميل إلى هذه النوعية في المعتاد - ولكنني أتذكر أنني قرأت أن ويدمارك قدّم من خلال هذا الدور أداء رفيع المستوى. وهذا مؤكد. إنه شاحب الوجه... لا يمشي... بل ينسل كالشبح في كل مكان... لا يتوقف عن وصف من حوله بأنهم "وقحون"... ولا ينفك يتحدث عن الخونة، وعن أنه لا يمقت سوى الخونة!".

WWW.REWITY.COM

بدأت أرتجف من جديد. لم أستطع أن أمنع نفسي من هذا.

همست لها "شعر أشقر. شعر أشقر منسدل. بقيت أشاهد حتى الجزء الذي يدفع فيه تلك العجوز في كرسيها المتحرك لتهوي فوق درج السلم، وعندها أوقفت عمل التلفاز".

"ذكرك بوارتون؟".

"بل هو نفسه وارتون!".

"بول...!". لكنها سكتت. بقيت تحدق إلى شاشة التلفاز السوداء (كان لا يزال جهاز الكابل مضاء يعمل، الرقم 10 يلمع على شاشته، وهو رقم القناة)، ثم عادت تنظر إليّ.

سألتها "ما الأمر؟... ما الأمر، إيلين؟". قلت لنفسي إنها ستخبرني أنه عليّ التوقّف عن الكتابة عن هذا الأمر. وأن عليّ تمزيق الصفحات التي كنت قد ملأتها بالكلمات حتى الآن، والتوقّف عن هذا وحسب.

إلا أنني فوجئت بها تقول، "لا تدع أمرا كهذا يوقفك!".

حدّقت إليها مشدوها.

"أغلق فمك بول وإلا دخلت فيه ذبابة".

"معذرة. ولكن... فقط... حسنا".

"ظننت أنني سأخبرك بالعكس؟".

"نعم".

تناوَلَت يديّ بين يديها (برقة، برقة شديدة؛ أصابعها الطويلة الجميلة، ومفاصل أصابعها المحدودبة غير الجميلة) وملت إلى الأمام، لا تبارح عيناي الزرقاوان عينيها البندقيتين... عينها اليسرى تعاني من الملتحمة. قالت "ربما كنت أعجز عن الحب... ولكنني لست أعجز عن التفكير. فماذا تفعل بعض ليالٍ من الأرق معنا في سن كهذه؟ وما الذي يمكن أن تفعله رؤية شبح على شاشة التلفاز؟ هل ستقول لي إنه الوحيد الذي رأيته؟".

عندها تذكرت آمر السجن موور، وهاري تيرويليجر، وبروتوس هويل؛ تذكرت أمي، وتذكرت جانيس، زوجتي التي توفيت في ألاباما. إذا، ها أنا ذا خبير بالأشباح.

قلت لها "كلا. لم يكن أول شبح أراه. لكنها الصدمة يا إيلين. فقد كان هو".

قبلتني من جديد، ثم نهضت واقفة، وهي تستند بيديها إلى فخذيها، وكأنما تخشى أن تتفكك العظام مع أي حركة غير محسوبة.

قالت "أعتقد أنني غير راغبة بمشاهدة التلفاز. لديّ قرص إضافي احتفظ به لظرف كهذا... سأتناوله وأخلد إلى النوم. وربما كان عليك أن تفعل مثلي".

"بالتأكيد... أعتقد هذا!". فكرت للحظة في أن أدعوها لنخلد إلى الفراش سويا، إلا أنني رأيت ذلك الألم الرتيب في عينيها، فصرفت النظر عن هذا الخاطر. فماذا لو قبلت، وهي لم تكن لتقبل دعوة كهذه سوى مني أنا. فماذا سأفعل حينها؟

تركنا قاعة التلفاز (ولن أسميها باسمها الرسمي، حتى ولو على سبيل التهكم) جنبا إلى جنب، وأنا أسير وفق خطواتها هي، خطواتها البطيئة... الحريصة... المؤلمة. كان المبنى هادئا إلا من صوت شخص كان يئن خلف أحد تلك الأبواب المغلقة، تحت وطأة كابوس ينتابه.

سألتني "هل تعتقد أنك ستتمكن من النوم بسهولة؟".

"نعم، أعتقد هذا"، إلا أنني أعلم أن هذا صعب؛ فقد رقدت في الفراش مستيقظا حتى شروق الشمس، وأنا أفكر في قبلة الموت. كنت أرى ريتشارد ويدمارك، وهو يضحك بجنون، بينما يوثق العجوز في كرسيها المتحرك، قبل أن يدفع به من فوق الدرج. "هذا هو جزاء الخونة"، قالها لها... عندها يندمج وجهه ووجه ويليام وارتون... ذلك الوجه الذي رأيته يوم وصل إلى العنبر (هـ) والميل الأخضر. يضحك

WWW.REWITY.COM

وارتون نفس ضحكة ويدمارك، يصرخ وارتون في جذل، "أليست هذه حفلة"، أهي كذلك؟ أم ماذا؟ لم أجد رغبة بتناول إفطاري، ليس بعد كل هذا؛ فقط قصدت القاعة المشمسة، وبدأت أكتب.

عن الأشباح؟ هذا مؤكد.

فأنا خبير بالأشباح.

2

ضحك وارتون "هيا يا أولاد! أليست هذه حفلة؟ أم ماذا؟".

عاد ليضغط بالقيد على عنق دين وهو لا يزال يصرخ ويضحك. لِمَ لا؟ لقد كان وارتون يعرف ما يعرفه على وجه اليقين كل من دين وهاري وصديقي بروتوس هويل؛ فهم لا يستطيعون إعدامه سوى مرة واحدة.

صرخ هاري تيروليجر "اضربه!". كان قد اشتبك مع وارتون، محاولا أن يوقف هذا الموقف قبل أن يتدهور، إلا أن وارتون أطاح به، وكان هاري يحاول الآن أن يقف مرة أخرى على قدميه. "اضربه، بيرسي!".

إلا أن بيرسي تسمر في مكانه، والهراوة في يده، وعيناه مفتوحتان على وسعهما. كان يحب هراوته تلك، ويمكنك أن تقول إن هذه هي فرصته التي ينتظرها منذ أن حضر إلى سجن كولد ماونتن كي يستخدمها... والآن، وحين واتته الفرصة، كان أكثر جبنا من أن ينتهز الفرصة. فهذا ليس فرنسيا رعديدا مثل ديلاكروا أو عملاقا زنجيا لا يدري من أمره شيئا، مثل جون كوفي؛ بل هو الآن أمام وارتون اللعين.

خرجت من زنزانة وارتون، مسقطا حافظة الأوراق، ساحبا مسدسي عيار 38. وللمرة الثانية في هذا النهار نسيت أمر العدوى التي تحرق جسمي. ولم أشك في الحكاية التي حكاها الآخرون في ما بعد عن وجه وارتون محايد التعبيرات وعينيه الخاويتين، ولكن هذا لم يكن وارتون الذي رأيته حينها. فقد كان ما رأيته وجه حيوان - ليس حيوانا مدركا، ولكنه حيوان شديد المكر... والوضاعة... والبهجة. بالفعل. فقد كان

WWW.REWITY.COM

يفعل ما جبل على أن يفعله. لا يهم لا المكان ولا الظروف. أما ثاني شيء رأيته فكان وجه دين ستانتون الأحمر المتورم. كان يحتضر أمام عيني. رأى وارتون المسدس في يدي، فأدار جسد دين ناحيته، حتى يستحيل عليّ إطلاق الرصاص من دون أن أصيبه. أخذ ينظر إليّ بعينه الزرقاء من خلف دين، يتحداني أن أطلق النار. كان شعر دين يخفي عين وارتون الأخرى. وخلفهما رأيت بيرسي وهو يقف متحيرا، بالكاد يرفع هراوته. عندها حضر عبر بوابة ساحة السجن بروتوس هويل. كانوا قد انتهوا من نقل آخر معدات المستشفى، وكان قد حضر بالصدفة.

انقض، ومن دون لحظة تردد، فأزاح بيرسي جانبا بقوة ليرتطم بالجدار بعنف، وسحب هراوته من جانبه، وهوى بها على الجزء الخلفي من رأس وارتون بكل قوة. كانت الضربة شديدة القوة، حتى إننا سمعنا صداها يتردد، وكأنها ضربة على طبل فارغ وليس على جمجمة إنسان؛ وتحرر عنق دين أخيرا. هوى وارتون أرضا بينما زحف دين بعيدا عنه، وهو يسعل بحدة، سعالا متقطعا جافا، ويده تقبض على رقبته، بينما جحظت عيناه.

جثوت جانبه وهو يهز رأسه بشدة. كان يلهث

"حسنا... تـ... تولوا... أمره... أغـ... أغلقوا... الزنـ... الزنزانة!".

لكنني لم أرَ داعيا لهذا خاصة بعد تلك الضربة العنيفة التي وجهها إليه بروتال؛ ربما هو الآن بحاجة إلى تابوت. إلا أنني لم أكن محظوظا إلى هذه الدرجة. كان غائبا عن الوعي وحسب. رقد على جانبه، ذراعه ممدودة تلامس مشمع أرضية الميل الأخضر، وعيناه مغلقتان، وأنفاسه بطيئة منتظمة. بل خيل إليّ أن هناك ابتسامة هادئة على وجهه، وكأنما استسلم للنوم على نغمات أغنيته المفضلة. يسيل بعض الدم من بين خصلات شعره ليلوث ياقة قميص السجن الجديد. هذا هو كل شيء.

قلت "ساعدني، بيرسي!".

إلا أن بيرسي لم يتحرك، وبقي ملاصقا للجدار، يحدق بعينين متسعتين مصدومتين. ولا أعتقد أنه كان يدري من أمر نفسه شيئا.

"تبا لك يا بيرسي، قلت لك ساعدني على نقله!".

أخيرا تحرك، يعاونه هاري. قمنا نحن الثلاثة بنقل السيد وارتون غائبا عن الوعي إلى داخل زنزانته، في حين ساعد بروتال دين على النهوض وهو يسنده برفق الأم الحنون، في حين بقي دين يلهث.

لم يستعد المشاغب وعيه قبل ثلاث ساعات، وحينما فعل، لم يبدُ عليه أي تأثر بضربة بروتال القوية. فسرعان ما استعاد إيقاعه السريع. ففي لحظة كان راقدا على فراشه غائبا عن هذا العالم. وفي لحظة أخرى تجده واقفا عند القضبان - ساكتا كقط - يحدق إليّ بينما كنت جالسا إلى مكتب المناوب، أكتب تقريري عن الواقعة. أحسست أن هناك من ينظر إليّ فرفعت رأسي، ها هو ذا، تكشف ابتسامته عن مجموعة من الأسنان السوداء، التي اختفى بعضها بالفعل. جفلت حين رأيته في مكانه ذاك. إلا أنني حاولت ألا أبدي ذلك، بالرغم من أنني أعلم أنه يعرف ما أشعر به. قال "هاي... أنت... ستكون أنت الضحية في المرة القادمة. وعندها لن تفلت".

فقلت بهدوء "مرحبا، وارتون. أعتقد وبعد كل ما حدث أن لا ضرورة لتلك الكلمات التقليدية، ألا ترى هذا؟".

انكمشت ابتسامته بعض الشيء. فلم يكن يتوقع هذا الرد، وربما لم أكن لأرد بهذا الرد في مثل هذه الظروف. إلا أن شيئا كان قد حدث في أثناء غياب وارتون عن الوعي. شيء أعتقد أنه كان أحد أهم الأشياء التي دونت كل هذه الصفحات لأجل أن أحكي لك عنها... دعنا نرى الآن إن كنت ستصدقها أم لا.

WWW.REWITY.COM

3

فبعد صراخه مرة في وجه ديلاكروا، فإن بيرسي صار أكثر هدوءا منذ تلك الواقعة. ربما كان هذا نتيجة للصدمة أكثر منه اتصافا بالذوق والإحساس - فقد كانت معرفة بيرسي ويتمور بالذوق والإحساس أشبه بمعرفتي بقبائل مجاهل أفريقيا - وفي المجمل فإن هذا التغير الذي طرأ كان للصالح العام. فلو بدأ يتشكى من الطريقة التي دفعه بها بروتال ليرتطم بالجدار أو بدأ يتشكى من أن أحدا لم يخبره بأن العنبر (هـ) يستضيف بين الحين والآخر من هم في مثل قذارة وايلد بيل وارتون، لكنا قد فكرنا في قتله للتخلص من صداعه. وعندها كان يمكن أن نعيد إلى الميل الأخضر رونقه. ويا لها من فكرة لطيفة، لو أمعنت التفكير فيها. ولقد فاتتني بالفعل فرصة أن أصنع هنا ما صنعه جيمس كانيللي في وايت هيت.

حينما تنفسنا الصعداء بشأن دين وأنه سيكون بخير، اصطحبه هاري وبروتال إلى المستشفى. بينما بدأ ديلاكروا، الذي التزم الصمت طيلة العراك (كان معتادا على السجن، ويدرك متى يكون من الضروري أن يلزم الصمت إلى أن تمر العاصفة)، يزعق بأعلى صوته عبر الممر بينما يستند دين إلى بروتال وهاري. كان ديلاكروا يريد أن يحكي له تفاصيل ما حدث. كان يحتج وكأن هذا واحدا من حقوقه الدستورية.

صاح فيه بيرسي "اخرس، أيها الشاذ الحقير!"، كان في غاية الغضب، لدرجة بدت معها عروق رقبته نافرة. وضعت يدي على ذراعه ففوجئت بأنه قد جفل. بعض من هذا هو رعب فطري مجبول عليه (وكان عليّ أن أذكر نفسي بين الحين والآخر أن جزءا من مشكلة بيرسي

يكمن في صغر سنه، فهو لا يزال في الحادية والعشرين من عمره، أي بالكاد أكبر سنا من وارتون)، ولكنني أظن أنه غاضب أيضا. فهو يمقت ديلاكروا. ومع جهلي السبب، إلا أنني متيقن من هذه الحقيقة.

قلت لبيرسي "اذهب وتحقق من وجود الآمر موور هنا. وإذا كان موجودا، بلغه شفاهة بتفاصيل ما حدث. وأخبره أنني سأوافيه بتقرير مكتوب مع حلول الغد، إن كنت قد انتهيت منه".

انتفخت أوداج بيرسي زهوا بهذه المسؤولية؛ حتى ظننت أنه سيلقي عليّ التحية العسكرية. "حاضر، سيدي. سأفعل".

"ابدأ كلامك بإعلامه أن الوضع داخل العنبر طبيعي. وأن الأمر ليس جللا، واعلم أن الآمر لن يعجبه أن تبالغ في تضخيم الأمور".

"لن أفعل".

"حسنا... هيا انصرف".

همّ بالتوجه نحو الباب، إلا أنه التفت مجددا. يبدو أن المشاكسة لديه كالماء والهواء. كنت أعمل على أن يغرب عن وجهي بأي طريقة، فأريبتي تحترق، ومع هذا فهو لا ينوي الانصراف.

سألني "هل أنت على ما يرام، بول؟ أتعاني من حمى؟ أم هي الأنفلونزا؟ فالعرق يتصبب على وجهك".

"قد أكون مصابا بشيء، ولكنني بخير. هيا اذهب وأخبر الآمر، بيرسي".

فأطرق برأسه وهو ينصرف؛ حمدا لله على نعمه. وما إن انغلق الباب خلفه، حتى هرعت نحو دورة المياه. من المحظور أن يترك المناوب مكتب المناوبة خاليا، إلا أن هذا كان آخر شيء اهتم له في هذه اللحظة. فقد كانت حالتي في غاية السوء؛ مثلما كانت ذلك الصباح.

نجحت في الوصول إلى دورة المياه الصغيرة خلف المكتب، وفككت أزرار سروالي، وبدأت أتبوّل. كان عليّ أن أضع يدي على

WWW.REWITY.COM

فمي لأمنع نفسي عن الصراخ بينما يتدفق البول مني، بينما تشبثت يدي بالمغسلة. لم تكن هذه المرة كتلك التي كانت عند المنزل، فلم يكن من الممكن أن أجثو على ركبتي لأتبوّل بجوار كومة الحطب؛ فلو فعلتها هنا لغطى البول الأرضية.

نجحت في ألا أسقط على ركبتي، وألا أصرخ، بالرغم من أنني كدت أنهار وأفعلها. شعرت وكأن البول ممزوج بشظايا زجاج حادة. أما الرائحة فكانت كريهة، وأمكنني أن أرى في المرحاض صديدا أبيض يطفو على سطح مائه.

تناولت المنشفة، ومسحت بها وجهي. كنت أتصبب عرقا، وهذا عادي بالنسبة إلى حالتي. نظرت إلى المرآة المعدنية، ورأيت وجهي محمرا كأنني أعاني من حمى شديدة. مئة وثلاث؟ مئة وأربع درجات؟

ربما كان من الأفضل ألا أعرف. أعدت المنشفة إلى مكانها على الحامل، وضغطت على الطارد، ثم مشيت ببطء عائدا، ومررت على مكتبي وأنا في طريقي إلى الباب المفضي إلى الزنزانات. كنت أخشى أن يكون بيل دودج أو غيره قد دخل المكان فلا يرى أحدا في حراسة هؤلاء المساجين الثلاثة، لكنني وجدت المكان خاويا. لا يزال وارتون راقدا فاقد الوعي على فراشه، وديلاكروا صامت، بينما لم يصدر أي صوت من زنزانة جون كوفي حتى الآن... وهو الأمر الذي أدركته بغتة، فأثار قلقي.

اجتزت الميل، ورمقت زنزانة كوفي، وأنا أخشى أن أجده قد انتحر عن طريق واحدة من وسيلتين شائعتين بين المحكوم عليهم بالإعدام، إما أن يخنق نفسه بسرواله أو أن يقطع شرايين معصمه. إلا أنني وجدت أنه لم يفعل أي شيء من هذا. فقد كان كوفي جالسا إلى طرف فراشه، ويداه مستكينتان على حجره، كان أضخم بشري رأيته في حياتي ينظر إليّ بعينيه الغريبتين المبللتين بالدموع.

قال "كابتن؟".

"ما الأمر، أيها الضخم؟".

"أريد أن أراك".

"ولكنك تراني الآن بالفعل، جون كوفي؟".

لم يعقّب بشيء، وبقي يتأملني بنظراته الغريبة المستشفة. فتنهدت في نفاد صبر.

"حالا، أيها الضخم".

نظرت نحو ديلاكروا، الذي كان يقف عند قضبان زنزانته. بينما كان فأره الأليف السيد جينغلز (سيخبرك ديلاكروا أنه قد درب السيد جينغلز على أداء بعض المهارات، ولكننا مقتنعين بأن السيد جينغلز هو من درب نفسه ليس إلا) يتقافز بعصبية من يد ديلاكروا إلى يده الأخرى والعكس، وكأنه لاعب أكروبات يؤدي قفزات من مكان عالٍ فوق منتصف الحلبة. لقد اتسعت عيناه، والتصقت أذناه برأسه البني الصغير. لم يكن لديّ شك في أن الفأر يتجاوب مع عصبية ديلاكروا. بينما كنت أراقبه، ركض بطول سروال ديلاكروا وعبر الزنزانة إلى حيث تقبع البكرة الملونة بجوار أحد الجدران. دفع بكرة الخيط حتى قدمي ديلاكروا ثم نظر إليه في ترقب، إلا أن الفرنسي صغير الجسد لم يلتفت إليه، هذه المرة على الأقل.

سألني ديلاكروا "ما الذي حدث، رئيس؟ هل هناك من أصيب بأذى؟".

"كل شيء على ما يرام. اهتاج الولد الجديد بعض الشيء، إلا أنه الآن فاقد الوعي كحمل وديع. انتهى كل شيء".

لكن ديلاكروا قال لي وهو ينظر عبر الميل، نحو زنزانة وارتون "لم ينتهِ الأمر بعد. فهذا الشخص بالغ الخطورة". نطق هذه العبارة الأخيرة بالفرنسية.

WWW.REWITY.COM

قلت "إذا، لا تجعل هذه الحقيقة تحبطك، ديل. لن يجبرك أحد على التعاطي معه في الساحة".

سمعت صوت صرير من خلفي بينما نهض كوفي عن فراشه. قال لي مجددا "رئيس إيدجكومب!... أود أن أتحدث معك!". كانت نبرة صوته ملحة هذه المرة.

فالتفت إليه، وفكرت، لا بأس، لا مشكلة، فالكلام هو عملي. أحاول طيلة الوقت ألا أرتجف، لأن الحمى تحولت إلى برودة، كما يحدث أحيانا. ما عدا أريبتي، التي لا تزال أشبه بجرح انفتح، وامتلأ بالجمرات، ثم أعيدت خياطته على الجمرات من جديد.

قلت وأنا أحاول أن أحافظ على هدوء صوتي "إذا، تحدث جون كوفي". وللمرة الأولى منذ أن حضر إلى العنبر (هـ)، بدا لي أن كوفي واحد من الموجودين هنا. توقفت دموعه التي كانت تنهمر، الآن على الأقل، وكنت أعلم أنه يرى ما ينظر إليه الآن؛ السيد بول إيدجكومب، كبير هذا العنبر، لم يعد ينظر إلى مكان يتمنى أن يعود إليه فيصلح الفعل الفظيع الذي اقترفه.

قال "كلا... لا بد من أن تأتي إلى هنا".

قلت وأنا لا أزال أحاول الحفاظ على هدوئي "أنت تعلم أنه ليس بمقدوري أن أفعل هذا، ليس في هذه اللحظة على الأقل. فأنا وحدي هنا، وأنت أضخم مني بفارق طن. وقد خضنا عراكا هذه الظهيرة، وهو أمر كافٍ. فدعنا نتحدث عبر القضبان، لو كان هذا يناسبك، و...".

"أرجوك!". كان يمسك بالقضبان بقوة حتى ابيضّت مفاصل أصابعه. كان وجهه يعاني من كآبة، وعيناه الغريبتان تغمرهما رغبة لم أستطع أن أفهمها. أتذكر أنني فكّرت في أنه كان من الممكن أن أفهمها لو لم تكن متعبة، ولو كنت أعلم هذا لكنت قد ساعدته. فحينما تدرك احتياج المرء، فإنك تزداد معرفة به. "أرجوك، رئيس

إيدجكومب! عليك أن تأتي إلى هنا!".

كانت هذه العبارة أغرب شيء سمعته، إلا أنني أدركت شيئا أشد غرابة منها وهو أنني سألبي طلبه. سحبت المفاتيح من حزامي، وأخذت أبحث عن مفتاح زنزانة جون كوفي. كان بمقدوره أن يرفع جسدي ويهوي به على ركبته كعود حطب جاف، هذا وأنا معافى، فماذا وأنا بحالتي هذه. ولكنني عازم على الدخول. وحدي، وبعد أقل من نصف ساعة من عراك تجسد فيه خطر التهاون في التعامل مع المحكوم عليهم في جرائم قتل. إلا أنني سأفتح زنزانة هذا العملاق الزنجي، وأدلف إليها، وأجلس معه. ولو اكتشف أحدهم هذا، فقد أفقد وظيفتي حتى ولو لم يفعل هذا العملاق شيئا، ولكنني عازم على فعلها.

توقف، قلت لنفسي، توقف الآن، بول. إلا أنني لم أتوقف. بل فتحت القفل العلوي بمفتاح، والسفلي بآخر، ثم فتحت الباب.

"تعلم يا رئيس أن هذه ليست بفكرة جيدة"، قالها ديلاكروا بصوت عصبي كان يمكنه أن يبعث الضحك في موقف آخر.

لم ألتفت إليه وقلت له "لا تتدخل في ما لا يعنيك، وسأهتم أنا بنفسي". فقد كانت عيناي مثبتتين على جون كوفي، بل كانتا متسمرتين عليه. كنت كالمنوم مغناطيسيا. بدا صوتي لأذني وكأنما هو صدى آتٍ من وادٍ بعيد. تبا، وما الذي يمنع أن أكون منوما بالفعل. ولكنني أردفت لديلاكروا، "تمدد على فراشك وارتح".

فقال ديلاكروا بصوت مضطرب "يا ويلتاه، هذا المكان مجنون. حتى إنني يا سيد جينغلز أتمنى أن يقوموا بإعدامي في أقرب فرصة ممكنة".

دلفت إلى زنزانة كوفي. فتنحى جانبا ما إن تقدمت أنا. وحينما اصطدم بالفراش؛ اصطدم بقوة حتى إنه أجبر على الجلوس؛ ربت على الغطاء بجواره، وعيناه لم تبارحا عينيّ ولو للحظة. فجلست إلى جواره،

WWW.REWITY.COM

فأحاط كتفاي بذراعه، كما لو كان داخل سينما بصحبة رفيقته.

"ما الذي تريده، جون كوفي؟"، كنت لا أزال أنظر إلى عينيه؛ إلى تلك العينين التعِستين الساكنتين.

"أن أساعدك فحسب". تنهد كما يتنهد الرجل حينما تكون أمامه مهمة لا يرغب بالقيام بها، ثم وضع يده في حجري، فوق عظام حوضي تحديدا.

صحت "أنت! أبعد يدك اللعينة عني...".

عندها سرت في جسدي رعدة، وكأنه تيار كهربائي يسري، حتى إنني ارتعشت بعصبية محنيا ظهري إلى الأمام، وارتسم أمامي توت توت العجوز وهو يحاكي دور الجالس على الكرسي الكهربائي، يحترق كديك رومي، كما يقول. لم تكن هناك حرارة، لم تكن هناك كهرباء، ولكن بدا لي أن كل شيء يضطرب، وكأنما هناك من يعتصر العالم فيتصبب العرق منه. كنت أرى كل تفصيلة في وجه جون كوفي، وكل شعيرة دموية في عينيه المغيبتين الآن، وأرى ندبة في خده. كنت أعي أن أصابعي تتشبث كالمخالب بشيء ما لا أراه في الهواء، وأن قدميّ تضربان بقوة على أرضية الزنزانة.

ثم توقف كل شيء. وفي تلك اللحظة برئت من تلك العدوى في مجرى البول. اختفت الحرارة والألم من أريبتي، وتبددت الحمى من رأسي. كنت لا أزال أشعر بالعرق على جلدي، بل وأشمه، إلا أن الحمى انتهت تماما.

هاج ديلاكروا بحدة "ما الذي يجري؟". بدا لي صوته آتيا من مكان سحيق، ولكن حينما مال جون كوفي إلى الأمام، مباعدا عينيه عن عيني، عدت أسمع صوت الفرنسي بوضوح. وكأن أحدا نزع كتلة من القطن تسد أذنيّ. "ما الذي يفعله بك؟".

لم أجبه. كان كوفي محنيا إلى الأمام ورأسه فوق حجره، بينما تنتفض رقبته. عيناه جاحظتان. وكأن عظمة دجاجة انحشرت في حلقه

وهو يأكل.

فقلت "جون! ما الأمر؟!". ضربت على ظهره؛ وهذا كل ما خطر لي أن أفعله لحظتها.

خرّ تحت يدي، وبعدها صدر عنه صوت مكتوم، وكأنه سيتقيأ. فتح فمه بطريقة ذكرتني بفتح الحصان لفمه لوضع اللجام؛ مباعدا شفتيه عن أسنانه. بعدها فتح أسنانه أيضا، ثم زفر ما بدا أنه غمامة من حشرات سوداء صغيرة بدت لي أقرب إلى البعوض أو البق. اتخذت شكل الدوامة العنيفة بين ساقيه، وابيضّت، ثم... اختفت.

عندها خارت كل قوة لديّ في جذعي. وكأنما تحولت عضلاته إلى ماء. فملت بغتة إلى الجانب الحجري من زنزانة كوفي. أتذكر أن شيئا لم يخطر ببالي لحظتها، وأتذكر أنني ظننت أنه مجرد هذيان الحمى.

بعدها انتبهت إلى أن ديلاكروا يستغيث؛ ويصيح بأن جون كوفي يقتلني، يصيح بكل قوة. كان كوفي مائلا فوق جسدي بالفعل، ولكن ليتأكد من أنني بخير.

"صمتا، ديل". نهضت واقفا على قدميّ. تحسبت أن ينهش الألم معدتي، إلا أن هذا لم يحدث. كنت أفضل حالا. لحظات من الدوار، إلا أنها مرت قبل أن أحاول حتى الاستناد إلى قضبان باب زنزانة كوفي. "أنا بخير".

"عليك بالخروج من هناك". بدا ديلاكروا أقرب إلى عجوز عصبية تأمر صبيا بأن ينزل عن شجرة تفاح. "ليس من المفترض بك أن تكون هناك بينما لا أحد موجود في المكان".

عدت أنظر إلى جون كوفي، الذي جلس على الفراش مسندا يديه إلى ساقيه. ونظر إليّ. كان عليه أن يرفع رأسه بعض الشيء.

سألته بصوت خافت "ما الذي فعلته، أيها الضخم؟ ما الذي فعلته بي؟".

WWW.REWITY.COM

"ساعدتك... ألم أساعدك؟".

"بالفعل، أعتقد هذا، ولكن كيف؟ كيف عالجتها؟".

هز رأسه ببطء، يمنة ويسرى. إنه لا يعرف كيف أمكنه هذا (كيف أمكنه العلاج) أما ملامح وجهه فبينت أنه لا يهتم أصلا لمعرفة كيفية حدوث هذا - تماما كما لا أهتم أنا لمعرفة الميكانيكا التي يركض بها الجسم وأنا على مشارف إنهاء سباق الميل في احتفالات الرابع من يوليو. فكرت في أن أسأله من أين له أن يعرف بأمر مرضي من الأساس، إلا أنني كنت متأكدا من أنني لن أحصل سوى على نفس هزة الرأس هذه. هناك عبارة لا أدري أين قرأتها، ولكنها لم تُمحَ من ذهني عن "لغزٍ يغلفه سر". هكذا كان جون كوفي بالنسبة إليّ، وأعتقد أن الشيء الوحيد الذي يمكّنه من النوم مرتاح البال هو أنه لا يلقي بالا لما هو عليه. إن صاحبنا الضخم يعرف اسمه، ويعرف أنه ينطق كاسم المشروب، ولكن تهجئته تختلف. وهذا هو كل ما يعرفه، أو ما اهتم لمعرفته.

كما لو أنه يود أن يؤكد على هذه الحقيقة، هز رأسه مجددا، ثم رقد على فراشه ويداه أسفل خده الأيسر كالوسادة، ووجهه إلى الجدار. تدلت ساقاه عن الفراش، إلا أنه لم يكن متضايقا بهذا. ظهر قميصه مرفوعا إلى الأعلى، ورأيت الندوب التي تتقاطع على جلد ظهره.

غادرت الزنزانة، وأغلقت القفلين، ثم واجهت ديلاكروا، الذي كان يقف ويداه تمسكان بقضبان زنزانته، ينظر إليّ بقلق. بل وبخوف عليّ. يقبع السيد جينغلز على كتفه وشعيرات شاربه تهتز. سألني "ما الذي فعله بك هذا الزنجي؟ وما تلك الأشياء الصغيرة؟ كيف ألقى بها عليك؟". كان يتحدث بنفس اللكنة الكاجونية الغريبة التي لا تكاد تفهمها.

"لا أفهم عمّا تتحدث، ديل".

"هل تراني غبيا! انظر إلى نفسك! لقد تغير فيك كل شيء! حتى مشيتك تغيرت، رئيس!".

ربما كنت أمشي بشكل مختلف. وكان هناك إحساس جميل بالراحة في أريبتي، وإحساس بالسكينة ملحوظ، حتى إنه أقرب إلى إحساس بسعادة خيالية؛ سيفهمني كل من كان يعاني من ألم مبرح قبل أن يتعافى منه تماما.

إلا أنني أصررت على أن أقول له "كل شيء على ما يرام، ديل. كان جون كوفي يعاني من كابوس، هذا كل شيء".

فقال ديلاكروا محتدا "ذلك الزنجي!". حبات العرق فوق شفته العليا. ومع أنه لم يرَ الكثير، إلا أنه كان كافيا ليصيبه بكل هذا الفزع. "إنه يشتغل بالسحر الأسود... الفودو!".

"ما الذي يجعلك تقول هذا؟".

تناول ديلاكروا الفأر في يده. وضعه في راحته ورفعه نحو وجهه. ومن جيبه أخرج قطعة وردية اللون؛ كانت حلوى النعناع. مد يده بها، إلا أن الفأر تجاهلها في البداية، مادا عنقه نحو الرجل بدلا من ذلك، وهو يتشمم أنفاسه بنفس الطريقة التي يتشمم بها المرء باقة من الأزهار. عيناه المنمنمتان تكادان تكونان منغلقتين وكأنما يعبر عن منتهى السعادة. قبّل ديلاكروا أنفه، وتركه الفأر يقبل أنفه. ثم تناول قطعة الحلوى وبدأ يقرضها. نظر ديلاكروا إليه بضع لحظات، ثم نظر إليّ. وعندها فهمت ما يقصده.

"لقد أخبرك الفأر، أليس كذلك؟".

"وي".

"كما سبق وأن همس لك باسمه".

"وي، لقد همس بذلك في أذني".

فقلت "ارقد، ديل. ارتح. يبدو أن كل ما همس لك به قد أرهقك".

إلا أنه تمتم بشيء لم أفهمه؛ ربما كان يتهمني بعدم تصديقه. بدا

WWW.REWITY.COM

صوته وكأنه يأتي من مكان بعيد. وحينما عدت إلى مكتب المناوبة، لم يبدُ لي أنني أمشي على الإطلاق؛ كان الأمر أقرب إلى التحليق، بل ربما لا توجد حركة في الأصل، وأن المكان من حولي هو الذي يتحرك على الجانبين، على عجلة خفية لا أراها.

بدأت أجلس بشكل طبيعي، إلا أن ركبتيّ خانتاني فتهاويت فوق تلك البطانية الزرقاء التي كان هاري قد أحضرها لأجلي من منزله منذ عام مضى، لأضعها فوق المقعد. ولولا أن المقعد في مكانه، لكنت قد تهاويت من فوري على الأرض.

قبعت في مكاني، أشعر بذلك اللاشيء في أريبتي، والذي كان منذ عشر دقائق مضت فحسب أقرب إلى نار تستعر. "ساعدتك... ألم أساعدك؟". لقد قالها جون كوفي، وكان قوله صحيحا، بالنسبة إلى ما حل بجسدي على الأقل. إلا أن عقلي الآن مضطرب. بل تعصف فيه أفكار شتى.

سقطت عيناي على كومة الاستمارات أسفل مطفأة السجائر عند ركن المكتب. كانت معنونة بعنوان مطبوع واحد... تقرير العنبر... وفي منتصف الاستمارة مساحة بيضاء معنونة، حيث يتوجب أن ندون فيها كل حدث غريب وغير معتاد. فكرت في أن أدون شيئا ما في هذه المساحة في تقرير الليلة، لأروي حكاية وصول ويليام وارتون وما صاحبه من عراك. ولكن ماذا لو كتبت فيه ما حدث معي داخل زنزانة جون كوفي؟ وجدت نفسي ألتقط القلم - ذلك الذي اعتاد بروتال أن يلعق سنه - فكرّت في أن أكتب كلمة واحدة؛ **إنجاز**.

أمر كهذا كان ليبدو طريفا، مسليا، ولكنني لم أبتسم، بل شعرت بغتة برغبة شديدة بالبكاء، فوضعت يديّ على وجهي، بحيث كانت راحتاي على فمي حتى أمنع نفسي من النحيب. إلا أنني لم أبكِ. أشحت يديّ بعد بضع دقائق، مريحا إياهما على المكتب. لم أكن أعرف حقيقة ما

أشعر به، والشيء الواضح الوحيد في ذهني الآن هو رغبتي بعدم عودة أحد إلى العنبر إلا بعد أن أكون قد استعدت رباطة جأشي. كنت أخشى أن يروا ما ارتسم على محياي.

سحبت واحدة من الاستمارات. كنت سأنتظر حتى تهدأ أعصابي لأكتب تفاصيل المعركة مع وارتون ومحاولته قتل دين ستانتون، أما الآن فسأملأ بقية الخانات الروتينية. رأيت أن خط يدي سيبدو مضحكا - مع كل هذا الارتجاف - إلا أنه لم يتأثر كثيرا.

مضت خمس دقائق، بعدها وضعت القلم، وتوجهت إلى دورة المياه الملحقة بمكتبي، لأتبول. لم أكن في عجلة من أمري كما كانت كل مرة سابقة، ولكنني رأيت أن أتبوّل بما يكفي لأن أحكم على مدى شفائي من علتي. وبينما وقفت هناك بانتظار إدرار البول، كنت أفكر في أنه سيؤلمني كما آلمني ذلك الصباح، وأنني سأشعر وكأنني أتبوّل شظايا زجاجية صغيرة ككل مرة؛ وأنني سرعان ما سأكتشف أن الأمر كله لم يكن سوى حلم، أو تنويما مغناطيسيا، وهو ما كان سيريحني بالرغم من الآلام.

إلا أنني لم أشعر بأي ألم، أما البول فكان رائقا، بلا صديد. أحكمت أزرار سروالي، وضغطت على الطارد، عائدا إلى مكتبي، وجلست.

أدركت ما حدث؛ بل أدركت متى كنت أحاول إقناع نفسي بأنني كنت منوما مغناطيسيا. كان ما مررت به تجربة علاج تعدّ إنجازا. كنت - كولد مطبع يذهب إلى أي دار عبادة، معمدانية كانت أم لا، تواظب على قصدها أمه وأخواته - قد سمعت الكثير من قصص الكرامات. لم أكن أصدق معظمها، ولكن هناك أشخاص صدقوها. من بينهم شخص يدعى روي ديلفينز، كان يعيش مع عائلته على بعد قرابة ميلين من منزلنا، عندما كنت في سن السادسة. كان ديلفينز قد قطع إصبع ابنه الصغير ببلطة صغيرة، حدث هذا حينما حرك الولد يده بغتة فوق قطعة حطب كان

WWW.REWITY.COM

يحملها لوالده في باحة المنزل ليكسرها. قال روي ديلفينز إن ركبتيه قد تركتا أثرا في السجادة بفعل طول الوقت الذي أمضاه في صلاة استمرت طيلة الخريف والشتاء، ومع حلول الربيع كان إصبع الولد قد نمى من جديد. بل إن ظفرا ظهر فيه. صدقت روي ديفلينز حينما حكى لي ذلك مبتهجا ليلة خميس. كان هناك صدق تام في ما قاله بينما وقف هناك يتحدث، ويداه مندستان داخل جيبي سترته، حتى كان من المحال ألا أصدقه. "حينما بدأ ذلك الإصبع بالنمو أتعبه بعض الشيء، حتى إنه لم يكن ينام لليالٍ متواصلة، ولكنه كان يعلم أنها هبة من الله".

لم تكن نادرة روي ديلفينز سوى واحدة من عديد من النوادر؛ وكنت قد كبرت في أسرة تعتقد بقدرة الشعوذة على الشفاء، وقدرة مياه جذع شجرة على علاج الدمامل الصغيرة... طحلب تضعه تحت الوسادة ليهدّئ القلب الملتاع، وأشياء كثيرة من هذا القبيل بالطبع. لكنني لم أصدق أن جون كوفي ساحر. لقد نظرت في عينيه. بل والأهم أنني أحسست بلمسته. كانت لمسة طبيب غريب عظيم الشأن.

"ساعدتك... ألم أساعدك؟".

بقيت تلك العبارة تتردد في عقلي، وكأنها دندنة لحن لا يمكنك التخلص منها، أو رقية تتلفظ بها.

"ساعدتك... ألم أساعدك؟".

ليس هو من ساعدني. بل الله. ربما قالها جون كوفي عن جهل لا عن فخر، لكنني كنت أعلم أن ما تعلمته عن ذلك العلاج الروحاني ومما سمعته من قصص من والدتي ومن خالاتي وداخل دور العبادة هو أن ذلك العلاج لا يتعلق لا بالمُشفِي ولا بالشّافي، بل هي إرادة الله وحدها. فمن الطبيعي أن يبتهج المرء لشفاء مريض، بل وهذا هو المتوقع، إلا أن على المُشفي أن يسأل عن السبب؛ عليه أن يتأمل في إرادة الله.

ما الذي يريده الله؟ ما الذي يريده حتى يضع تلك المقدرة العلاجية بين يدي قاتل أطفال؟ من شخص قابع في هذا العنبر يعاني المرض والألم، بدلا من أن يكون في منزله، شخص يرتجف داخل فراشه تفوح منه رائحة السلفا؟ ربما؛ كان عليّ أن أبقى هنا ولا أعود إلى المنزل تحسبا لأي تصرف مجنون من وايلد بيل وارتون، وحتى أطمئن على أن بيرسي ويتمور لم يقم بأي من حماقاته. ليكن هذا. سأبقي عينيّ مفتوحتين وفمي مغلقا، ولن أبوح بشيء عن هذا العلاج الذي أعدّه إنجازا.

لم يكن هناك من أحد يرغب بأن يتساءل عن تحسن حالتي؛ وكنت أقول للعالم كله بأنني أتحسن، وبالرغم من أنني كنت أكذب، إلا أنني سأكون صادقا هذه المرة. كنت أخبر الآمر موور بأنني في طور التحسن. ومع أن ديلاكروا قد رأى شيئا ما، إلا أنني أعتقد أنه لن يتحدث عنه بدوره (ربما خوفا من أن يصيبه جون كوفي بلعنة من لعناته لو تكلم). أما بالنسبة إلى كوفي نفسه، فربما هو نفسه قد نسي. فهو ليس سوى أداة توصيل، بالرغم من كل شيء، وليس هناك من مجرى تصريف يتذكر المياه التي تدفقت فيه ما إن يتوقف وابل المطر. لذا عزمت على أن أغلق فمي وألا أتحدث في الأمر، ولم أكن أعلم بأنني سأكون مجبرا على أن أحكي القصة، ولم أكن أعلم أنني سأخبرها لكل من أتحاشى إخبارهم بها.

لكن الفضول ينهشني تجاه ذلك الضخم، ولا يمكنني أن أنكر هذا. فبعد ما حدث لي في تلك الزنزانة... صرت ضحية ذلك الفضول.

www.rewity.com RAYAHEEN WWW.REWITY.COM

4

عمدت قبل رحيلي في تلك الليلة إلى الترتيب مع بروتال ليقوم بتغطيتي في اليوم التالي في حال اضطررت إلى التأخر بعض الشيء، وعندما استيقظت في اليوم التالي قصدت تيفتون، أسفل مقاطعة ترابينغاوس.

قالت زوجتي وهي تناولني طعام الغداء الذي أعدته لي "لا أظنني أستسيغ قلقك الزائد هذا بشأن ذاك الشخص المدعو كوفي"؛ فجانيس لم تكن لترضى أبدا عن الوقوف لدى عربات بيع الهمبرغر على جانب الطريق، ودائما ما تقول إن ألم المعدة ينتظر الجميع في مكان ما هناك، ثم أردفت "إنه ليس مثلك يا بول".

"أنا لست قلقا بشأنه، بل يحدوني فضول. هذا كل ما في الأمر".

"وفقا لخبراتي، أرى أن الفضول عادة ما يفضي إلى القلق" قالتها جانيس بحدة قبل أن تهمي على شفتيّ بتلك القبلة المحبة الدافئة، "ولكنك - على الأقل - تبدو أفضل حالا. لقد أصبتني ببعض التوتر آنذاك. هل شفيت؟".

"تماما"، أجبتها، ثم شرعت أغادر وأنا أشدو بأغنيات مثل حلّقي معي يا جوزفين في طائرتي، وها نحن نصنع المال، كي أسلّي نفسي.

توجهت إلى مكاتب استعلامات تيفتون أولا حيث أخبروني أن بيرت هامر سميث - الرجل الذي أبحث عنه - كان على الأرجح في محكمة المقاطعة. وهناك أخبروني أنه قد ذهب عندما انفجر أنبوب المياه وأسفر عن تأجيل القضايا الرئيسية، ومن بينها جلسة المحاكمة

الخاصة بقضية اغتصاب (أو "اعتداء على امرأة" كما سيرد ذكر هذه الجريمة في أوراق مكتب الاستعلامات، وهي الطريقة التي كان يُشار بها إلى مثل هذه الأمور في الأيام قبل ظهور ريكي ليك وكارني ويلسون). ولقد خمّنوا أنه ربما قد عاد هامر سميث إلى منزله. وبالفعل تتبعت بعض التوجيهات عبر شارع قذر، وضيق. وكنت على وشك التراجع عن خوضه بسيارتي الفورد حين عثرت على ضالتي. كان هامر سميث قد كتب معظم قصصه حول قضية كوفي، وعرفت منه معظم التفاصيل عن المطاردة الموجزة التي أوقعت كوفي في شباكها في المقام الأول. أعني بالطبع التفاصيل التي اعتبرها مكتب الاستعلامات أكثر بشاعة من أن تُحكى.

كانت السيدة هامر سميث امرأة شابة ذات وجه متعب وجميل، وقد احمرت يداها من مسحوق الغسيل. ولم يحدث أن سألتني عن عملي، واكتفت بأن قادت الطريق إلى منزل صغير تنبعث منه رائحة الخبز، ثم إلى الشرفة الخلفية حيث كان يجلس زوجها وقنينة الشراب في يده، ونسخة مطوية من مجلة الحرية فوق حضنه. وهناك رأيت ساحة خلفية منحدرة، في نهايتها ولدان كانا يتشاجران ويضحكان فوق الأرجوحة. وكان يصعب تمييز جنسهما من الشرفة، ولكنني اعتقدت أنهما ولد وبنت، بل وربما كانا توأما مما يلقي ظلالا مثيرة للاهتمام على الأب، حتى وإن كان على نحو هامشي من قضية كوفي. وعلى مسافة أقرب من الولدين كان هناك بيت الكلب كجزيرة في منتصف بقعة جافة ومهملة من الأرض، بيد أن فيدو لم يظهر في المكان؛ كان ذاك يوما شديد الحرارة، فخمنت أنه ربما فضّل البقاء والنوم داخل منزله.

وقالت السيدة هامر سميث "بيرت. لديك زائر هنا".

"حسنا". قال هامر سميث وألقى نظرة عليّ، ثم نظر إلى زوجته، ومنها إلى ولديه حيث بدا جليا أنهما قرة عينه بحق. كان رجلا نحيفا

WWW.REWITY.COM

على نحو يكاد يكون مؤلما وكأنه قد بدأ لتوه التعافي من مرض خطير، وقد بدأ شعره ينحسر فوق رأسه. ألفيت زوجته تضع يدها الحمراء، المنهكة، والمنتفخة من أثر مسحوق الغسيل فوق كتفه في تردد، بيد أنه لم ينظر إليها ولم يحاول لمسها، فأبقتها هناك للحظة ثم سحبتها مرة أخرى. خطر لي للحظة أنهما يبدوان كأخ وأخته أكثر من كونهما رجلا وزوجته؛ بدا وكأنه من يقوم بالتفكير بينما تؤدي هي النظرات، بيد أن أيا منهما لم يستطع تجنب بعض الشبه الضمني؛ إرث لا يمكن الفكاك منه. ولكن عندما عدت إلى المنزل في ما بعد، أدركت أنه لم يكن هناك ثمة شبه بينهما، وأن ما يتشاركانه هو أثر الإجهاد ومخلفات الحزن، كم هي مدهشة تلك الآثار التي يتركها الألم على وجوهنا فنبدو جميعا وكأننا أفراد عائلة واحدة.

وسألتني السيدة هامر سميث "أترغب بشراب بارد سيد...؟".

"إيدجكومب. بول إيدجكومب، وشكرا لكِ بالطبع يا سيدتي. سيكون الشراب البارد رائعا".

فعادت إلى الداخل فيما مددت يدي لمصافحة السيد هامر سميث الذي اكتفى بمصافحة خفيفة وقصيرة. شعرت بقبضته باردة ومنهكة، ولاحظت أنه لم يرفع عينيه عن ولديه في آخر الساحة.

"سيد هامر سميث. أنا مشرف العنبر (هـ) في سجن ولاية كولد ماونتن. إنه...".

"أنا أعرف ما هو". قاطعني الرجل وهو يتطلع إليّ بمزيد من الاهتمام، ثم تابع قائلا "يعني هذا أنه يقف الآن في شرفة منزلي الخلفية أهم رجل في الميل الأخضر، ملء السمع والأبصار. ترى ما الذي دفع بك إلى السفر خمسين ميلا كي تتحدث إلى مراسل محلي تافه يعمل بدوام كامل؟".

"جون كوفي".

أظنني توقعت رد فعل قوي على نحو ما (كان الولدان اللذان ربما كانا توأما يشغلان خلفية تفكيري، وربما بيت الكلب أيضا؛ كان لدى آل ديتيريتش كلب)، إلا أن كل ما فعله هامر سميث هو رفع حاجبيه والارتشاف من شرابه، ثم سألني "إن كوفي هو مشكلتك الآن، أليس كذلك؟".

"ليس مشكلة بالمعنى؛ إنه لا يحب الظلام، ويبكي معظم الوقت، إلا أن هذه الأشياء لا تمثل مشكلة في عملنا، فنحن نرى أسوأ من ذلك".

"يبكي كثيرا؟ أحقا يفعل هذا؟ حسنا. أحسب أن لديه الكثير ليبكي من أجله بالفعل. أعني بالنظر إلى ما اقترفه. وماذا تريد أن تعرف؟".

"أي شيء يمكنك أن تخبرني به. لقد قرأت كل ما كتبته وكل ما نُشِر لك في الصحف، ومن ثم أعتقد أن ما أريده هو ما لم تذكره في تلك المقالات".

رماني هامر سميث بنظرة حادة وجافة، فتابعت "أشياء كشكل الفتاتين، وما فعل بهما".

"أهذه هي المعلومات التي تهتم بها فعلا يا سيد إيدجكومب؟".

فأجبته بصوت احتفظت به لطيفا وهادئا "كلا. إن اهتمامي ليس بفتاتي ديتيريتش يا سيدي. بالطبع كانتا مخلوقتين صغيرتين مسكينتين لقيتا حتفهما، بيد أن فضولي ينصب على كوفي".

"حسنا. اتخذ لنفسك مقعدا سيد إيدجكومب، وسامحني على ما أبديت من حدة، لكنني أقابل الكثير من النسور الكاسرة في عملي هذا، بل وكثيرا ما اتهموني بأنني مثلهم، ومن ثم أردت فقط أن أتيقن".

"وهل تيقنت؟".

"بما يكفي على ما أعتقد"، قالها هامر سميث بصوت بدا مختلفا، وكانت القصة التي أخبرني بها تشبه كثيرا تلك التي وقفت عليها من

WWW.REWITY.COM

قبل؛ كيف أن السيدة ديتيريتش وجدت السقيفة خالية وقد خلعت مفصلة الباب، وجمع أحدهم الأغطية في أحد الأركان، ودرجات السلم ملطخة بالدماء؛ وكيف انطلق الزوج والابن خلف المختطف، ثم لحقت بهما الحشود أولا وسرعان ما أمسكوا بجون كوفي، الذي كان يجلس بجوار ضفة النهر وهو ينوح بينما يحمل جسدي الفتاتين بين ذراعيه الهائلتين.

كان ذاك المراسل الصحفي - في قميصه الأبيض الخفيف بياقته المفتوحة وسرواله الرمادي الريفي - يتحدث بصوت خفيض يخلو من المشاعر، إلا أن عينيه لم تبرحا الولدين في مرحهما وضحكهما وهما يتناوبان صعود الأرجوحة في تلك البقعة الظليلة على سفح الساحة الخلفية المنحدرة. وبينما كان في منتصف الحكاية، دخلت السيدة هامر سميث وهي تحمل قنينة من شرابٍ منزليّ الصنع، كان باردا، وحلو المذاق. وبعد أن وقفت تستمع لبرهة، شرعت تقاطعه منادية ولديها كي يأتيا إليها من فورهما، وقد أخرجت الفطائر من الموقد لتوها. فعلا صوت الفتاة الصغيرة تجيبها "حسنا يا أماه، سنأتي في الحال!"، ومن ثم عادت الزوجة إلى الداخل مرة أخرى.

عندما انتهى هامر سميث من سرد قصته، قال "ولكن لماذا تريد أن تعرف؟ فهذه المرة الأولى التي يزورني فيها أحد أفراد البيت الكبير!".

"لقد أخبرتك".

"نعم. الفضول. صفة بشرية أحبها، بل وأشكر الله عليها، فلولاها لكنت الآن بلا عمل أعيش منه. ولكن خمسين ميلا مسافة طويلة لتقطعها فقط لإشباع فضولك، خاصة وأن العشرين ميلا الأخيرة منها تمضيها بسلوك طرقات سيئة للغاية. فلماذا لا تخبرني بالحقيقة سيد إيدجكومب؟ لقد أعطيتك ما تريده، فهلا أعطيتني ما أريده؟".

WWW.REWITY.COM

كان في وسعي أن أخبره عن إصابتي البولية تلك، وكيف أن جون كوفي قد وضع يديه عليّ وشفاني؛ الرجل الذي اغتصب البنتين وقتلهما قد فعل بي هذا، ومن ثم كان فضولي، ومن لا يفعل لو كان مكاني؟ بل وتساءلت ما إذا كان هومر كريبس والنائب روب ماكجي قد قبضا على الشخص الخطأ. فبالرغم من كل الأدلة ضد كوفي، إلا أنني لا أزال أتساءل عن هذا الشأن. فرجل بمثل هذه القوى في يديه، يصعب التفكير في أن يكون رجلا يغتصب الأطفال ويقتلهم.

كلا. لن يُجدي هذا التفسير نفعا، فقلت "هناك شيئان كنت أتساءل بشأنهما؛ الأول هو ما إذا كان كوفي قد فعل شيئا كهذا من قبل".

التفت إليّ هامر سميث وقد اكتست عيناه فجأة بشيء من الحدة ووميض فيهما الاهتمام، وأدركت أنه رجل ذكي، بل وربما كان متقد الذكاء، ولكن على نحو هادئ، ثم سألني "ولِمَ؟ ما الذي تعرفه سيد إيدجكومب؟ ماذا قال لك؟".

"لم يقل شيئا. ولكن من يقترف مثل هذا الجرم عادة ما يكون قد فعله من قبل، فالأمر يشبه الإدمان بالنسبة إلى هؤلاء الأشخاص".

"نعم. هو كذلك بالفعل. لا شك في أن الأمر هكذا بالنسبة إليهم".

"لقد خطر لي أنه من السهل تتبع تاريخه ومعرفة ذلك. فليس من الصعب تعقب سيرة رجل في حجم كوفي وأصوله الزنجية".

"هذا ما تظنه أنت، وقد تكون غير مصيب في هذا، على الأقل في قضية كوفي. أعرف هذا بلا شك".

"هل حاولت؟".

"حاولت، وانتهيت إلى لا شيء. قابلت اثنين من الزملاء في سكة الحديد، وأفادا أنهما قد رأياه في نوكسفيل قبل يومين من مقتل فتاتي ديتيريتش. إلا أن هذا ليس مثيرا للدهشة، فلقد كان عبر النهر إلى جهة

مسارات الجنوب العظمى عندما ألقوا القبض عليه، ومن المحتمل أنه قد جاء إلى تينيسي عبر النهر. لقد تلقيت خطابا من رجل قال إنه استأجر رجلا أسود ضخما وأصلع الرأس في أول ربيع هذا العام لينقل له الصناديق؛ كان هذا في كتتاكي. وعندما أرسلت إلى الرجل صورة كوفي، أكّد أنه بعينه الرجل الذي استأجره. دوّن ذلك من المعلومات..."، ثم هزّ هامر سميث كتفيه ورأسه في إشارة إلى أن هذا هو كل ما لديه.

"ولكن ألا ترى أن هذا شيء غريب؟".

"بل أجده في غاية الغرابة سيد إيدجكومب، فهو يبدو وكأنه قد سقط من السماء. ولا يمكنك حتى أن تفهم منه شيئا؛ فهو ينسى ما حدث الأسبوع الماضي ما إن يحل هذا الأسبوع".

"هذا صحيح. وما هو تفسيرك؟".

"نحن جميعا نعاني من فترة الكساد هذه؛ هذا هو تفسيري. كل هؤلاء فوق الطرقات؛ الزنوج يريدون جمع الخوخ في كاليفورنيا، فيما الفقراء من البيض الذين يعيشون أعلى الأجمات يرغبون بالعمل بالسيارات في ديترويت، بينما السود من الميسيسيبي يريدون الذهاب إلى نيو إنغلاند للعمل في مصانع الأحذية أو النسيج. فالجميع - سواء أكانوا من البيض أو السود - يعتقدون أن الأحوال ستكون أفضل في تلك البلاد. إنها الطريقة الأميركية اللعينة في التفكير. حتى عملاق بحجم كوفي تصعب ملاحظته أينما ذهب، حتى قرر قتل الطفلتين الصغيرتين من البيض".

"وهل تصدق أنه فعلها بحق؟".

رمقني الرجل بنظرة غير ذات معنى من وجهه النحيف، ثم قال "أحيانا أفعل".

أطلت زوجته من نافذة المطبخ كمهندس ينظر من كابينة قاطرة متحركة، ونادت "أيها الولدان! الفطائر جاهزة!"، ثم استدارت نحوي،

وأردفت "أترغب بفطيرة من الشوفان المجروش سيد إيدجكومب؟".

"أنا أكيد من أنها رائعة المذاق يا سيدتي، لكنني حقا لا أستطيع الآن".

"حسنا". قالت السيدة هامر سميث، وعادت أدراجها إلى الداخل مرة أخرى.

ثم سألني السيد هامر سميث على نحو مفاجئ "هل رأيت تلك الندوب على جسده؟".

كان لا يزال يراقب الولدين اللذين لم يستطيعا ترك مسراتهما عند الأرجوحة حتى ولو من أجل فطائر الشوفان المجروش المحلاة بالزبيب.

"نعم". بيد أنني اندهشت لمعرفته بأمر هذه الندوب.

لم يخفَ اندهاشي عن الرجل، فضحك وقال "من بين الانتصارات العظيمة التي أحرزها محامي الدفاع أن جعل كوفي يخلع قميصه، ويُري الندوب لهيئة المحلفين. بالطبع اعترض جورج بيترسون - المدعّي العام - أشد الاعتراض، إلا أن القاضي سمح بذلك. وأرى أن جورج العجوز قد أهدر جهده بلا داعٍ، فالمحلفون في هذه المناطق لا يتأثرون بذاك الهراء النفسي من أن هؤلاء الذين يتعرضون للمعاملة السيئة قد يفقدون السيطرة على أفعالهم. فهم يعتقدون أن في وسع الإنسان أن يتحكم بنفسه. في الحقيقة، إنني أتعاطف كثيرا مع وجهة النظر تلك، بيد أن تلك الندوب كانت بشعة على نحو مروّع. هل لاحظت أي شيء بشأنها سيد إيدجكومب؟".

كنت قد رأيت الرجل عاريا وهو يغتسل، ولاحظت الندوب. بالطبع أدركت ما كان يرمي إليه هامر سميث "أتعني أنها منتشرة بما يشبه الشبكة؟".

"وهل تعرف ماذا يعني ذلك؟".

WWW.REWITY.COM

"إن أحدهم قد أثخن فيه الجلد والجراح وهو لا يزال طفلا صغيرا".

"لكنهم لم ينجحوا في إخراج الشر منه، ألا تتفق معي؟. ربما كان يجدر بهم تقييده بالحبال وإغراقه في النهر كالهريرة الضالة. ألا تعتقد هذا؟".

رأيت أنه من الكياسة أن أتفق معه وأن أبرح المكان، لكنني لم أستطع. لقد رأيت الرجل، وشعرت به، بل وشعرت بلمسة يديه.

فقلت "إنه... غريب على نحو ما، لكنني لم ألمح فيه أي عدوانية حقيقية. أعرف تماما كيف وجدوه، ولكم يصعب الجمع بين هذا وبين ما أراه منه كل يوم في السجن. أنا أعرف الرجال الذين يتسمون بالعنف سيد هامر سميث"، وبالطبع كنت أفكر في وارتون في هذه اللحظة وهو يعمد إلى خنق العميد ستانتون بسلسلة معصمه حتى انطلق خوار الرجل. ألم يكن ذلك احتفالا بحق؟!

كان هامر سميث ينظر إليّ بإمعان في هذه اللحظة وعلى وجهه شبح ابتسامة، وأحسبها ابتسامة كانت تنم عن ريبة ومن ثم لم أعبأ بها كثيرا، ثم قال "إنك لم تأتِ إلى هنا لمعرفة ما إذا كان هناك احتمال لاقترافه جرائم أخرى مثيلة في مكان آخر، وإنما أردت أن تعرف ما إذا كنت أصدق أنه فعلها، أليس كذلك؟ أفصح يا إيدجكومب".

ابتلعت آخر ما تبقى في شرابي البارد، ووضعت القنينة فوق المنضدة الصغيرة، ثم قلت "حسنا.. وهل تصدق؟".

فصاح الرجل عبر المنحدر وهو يميل في مقعده إلى الأمام قليلا "أيها الولدان. فلتأتيا إلى هنا الآن ولتتناولا الفطائر!"، ثم عدّل جلسته في المقعد، ونظر إليّ، وقد عادت إلى وجهه تلك الابتسامة الطفيفة التي لم أعرها اهتماما من قبل، وقال "سأقول لك شيئا... وانتبه إلى ما سأقوله، فلربما كان شيئا يجدر بك معرفته".

"كلّي آذان صاغية".

قال هامر سميث وهو يشير بإبهامه إلى بيت الكلب ذاك "كان لدينا كلب نطلق عليه اسم جالاهاد، وكان كلبا جيدا. ربما لم ينتمِ إلى سلالة بعينها، لكنه كان لطيفا، وهادئا، ويحب لعق يديك وإحضار العصا. هناك الكثير من الكلاب الهجينة مثله، أليس كذلك؟".

فهززت كتفي، وأومأت له.

"هذا الكلب الهجين يشبه ذاك الزنجي في سجنك من عدة أوجه؛ تعرفه مع الوقت وعادة ما تحبه. ربما لا تعرف له فائدة بعينها، ولكنك تستبقيه حولك لأنك تظن أنه يحبك. ولو أنك سعيد الحظ سيد إيدجكومب فلن تضطر أبدا إلى الوقوف على أي اختلافات. أما أنا وسيتيا، فلم نكن محظوظين أبدا".

قالها هامر سميث ثم أطلق تنهيدة طويلة أظنها كانت مصحوبة بصفير ما؛ كصوت الرياح تمر بين أوراق الأشجار المتساقطة. ثم أشار إلى بيت الكلب مرة أخرى، وعجبت كيف أنني لم ألاحظ من قبل أنه مهجور، أو حقيقة أن اللون الأبيض قد شرع يزحف على جدرانه، ويتجمّع فوقه كمسحوق يشبه الطحين.

"اعتدت أن أقوم بتنظيف مكانه بنفسي، وأن أصلح سقف بيته كي يحتمل الأمطار. في هذا أيضا يشبه السيد جالاهاد ذاك الزنجي الجنوبي في سجنك، فهو لا يستطيع فعل ذلك لنفسه. أما الآن فلم أعد ألمسه، بل ولم أقترب منه منذ تلك الحادثة؛ في حال كان يمكن إطلاق لفظة حادثة على ما حدث. لقد ذهبت إلى هناك - إلى البيت - وأطلقت عليه الرصاص بسلاحي، ولم أقترب من المكان منذ حينها. لم أستطع. ربما أفعل مع الوقت، فأزيل هذا البيت وأنظف المكان.

وهنا أتى الولدان؛ وعلى الفور شعرت بأنني لم أكن لأرغب بمجيئهما؛ على الفور أدركت أن هذا آخر ما كنت أرغب بحدوثه على

WWW.REWITY.COM

وجه الأرض. كانت الفتاة الصغيرة بخير، أما الولد فلا. شرعا يقفزان فوق درجات السلم، ثم نظرا إليّ وضحكا قبل أن يتوجها صوب باب المطبخ.

ونادى هامر سميث "كاليب. تعالَ إلى هنا للحظة".

دخلت الفتاة المطبخ - ولا شك أنهما كانا توأما - فيما أقبل الولد الصغير نحو أبيه وهو ينظر إلى قدميه؛ كان يدرك أنه قبيح الشكل. لم يكن ليتعدى الرابعة من عمره على كل حال، ولكن أربع سنوات تكفي لأن يدرك الطفل مدى قبحه. وضع الأبِ إصبعين أسفل ذقن ابنه وحاول حمله على رفع رأسه. قاومه الولد في البداية، ولكن عندما سمع أباه يقول "من فضلك يا بني" بذلك الصوت الهادئ، العذب، المفعم بالحب، رفع الولد رأسه تلبية لرغبة أبيه.

ورأيت تلك الندبة الضخمة المستديرة تنتأ من بين خصلات شعره وحتى جبهته، ثم تمر عبر إحدى عينيه وقد فقدت تلك الحياة تماما، ثم إلى أعلى فمه الذي تشوه وأضحى أشبه بفم المقامر أو القوّاد. كانت إحدى وجنتيه ناعمة وجميلة، بينما الأخرى تغطيها النتوءات تماما كجذع الشجرة. وأعتقد أنه كان هناك ثقب ما في تلك الوجنة وقد تماثل للشفاء.

"لديه عين واحدة"، قال هامر سميث وهو يمسح برفق على وجنة الولد المشوهة بأنامل محبة عطوفة، ثم أردف "أظنه سعيد الحظ لأنه لم يفقد كلتا عينيه. لقد ركعنا وشكرنا الخالق كثيرا على هذا. أليس كذلك يا كاليب؟".

"نعم يا سيدي"، أجابه الولد بخجل؛ ذاك الولد الذي غالبا ما سيتعرض للضرب المبرح في الساحة الخلفية من أقرانه الساخرين الضاحكين طوال سنوات دراسته التعسة؛ ذاك الولد الذي سيُحرم معظم الألعاب التي يلعبها من هم في مثل سنه، بل وربما لن يحظى بعلاقة

حميمة مع امرأة ما إن يبلغ سن الرجال ويشعر احتياجاتهم، إن لم يدفع لها المال لقاء ذلك؛ ذاك الولد الذي سيقف دائما خارج دائرة الضوء الدافئة؛ والذي سيظل ينظر إلى نفسه في المرآة طوال الخمسين، أو الستين، أو السبعين سنة المقبلة، ويردد لنفسه "قبيح. قبيح. قبيح".

"هيا اذهب وتناول الفطائر"، قالها الأب وقبّل فم ابنه المشوه.

"حسنا يا سيدي". قال كاليب واندفع إلى الداخل.

أما هامر سميث فأخرج منديلا من جيبه الخلفي ومسح به عينيه؛ كانتا جافتين، ولكن يبدو أنه اعتاد عليهما دامعتين.

"لقد كان الكلب هنا قبل ولادتهما. أحضرته إلى المنزل كي يشمهما عندما عادت بهما سينثيا من المستشفى، وشرع السيد جالاهاد يلعق أيديهما. أيديهما الصغيرة"، ثم أومأ وكأنه يؤكد ذلك لنفسه، ثم تابع "كان يلعب معهما، واعتاد أن يلعق وجه آردن حتى تضحك. كان كاليب يحب شد أذنيه، وعندما بدأ يتعلم المشي كان أحيانا ما يمسك بذيل جالاهاد ويدور في الساحة. ولم يتذمر منهما الكلب أبدا؛ ولا لمرة واحدة من أيّ منهما".

وهنا انهمرت الدموع، ومسحها الرجل على نحو تلقائي؛ من كثرة ما فعل هذا من قبل، ثم قال "لم يكن هناك ثمة سبب لما حدث، لم يؤذه كاليب على كل حال، لم يصح في وجه، ولم يفعل شيئا على الإطلاق. أكيد أنا من هذا، فقد كنت هناك. ولو لم أكن هناك آنذاك لكان قتل الصبي. ما حدث سيد إيدجكومب كان... لا شيء. لم يلبث الصبي أن وضع وجهه أمام وجه الكلب مباشرة حتى خطر لعقل السيد جالاهاد - أو أيا كان ما يقوم بدور العقل لدى الكلب - أن يبدأ الطعن والعض، أو حتى القتل إن استطاع. كان الولد أمامه مباشرة، وشرع الكلب يعض. وهذا ما حدث مع كوفي. كان هناك، ورأى الطفلتين في السقيفة، فأخذهما، واغتصبهما، ثم قتلهما. أنت تقول إنه لا بد من وجود إشارة

WWW.REWITY.COM

إلى أنه قد فعل شيئا كهذا من قبل، وأنا أتفهم ما تعنيه، ولكن لا يزال الاحتمال قائما أنه لم يفعل ذلك من قبل؛ لم يسبق أن فعل كلبي هذا من قبل. ولا لمرة واحدة. ربما لو لم يتم القبض على كوفي لفعلها مرة أخرى. ربما لم يكن كلبي ليفعل ما فعل مجددا، ولكنني لم أحاول أن أشغل نفسي بالأمر؛ سحبت سلاحي وجذبت الكلب من طوقه ونسفت رأسه".

ولاحظت أنه السيد هامر سميث قد بات يتنفس بصعوبة.

"سيد إيدجكومب. أنا رجل مستنير كأي رجل درس في كليات باولينغ غرين، ودرست التاريخ والصحافة، وبعض الفلسفة كذلك. نعم، أنا أعتبر نفسي مثقفا ومستنيرا. ربما يرى القوم في الشمال غير ذلك، ولكنني أحب أن أنظر إلى نفسي باعتباري رجلا مستنيرا. أنا لا أنادي بعودة الرق بل أرى أنه يجب علينا أن نكون آدميين، وكرماء في جهودنا لحل المشكلة العرقية. ولكن علينا أن نتذكر أن ذاك الزنجي سيعض حتما إذا ما واتته الفرصة، تماما كما سيفعل الكلب الهجين إذا ما واتته الفرصة وخطر له أن يفعل. أنت تريد أن تعرف ما إذا كان السيد كوفي الباكي - بكل ما عليه من ندوب - قد اقترف هذه الجريمة؟".

فأومأت له.

"آه. حسنا. لقد فعلها، ولا شك لديّ في هذا، ونصيحتي لك ألا تدير إليه ظهرك، ربما تنجو مرة أو مئة مرة أو حتى ألف مرة ولكن في النهاية ". ثم رفع يده أمام عيني، وطفق يضم الأصابع في مقابل الإبهام بسرعة بما يشبه الفم لدن العض، "أتفهم هذا؟".

فأومأت مرة أخرى.

"لقد اغتصبهما وقتلهما ثم شعر بالأسف، إلا أن أسفه ذلك لم يغير من حقيقة أن الفتاتين الآن مغتصبتين ومقتولتين. لكنك ستصلح الأمر، أليس كذلك يا إيدجكومب؟ ستصلح الأمر في غضون بضعة

WWW.REWITY.COM

أسابيع بحيث لا يفعل شيئا كهذا أبدا". ثم نهض عن مقعده، واتجه صوب الشرفة حيث راح ينظر على نحو مبهم نحو بيت الكلب القائم في مركز تلك الرقعة المهملة، وسط المخلفات العتيقة. ثم قال "معذرة، ولكن حيث إنني لن أذهب إلى المحكمة عصر اليوم، فقد فكرت أن أقوم ببعض الزيارات بصحبة عائلتي. أنت تعرف أنه ما إن يكبر الأبناء حتى لا يعودوا صغارا مرة أخرى".

"نعم. لك هذا بالطبع"، قلت له وأنا أشعر بشفتيّ كالمخدرتين، ثم أردفت "وأشكرك على الوقت الذي منحتني إياه".

"لا داعي للشكر".

ثم عدت بسيارتي من منزل هامر سميث إلى السجن مباشرة. كان الطريق طويلا، ولم أكن قادرا هذه المرة على تسلية نفسي بالغناء، شعرت أنني صرت خاويا من الأغاني، على الأقل لبعض الوقت. لم تبرح رأسي صورة وجه هذا الصبي المشوه أبدا، ومعها يد هامر سميث؛ أصابعه وإبهامه وهي تحاكي فعل العض أمام وجهي.

5

كانت أول تجربة لوايلد بيل وارتون في غرفة الحبس الانفرادي في اليوم التالي. وكان قد أمضى الصباح والظهيرة بهدوء ووداعة شديدين، وهي حالة سرعان ما اكتشفنا أنها غير طبيعية بالنسبة إليه، وتعني أن هناك مشكلات في الأفق. ثم وعند حوالى الساعة السابعة والنصف من ذلك المساء، شعر هاري بشيء دافئ يرتطم رذاذه بقوة بسروال زيه النظامي الأنيق الذي كان قد ارتداه نظيفا ذلك النهار. إنه بول. كان ويليام وارتون يقف داخل زنزانته، يبتسم ابتسامة عريضة تكشف عن أسنانه النتنة، وهو يتبوّل على سروال وحذاء هاري تيروليجر.

قال لي هاري وهو لا يزال يشعر بالاشمئزاز والغضب "يبدو أن ذلك الوغد كان يحتفظ ببوله طوال اليوم لأجل تلك اللحظة".

كان ما حدث كافيا لأن تحين اللحظة التي يدرك فيها ويليام وراتون حقيقة من يديرون العنبر (هـ). أحضرني هاري وبروتال، واستدعيت دين، وبيرسي الذي كان موجودا بدوره. أتذكر أن العنبر كان يحوي ثلاثة مساجين حينها، وكنا في وردية كاملة، كما يقال، حيث تبقى المجموعة من السابعة مساء وحتى الثالثة بعد منتصف الليل - وهي الفترة التي يكون من المتوقع حدوث مشكلات خلالها - بينما هناك فردان آخران يغطيان بقية النهار. وعادة ما يكون هذان الفردان من رجال الخدمة المؤقتين، ومعهم بيل دودج مشرفا. كانت طريقة مناسبة لإدارة المكان، وشعرت بأن الحياة هكذا تكون أفضل، خاصة لو نجحت أيضا في نقل بيرسي إلى نوبة النهار. على أنني لم أعمل أبدا على ذلك. وأحيانا ما أتساءل إن كان من الممكن أن تتغير الأقدار لو أنني عملت على نقله بالفعل.

على كل حال... كان هناك مصدر مياه كبير في غرفة التخزين، على الجانب الآخر من غرفة سباركي العجوز، فقام دين وبيرسي بربط خرطوم إطفاء حريق طويل به. ووقفا عند الصمام الذي سيفتحه، لو استدعت الحاجة.

أسرعت الخطى أنا وبروتال إلى زنزانة وارتون، حيث كان لا يزال واقفا، مبتسما وهو يترك عضوه خارجا من فتحة سرواله. كنت قد أخرجت سترة المساجين من غرفة الحبس الانفرادي، وألقيت بها على رف في مكتبي قبل أن أغادره إلى المنزل في الليلة السابقة، تحسبا لحاجتنا إليها في التعامل مع هذا المشاغب. كانت الآن بيدي، وسبابتي تمسك بأحد أشرطتها القماشية. لحق بنا هاري، وهو يشد طرف خرطوم الحريق، والذي امتد الآن عبر مكتبي، وفوق عتبات غرفة التخزين، وصولا إلى فوهة مصدر المياه حيث يقف دين وبيرسي بانتظار تنفيذ الأمر بأسرع وقت ممكن.

سألنا وايلد بيل "هاي... كيف وجدتم هذا؟". كان يضحك كصبي في غمار كرنفال، يضحك بقوة منعته من الكلام؛ وحتى سال الدمع من عينيه. "لقد أتيتم بسرعة كما توقعت. وأنا أحضر لكم شيئا من البراز. لطيف وناعم. وفي الغد...".

لاحظ أنني أفتح قفل باب الزنزانة، فضاقت عيناه. ولاحظ أن بروتال يقبض على مسدس في يد وعلى هراوته في اليد الأخرى، فازدادت عيناه ضيقا.

فقال لنا وعيناه تنظران إليّ "يمكنك أن تدخل إلى هنا على ساقيك، ولكنك ستخرج منها محمولا على الأكتاف، بيلي ذا كيد يضمن لك هذا. ولو كنت تظن أنك قادر على إلباسي سترة المجانين هذه، فعليك أن تفكر مرتين... أيها العجوز".

فقلت له "لست أنت من يلقي الأوامر هنا. عليك أن تعي هذا،

WWW.REWITY.COM

ولكنني أرى أنك أغبى من أن تعيه من دون أن تتلقى درسا قاسيا".

فتحت القفل، ومن بعده الباب. بينما تراجع وارتون نحو الفراش، وعضوه لا يزال ظاهرا من سرواله، بينما يمد يديه نحوي، وهو رافع راحتيه، ويشير إليّ بإصبعه. "تعالَ، أيها الوغد القبيح. هناك مدرسة بالفعل، ولكنني أنا المعلم هنا". ثم نظر إلى بروتال مبتسما بأسنانه السوداء "تعالَ، أيها الضخم. أنت أولا. لن تباغتني هذه المرة. ونحّ هذا المسدس جانبا، فأنت لن تطلق الرصاص منه على كل حال، أنت لست شجاعا إلى هذا الحد؛ سيواجه واحدنا الآخر رجلا لرجل. ولنرَ من هو الأفضـ...".

دلف بروتال إلى الزنزانة، ولكنه لم يقصد وارتون. بل تحرك إلى اليسار ما إن صار في الداخل، واتسعت عينا وارتون ما إن رأى فوهة الخرطوم - الذي يمسك به هاري في وقفته خلف بروتال - موجهة إليه.

"كلا... لن تفعلوها... آه كلا، سو...".

صرخت "دين! افتح الصمام! عن آخره!".

قفز وارتون إلى الأمام، فضربه بروتال ضربة قوية - كتلك التي يحلم بيرسي بضربها يوما ما - على أم رأسه. فجثا وارتون - الذي كان يظن أننا لم نختبر المتاعب قبل مجيئه إلى هنا - على ركبتيه، مفتوح العينين... إلا أنه لم يكن يرى شيئا. بعدها اندفع الماء... قويا، حتى إن هاري تراجع خطوة ليمكنه ترويض قوته، وليمكنه إحكام تسديد فوهته. ارتطمت المياه بصدر وارتون، لتدير جسده حول نفسه بقوة، ثم تلقي به إلى أسفل فراشه. كان ديلاكروا يتقافز في زنزانته من قدم إلى أخرى، يقهقه في ضحكات متقطعة، ويسب جون كوفي وهو يطلب منه أن يحكي له ما يحدث، ومن هو المسيطر على الموقف، ولماذا يطلقون على هذا الصبي الجديد المياه. إلا أن جون لم يبح بشيء، وبقي في

مكانه واقفا بهدوء؛ مرتديا سرواله القصير ومنتعلا خفيه. رمقته سريعا، لكنها كانت نظرة كافية لأن ألاحظ نفس ذلك التعبير القديم، الذي يجمع بين الحزن والسكينة. بدا لي كشخص شاهد كل هذا الذي يجري من قبل، وليس لمرة أو مرتين، بل لآلاف المرات.

"أوقفا المياه!". صاح بروتال وهو يسرع الخطى داخل الزنزانة. دس يديه تحت إبطي وارتون الذي كان على وشك أن يفقد وعيه، وسحبه من أسفل الفراش. كان يسعل وفمه يصدر أصواتا غريبة. والدم يسيل على عينيه من جرح فوق حاجبه، حيث هوت هراوة بروتال من قبل.

كنت وبروتوس هويل نتدرب بين حين وآخر على استخدام هذه السترة. وقد كان لهذا التدريب فائدته في هذه اللحظة. فقد أجلس بروتال وارتون وهو يرفع ذراعيه نحوي وكأنه دمية لا حيلة لها. كان الوعي يتسلل إلى عقل وارتون من جديد، فهو يرانا ويعلم أن عليه أن يقاتلنا الآن، وإلا سيكون الوقت قد فات، إلا أن الفارق هو أن الخطوط بين مخه وعضلاته لا تزال معطلة، وقبل أن يعمل على إصلاحها كنت قد أقحمت ذراعيه داخل الكمين بينما كان بروتال يربط أحزمة السترة خلف ظهره. وبينما كان يفعل ذلك، سحبت أربطة الكمين، وجذبت ذراعي وارتون إلى جانبيه، وربطت معصميه معا برباط آخر. بدا الآن كشخص يحاول أن يحتضن نفسه.

كان ديلاكروا لا يزال يصرخ "تبا لك أيها المعتوه الضخم، ما الذي يفعلونه؟". كنت أسمع صوت السيد جينغلز يتردد، وكأنما يريد بدوره أن يعرف ما يحدث.

ووصل بيرسي، قميصه مبتل بسبب تعامله مع مصدر المياه، ووجهه مفعم بالإثارة. ومن خلفه أتى دين، الذي لا تزال سحجات عراك الأمس تطوق عنقه، ولكنه لم يكن شغوفا كثيرا بما يحدث.

قلت وأنا أشير إلى قدميه "تعالَ الآن، وايلد بيل. تا تا... تا تا".

WWW.REWITY.COM

صرخ فيّ "توقف عن هذا!"، وعندها كنت ولأول مرة أتبين مشاعره الحقيقية، وليس ذلك القناع الحيواني الذي يختبئ وراءه. "صاحبنا وايلد بيل ليس بذلك الصنديد! ليس سوى خارج بائس على القانون! مجرد وغد ينتظر أن يقتله سكير!".

صاح بروتال متعجبا وهو يدفع وارتون خارج زنزانته "آه يا صاح، درس تاريخ! إن من يأتي إلى هنا لا يدري ما بانتظاره، ولا يدري أن كل ما عليه فعله هو أن يكون لطيفا. ومع وجود الكثير من اللطفاء أمثالك يكون من الضروري تلقين الدرس، أليس كذلك؟ إنك لا تعلم أنه سرعان ما لن يتذكرك أحد هنا، وايلد بيل. أما الآن فإننا قد جهزنا غرفة، خصيصا لك. سمها إن شئت غرفة تأمل وإعادة حسابات".

أطلق وارتون صرخة وحشية غاضبة وهو يلقي بجسده نحو بروتال، بالرغم من تلك السترة التي أحكم وثاقه داخلها، وبينما ذراعاه خلفه. فسحب بيرسي هراوته - علاج ويتمور الناجع لجميع مشاكل الحياة - بينما قبض دين على رسغ وارتون. نظر إليه بيرسي نظرة حيران، وكأنما يقول لنفسه إنه وبعد كل الذي فعله وارتون بدين فإن دين هو آخر شخص في هذا العالم يمكن أن يعمل على تهدئة وارتون.

دفع بروتال وارتون إلى الخلف، فأمسكت به، ودفعته نحو هاري. فسحبه هاري عبر الميل الأخضر، مارا على زنزانتي ديلاكروا الجذلان وكوفي جامد الشعور. هرول وارتون حتى لا يسقط على وجهه، وهو يسب ويلعن طوال تلك المسافة. يبصق وكأنه مصباح يئز منه الشرر. احتجزناه في آخر زنزانة إلى اليمين، بينما عمل دين وهاري وبيرسي (الذي ولأول مرة لم يُبدِ امتعاضا من إرغامه على الكثير من العمل) على إخراج كل الكراكيب من داخل غرفة الحبس الانفرادي. وبينما كانوا منهمكين في ذلك، خضت مع وارتون حوارا قصيرا.

"تعتقد نفسك صلدا، وربما كنت كذلك، بني، ولكن لا مكان لهذه

الصلادة هنا. فأيامك معدودة. ولو هونت الأمر علينا، فسنهون الأمر عليك. أما لو فعلت العكس، فاعلم أنك ستموت في كل الأحوال، ولكننا سنكون عندئذ قد لقناك درسا قاسيا قبل أن ترحل عن هذا العالم".

فقال وارتون بصوت كالفحيح "سيسعدكم جدا أن تروا نهايتي". كان يحاول جاهدا أن يتخلص من تلك السترة، مع أنه يعلم أن كل هذه المحاولات لن تجدي، وقد احمر وجهه كالطماطم. "وإلى أن تحين نهايتي، سأعمل على إتعاس كل لحظة تمضونها هنا". مد وجهه بأسنانه نحوي، وكأنه قرد بابون غاضب.

فقال بروتال "إن كان مبتغاك هو أن تتعس حياتنا، ففي وسعك أن تتوقف عن هذا الآن، فقد نجحت في ذلك بالفعل. ولكننا لن نلقي لك بالا حتى ولو أمضيت طيلة فترة وجودك في هذا المكان داخل هذه الغرفة ناعمة الجدران. مرتديا سترة المجانين هذه إلى أن تصاب ذراعاك بالغرغرينا لتوقف سريان الدم فيها... ولتعلم أن قليلين هم من نحتجزهم في هذه الغرفة. ولو كنت تظن أن هناك من سيقلق بشأن ما يحدث لك، فعليك أن تعيد حساباتك، لأنك واهم. فأنت بالنسبة إلى العالم مجرد... مجرم ميت".

كان وارتون يتأمل بروتال وهو يتحدث، بينما شحب وجهه. "أخرجوني من هذه السترة"، قالها بنبرة مسترضية... عاقلة... لدرجة لا يمكن معها تصديقه... "وسأحسن التصرف".

ظهر هاري عند مدخل الزنزانة، وقد بدت نهاية الممر كسوق للنثريات، ولكننا كنا عازمين على إعادة ترتيب المكان حالما ننتهي من هذا المشاغب. فعلناها من قبل؛ وسنفعلها مجددا. قال هاري "جاهزون".

جذب بروتال وارتون من سترته، من المرفق الأيمن مجبرا إياه على الوقوف على قدميه. "هيا... وايلد بيل... وانظر إلى الجانب الجيد

www.rewity.com RAYAHEEN WWW.REWITY.COM

في هذا الأمر. ستُمضي أربعا وعشرين ساعة على الأقل وحيدا، تُذكّر نفسك بأن تحسن التصرف في ما بعد".

"أخرجوني من هذه السترة". كان وارتون يحرك عينيه بيني وبين بروتال وهاري، والحمرة تعود إلى وجهه من جديد. "سأكون مطيعا؛ لقد تعلمت الدرس، أؤكد لكم. أنا... أنا... إومممممم آههههه...!".

سقط على الأرض بغتة، نصف جسده داخل الزنزانة، ونصفه الآخر خارجها؛ على أرضية الميل الأخضر، وهو يركل بقدميه، ويشب بجسده.

همس بيرسي "يا الله، إنه يدهشني بما يفعله".

انحنى بروتال ليدس يده تحت إبط وارتون. بينما رفعته أنا من الإبط الأخرى. كان وارتون بيننا أشبه بسمكة تتملص وهي خارجة للتو من الماء. حملنا جسده، ونحن نستمع إلى زمجرته من فمه وريحه من الطرف الآخر... كانت واحدة من أكثر لحظات حياتي بعثا على الاشمئزاز.

لا أدري ما الذي دفعني إلى أن أنظر ناحية زنزانة كوفي لأجده ينظر إليّ. كانت عيناه حمراوين، بينما تبللت وجنتاه بالدموع. كان يبكي مجددا. تذكرت هامر سميث وهو يبدي تلك الإيماءة بيده فارتجفت. ودفعت نفسي إلى التركيز على وارتون.

ألقينا به إلى داخل غرفة الحبس الانفرادي وكأنه شحنة بضاعة، وأخذنا ننظر إليه وهو ملقى على أرضيتها، وهو يشب بجسده داخل السترة، إلى جوار البالوعة التي كنا قد بحثنا داخلها ذات مرة عن الفأر، والذي كان وقتها يسمى ويلي ستيمبوت.

قال دين بصوته الذي لا يزال مبحوحا "لن أهتم لو أنه ابتلع لسانه ومات، ولكن علينا أن نتحاشى ذلك، لأجل التقارير الرسمية على الأقل".

فقال هاري بوجوم "لا تهتم بالتقارير، فكر في جلسات الاستماع.

فقد نفقد وظائفنا بسببه. وينتهي بنا الحال فلاحين في الميسيسيبي. وأنتم تعلمون الميسيسيبي، أليس كذلك؟ إنها تعني أحمق في لغة الهنود".

فقال بروتال "لن يموت، ولن يبتلع لسانه. وحينما نفتح الباب غدا، سيكون بخير. أعدكم".

وكان هذا ما حدث. فقد كان الشخص الذي أعدناه إلى زنزانته في التاسعة من ليل اليوم التالي هادئا، شاحبا، مؤدبا. يسير محني الرأس، من دون أي محاولة لمهاجمة أحد بعدما نزعوا عنه تلك السترة، بل بقي يحدق إليّ وأنا أؤكد له أن كل هذا سيتكرر في المرة القادمة، وأن عليه أن يفكر ألف مرة قبل أن يشاغب من جديد.

"سأحسن التصرف، رئيس. فقد تلقنت الدرس"، همس بصوت خفيض ونحن نعيده إلى الزنزانة. بينما نظر بروتال إليّ غامزا.

في وقت متأخر من اليوم التالي، ابتاع ويليام وارتون - الذي كان في نظر نفسه بيلي ذا كيد وليس ذلك الطيب الملتزم بالقوانين - بسكويت بالشوكولاته من توت توت العجوز. كان وارتون ممنوعا عن تلك الأشياء، إلا أن نوبة ظهيرة ذلك اليوم كانت تحت إشراف مؤقتين، وهكذا أمكنه عقد تلك الصفقة مع توت توت. ومن المؤكد أن توت توت نفسه يعلم أنه ممنوع من هذا، ولكنها التجارة، فالمال هو المال بالرغم من كل شيء.

في تلك الليلة، وبينما كان بروتال يتفقد العنبر، كان وارتون واقفا عند باب زنزانته. انتظر إلى أن نظر بروتال إليه، ثم لطم براحتيه على خديه المنتفخين ليلفظ سيلا من معجون الشوكولاته على وجه بروتال. كان قد اختزن كامل قطعة الشوكولاته في فمه، وحتى صارت سائلة، ثم لفظها وكأنها تبغ يمضغ.

تهاوى وارتون على فراشه وهو يصرخ ضاحكا وبقايا الشوكولاته تسيل من فمه، بينما يرفس برجليه كالمجنون. كان يشير بإصبعه نحو

WWW.REWITY.COM

بروتال الذي أغرقت الشوكولاته وجهه. "يا لك من زنجي وقح... حاضر سيدي... حاضر سيدي... إذا، هذا يليق بك؟". كان وارتون يضع يده على بطنه وهو يقهقه. "تبا... كم كنت أتمنى لو كان برازا! كم كنت أتمنى هذا! يا ليتني احتفظت بشيء منه...".

زمجر بروتال قائلا "أنت نفسك كومة من براز، واعلم أنك في طريقك الآن إلى مكانك الأثير".

ومن جديد... ألبسنا وارتون سترته المفضلة، وألقينا به داخل تلك الغرفة ذات الجدران الملساء. تركناه هذه المرة يومين. وأحيانا ما كنا نسمعه يهتاج داخلها، وأحيانا ما كنا نسمعه يعد بأنه سيكون صالحا، وأنه قد صار عاقلا، وأحيانا ما كنا نسمعه يصرخ طلبا لطبيب، وأنه يحتضر. إلا أنه بقي صامتا أغلب الأوقات. وكان صامتا حينما أخرجناه من جديد، يسير عائدا إلى زنزانته ورأسه منكس، وعيناه شاردتان، ولم يرد على هاري وهو يقول له "تذكر أنك أنت من يحدد كل شيء". سيكون صالحا لبعض الوقت، ثم يجرب حظه من جديد. ولا يوجد في ما فعله ما كان مفاجئا لنا (عدا تلك الشوكولاته بالطبع، بل إن بروتال نفسه أقر بأنها مبتكرة)، إلا أنه كان عنيدا إلى درجة مرعبة. وكنت أخشى أن يفقد أحدنا تركيزه في مرة من المرات، فندفع الثمن غاليا. وقد يدوم هذا الموقف لفترة ربما تطول، لأن لديه محاميا يسعى إلى إقناع القضاة بأنه من الخطأ أن يعدموا صبيا في مثل سنه، صبيا تصادف أنه أبيض اللون. لم يكن من المنطقي أن يشتكي أحد من هذا، فتلك هي مهمة محاميه على كل حال. ومهمتنا نحن المحافظة عليه حيا. أما الشيء المؤكد والوحيد فهو أن هذا الفتى من نصيب سباركي العجوز... مهما حاول المحامي أو لم يحاول.

6

كان ذلك هو الأسبوع الذي عادت فيه مليندا موور - زوجة الآمر - من إنديانولا. لقد فحصها الأطباء؛ وأخذوا صور أشعة إكس لذلك الورم في رأسها؛ وسجلوا الضعف في يدها والآلام التي تكاد تصيبها بالشلل، والتي تكاد تكون مستديمة الآن، وهكذا فرغوا منها. أعطوا لزوجها حفنة من أقراص المورفين، وتركوه يأخذها لتحتضر في بيتها. لم يكن من المعتاد أن يحصل أي موظف حكومي في تلك الأيام على إجازات مرضية إلا للضرورة، إلا أن هال موور لم يجد بدا من الحصول على عدد كبير منها لأجل رعاية زوجته في أيامها الأخيرة.

ذهبت وزوجتي لزيارتها بعدما عادت إلى منزلها بثلاثة أيام. كنت قد هاتفت قبلها ولم يمانع هال، قال إن مليندا في مزاج طيب وقد تسعدها رؤيتنا.

"كم أمقت مثل هذه الزيارات"، قلت لجانيس وأنا أقود السيارة إلى ذلك المنزل الصغير حيث أمضى الزوجان موور معظم أيام حياتهما كزوجين.

ربتت على يدي وهي تقول "هكذا هو حال الجميع، عزيزي... وسنحتملها، وهي كذلك ستحتملها".

"أتمنى هذا".

وجدنا مليندا تجلس في حجرة الجلوس، تحت أشعة شمس دافئة غير معتادة في تلك الأيام من أكتوبر، وأول ما لاحظته مصدوما هو أنها قد فقدت ما بدا لي أنه قرابة التسعين رطلا من وزنها. وهي لم تفقد كل هذا الوزن بالطبع، فلو كان هذا ما حدث لما كانت حية على الإطلاق؛

WWW.REWITY.COM

إلا أن ذلك كان رد فعلي الأولي لما سقطت عليه عيناي. هزل وجهها حتى ظهرت معالم جمجمتها، وصارت بشرتها أشبه بالورق المفضض. هالات سوداء تحت عينيها. كانت المرة الاولى التي أراها فيها داخل الكرسي الهزاز حينما لا تكون بين يديها أدوات الحياكة والتطريز وقطع السجاد الصغيرة. كانت تجلس هناك وحسب. وكأنها راكب ينتظر القطار في محطة.

هتفت زوجتي بنبرة دافئة "ملينداً". أعتقد أن صدمتها لم تكن أقل من صدمتي؛ هذا إن لم تكن أشد، إلا أنها برعت في إخفاء ذلك، كحال العديد من النساء. اقتربت من ملينداً، وجثت على ركبتها جوار الكرسي الهزاز الذي تجلس عليه زوجة الآمر، وتناولت إحدى يديها. وعندها سقطت عيناي على سجادة المدفأة الزرقاء. خطر لي أن هذا المكان لم يعد سوى نسخة جديدة من الميل الأخضر.

قالت جانيس "أحضرت لك بعض الشاي، من النوع الذي أتناول منه أنا. إنه نوع جيد من الشاي. تركته هناك في المطبخ".

قالت ملينداً "أشكرك جزيلا، عزيزتي". أتى صوتها واهنا مبحوحا.

سألتها زوجتي "كيف حالك، عزيزتي؟".

لم تتغير نبرتها المبحوحة وهي تقول "أفضل. لست بتلك الحالة التي تمكنني من الذهاب إلى حفلة راقصة، ولكنني لا أعاني على الأقل من أي ألم اليوم. أعطوني بضعة أقراص لذلك الصداع. وهي أحيانا ما تكون ناجعة".

"هذا أمر جيد، أليس كذلك؟".

"لكنني لم أعد أتحكم بيدي كالسابق... شيء ما حل بها". رفعتها، ونظرت إليها كأنما تراها للمرة الأولى، ثم أسكنتها حجرها. "شيء ما حل بها... بل حل بي". بدأت تبكي بلا صوت. لحظتها تذكرت

بكاء جون كوفي. ولا أدري لماذا بدأت الكلمات التي قالها لي تتردد أصداؤها في عقلي من جديد "ساعدتك، ألم أساعدك؟"... "ساعدتك، ألم أساعدك؟"، وكأنها دندنة لا يمكنني سوى أن أدندن بها.

ثم جاء هال. طوق عنقي وهو يرحب بي مصطحبا إياي إلى الداخل، وكم كنت مرتاحا لهذا. دلفنا إلى المطبخ، وصب لي بعضا من الشراب الاسكتلندي، كان من نوع ريفي جيد غير معتق. لامسنا كأسينا ثم جرعنا الشراب. أنعشني الشراب الذي سرى حتى معدتي. ومع هذا، فقد رفضت أن أتناول المزيد حينما عرض عليّ موور ذلك. كان وايلد بيل وارتون قد بارح غرفة الحبس الانفرادي وقتئذ، وليس من الحكمة أن أكون بالقرب منه بعقل غيبه الشراب. حتى ولو كان محبوسا في زنزانة.

قال لي بصوت خفيض "لا أدري إلى أي مدى سيمكنني احتمال هذا، بول. هناك فتاة تأتي صباحا لرعايتها معي، إلا أن الأطباء يقولون إنها ستفقد مع الوقت سيطرتها على جسدها، ومخارج الفضلات، و... و...".

كان يحاول جهده ألا يبكي أمامي... فسكت.

فقلت له "أطلق لمشاعرك العنان". مددت يدي أضغط على كفه المنمشة مشجّعا إياه. "قم بما تقدر عليه واترك الباقي لله. ليس في يدك سوى ذلك، أليس كذلك؟".

"أعتقد هذا. إلا أن الأمر صعب، بول. وإنني لأدعو الله ألا تتعرض لمثل هذا الموقف".

حاول أن يستعيد رباطة جأشه.

"والآن أخبرني بما يجري. ما أخباركم مع ويليام وارتون؟ وكيف تتعاملون مع بيرسي ويتمور؟".

تحدثنا في شؤون العمل لبعض الوقت، وحتى استأذنا للانصراف.

WWW.REWITY.COM

وطيلة الطريق إلى منزلنا - والذي لم تتفوه خلاله زوجتي بكلمة، وقد اغرورقت عيناها بالدموع - كانت كلمات كوفي تجول في عقلي وكأنها فأر ديلاكروا داخل زنزانته "ساعدتك، ألم أساعدك؟".

قالت زوجتي "هذا مريع. وليس بيد أحد أي شيء".

أومأت موافقا وأنا أفكّر... "ساعدتك، ألم أساعدك؟". إلا أن هذا جنون، وحاولت جهدي أن أطرده عن عقلي.

بينما توقفنا عند باحة المنزل، تكلمت للمرة الثانية؛ ليس عن صديقتها الأثيرة ملينداء، ولكن بشأن تلك العدوى في مجرى البول. كانت تريد أن تتأكد مما إذا كانت قد اختفت بالفعل أم لا. فأخبرتها أنها ذهبت بالفعل.

"إذا، لا بأس بهذا"، قبلتني فوق حاجبي، واقشعر جسدي.

"ربما وجدت في نفسك الرغبة والاستعداد لبعض المرح".

كان لديّ الكثير من الرغبة، وما يكفي من الاستعداد، فتناولت يدها أقودها إلى غرفة النوم الخلفية، وخلعت عنها ملابسها، بينما هي تداعبني... تذكرت جون كوفي، وهو يقول تلك الكلمات لي... "ساعدتك، ألم أساعدك؟" وكأنها بوادر لحن لن يفارق عقل الملحن حتى يحوله إلى أغنية كاملة ومسموعة.

في ما بعد، وبينما كنت أقود السيارة إلى السجن، كنت أقول لنفسي إنه سرعان ما سيكون علينا إجراء تجربة إعدام ديلاكروا. وقادتني تلك الأفكار إلى القلق بشأن تعامل بيرسي مع ذلك التنفيذ حينئذ، وعندها جفلت فزعا. طمأنت نفسي بأن أترك الأمور تسير، وأنها ليست سوى عملية إعدام وحيدة ومن بعدها نتخلص من بيرسي ويتمور إلى الأبد... إلا أن الفزع لم يفارقني، وكأنما لم تذهب تلك العدوى على الإطلاق، ولكنها غيرت من مكمنها... وبدلا من أن تحرق أريبتي، صارت تجمد عزيمتي.

7

"هيا بنا. ستتمشى قليلا. أنت وأنا والسيد جينغلز". قالها بروتال لديلاكروا في الأمسية التالية.

نظر إليه ديلاكروا متشككا، ثم أخرج الفأر من صندوق السيجار. ووضعه على راحة يده، ونظر إلى بروتال بعينين ضيقتين.

سأله "ما الذي تتحدث عنه؟".

فقال دين، بعدما التحق بهاري وبروتال "إنها ليلتك الكبيرة... أنت والسيد جينغلز". كانت آثار السحجات حول عنق دين قد استحالت إلى لون أصفر قميء، إلا أنه صار يتكلم الآن من دون تلك البحة التي تذكرنا بنباح كلب يهاجم قطا. نظر إلى بروتال "أتعتقد أنه علينا أن نكبله بالأصفاد، بروت؟".

قدر بروتال الموقف قبل أن يقول "كلا. فسيُحسن التصرف، أليس كذلك، ديل؟ أنت والفأر. قلنا لك إنها ليلتكما الكبيرة".

كنت وبيرسي نقف بجوار مكتب المناوب، نراقب الموقف، بينما عقد بيرسي ذراعيه أمام صدره وابتسامة ازدراء تعلو شفتيه. وبعد قليل، أخرج مشطه ليصفف شعره. كان جون كوفي يراقب بدوره، واقفا بصمت عند قضبان زنزانته. أما وارتون فرقد على فراشه، يحدق إلى السقف متجاهلا كل ما يجري من حوله. لم يبدر منه حتى الآن أي تصرف مشاغب. مع أن الأطباء في بريار ريدج حذرونا من أنه يعاني من نوبات إغماء تخشبي. وكان هناك شخص آخر. موجود داخل مكتبي بعيدا عن الأعين، إلا أن ظله النحيف بادٍ عند الباب ساقطا على أرضية الميل الأخضر.

WWW.REWITY.COM

تشكى ديل متسائلا "ما الذي يجري؟ أجيبوني؟". وضع قدما على الفراش بينما فتح بروتال القفلين في باب زنزانته، ثم فتح الباب. كانت عيناه تتحركان بسرعة بين الثلاثة.

فقال بروتال "سأصارحك. إن السيد موور في إجازة؛ زوجته متعبة، كما قد تكون عرفت. والسيد أندرسن هو المسؤول الآن، السيد كيرتيس أندرسن".

"وما علاقة هذا بي أنا؟".

فقال هاري "لقد سمع السيد أندرسن عن فأرك، ديل، وهو يريد أن يرى حركاته. هو وستة رفاق هناك في المبنى الإداري، ينتظرون حضورك. منهم مدنيون أيضا. إنها ليلة كبيرة، كما قال لك بروت. وواحد منهم - على حدّ علمي - سياسي من عاصمة الولاية".

عندها انتفخت أوداج ديلاكروا، وتبدد كل شك لديه، أو هكذا رأيت. فمن هو ذا الذي لا يريد أن يرى السيد جينغلز؟

أخذ يبحث عن شيء ما، أسفل الفراش ثم أسفل الوسادة. حتى عثر في النهاية على واحدة من حبات النعناع وبكرة الخيط فاقعة الألوان. ثم نظر إلى بروتال متسائلا، فأومأ له بروتال ألا بأس.

"طبعا... فهذه هي أدوات الحيل الأكثر غرابة، كما أن الطريقة التي يأكل بها حبات النعناع طريفة بالفعل. ولا تنسَ صندوق السيجار. فسينتظر لتعيده داخله، أليس كذلك؟".

تناول ديلاكروا الصندوق، ووضع أدوات السيد جينغلز داخله، بينما بقي الفأر قابعا على كتف قميصه. خرج من زنزانته، وأخذ يمشي متفاخرا، ونظر إلى دين وهاري قائلا "ألن تأتيا معنا؟".

فقال دين "كلا... لدينا ما نهتم به. ولكن عليك أن تخلب ألبابهم، ديل؛ بيّن لهم ما يمكن لابن لويزيانا أن يفعله طالما اعتزم فعله".

"لا تقلق". تبدت ابتسامة على وجهه، ابتسامة مفاجئة وبسيطة

بسعادتها، حتى انقبض قلبي لأجله قليلا، بالرغم من جريمته البشعة التي ارتكبها. يا له من عالم نعيش فيه... بئس هذا العالم!

التفت ديلاكروا إلى جون كوفي، والذي كان مع مرور الأيام قد عقد معه صداقة مختلفة، لا تختلف كثيرا عن تلك التي شاهدتها تنعقد مئات المرات هنا بين رفاق عنبر الموت.

فقال كوفي مكررا كلمات دين، وإن كانت النبرة جادة "عليك أن تخلب ألبابهم، ديل، أرهم كل الحركات".

أطرق ديلاكروا وهو يسند يده إلى كتفه. فانتقل الفأر إليها وكأنها رصيف، بعدما مد ديلاكروا الذراع نحو زنزانة كوفي. مد جون كوفي إصبعا ضخما نحوه، وأكاد أقسم إنني رأيت ذلك الفأر وهو يمد عنقه ليلعق طرف الإصبع، تماما كالكلب.

فقال بروتال "كفاك، ديل، فالرفاق قد جهزوا عشاء ساخنا هناك حتى يشاهدوا حركات فأرك". لم يكن ذلك صحيحا، فأندرسن موجود هناك حتى الثامنة من كل يوم، أما الحراس الذين أحضرهم لمشاهدة استعراض ديلاكروا فهم باقون حتى الحادية أو الثانية عشرة، حتى تنقضي ورديتهم. أما السياسي القادم من عاصمة الولاية فالأغلب أنه سيكون في الحقيقة حاجبا وقد استعار ربطة العنق التي يضعها. من أين لديلاكروا أن يعلم أيا من ذلك.

قال ديلاكروا "أنا جاهز". كان يتحدث ببساطة كنجم كبير يستعيد بريقه. "هيا بنا". وبينما قاده بروتال عبر الميل الأخضر بصحبة السيد جينغلز القابع فوق كتف الرجل ضئيل الحجم، بدأ ديلاكروا يصيح من جديد، بالفرنسية هذه المرة "سيداتي سادتي! يسعدني أن أقدم لكم فأر السيرك!". ومع أنه كان غارقا في عالم الفانتازيا الذي يهيّئ نفسه لدخوله، إلا أنه لم ينسَ أن يتنحى بعيدا عن بيرسي وهو يرمقه مرتابا.

وقف هاري ودين أمام زنزانة خالية قبالة زنزانة وراتون (والذي

www.rewity.com RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

لم يفقد بعد جاذبية مراقبته). بقيا يراقبان بينما فتح بروتال الباب المفضي إلى ساحة التمارين، حيث كان بانتظاره حارسان آخران، فأخرج ديلاكروا، الذي بقي متقمصا دور الاستعراضي. انتظرنا حتى انغلق الباب من جديد، بعدها نظرت نحو مكتبي. لا زال الظل على الأرضية، بالغ الرقة، وأسعدني أن ديلاكروا كان أشد ابتهاجا من أن يراه.

قلت "هيا بنا يا رفاق. ولنسرع في خطواتنا. أود أن أجري تجربتين، وليس لدينا الكثير من الوقت".

عندها ظهر توت توت العجوز... كما هو بشحمه وعظامه... وخطا نحو زنزانة ديلاكروا، ودلف عبر بابها المفتوح. "أنا أجلس... أنا أجلس... أنا أجلس".

هذا هو السيرك الحقيقي، فكرت وأنا أغمض عينيّ للحظة. هنا السيرك الحقيقي، ولسنا في الحقيقة سوى عصبة من الفئران المدربة. سرعان ما نحيت الفكرة عن رأسي... وبدأنا التجربة.

8

سارت أول تجربة على نحو طيب، وكذلك كانت الثانية. فقد قام بيرسي بدوره على نحو أفضل مما تمنيته في أغرب أحلامي. وأنا لا أعني بهذا أن الأمور ستسير على نحوها الصحيح حينما يحين الموعد الحقيقي لإعدام ذلك الفرنسي، إلا أنها كانت خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح. وخطر لي أن التجربة قد نجحت لأن بيرسي صار أخيرا يقوم بشيء يهتم به. شعرت برضا كبير، لكنني لم أجعله يستغرقني. ما هي أهمية ذلك؟ فسرعان ما سيشرف على خطوات إعدام ديلاكروا، وبعدها تنتهي علاقة هذا المكان بالاثنين. وإن لم تكن هذه بالنهاية السعيدة؟ فما تكون؟ بالإضافة إلى أن عملية إعدام ديلاكروا ستتم في كل الأحوال، أيا كانت هوية من سيشرف عليها، هكذا ألمح لي موور.

مع هذا، فقد أبدى بيرسي كفاءة في دوره الجديد، وكان يدرك ذلك. كلنا أدركنا ذلك. أما بالنسبة إليّ، فقد كنت مرتاحا لكراهيتي له في كل الأحوال. بدا لي أن كل شيء سيجري على ما يرام. فقد طمأنني أن بيرسي ينصت متى ما اقترحنا شيئا في وسعه أن يفعله فيحسن من أدائه، أو يقلل على الأقل من احتمال حدوث أي خطأ. ولو أردت الصراحة، لقلت لك إننا صرنا متحمسين لتولّيه هذه المهمة - بما فينا دين، والذي لا يعجبه في العادة أي شيء يفعله بيرسي - سواء أكان معنويا أو ماديا. لم يكن في أي من هذا ما يفاجئنا، فأنا أعتقد أن أغلب الرجال يسعدهم أن ينصت أي شاب إلى نصائحهم، ونحن في هذا لا نختلف عن غيرنا. ونتيجة لذلك، لم يلاحظ أي منا أن وايلد بيل وارتون لم يعد ينظر إلى السقف. أنا بدوري لم ألاحظ ذلك، إلا أنني كنت أعلم أنه لم يعد ينظر

WWW.REWITY.COM

إليه. بل كان ينظر إلينا، ونحن نقف هناك عند مكتب المناوب، نلقي بنصائحنا على مسامع بيرسي. نتصحه! بينما يتظاهر هو بالإنصات! يا لسخرية القدر، بالنظر إلى ما سيحدث في ما بعد!

سكتنا عن حديث ما بعد التجربة ما إن سمعنا صوت المفاتيح عند قفل الباب المفضي إلى ساحة التمارين. بينما حدج دين بيرسي بنظرة محذرة. "لا تتفوه بكلمة أو تنظر إليه بنظرة تفصح عما نعده له. لا نريده أن يعلم. ليس هذا في صالحه. ليس هذا في صالحه أبدا".

أومأ بيرسي برأسه وهو يمرر إصبعا على شفتيه بحركة أرادها مضحكة إلا أنها لم تكن كذلك في نظرنا. انفتح باب ساحة التمارين ودلف منه ديلاكروا، برفقة بروتال، الذي كان يحمل صندوق السيجار مع البكرة الملونة، وكأنه مساعد الساحر في استعراض مسرحية هزلية، يحمل له أدوات الكواليس بعد نهاية المشهد. بينما السيد جينغلز كان قابعا على كتف ديلاكروا. وماذا عن ديلاكروا نفسه؟ أقول لك بأن ليلي لانجتري لم تكن لتبدو أكثر منه توهجا بعد أداءٍ داخل البيت الأبيض. "إنهم يحبون السيد جينغلز!".

كان ديلاكروا مبتهجا. "لقد ضحكوا وهتفوا وصفقوا!".

فقال بيرسي "هذا طريف بالفعل". كانت نبرة صوته متعاطفة ولا تمت بصلة إلى بيرسي الذي نعرفه. "هيا إلى زنزانتك الآن، أيها العجوز".

نظر إليه ديلاكروا نظرة ارتياب مضحكة، فاندفع بيرسي نحوه. أظهر أسنانه متظاهرا بالغضب وكأنه سيمسك بتلابيب ديلاكروا. بالطبع كان يمزح، فقد كان بيرسي سعيدا، وليس في مزاج متعكر على الإطلاق، إلا أن ديلاكروا لم يكن يعي هذا. فقد جفل مبتعدا عنه وقد ارتسم الخوف والفزع على وجهه، فتعثر بقدم بروتال الكبيرة وسقط أرضا ليرتطم الجزء الخلفي من رأسه بالأرضية. بينما قفز السيد جينغلز في

الوقت المناسب فتفادى أن ينسحق جسده، وأسرع نحو زنزانة ديلاكروا عبر الميل الأخضر.

نهض ديلاكروا على قدميه، وهو يرمق بيرسي الساخر بنظرة مقت، ثم أسرع الخطى وراء فأره، يناديه وهو يتحسس الجزء الخلفي من رأسه. بينما نظر بروتال (الذي لم يكن يعلم تلك الكفاءة التي أبداها بيرسي) إلى بيرسي نظرة أغنت عن ألف كلمة. قبل أن يهرول وراء ديل، وصوت المفاتيح يلحق به.

أظن أن ما حدث بعدها قد حدث لأن بيرسي كان في الحقيقة مدفوعا لأن يعتذر؛ أعلم أنه من الصعب عليك تصديق ذلك، إلا أنه كان مزاجه ذلك اليوم غير عادي. ولو صح هذا، فإنه ليس سوى تصديق لقول ساخر مأثور سمعته ذات مرة، قول يتحدث عن أن لا صنيع يمضي بلا عقاب. أتذكر حين رويت لك عن كيف أنه، وبعدما طارد الفأر حتى غرفة الحبس الانفرادي في واحدة من تلك المناسبات قبل أن يلتحق بنا ديلاكروا، كان قد اقترب من زنزانة الرئيس؟ كان تصرّفا خطيرا، ولهذا السبب يتسع الميل الأخضر جدا حينما تسير في منتصفه، فلا يمكن أن يمسك بك أحد من داخل الزنزانة. لم يفعل الرئيس أي شيء لبيرسي، إلا أنني أتذكر أنه قد خطر لي أن آرلن بيتربك قد فعل شيئا معه، ولولا ذلك لكان بيرسي قد اقترب بشدة منه. ولو لمجرد أن يلقنه درسا ليس إلا.

الآن وقد رحل كل من الرئيس والزعيم، فإن وايلد بيل وارتون هو من قام مقامهما. وهو أسوأ سلوكا بكثير من الرئيس والزعيم مجتمعين، وقد كان يراقب كل ما يجري أمامه، بانتظار الفرصة الملائمة ليخطف بدوره كل الأضواء. وقد جاءته الفرصة على طبق من فضة، بفضل بيرسي ويتمور.

"انتظر، ديل"، كان بيرسي يهتف شبه ضاحك، وهو ينظر إلى بروتال

WWW.REWITY.COM

وديلاكروا وجسده يقترب كثيرا من زنـزانة وارتون، إلا أنه لم يكن منتبها إلى ذلك "أنت أيها الغبي، لم أكن أقصد الإساءة! هل أنت علـ...".

فـي غمضـة عيـن، كان وارتـون قـد نهـض عـن فراشـه وصار عند القضبان. لم أرَ طيلة حياتي شـخصا يتحرك بهذه السـرعة، بما في ذلك بعض الرياضيين الذين تعاملت معهم أنا وبروتال في الإصلاحية في ما بعد. مد ذراعه كالسـهم عبر القضبان وقبض على بيرسـي، أمسـكه أولا من كتف زيه النظامي، ثم من عنقه. سـحبه وارتون نحو باب الزنـزانة. بينما كان بيرسي يصرخ بحدة كحيوان يساق إلى الذبح، ورأيت في عينيه نظرة من هو متيقن من الموت.

همس وارتون في أذنه "يا لك من جميل". تركت يده عنقه لتعبث في شعره. "ناعم"، قالها نصف ضاحك. ثم قبل أذن بيرسي.

أعتقد أن بيرسي - والذي كان كما قد تتذكر قد ضرب ديلاكروا ضربـا مبرحـا لمجـرد أنـه لامـس عضـوه سـهوا - كان يعـرف تمامـا مـا سـيحدث لـه. وأشـك فـي أنـه كان يريـد هـذا، إلا أنـه كان يعـرف. كان وجهـه قـد شـحب تمامـا، بينمـا برزت وجنتاه كعلامتي ولادة. واتسـعت عيناه واغرورقت بالدموع. بينما سال اللعاب من أحد جانبي فمه. حدث كل ذلك بسرعة؛ ربما أقل من عشر ثوانٍ.

بادرت أنا وهاري نحوهما. بينما سـحب دين مسدسـه. لكن وقبل أن تتدهـور الأمـور، تـرك وارتـون بيرسـي وتراجع إلى الوراء، وهو يرفع كفيه إلى كتفيه ويبتسم تلك الابتسامة القميئة. "ها قد تركته، كنت أمازحه فقط، وقد تركته... لم أؤذِ أي شـعرة فيه، فلا تفكروا في سـحبي إلى تلك الغرفة الناعمة اللعينة من جديد".

سارع بيرسي ويتمور بالابتعاد عبر الميل الأخضر حتى لاذ بقضبان إحدى الزنـزانات الخالية في الجانب الآخر، وهو يتنفس بسـرعة وقوة حتى أن صوت أنفاسه بدا كالنحيب. لقد تلقن في النهاية درسا علمه ألا

يبتعد عن منتصف الميل الأخضر وأن يظل بعيدا عن مثل هذا الحيوان، بعيدا عن الأسنان التي تعض والمخالب التي تمسك. رأيت أنه درس لن ينساه لفترة أطول من تلك النصائح التي أسديناها إليه بعد التجربتين.

ارتسم على وجهه الهلع، بينما صار شعره الذي يعتز به أشعث للمرة الأولى منذ أن التقيته. بدا وكأنه شخص نجا للتو من الاغتصاب.

خيم الصمت للحظات، حتى إن الصوت الوحيد الذي كان يُسمع هو صوت أنفاس بيرسي المنتحبة. أما ما كسر حاجز الصمت ذاك فكانت ضحكات... ضحكات مفاجئة ومجنونة لدرجة صادمة. ظننت أن وارتون هو من يضحك. ولكنه كان ديلاكروا، الواقف عند باب الزنـزانة المفتوح، وهو يشـير بيده نحو بيرسـي. كان الفأر قد عاد إلى كتفه، فبدا ديلاكروا كساحر شرير ضئيل الحجم.

صاح ديلاكروا "انظروا إليه، لقد بال في سرواله! انظروا إلى الرجل الكبير! إنه يتبجح ويتحامق، وما إن يمسه أحد، حتى يتبول في سرواله كالطفل!".

أخذ يضحك وهو يشير إليه، وقد نفث كل مخاوفه ومقته في تلك الضحكات الساخرة. حدق إليه بيرسي، وهو عاجز عن الحركة أو الكلام. بينما تقدم وارتون عائدا إلى قضبان زنـزانته، وهو يحدق إلى تلك البقعة التي بدأت تتكون على مقدمة سـروال بيرسـي - كانت صغيرة إلا أنها ظاهرة، ولا جدال في ماهيتها - وقال ضاحكا "على أحدكم أن يسارع بشـراء حفّـاض لهـذا الطفـل"، قالهـا وعـاد إلـى فراشـه، وهو يعمل على ألا يضحك.

عـاد بروتـال إلـى زنـزانـة ديلاكروا، ولكن الفرنسـي كان قد اندس في فراشه قبل أن يصل إليه بروتال.

بينما وضعت يدي على كتف بيرسي. "بيرسي..."، لكنني لم أستطع إتمام كلامي. فقد دبت فيه الحياة من جديد، عندما أزاح يدي عنه. نظر

WWW.REWITY.COM

إلى مقدمة سرواله، وهو يرى البقعة تتسع، فاحمر وجهه خجلا. عاد ينظر إليّ من جديد، ثم إلى هاري ودين. أتذكر أنني كنت سعيدا لأن توت توت لم يكن موجودا. فلو أنه كان موجودا لانتشر خبر بيرسي في السجن كله قبل أن يمر يوم واحد. وبالنظر إلى الاسم الأخير لبيرسي - وكان لسوء حظه أفضل وصف لما حل به - فقد كان من الممكن ألا تذهب نادرة كهذه طي النسيان قبل مرور سنوات.

"لو تحدث أحدكم عن هذا الذي حدث مع أي شخص، فسيفقد وظيفته بأسرع مما يتصور"، كان يهمس بضراوة. كان تهديدا من النوع الذي يمكن أن يدفعني لصفعه على وجهه، لولا اختلاف الظروف، أما في هذا الظرف، فلم يسعني سوى أن أشفق عليه. وأعتقد أنه قد لاحظ تلك الشفقة، وهو ما زاد مشاعره إحباطا؛ وكأن أحدهم يحشو هذا الجرح المفتوح بشوك الصبار.

فقال دين بهدوء "ما يحدث هنا لا يخرج من هنا. لا تقلق".

التفت بيرسي نحو زنزانة ديلاكروا. وكان بروتال قد أغلق بابها للتو، بينما تنطلق ضحكاته في الداخل، واضحة، قاسية. كانت نظرة بيرسي قاتمة. خطر لي أن أخبره بأنه قد حصد ما زرعه في هذه الحياة، إلا أنني رأيت أن الوقت غير مناسب لمثل هذه الدروس.

"أما بالنسبة إلى هذا..."، لكنه سكت ولم يكمل كلامه. وغادر المكان نحو غرفة التخزين، ليبحث عن سروال جاف... وهو منكس الرأس.

"يا له من لين رقيق"، قالها وارتون بصوت حالم. فأمره هاري بأن يخرس وإلا سحبه إلى غرفة الحبس الانفرادي. فعقد وارتون ذراعيه أمام صدره، مغلقا عينيه، وبدا أنه سيغطّ في النوم.

9

كانت الليلة السابقة على تنفيذ حكم الإعدام على ديلاكروا من أشد الليالي حرارة؛ فقد بلغت درجة الحرارة واحدا وثمانين درجة بحسب الترمومتر المعلق خارج نافذة المبنى الإداري حينما دلفت عند الساعة السادسة. تذكر أننا في نهايات أكتوبر، ودرجة الحرارة هذه أمر نادر الحدوث، بينما يقصف الرعد في الغرب نشعر نحن هنا وكأننا في يوليو. كنت قد التقيت أحد أعضاء طائفتي الأبرشية في البلدة تلك الظهيرة، وسألني - بجدية واضحة - عما إذا كنت أعتقد أن مثل هذا الطقس غير المعقول من علامات الساعة. فقلت من المؤكد أنه ليس من بين علامات الساعة، إلا أنني تذكرت أنها بالفعل آخر ساعات إدوارد ديلاكروا... بالفعل هي هكذا. بالتأكيد هي هكذا.

كان بيل دودج يقف عند باب ساحة التمارين، يرتشف القهوة ويدخن سيجارة. التفت إليّ قائلا "انظروا إليه. بول إيدجكومب. عجوز وقبيح كالحياة".

"كيف يومك، بيلي؟".

"لا بأس".

"ديلاكروا؟".

"بخير. يبدو لي أنه يفهم أن موعده هو الغد، ولكنه لا يهتم. تعلم حال أغلبهم حينما تقترب النهاية".

أومأت متفهما. "وارتون؟".

فضحك بيل. "يا له من كوميدي. إنه أخف دما من جاك بيني".

WWW.REWITY.COM

ضحكت، ضحكت بصوت عالٍ وبشدة. وكان من الجيد أن يتمكن المرء من الضحك من دون أن يعاني من تلك الآلام المبرحة في أربيته. شاركني بيل الضحك، ثم سكب ما تبقى من قهوة في الساحة، والتي كانت فارغة إلا من بعض السجناء الموثوق بهم، والذين طالت إقامتهم هنا حتى صاروا هم أنفسهم من معالم السجن.

كان الرعد لا يزال يقصف في الأجواء في مكان بعيد من هنا، يتخلله وميض البرق الذي ينير سماء معتمة فوقنا. لم يبدُ لي بيل مرتاحا، وقد تلاشت ضحكاته.

قال "إنني لا أحب مثل هذه الأجواء. تبدو نذير أمر جلل سيحدث. أمر سيِّئ".

كان محقا... فقد حدث الأمر الجلل عند العاشرة والربع من تلك الليلة... لحظة أن قتل بيرسي السيد جينغلز.

10

ظنناها في البداية ليلة هادئة بالرغم من حرارتها؛ فقد كان جون كوفي هادئا كعادته، ووايلد بيل يحافظ على صورته الجديدة، بينما كانت روح ديلاكروا المعنوية مرتفعة بالنظر إلى شخص لا يفصله عن لقاء شاركي العجوز سوى أقل من أربع وعشرين ساعة.

كان يعرف يقينا ما سيجري معه، أو الأساسيات على الأقل؛ وقد طلب أن تكون وجبته الأخيرة بالبهارات الحارة، وزودني بتعليمات خاصة للمطبخ. "قل لهم أن يضعوا تلك الصلصة الحارة. وأكد عليهم أن تكون حارة جدا، وليست من ذلك النوع المائع. ومع أن تلك الصلصة الحارة تتعبني وتمنعني عن دخول الحمام، إلا أنني لا أعتقد أنني سأعاني بعد هذه الوجبة، أليس كذلك؟". سألني السؤال بالفرنسية.

يقلق معظمهم بشأن أرواحهم...، ولكن ديلاكروا رفض الإجابة عن أسئلتي المتعلقة برغباته بما يتعلق بجلسة الطمأنة الروحانية في ساعاته الأخيرة. فلو كان صاحبنا تشستر جيدا بالنسبة إلى الزعيم بيتربك - كان هذا رأي ديل - فسيكون كذلك معه. وقد تكون خمنت ما يهتم به فعليا في تلك الساعات، ألا وهو مصير السيد جينغلز من بعده. وكنت قد اعتدت على تمضية الساعات الطوال مع من سينفذ فيه حكم الإعدام في الليلة السابقة على التنفيذ، ولكنها كانت المرة الأولى التي أمضي فيها الساعات الطوال وأنا أفكّر في مصير فأر.

كان ديل يفكر في السيناريو تلو الآخر، يفكر في الاحتمالات بصبر عقل شارد. وبينما كان يفكر بصوت عالٍ، وهو يريد أن يضمن لفأره الأثير مستقبله، كما لو أنه طفل لزام عليه أن يلتحق بالكلية، كان

www.rewity.com RAYAHEEN WWW.REWITY.COM

يرمي تلك البكرة الملونة نحو الحائط. وكلما فعل ذلك، كان السيد جينغلز يقفز وراءها، يتعقبها، وبعد ذلك يدحرجها إلى جانب قدم ديل. بدأت تلك الحركة الرتيبة تثير أعصابي بعد فترة قصيرة؛ صوت ارتطام البكرة بالحائط الحجري، ثم الصوت الدقيق لمخالب السيد جينغلز فوق الأرضية. وبالرغم من أنها كانت خدعة لطيفة، إلا أنها لم تعد كذلك بعد قرابة التسعين دقيقة. ولم يبدُ التعب على السيد جينغلز. ولكنه كان يتوقف بين الحين والآخر لإنعاش نفسه بشربة ماء من صحن قهوة ديلاكروا الذي كان يبقيه لذلك الغرض، أو لمضغ فتات وردي من حلوى النعناع، وبعد ذلك يعود إلى لهوه. كدت عدة مرات أطلب من ديلاكروا أن يتوقف، وفي كل مرة أذكر نفسي بأنه لم يعد لديه سوى هذه الليلة ونهار الغد للّعب بالبكرة مع السيد جينغلز، ومن بعدها... لا شيء. ومع اقتراب النهاية، أصبح من الصعب جدا التمسك بهذه الفكرة؛ لا شك في أنك تعرف ما أقصده، مع تلك الضوضاء المتكررة مرارا وتكرارا. إنها تنهش أعصابك بعد فترة من الوقت. لذا هممت بأن أكلمه، إلا أن أي شيء أفضل من الخروج من الزنزانة. كان جون كوفي يقف عند باب زنزانته في الجهة المقابلة، وأومأ إليّ برأسه يمينا، يسارا، وعودة إلى المركز. كما لو أنه يقرأ أفكاري ويطلب مني معاودة التفكير.

كنت أرى أن يؤول السيد جينغلز إلى عمة ديلاكروا، تلك التي أرسلت إليه كيسا كبيرا من الحلوى. ومعه تذهب البكرة الملونة، بل وبيت الفأر؛ يمكننا أن نتوقع ألا يطالب توت توت به على الأقل. إلا أن ديلاكروا رفض بعد تفكير (بعدما ألقى بالبكرة نحو الجدار لخمس مرات، وفي كل مرة يعيدها الفأر إما بأنفه أو بمخالبه)، رأى أن هذا لن يجدي. فالعمة هيرموان عجوز جدا، ولن يمكنها أن تفهم حركات السيد جينغلز، وماذا لو بقي السيد جينغلز بعد موتها؟ ما الذي سيحدث له حينها؟ كلا، كلا، فلن تجدي العمة هيرموان نفعا.

عندها تساءلت، ماذا لو أخذه أحدنا؟ نحن الحراس؟ يمكننا إبقاؤه هنا في العنبر (هـ). إلا أن ديلاكروا رفض شاكرا إياي على تعاطفي معه، إلا أن السيد جينغلز كان فأرا يتوق إلى الحرية. وهو - إدوارد ديلاكروا - يعلم هذا، لأن السيد جينغلز - كما قد تكون خمنت - كان قد همس له بهذه الحقيقة من قبل.

فقلت "حسنا، سيصطحبه أحدنا إلى منزله، ديل. وربما كان دين. فلديه صبي صغير سيحب هذا الفأر، كثيرا".

إلا أنني وجدت وجه ديلاكروا يرتعد من هذه الفكرة. صبي صغير يكون مسؤولا عن عبقري كالسيد جينغلز؟ كيف يمكنك أن تتوقع أن يعمل الصبي الصغير على تمرينه، ودعك من تعليمه حيلا جديدة؟ وماذا لو فقد الصبي اهتمامه، ونسي أن يطعمه ليومين أو ثلاثة؟ ديلاكروا... الذي أحرق ستة أشخاص أحياء لمجرد أن يخفي جريمته الأصلية... يرتعد هلعا واشمئزازا من فكرة كهذه.

عندها قلت له إنني سأحتفظ به (تذكر أنه عليك أن تعدهم بأي شيء؛ خلال الثماني والأربعين ساعة الأخيرة، عدهم بأي شيء). وكيف لي أن أفعل ذلك؟

فقال ديل معتذرا "كلا، سيدي إيدجكومب". ثم ألقى بالبكرة من جديد. فارتطمت بالجدار، وارتدت، تتدحرج؛ وسرعان ما كان السيد جينغلز يدحرجها من جديد بأنفه إلى ديلاكروا.

"أشكرك جدا - ميرسي بوكو - إلا أنك تعيش في الغابة، والسيد جينغلز، أنا أعلم أن السيد جينغلز يخاف العيش في تلك الأماكن. لأنه...".

"في وسعي تخمين كيفية معرفتك بذلك، ديل".

فأطرق ديل برأسه مبتسما. "ولكننا سنتوصل إلى حل. أعدك!". ثم ألقى بالبكرة. وطار الفأر وراءها. أما أنا فحاولت ألا أجفل.

WWW.REWITY.COM

في النهاية كان بروتال هو من أنقذني من هذا الموقف. كان لدى مكتب المناوب، يراقب دين وهاري وهما يلعبان بورق اللعب. كما كان بيرسي هناك أيضا، وقد مل بروتال من محاولة التحدث معه في حين لم يتلقَّ من الردود سوى تمتمات وزمجرة. خطا نحوي حيث جلست إلى مقعد طويل خارج زنزانة ديلاكروا ووقف يستمع إلى حوارنا معقود الذراعين.

"وماذا عن ماوس فيل... مدينة الفئران؟". سأل بروتال وهو ينتهز فرصة الصمت الذي حل بعدما رفض ديل عرضي بأن يسكن معنا في بيتنا داخل الغابة. كان قد ألقى بتعليقه وكأنه يحدث نفسه.

سأله ديلاكروا "ماوس فيل؟". جمعت نظرته إلى بروتال بين الدهشة والاهتمام. "وكيف تكون ماوس فيل هذه؟".

فقال "إنها منطقة سياحية في فلوريدا. أعتقد أن اسمها تالاهاسي... أليس كذلك، بول؟ تالاهاسي؟".

فقلت ومن دون لحظة تفكير، منتهزا تلك النجدة التي أسعفني بها بروتوس هويل "بالفعل... تالاهاسي. هناك على مقربة من جامعة الكلاب". كدت أظن أن بروتال سينفجر ضاحكا ليفضح خطتنا التي تولد الآن، إلا أنه سيطر على نفسه وهو يومئ برأسه. على أنني قلت لنفسي، سرعان ما ستأتي مناسبة في المستقبل نحتاج فيها إلى جامعة الكلاب هذه.

لم يُلقِ ديل بالبكرة هذه المرة، مع أن السيد جينغلز كان يقف عند خفّي ديل رافعا يديه الأماميتين، وكأنما يتحرق شوقا لمطاردة البكرة. نقّل الفرنسي نظراته بين بروتال وبيني، ثم عاد إلى بروتال ليقول له "ما الذي يفعلونه في ماوس فيل؟".

سألني بروتال، وهو يتجاهل ديل بعفوية مصطنعة، ليزيد من اهتمام ديل "هل تعتقد أنهم سيقبلون بالسيد جينغلز هناك؟ هل تعتقد أن لديه المهارات اللازمة، بول؟".

WWW.REWITY.COM

تظاهرت بالتفكير. "أتعلم. إنني كلما فكرت في الأمر، كلما بدت لي وجاهة وروعة الفكرة". ولمحت بيرسي بطرف عيني وهو يقترب عبر الميل الأخضر (وهو يعمل على تحاشي زنزانة وارتون قبل أي شيء). وقف وهو يستند بكتفه إلى زنزانة فارغة، ينصت إلى حوارنا، وقد ارتسم على وجهه شبح ابتسامة مزدرية.

عندها تساءل ديل، وهو يتحرق شوقا ليعرف "ما هي مدينة الفئران تلك؟".

فقال بروتال "إنها في منطقة سياحية، كما قلت لك. هناك... آه، لا أدري تحديدا... هناك قرابة المئة فأر. أليس كذلك، بول؟".

"ربما وصل العدد هذه الأيام إلى مئة وخمسين. إنها تلقى نجاحا كبيرا. وأعتقد أنهم يفكرون في افتتاح أخرى في كاليفورنيا وسيسمونها ماوس فيل ويست، ولكنه مشروع ناجح بالفعل. بفضل تلك الفئران المدربة، إلا أنني لا أفهم كيف تسير الأمور".

جلس ديل والبكرة الملونة في يده، وهو ينظر إلينا، حتى بدا وكأنه قد نسي حقيقة الوضع الذي هو فيه.

إلا أن بروتال حذر قائلا "إنهم لا يقبلون سوى أذكى الفئران، تلك التي بمقدورها أداء الحيل والحركات. ولا يمكن أن يكون الفأر أبيض... يعتبرونها فئران متاجر الحيوانات الأليفة المدللة".

فقال ديلاكروا بمقت "أنا لا أحب تلك النوعية من الفئران... أمقتها!".

فقال بروتال وهو يسرح بخياله "ولديهم تلك الخيمة التي تقصدها و...".

"أجل، أجل، كما في السيرك! هل يقطعون تذاكر للدخول؟".

"طبعا! لا بد من أن تقطع تذكرة قبل الدخول. ثمنها عشرة سنتات للكبار وسنتان للصغار. هناك ما يشبه مدينة كاملة مصنوعة من صناديق

بلاستيكية ومناديل الحمامات الورقية، نوافذها من الزجاج المعشق، حتى تتمكن من مراقبة ما يفعلونه في الداخل...".

وصل ديلاكروا الآن إلى ذروة البهجة "أجل! أجل!". ثم التفت إليّ مردفا. "ما هو ذاك الزجاج المعشق؟".

قلت "مثل الذي نضعه أمام الموقد، فيمكنك أن ترى من خلاله".

حرك يده مشيرا إلى بروتال بأن يسترسل "بالتأكيد! تبا!"، بينما كانت عينا السيد جينغلز المنمنمتان تدوران في محجريهما، متتبعة البكرة في كل لحظة. كان الأمر طريفا جدا. واقترب بيرسي، كما لو كان يريد أن يمعن النظر، فرأيت جون كوفي عَبُوس الوجه، إلا أنني كنت غارقا في الفانتازيا التي ابتدعها بروتال، فلم أُعِر الأمر اهتماما. كنا نوعا ما نقوم بمهمتنا التي تقتضي تحقيق أمنية من سيُنفَّذ فيه الحكم، وكنت مندمجا في ذلك غاية الاندماج... صدقني.

استرسل بروتال قائلا "هناك مدينة حقيقية تحيا فيها تلك الفئران، إلا أن الأولاد يحبون سيرك كل نجوم ماوس فيل، فهناك فئران تجيد التقافز على الترابيز، وهناك فئران تدحرج تلك البكرات الصغيرة، وأخرى تضع العملات المعدنية فوق بـ...".

قاطعه ديلاكروا "أجل، تلك هي! تلك هي منتهى مطاف السيد جينغلز!". كانت عيناه تلمعان وخداه متوردين من البهجة. لحظتها كان بروتال رجلا صالحا في نظري. وجه ديل كلامه لفأره قائلا في جذل "سينتهي بك الأمر فأر سيرك، سيد جينغلز! ستعيش في مدينة فئران في فلوريدا! وراء كل تلك النوافذ الزجاجية! هوررريه!".

ألقى بالبكرة بقوة شديدة. حتى إنها ارتطمت بأسفل الجدار، وارتدت بزاوية مجنونة، لتخرج من بين قضبان زنزانته وتتدحرج عبر الميل. وبالطبع، قفز السيد جينغلز وراءها... وعندها، واتت بيرسي فرصته.

"كلا، أيها الأحمق!"، صرخ بروتال وقد أدرك ما سيجري، إلا أن بيرسي لم يعره اهتماما. وما إن وصل السيد جينغلز إلى بكرته - وقد استغرق في مهمته تلك حتى إنه لم ينتبه إلى عدوه القديم - حتى كان بيرسي يهوي بنعل حذائه الأسود الثقيل وبكل قوة على جسده. سمعنا جميعا صوت ظهر السيد جينغلز وهو ينهرس، ورأينا الدم يندفع من فمه. وجحظت عيناه الصغيرتان، لأرى فيهما تجسيدا لألم مفاجئ مبرح، كذلك الذي يرتسم على وجه أي إنسان.

صرخ ديلاكروا بكل رعب وأسى الدنيا. وألقى بجسده على باب زنزانته وهو يمد ذراعيه بقوة بين القضبان، يصرخ باسم الفأر... يصرخ بلا توقف.

بينما التفت بيرسي نحوه، ابتسم. ثم قال لنا "ها هو ذا... كنت أعلم أنني سأنال منه، عاجلا أم آجلا. كانت مسألة وقت، ليس إلا". ثم استدار على عقبيه عائدا عبر الميل الأخضر، في تؤدة... تاركا السيد جينغلز جاثما على تلك الأرضية المفروشة بالمشمع... وسط بركة من دمائه.

WWW.REWITY.COM

الجزء الرابع

نهاية مأسوية
لإدوارد ديلاكروا

WWW.REWITY.COM

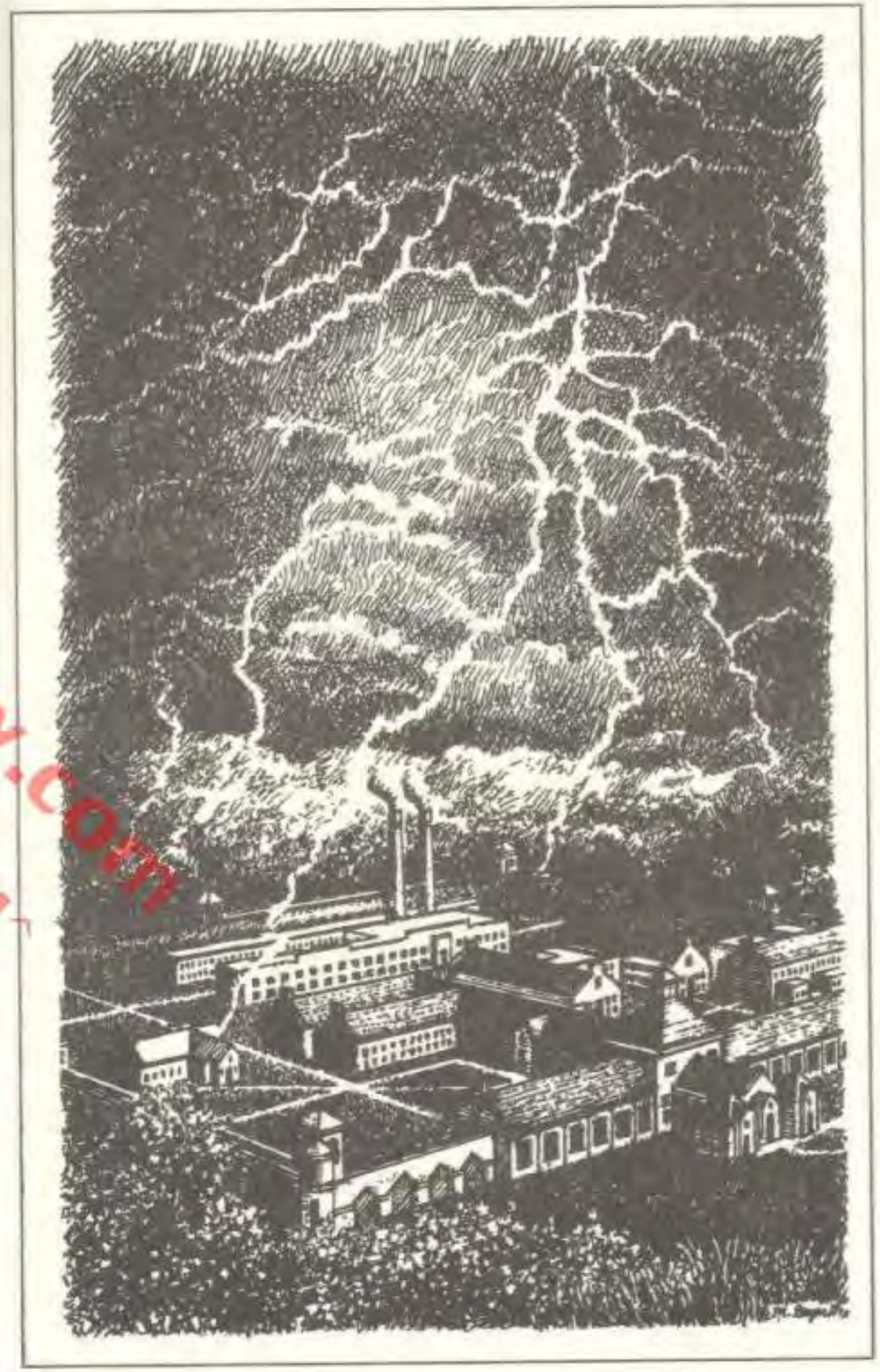

1

دوّنت هذه الكتابات الأخرى كافة، احتفظت بيومية صغيرة منذ انتقالي للإقامة بدار جورجيا سنايبز، لم أكن أدون فيها الكثير، مجرد فقرتين في اليوم فحسب معظمهما حول الطقس منذ أن أجبرني حفيداي كريستوفر ودانييل بشكل أو بآخر على الانتقال إلى جورجيا سنايبز، قائلين "إن هذا في صالحك يا جدنا"، إنهما محقّان بالطبع، أليس هذا ما يقوله الناس عادة عندما يكتشفون في النهاية أنه السبيل إلى التخلص ممن هو ماثل في صورة آدمي يمشي ويتكلم؟

مر عامان أو أكثر قليلا، إلا أن المخيف في الأمر هو أنني لا أدري إذا ما كانا عامين أو أكثر أو أقل، يبدو أن إحساسي بالزمن قد ذاب مثلما يذوب رجل الثلج الذي يصنعه الأولاد في شهر يناير. يبدو أن نظام التوقيت قد تغير، فلم يعد هناك التوقيت الشرقي القياسي ولا التوقيت الصيفي ولا توقيت العمل، فلا يوجد هنا سوى توقيت جورجيا سنايبز، وتوقيت العجائز، وتوقيت التبول على الفراش، وكل شيء خلا ذلك ذاهب.

إنه مكان لعين محفوف بالمخاطر، فهو ليس مملا خطيرا شأنه شأن مدارس الحضانة في وقت القيلولة فحسب، ولكنه خطير بلا شك. فلقد رأيت منذ قدومي إلى هنا كثيرا من النزلاء ينزلقون نحو الخَرَف، بل إنهم في بعض الأحيان يسرعون إليه سرعة الغواصة حين تغوص نحو الأعماق في حالات الطوارئ. إنهم يأتون إلى هنا في الغالب وقد ضعف بصرهم والتحمت أجسادهم بعكاكيزهم وربما فقدوا القدرة قليلا على التحكم في التبول، بيد أنهم في حالة طيبة على كل حال، ولكن

WWW.REWITY.COM

سرعان ما يعتريهم التغير. فبعد مرور شهر تجدهم جاثمين في حجرة التلفاز محدقين إلى عرض أوبرا وينفري بعيون فاترة، وفكوك واهنة، يرتعش في يد كل منهم كوب منسي من عصير البرتقال. وبعد مرور شهر آخر يكون عليك أن تذكرهم بأسماء أبنائهم حين يأتون لزيارتهم، وبعد شهر آخر يكون عليك إنعاش أسمائهم ذاتها في ذاكرتهم، لقد أصابهم شيء بلا شك. إنه توقيت جورجيا سنايبز، فالوقت هنا يشبه الحمض الضعيف الذي يزيل الذاكرة الأولى ثم يأتي بعد ذلك على الرغبة بالبقاء على قيد الحياة.

يجب التغلب على هذا الأمر، هذا ما أخبرت به صديقتي المقربة إيلين كونيللي. لقد تحسنت منذ أن شرعت في كتابة ما مررت به في العام 1932، ذلك العام الذي قدم فيه جون كوفي إلى الميل الأخضر. كانت بعض الذكريات مروعة، بيد أنني أرى أنها تشحذ ذاكرتي ووعيي كما تشحذ السكين القلم، وهذا ما يجعل الألم مستحقا العناء الذي يبذل في سبيله. غير أن الكتابة وإحياء الذكريات لم يكونا كافيين وحدهما، فلديّ جسد قد وهن وأضحى متنافرا على نحو متسم بالبشاعة، وبالرغم من الحالة التي وصل إليها، فإنني أمرنه برياضة المشي قدر المستطاع. كان الأمر صعبا في بادئ الأمر؛ فأمثالي من العجائز لا يُقبلون كثيرا على الرياضة من أجل الممارسة في حدّ ذاتها، لكن الأمر بات يسيرا الآن، لا سيما أنه أصبح للسير غرض.

انطلقت في أولى جولات سيري قبل الإفطار، فور إرسال نور الصباح باكورة سناياه، وذلك كان حالي في أغلب الأيام. كان الجو مطيرا هذا الصباح، وكانت الرطوبة تدب في أوصالي فتؤلمها، بيد أنني التقطت معطف مطر من العلاقة بجوار باب المطبخ، ومضيت في سبيلي على كل حال. فعندما يكون للمرء عمل روتيني، يجب أن يؤديه حتى وإن كان مؤلما أو بالغ السوء. ثم إن لهذا العمل فوائد، أهمها الإبقاء

على ذلك الإحساس بالتوقيت الحقيقي مقابل توقيت جورجيا سنايبز. كما إنني أحب المطر، لا سيما في الصباح الباكر عندما يكون النهار في مقتبله، عامرا بالآمال والأمنيات، حتى وإن كان لرجل عجوز مثلي.

مررت عبر المطبخ وتوقفت لطلب شريحتي خبز محمص من أحد الطهاة الذين غلب النعاس أعينهم، ثم مضيت لحالي. عبرت ملعب الكروكي ثم البقعة الخضراء الخاصة بلعب الغولف. وإلى ما وراء ذلك توجد مجموعة صغيرة من الخمائل يشقها بالكامل ممر ضيق متعرج وسقيفتان لم تعودا مستخدمتين بعد أن تهالكتا وبليتا. سرت في هذا الممر ببطء منصتا إلى صوت المطر المنهمر على شجر الصنوبر، وكنت أمضغ قطعة من الخبز المحمص بما تبقى لي من أسنان. كانت ساقاي تؤلمانني، لكن الألم كان خفيفا يمكن تحمله، فقد كنت أشعر أنني في حالة جيدة للغاية في الغالب. أخذت أستنشق الهواء الرطب إلى أعمق ما أستطيع، وكنت أسحبه كما لو كنت أتناول طعاما.

ولدى وصولي إلى ثاني هاتين السقيفتين، ولجت إليها بعض الوقت لأعتني بشأني فيها.

عندما عاودت السير مرة أخرى في الممر بعد انقضاء عشرين دقيقة، شعرت بإحساس الجوع يرغي في معدتي، ورأيت أنه يمكنني تناول شيء أكثر إشباعا بقليل من الخبز المحمص. ليكن طبقا من الشوفان وربما يكون معه بيض مقلي بجانب قطعة من السجق. فأنا أحب السجق وأتناوله دائما، لكن إذا أكلت أكثر من قطعة واحدة، فحري بي ألا آمن عواقبه الوخيمة، فقطعة واحدة كافية ولا ينطوي تناولها على مخاطرة. وبعد امتلاء معدتي وإنعاش الهواء الرطب لذهني (وهذا ما آمله)، أستطيع الصعود إلى الحجرة المشمسة لأكتب عن إعدام إدوارد ديلاكروا. وحري بي أن أسرع في الكتابة قدر المستطاع كي لا أفقد شجاعتي.

كان السيد جينغلز هو ما كان يجول في خاطري في أثناء عبوري

WWW.REWITY.COM

ملعب الكروكي متجها إلى باب المطبخ، تذكرت كيف أن بيرسي ويتمور سحقه بقدمه سحقة قسمت ظهره وكيف صرخ ديلاكروا عندما علم ما فعله عدوه، لم أرَ براد دولان واقفا هناك، فقد كان متواريا بنصف جسمه خلف حاوية النفايات حتى وصل إليّ وقبض على معصمي.

"هل لك في جولة سير قصيرة يا بولي؟"، سألني...

ارتعدت أوصالي، وانتزعت معصمي من يده. كان هذا بسبب ما شعرت به من الروعة، فأي شخص يرتعد عندما يُروع، لكن لم يكن هذا كل ما في الأمر. لقد كنت أتذكر بيرسي ويتمور، لا سيما عندما أرى براد الذي كان يذكرني به دائما. كان براد يتجول حاملا في جيبه صحيفة ورقية (كانت مع بيرسي مجلة عن مغامرات الرجال، ومع براد كتب مليئة بالنكات التي لا ينعتها بالمرحة إلا من كان أحمق أو وضيعا)، وكان يتصرف كما لو كان الحاكم بأمره على هذه الأرض، لكنه كان في الغالب حقيرا، يستهويه إيذاء البشر.

أدركت أنه بدأ العمل لثوه، كان هذا واضحا حتى على ملابسه البيضاء المرتبة التي لم تتغير معالمها بعد من أثر العمل. كان يرتدي سروالا من الجينز وقميصا أبيض على الطراز الغربي. كانت في إحدى يديه بقية من فطيرة دانمركية كان قد التقطها من المطبخ. كان يقف تحت ورق الشجر حيث لا يبتل وهو يأكل الفطيرة، وحيث يستطيع أن يراقبني، لقد بت متأكدا من ذلك الآن، كما أنني على يقين من شيء، يجب أن آخذ حذري من السيد براد دولان، فهو لا يحبني كثيرا. لا أعرف سببا لهذا البغض مثلما لم أعرف سبب كره بيرسي ويتمور لديلاكروا. فالكره كلمة واهية للغاية، كان بيرسي يكره ديلاكروا من الوهلة الأولى التي خطت فيها قدم هذا الرجل الفرنسي الضعيف أرض الميل الأخضر.

"ما بال هذا المعطف الذي ترتديه يا بولي؟"، سألني وهو يضرب بأصابعه على ياقة المعطف، "هذا ليس بمعطفك".

قلت "لقد حصلت عليه من الردهة خارج المطبخ". أشعر بالبغض عندما يدعوني بولي، وأعتقد أنه يعلم ذلك، ولكن لم يكن خليقا بي أن أمنحه الشعور بالرضا وهو يراني على هذا النحو. "يوجد صف بالكامل منها، ولا تمتد يدي بسوء إليه، ألا ترى؟ فهو مصنوع للوقاية من المطر بغض النظر عن أي شيء آخر".

"لكنه ليس من أجلك يا بولي"، قال وهو يضرب على المعطف مرة أخرى. "هذا كل ما في الأمر، فهذا النوع من المعاطف للعاملين وليس للنزلاء".

"لكنني لا أعرف حتى الآن ما الضرر الذي أوقعته به".

رمقني مبتسما ابتسامة خافتة قائلا "الأمر ليس معنيا بالضرر، ولكن هذا ما تقتضيه القواعد. ماذا يكون حال العالم من دون قواعد؟ بولي، بولي، بولي". هز رأسه وكأنما مجرد النظر إليّ يجعله يشعر بالأسى على بقائي حيا. "ربما يعتقد عجوز تافه مثلك أنه ليس عليه الالتزام بالقواعد بعد الآن، ولكن هذا ليس صحيحا يا بولي".

إنه يبتسم لي ويبغضني وربما يكرهني، لماذا؟ لا أعلم، أحيانا لا نعرف الأسباب، وذلك هو الشيء المروع في الأمر.

"حسنا، أعتذر إذا ما كنت قد انتهكت القواعد". قلتها وقد بدا على نبرة صوتي الانتحاب والصراخ قليلا، وكرهت نفسي لما خرج من فمي بهذا النحو، إلا أنني رجل عجوز، والعجائز ينتحبون ويفزعون بسهولة.

أومأ براد برأسه "اعتذارك مقبول. اذهب الآن، وأعد هذا المعطف إلى مكانه، فما لك شأن من السير في العراء تحت هذا المطر على كل حال، لا سيما في هذه الغابات. ماذا لو انزلقت، وسقطت، وكُسرت ساقك البغيضة؟ ها؟ من ذا الذي تظن أنه سيأتي ويسحب جسدك الكهل من أعلى التل؟".

WWW.REWITY.COM

قلت "لا أعلم". وما أردت بها إلا أن أغرب عن وجهه، فكلما استمعت إليه كلما بدا لي وكأنه بيرسي. حدث ذات مرة أن أمسك ويليام وارتون، ذلك الرجل المخبول الذي قدم إلى الميل الأخضر في خريف العام 1932، ببيرسي وأفزعه أشد فزع لدرجة أن بيرسي بال على نفسه، ونضح البول من سرواله. أمرنا بيرسي جميعا في ما بعد بعدم التفوه بما حدث لأي شخص وإلا سنطرد خلال أسبوع. الآن وبعد مرور سنوات عديدة أكاد أسمع براد دولان يتلفظ بتلك الكلمات نفسها وبنبرة الصوت عينها. إنني إذ أكتب هذه الأحداث القديمة، كأنما أفتح بابا يعجز عنه القول، أفتح بابا يربط الماضي بالحاضر، ويصل بيرسي ويتمور ببراد دولان وجانيس إيدجكومب بإيلين كونيللي وسجن كولد ماونتن بدار جورجيا سنايبز لرعاية المسنين. إذا لم يؤرقني هذا الفكر ويمنع عني النوم الليلة، فلا أعتقد أن غيره يفعلها. هممت بالدخول عبر باب المطبخ لكن براد قبض على معصمي مرة أخرى. لم أكن أعلم في المرة الأولى، لكن هذه المرة كانت عن عمد، فقد أراد أن يعصر معصمي حتى يؤلمني. كانت عيناه تجولان هنا وهناك للتأكد من عدم وجود أحد بالقرب منا في هذا الصباح الباكر الرطب، كان يريد التيقن من عدم وجود من يراه وهو يسيء إلى أحد العجائز ممن يفترض به أن يقوم على رعايتهم.

سألني "ماذا تفعل في ذلك الممر؟ أعلم أنك لا تذهب هناك للا...، فلا يمكنك أن تفعل ذلك وقد تقدم بك العمر، إذا، فماذا تفعل؟".

"لا شيء" قلت وأنا أنصح نفسي بالتزام الهدوء وألا أبين له كم يؤلمني، ولا أنسى أنه لم يذكر سوى الممر ولا يعلم بأمر السقيفة. "إنني أتمشى لأنعش ذاكرتي فحسب".

"فات الأوان لذلك يا بولي، لن تنتعش ذاكرتك بعد الآن!" أخذ يعصر معصمي النحيل الواهن مرة أخرى ويسحق عظامه الهشة بينما

كانت عيناه تجولان من جانب إلى آخر للتأكد من أنه بمنأى عن الأنظار. لم يكن براد يخشى خرق القواعد، إنما كان يخاف أن يُرى متلبسا بخرقها. كان في هذا أيضا يشبه بيرسي ويتمور الذي لا يدعك تنسى أبدا أنه قريب للحاكم. "إنك رجل عجوز ومن المستحيل عليك أن تتذكر من تكون، فلقد بلغت من الكبر عتيا. وحتى في متحف كهذا، فإنك يا بولي توقع في نفسي الشعور بالبغض الشديد".

"اغرب عن وجهي" قلت محاولا إزالة نبرة الانتحاب من صوتي. لم يكن هذا ثورة لكبريائي فحسب، إنما قلت في نفسي إنه إن سمعها فقد تثير غضبه كما تثير رائحة العرق أحيانا حفيظة الكلب سريع الغضب الذي لا يفتأ يهر حتى يعض. دفعني هذا لتذكّر المراسل الصحفي الذي كان يغطي محاكمة جون كوفي. كان المراسل رجلا فظيعا يدعى هامر سميث، والأفظع في شخصه أنه لم يكن يعلم أنه فظيع.

بدلا من أن يدعني أذهب، عصر دولان معصمي مرة أخرى، وتأوهت على إثر ذلك رغما عني، لكنني لم أستطع الاحتمال، فقد كان الألم يملأني من قمة رأسي حتى أخمص قدمي.

"ماذا تفعل هناك يا بولي؟ أخبرني".

قلت "لا شيء!" لم أكن أصرخ بعد، بيد أنني كنت أخشى أن أهم بالبكاء إذا استمر في عصره لمعصمي على هذا النحو. "لا شيء، إنني أتمشى فحسب، إنني أحب المشي، دعني وشأني!".

بالفعل تركني، ولكن بعد أن قبض على يدي الأخرى التي كانت مقفلة على صورة قبضة. أمرني قائلا "افتح يديك، دع بابا يرى ما بها".

فتحتها ثم نخر بها مشمئزا. لم يكن بها سوى بقايا قطعة الخبز المحمص الثانية، كنت قد أطبقت عليها بيدي اليمنى عندما أخذ يعصر معصمي الأيسر، امتلأت أصابع يدي بالزبدة، أو بالأحرى بالسمن

WWW.REWITY.COM

الصناعي؛ فلا يوجد هنا زبدة طبيعية بالطبع.

"ادخل ونظف يديك المقيتتين" قالها وهو يخطو إلى الخلف ملتهما قضمة أخرى من الفطيرة الدانمركية. "تبا لهؤلاء القوم".

صعدت الدرج وساقاي ترتعدان وقلبي يخفق بقوة مثل محرك ذي صمامات مسربة ومكابس قديمة متقلقلة. وبينما كنت أمسك المقبض الذي يؤدي بي إلى داخل المطبخ، وبالتالي إلى بر الأمان، هددني دولان قائلا "إذا أخبرت أحدا بأنني عصرت معصمك الواهن البغيض يا بولي، فسأقول إن هذا من نسج أوهامك، وهو على الأرجح بداية الانزلاق نحو الشيخوخة والخرف، وأنت تعرف أنهم سيصدقون ما أقوله. وإذا كانت ثمة خدوش، فسيدركون أن هذا ما اقترفته بنفسك".

نعم، ما يقوله براد صحيح، ومرة أخرى أشعر أنني أستمع إلى هذا الكلام من بيرسي ويتمور، بيرسي الذي ظل صغيرا ووضيعا بطريقة أو بأخرى بينما تقدمت بي السن وأصبحت واهنا.

"لن أقول أي شيء لأحد" قلت بصوت خافت "ليس لديّ ما أقوله".

"هذا صحيح، يا صديقي العجوز". رد بصوت خفيض ساخر، صوت الأحمق (باستخدام عبارات بيرسي) الذي يعتقد أنه سيبقى شابا إلى الأبد. "ولن يهنأ لي بال حتى أعرف ما تفعل هناك. سأجعله شغلي الشاغل، أتسمع؟".

كنت أسمع جيدا، ولكن أبيت أن أمنحه الشعور بالرضا لقول ذلك. دخلت مارا بالمطبخ (يمكنني الآن شم رائحة البيض والسجق المطهو، لكن لم أعد أرغب بتناول أي شيء)، علقت المعطف في مكانه على العلاقّة، ثم صعدت الدرج إلى حجرتي مستريحا عند كل درجة من درجاته لأمهل قلبي وقتا ليهدأ، وطفقت ألملم أدوات الكتابة.

نزلت إلى الحجرة المشمسة، ولم أكد أجلس إلى المنضدة

الصغيرة بجوار النوافذ حتى رأيت صديقتي إيلين تضرب بجمع كفها على رأسها. كان يبدو عليها التعب وظننت أنها مريضة. كانت قد مشطت شعرها لكنها لا تزال ترتدي عباءتها المنزلية، فنحن العجائز لا نعبأ كثيرا بالشكليات التقليدية لأننا في معظم الأحيان لا نقدر على أدائها.

قالت "لن أسبب لك إزعاجا، فأنا أرى أنك تجلس للكتابة".

قلت "لا تكوني سخيفة، فلديّ من الوقت ما يكفي لأن أكتب مجلدات، هلمي بالدخول".

دخلت بالفعل، ولكنها وقفت بالقرب من الباب قائلة "الأمر وما فيه أنني لم أستطع النوم مجددا، وكنت أنظر من نافذتي في الصباح الباكر، و...".

"ولاحظت ما دار بينك وبين السيد دولان من حوار قصير لطيف". قاطعتها آملا أن يكون المنظر هو كل ما شاهدته وأن تكون نافذتها مغلقة بحيث لا تسمع صوت انتحابي وتوسلي إليه كي يدعني.

قالت "لم يكن لطيفا ولا وديا. اسمع يا بول، كان السيد دولان يتحرى عنك، فقد سألني عنك الأسبوع الماضي. لم أعبأ كثيرا بسؤاله، فهو شخص بغيض يهوى التدخل في شؤون الآخرين، لكنني مندهشة الآن".

"يسأل عني؟"، وددت لو لم يبدُ الارتباك على صوتي كما أشعر به. "عن أي شيء يسأل؟".

"عن المكان الذي تسير إليه من ناحية، وعن سبب سيرك من ناحية أخرى".

حاولت الضحك، "ثمة شخص لا يعتقد بالتريض، فهذا واضح تماما".

استوقفتني قائلة "يظن أن لديك سرا، وهذا ما أظنه أيضا".

فتحت فمي لا أدري ما أقول ولكن قبل أن أنطق بكلمة رفعت

WWW.REWITY.COM

إيلين إحدى يديها المليئتين بالتجاعيد لكنهما جميلتين على غير العادة، "إذا كان لديك سر، فلا أرغب بمعرفته يا بول، فهذا شأنك وأنت حر فيه. لقد نشأت على التفكير بهذه الطريقة، وليس الناس مثل بعضهم. فكل ما أود إخبارك به هو أن تكون حذرا، والآن اسمح لي بالانصراف حتى أدعك تؤدي عملك".

استدارت لتمضي، ولكن قبل أن تخرج من الباب ناديتها باسمها، فالتفتت إليّ بعينين تملأهما الحيرة والتساؤل.

"عندما أنتهي مما أكتب..."، أنشأت أبوح لها، ثم هززت رأسي قليلا بالنفي معبرا عن خطأ في تعبيري، ثم قلت "إذا انتهيت مما أكتب، فهل تقرأينه؟".

بدت وكأنها تفكر، ثم ابتسمت لي ابتسامة تجعل من الصعب على أي رجل ألا يهيم بها عشقا، حتى وإن كان كهلا مثلي. "هذا من دواعي سروري".

"من الأفضل أن تنتظري حتى تقرأيه قبل أن تتحدثي عن السرور"، قلت هذا وكان مصرع ديلاكروا هو ما كان يجول في خاطري.

قالت "سأقرأه على كل حال. أعدك أن أقرأه كلمة كلمة، لكن عليك الانتهاء منه أولا".

تركتني أكتب، إلا أنه مر وقت طويل قبل أن أخطّ حرفا واحدا، فقد كنت جالسا أحدق من النوافذ لما يقارب الساعة، ضاربا بقلمي على المنضدة، كان يتراءى لي عندئذ مشهد ذلك اليوم الكئيب جليا في بعض الوقت، كنت أتذكر براد دولان الذي يدعوني بولي ولا يكلّ من ذكر النكات التي تزدري الصينيين والآسيويين والإسبانيين والأيرلنديين، كنت أتذكر ما قالته إيلين كونيللي "إنه يظن أن لديك سرا، وهذا ما أظنه أيضا".

ربما يكون لديّ سر، نعم ربما، وبالطبع يريد براد دولان معرفته

بلا شك، ليس لأنه يعتقد بأهميته (وأعتقد أنه لا يهم أحد سواي) بل لأنه يعتقد أنه لا يجب أن يكون لهرِم مثلي أسرار. فمثلما يُحظر علينا أخذ معاطف المطر عن العلاّقة خارج المطبخ، يجب ألا نحتفظ بأسرار أيضا، ولا يحق الاعتقاد بأن مثلنا كمثل باقي البشر. ولماذا يُحظر علينا هذا الاعتقاد؟ إنه لا يعلم، وهو في ذلك يشبه بيرسي أيضا.

هكذا كانت خواطري تعود بي في النهاية، مثل نهر ينعطف على شكل سناد نيّر، إلى حيث كانت عندما وصل براد دولان من أسفل طرف سطح المطبخ وقبض على معصمي، إلى بيرسي، بيرسي ويتمور النذل، وكيف أخذ بثأره من الرجل الذي سخر منه. كان ديلاكروا يلقي بالبكرة الملونة التي كانت معه والذي كان السيد جينغلز يعود بها إليه، وحدث أن ارتدت البكرة خارج الزنزانة ثم إلى الرواق. هذا كل ما حدث وما وجد فيه بيرسي فرصته للانتقام.

WWW.REWITY.COM

2

"لا تفعل أيها الأحمق" صرخ بروتال، لكن بيرسي لم يعبأ بصراخه. وما كاد السيد جينغلز يصل إلى البكرة، قاصدا إياها بكل عزم، حتى وجد عدوه القديم على مقربة منه، فقد انهال بيرسي عليه بنعل حذائه الأسود الصلب، وسُمع على إثر ذلك صوت طقطقة، إذ قُسم ظهر السيد جينغلز، واندفع الدم من فمه، وجحظت عيناه السوداوان المنمنمتان من محجريهما، وقرأت فيهما تعبيرا عن الألم المبرح الممزوج بالدهشة، كان تعبيرا إنسانيا خالصا.

صرخ ديلاكروا رعبا وأسى، ملقيا بنفسه إلى باب زنزانته، دافعا ذراعيه عبر القضبان إلى أقصى حدّ ممكن، وكان صياحه باسم الفأر يزداد أكثر فأكثر.

التفت بيرسي إليه مبتسما، والتفت إليّ وإلى بروتال أيضا، قائلا "هكذا أعرف كيف أنال منه إن آجلا أم عاجلا، إنها حقا مسألة وقت فحسب". استدار ومضى عائدا إلى الميل الأخضر، تاركا السيد جينغلز مستلقيا على مشمع الأرضية وقد سال دمه على جسده.

نهض دين من مكتب المناوبة، ضاربا جانب المكتب بركبته، ملقيا بلوحة الكريبج إلى الأرض. تناثرت السدادات من فتحاتها، وتشتت في جميع الاتجاهات. لم يُبدِ دين ولا هاري، الذي كان على وشك الانصراف لتوه، أي اهتمام لانقلاب اللعبة. "ماذا فعلت هذه المرة؟" صاح دين في وجه بيرسي. "ماذا فعلت هذه المرة أيها المنحط؟".

لم يُجِب بيرسي، ومشى بخطى واسعة عبر المكتب من دون أن يتفوه بكلمة، مملسا بأصابعه على شعره. مر بيرسي عبر حجرة مكتبي

ثم إلى حجرة التخزين. أجاب ويليام وارتون بدلا منه. "يا سيد دين. أعتقد أنه كان يعطي درسا لرجل فرنسي، فمن غير اللائق أن يهزأ منه"، قالها ثم بدأ بالضحك. كانت ضحكته جميلة، ضحكة إنسان حضري، مرحة وعميقة. لقد رأيت خلال تلك الفترة من حياتي أناسا – معظمهم مخيفون للغاية – لا يبدون في حالتهم الطبيعية إلا وهم يضحكون. كان وايلد بيل وارتون واحدا منهم.

نظرت إلى الفأر مرة أخرى مذهولا، فقد كان لا يزال يتنفس، لكن ثمة قطرات ضئيلة من الدماء كانت عالقة على شعر شاربه وكانت غشاوة فاترة تزحف فوق عينيه اللتين كانتا تتقدان ذكاء وفطنة في ما مضى. التقط بروتال البكرة الملونة ونظر إليها ثم نظر إليّ. فقد كان مثلي يشعر بالفزع. وإلى الخلف منا كان ديلاكروا لا يزال يصرخ أسى وحزنا. لم يكن الفأر هو المقصود بالطبع، فقد أحدث بيرسي خرقا في دفاعات ديلاكروا وأخرج ما بداخله من حنق وغضب. بيد أن السيد جينغلز كان محور اهتمام هذه المشاعر الحبيسة، فقد كان منظره مروعا.

"آه لا"، صاح مجددا بصوت أعلى في غمرة أصوات النواح والتوسلات والدعوات التي كان يتلوها بالفرنسية. "آه لا، آه لا، السيد جينغلز المسكين، السيد جينغلز العجوز، آه لا".

"أعطِني إياه".

رفعت رأسي متعجبا من ذلك الصوت العميق الذي لم أكن متأكدا من صاحبه في بادئ الأمر، ثم ما لبثت أن رأيت جون كوفي باسطا ذراعيه مثل ديلاكروا عبر قضبان باب زنزانته، إلا أنه، على عكس ديل، الذي كان يلوح بهما هنا وهناك، فقد كان يمدهما أبعد ما يكون إلى الخارج، وكانت راحتاه مفتوحتين في نهايتهما. كان لهذه الوضعية ذاتها مغزى، وهي نفسها تقريبا التي تُتخذ في حالات الطوارئ. وكان يخرج صوته بنبرة غريبة جعلتني لا أدرك في بادئ الأمر أنها له. فقد بدا إنسانا

WWW.REWITY.COM

مختلفا عن ذلك الشخص اليائس الباكي الذي كان يشغل هذه الزنزانة طوال الأسابيع القليلة الماضية.

"أعطِني إياه يا سيد إيدجكومب! قبل فوات الأوان!".

تذكرت حينئذ ما فعله معي، وأدركت ما يقصده. كنت أعتقد أن إعطائي إياه ليس فيه إيذاء، وإن ظننت أيضا عدم جدواه كثيرا. عندما التقطت الفأر عن الأرض، امتلكني شعور بالإحجام، فقد برزت الكثير من العظام المهشمة في مناطق عديدة من جسد السيد جينغلز الذي كان يشبه عندئذ وسادة دبابيس مغطاة بالوبر. فهذا ليس التهابا في المسالك البولية.

"ماذا ستفعل؟"، سأل بروتال بينما كان يضع السيد جينغلز في يد كوفي اليمنى. "ماذا ستفعل؟".

جذب كوفي الفأر ناحيته عبر القضبان. مدد الفأر رجليه على راحة كوفي، وكان ذيله متدليا من القوس الذي يصنعه إبهام كوفي مع سبابته، وكان طرفه يتحرك حركة واهنة في الهواء. غطى كوفي بعد ذلك يده اليمنى بيده اليسرى، صانعا ما يشبه الكوب كي يستلقي فيه الفأر. لم نعد نرى من السيد جينغلز سوى ذيله متدليا يحرك طرفه كما لو كان بندولا معطلا. رفع كوفي يديه ناحية وجهه، باسطا أصابع يده اليمنى لينشئ فراغات كتلك الموجودة بين قضبان السجن. أصبح ذيل الفأر الآن متدليا من جانبي يدي كوفي في مواجهتنا.

خطى بروتال حتى أصبح بجانبي، وكان لا يزال يحمل البكرة الملونة بين إصبعيه قائلا "ماذا يظن أنه فاعل؟".

"صه"، استوقفته.

توقف ديلاكروا عن الصياح هامسا "أرجوك يا جون، آه يا جوني، ساعده، أرجوك ساعده، من فضلك".

انضم دين وهاري إلينا، وكان هاري لا يزال يحمل أوراق اللعب

في إحدى يديه. "ماذا يجري؟"، سأل دين، لكنني اكتفيت بهز رأسي، فقد كنت أشعر أنني تحت تأثير التنويم المغناطيسي مرة أخرى، فلا خير فيّ إن لم أشعر بذلك.

وضع كوفي فمه بين إصبعين من أصابعه، واستنشق الهواء بحدة. وما هي إلا لحظات حتى تعطل كل شيء معلق. رفع بعد ذلك رأسه بعيدا عن يديه فرأيت رجلا يبدو على وجه الإعياء واليأس، أو أنه يعاني ألما فظيعا. فقد كانت عيناه حادتين ومتوهجتين، وكانت أسنانه العليا تعض على شفته السفلى بكاملها، وقد شحب وجهه القاتم واستحال إلى لون كريه بدا وكأنه رماد ممزوج بالوحل، ثم أصدر صوتا مختنقا من الجزء الخلفي من حنجرته.

"يا الله"، همس بروتال وكادت عيناه تسقطان من وجهه.

"ماذا؟"، كان يصيح بصوت يشبه النباح "ماذا؟".

"الذيل! ألا تراه؟ الذيل!".

لم يعد ذيل السيد جينغلز بندولا معطلا، فقد كان يتحرك بخفة من ناحية إلى أخرى، مثل ذيل قطة في وضع التأهب لمطاردة طائر. بعدئذ سُمع صوت قادم من داخل يدي كوفي الملتفتين كالكوب، صوت يشبه تماما صوت الفأر.

أصدر كوفي ذلك الصوت المختنق والمتكتم مرة أخرى، ثم أدار رأسه إلى أحد الجوانب كمن قبض على بلغم يريد أن يلفظه من فمه، لكنه زفر من فمه وأنفه حشدا من البق الأسود، ظننت أنه بقّ وكان هذا ظن الآخرين فيه أيضا، بيد أنني غير متأكد حتى يومنا هذا. كان البق يهتاج حوله على شكل سحابة ما لبثت أن أخفت معالم وجهه للحظات.

"يا الله، ماذا هذا؟"، سأل دين بصوت حادّ فزع.

"كل شيء على ما يرام" سمعت نفسي أقول هذا. "لا تفزع، كل شيء سيكون على ما يرام بعد بضع ثوانٍ".

WWW.REWITY.COM

مثلما كان الحال عند معالجة كوفي لي من التهاب المسالك البولية، تحول البق إلى اللون الأبيض ثم اختفى.

"يا الله"، همس هاري.

"بول؟"، سأل بروتال بصوت مضطرب. "بول؟".

بدا كوفي بحالة جيدة مرة أخرى، وكأنه شخص نجح في استجماع لحم كان يخنقه. انحنى بجسمه ووضع يديه الملتفتين كالكوب على الأرض، ناظرا من خلال أصابعه، ثم فتحهما. كان السيد جينغلز معافى تماما، وقد خلا ظهره من أي التواء، وجلده من أي نتوء، ورأيناه يجري إلى الخارج، لكنه توقف لحظة عند باب زنزانة كوفي، ثم جرى عبر الميل الأخضر إلى زنزانة ديلاكروا. وبينما هو ذاهب، لاحظت ثمة قطرات من الدماء لا تزال عالقة على شعر شاربه.

التقطه ديلاكروا عن الأرض، ضاحكا باكيا في آن واحد، ملثما إياه بقبلات قوية غير عابئ بالحضور. شاهد دين وهاري وبروتال المنظر وقد غلبهم الصمت والدهشة، ثم تقدم بروتال ومد يده بالبكرة الملونة عبر القضبان. لم يره ديلاكروا في بادئ الأمر، فقد كان مستغرقا في تقبيل السيد جينغلز، وبدا وكأنه أب عاد إليه ابنه بعدما أنقذ من الغرق. ربت بروتال على كتفه بالبكرة، ثم نظر ديلاكروا إليه وأخذ البكرة منه ثم عاد إلى السيد جينغلز مجددا، ملاطفا إياه، مليا عينيه بالنظر إليه، فقد كان يريد إنعاش إدراكه بأن الفأر معافى، وأنه في أتم صحة وعلى ما يرام.

"اقذفها"، قال بروتال، "أريد أن أرى كيف يجري".

"إنه معافى يا سيد هويل إنه معافى، حمدا لله!".

اقذفها"، كررها بروتال، "أطعني يا ديل".

انحنى ديلاكروا وهو كاره، فمن الواضح أنه لم يكن يريد أن يترك السيد جينغلز من يديه مرة أخرى في ذلك الوقت على الأقل. ثم قذف البكرة برفق شديد، ودارت البكرة في أنحاء الزنزانة مرورا بعلبة سيجار

الكرونا ثم إلى الجدار. كان السيد جينغلز يتبعها، ولكن ليس بسرعته المعهودة عنه سابقا. فقد بدا وكأنه يعرج قليلا بساقه اليسرى الخلفية، وهذا ما أثر فيّ بشده، وظننت أن هذا ما جعل الأمر واقعيا، تلك الساق الصغيرة.

وصل إلى البكرة بالرغم من ذلك وهو بحالة جيدة، وكان يدفعها أمامه حتى أعادها إلى ديلاكروا بكل حماسته المعروفة عنه. التفت باسما إلى جون كوفي الذي كان واقفا عند باب زنزانته. كانت ابتسامة سئمة لا تعبر عما يمكن أن أطلق عليه سعادة حقيقية، لكنني رأيته وقد اختفت حالة اللهفة الحادة التي كانت على وجهه عندما توسل من أجل إعطائه الفأر، وكذلك الحال بالنسبة إلى نظرة الألم والخوف التي بدت عليه وكأنه مختنق. فها هو جون كوفي الذي نعرفه يعود مجددا بوجهه الذي لم يكن حاضرا وعينيه الفاترتين الشاردتين.

"لقد أنقذته"، قلت له، "أليس كذلك أيها الفتى الضخم؟".

"بلى"، قال كوفي وقد اتسعت ابتسامته قليلا وما لبث أن أصبح سعيدا في لحظة أو اثنتين. "لقد أنقذته، أنقذت فأر ديل، أنقذت..."، توقف عن الكلام عاجزا عن تذكر الاسم.

"السيد جينغلز"، قال دين وهو ينظر إلى جون بعينين حذرتين دهشتين، كما لو كان يتوقع أن تهب في كوفي النيران أو أن يبدأ بالطفو بزنزانته.

"هذا صحيح"، قال كوفي، "السيد جينغلز، إنه فأر سيرك، سيعيش خلف زجاج شفاف".

"إنك تعيش في أوهامك"، قال هاري منضما إلينا في النظر إلى جون كوفي. وإلى الخلف منا كان ديلاكروا يرقد على فراشه واضعا السيد جينغلز على صدره. كان ديل يدندن له بالغناء، كان يغني أغنية فرنسية تشبه تلك الأغاني الرقيقة التي تغري الأطفال للنوم.

WWW.REWITY.COM

نظر كوفي إلى الميل الأخضر نحو مكتب المناوبة والباب المؤدي إلى مكتبي وحجرة التخزين الواقعة خلفه، قائلا "بيرسي الشرير، بيرسي الخسيس، دهس فأر ديل بحذائه، دهس السيد جينغلز".

بعدئذ وقبل أن نتفوه بأي شيء آخر إليه، إذا كان لدينا ما نقوله في الأساس، عاد جون كوفي إلى فراشه، واضطجع عليه ممدا جسده على جنبه في وضع مواجه للجدار.

3

كان بيرسي يقف موجها ظهره إلينا عندما جئت أنا وبروتال إلى حجرة التخزين بعد عشرين دقيقة تقريبا. لقد عثر على علبة من مادة تلميع الأثاث على رف يعلو السلة التي كنا نضع فيها زينا المتسخ (وملابسنا المدنية في بعض الأحيان، حيث لم يكن عمال الغسيل بالسجن يعبئون بما يغسلونه)، كان يلمّع الذراعين والقوائم البلوطية للكرسي الكهربائي. قد يبدو هذا غريبا بالنسبة إليك، بل ربما يبدو مروعا، لكنني كنت وبروتال نراه الشيء المنطقي الذي يشغل فيه بيرسي وقته طوال الليل. فسباركي العجوز على موعد مع الجمهور غدا، ومن الواضح أن بيرسي سيكون على الأقل المسؤول عن العرض.

"بيرسي". ناديته بهدوء.

توقف عن نغمة الهمهمة الخفيضة التي كان يخرجها من حلقه ونظر إلينا. لم أرَ الخوف الذي كنت أتوقعه، ليس من الوهلة الأولى على الأقل. لكنني لاحظت أن بيرسي بدا أكبر سنا بعض الشيء، وعندها علمت أن جون كوفي كان على صواب. فقد بدا خسيسا، والخسة تشبه إدمان المخدرات، فلا أحد على وجه الأرض أكثر مني دراية بهذا الشأن، وظننت، بناء على كمية تجارب لا ريب فيها، أن بيرسي قد ارتبط بها، فقد راق له ما فعله بفأر ديلاكروا، بل إن ما أرضاه أكثر هو صرخات ديلاكروا المروعة.

"لا تحدّقا إليّ هكذا" قال بنبرة فرحة تقريبا. "أنا خسيس، أليس كذلك؟ لكنه كان مجرد فأر لا ينتمي أساسا إلى هذا المكان كما تعرفان جيدا يا فتَيان".

WWW.REWITY.COM

"الفأر لطيف" قلتها وقلبي يخفق بشدة في صدري، ولكنني حرصت أن يخرج صوتي معتدلا، لا مباليا تقريبا. "كائن لطيف فحسب، يجري ويصدر أصواتا ويطارد بكرته مجددا. إنك لم تفلح في قتل الفأر مثلما لا تفلح في معظم ما تفعله في هذا المكان".

كان ينظر إليّ مذهولا غير مصدق. "هل تتوقع مني أن أصدق ما تقوله؟ لقد سُحق هذا الشيء اللعين! لقد سمعت ذلك بأمّ أذنيّ! حتى إنه يمكنك...!".

"اخرس".

حدّق إليّ بعينين متسعتين. "ماذا؟ ماذا قلت؟".

تقدمت خطوة بالقرب منه، وكنت أشعر بوريد ينبض في منتصف جبهتي. لم أستطع تذكر آخر مرة شعرت فيها بالغضب، "ألست سعيدا أن السيد جينغلز بخير؟ أظن أنه يجب أن تكون سعيدا بعدما تحدثنا مرارا وتكرارا عن مهمتنا في الحفاظ على هدوء السجناء، لا سيما عندما يكونون على وشك النهاية. اهنأ بالا، فغدا سيعدم ديل وينتهي الأمر".

نقل بيرسي نظره بيني وبين بروتال، وأخذ هدوءه الممزوج بالذهول يتحول إلى شك. سأل "أي مزحة تظنان أنكما تلقيانها أيها الرجلان؟".

قال بروتال "ليس في هذا مزحة يا صديقي". "تظن أنها كذلك، حسنا، فهذا مجرد سبب واحد من عدة أسباب تجعلك غير جدير بالثقة. إنك تريد معرفة الحقيقة المطلقة؟ أعتقد أنك إنسان بائس للغاية".

قال بيرسي "إنكما تريدان رؤية ما أنا فاعل"، وقد بدا الرعب في صوته. فقد بدأ الخوف يزحف إليه مجددا بالرغم من كل ذلك، الخوف مما قد نريده منه، الخوف مما ندبر له. كنت سعيدا بسماع نبرة الصوت هذه منه، فهذا يجعل من السهل التعامل معه. "أنا أعرف أشخاصا، أشخاصا مهمين".

قال بروتال "هذا ما تقوله، لكنك غارق في الأوهام". وقد بدا وكأنه على وشك الضحك.

ألقى بيرسي خرقة التلميع على مقعدة الكرسي فيما كانت الملزمات مربوطة بذراعي الكرسي وقوائمه. "لقد قتلت ذلك الفأر" قالها بصوت لا ينم عن ثقة كاملة.

قلت "اذهب وتأكد بنفسك، فلك مطلق الحرية".

قال "سأذهب، سأذهب".

مر بنا بصمت وإطراد، كان فمه محددا، ويداه صغيرتين (كان وارنون على صواب، فقد كانتا جميلتين)، وكان يحرك أصابعه بقلق. صعد الدرج وولج إلى مكتبي. وقفت أنا وبروتال صامتَين بجوار سباركي العجوز بانتظار عودته. لم أكن أعرف بروتال، لكن لم يطرأ علي أي شيء أقوله، بل إنني لم أكن أعلم كيف أفسر ما رأيناه منذ لحظات.

مرت ثلاث دقائق الآن. التقط بروتال خرقة بيرسي، وشرع يلمع الأضلاع السميكة على ظهر الكرسي الكهربائي. كان لديه وقت للانتهاء من تلميع أحد الأضلاع والبدء بآخر قبل أن يعود بيرسي. تعثر بيرسي وكاد يسقط وهو يهبط درجات السلم من المكتب إلى حجرة التخزين، وعندما عبر إلينا جاء بخطوات مختالة غير منتظمة، وقد بدت على وجهه الصدمة وعدم التصديق.

"لقد أبدلتماه أنتما ومَن في الأعلى"، قالها بصوت حادٍّ منطوٍ على اتهام، "لقد أبدلتم الفأر بطريقة أو بأخرى أيها الأوغاد. أنتم تسخرون مني، وستندمون إذا لم تتوقفوا عن فعل هذا! سأنال منكم إذا لم تتوقفوا! من تظنون أنفسكم؟".

توقف عن الكلام، شاهقا لاستنشاق الهواء، ويداه مطبقتان.

قلت "سأخبرك من نكون، نحن من نعمل مع بيرسي، ولكن ليس

WWW.REWITY.COM

منذ مدة طويلة". مددت يديّ، وربت بهما على كتفيه ليس بشدة في واقع الأمر ولكن كنت أربت عليهما بلا شك، نعم كنت أفعل ذلك.

مد بيرسي يديه إلى الأعلى لإبعاد يديّ قائلا "أبعد...".

جذب بروتال يده اليمنى بكاملها، وكانت صغيرة وناعمة وبيضاء، واختفت في قبضته السمراء. "صه يا فتى. إذا كنت تعرف صالحك لكنت تستغل هذه الفرصة الأخيرة لتطرح ما فيك من وساوس".

أدرته نحوي ورفعته إلى المنصة حتى التصقت مؤخّرته بمقعدة الكرسي الكهربائي بحيث لم يجد مفرا من الجلوس عليه. ذهب عنه الهدوء، وذهبت عنه الخسة والعجرفة أيضا. كانت تلك الخصال متأصلة فيه تماما، ولكن يجب تذكر أن بيرسي كان فتى حديث السن، والإنسان في مثل هذه السن لا يزال قشرة رقيقة يمكن إزالتها، مثل ظل طلاء قبيح يمكن تبديده. رأيت أن بيرسي مسعد الآن للإنصات.

قلت "أريد معرفة رأيك".

"رأيي في ماذا؟"، كان لا يزال يحاول التظاهر بالسخرية، لكن الفزع كان في عينيه. وبالرغم من إيقاف تشغيل الكهرباء في غرفة التحكم، إلا أن المقعد الخشبي لسباركي العجوز كان له كهربائيته الخاصة، وتراءى لي ساعتها أن بيرسي كان يشعر بها.

"رأيك في ما إذا كنت سترحل إلى براري ريدج وتتركنا وشأننا إن جعلناك على رأس الشهود في هذا الموقف مساء غد" قال بروتال بصوت متقد لم نسمعه منه من قبل. "إنك ستتقدم بلا ريب بطلب رسمي للانتقال من هنا في اليوم التالي مباشرة".

"وماذا إذا رفضت؟ ماذا لو اتصلت بأناس ذوي نفوذ، وأخبرتهم بتحرشكم بي، وتهديدي والتنمر عليّ؟".

قلت "قد نطرد جراء ذلك شر طردة إذا كانت اتصالاتك من القوة والنفوذ بقدر ما تعتقد، ولكن بعد أن نثبت ما اقترفته أيضا يا بيرسي".

"في حق ذلك الفأر؟ يا للعجب! هل تظنان أن أحدا سيعبأ بأمر دهسي فأر لقاتل لعين معتوه؟".

"لا، بل ثلاثة من الرجال رأوك واقفا لا تحرك ساكنا عندما كان وايلد بيل وارتون يحاول شنق دين ستانتون بسلسلة معصمه. بهذا الأمر سيعبأ هؤلاء الناس يا بيرسي، أعدك بذلك. حتى قريبك الحاكم سيعبأ به وهو على بعده عنا".

تدفّق الدم في وجه بيرسي، واستحال جبينه ووجنتاه إلى رقع حمراء متفاوتة. "أتظنان أنهم سيصدقونكما؟" سأل بصوت فقد كثيرا من قوته الغاضبة، فلا شك في أنه اعتقد أن أحدا قد يصدقنا، وهو لا يحب أن يقع في المشاكل. إن خرق القواعد مقبول، أما التلبس بخرقها فهو أمر مرفوض.

"حسنا، لديّ بعض الصور لرقبة دين قبل زوال الخدوش عنها" قالها بروتال ولم يكن لديّ أدنى فكرة عما إذا كان هذا صحيحا أم لا، ولكنه بدا جيدا في جميع الأحوال. "أتعلم ما تبينه هذه الصور؟ إنها تثبت بالدليل الدامغ ما اقترفه وارتون قبل أن يوقفه أحد بالرغم من وجودك هناك من حيث لا يراك وارتون. سيكون لديك أسئلة صعبة لترد عليها، أليس كذلك؟ وشيء كهذا قد يظل عالقا بالمرء طوال فترة عمله. قد تظل فرص المرء قائمة طوال مدة بقاء أقربائه في السلطة حتى يرحلوا إلى ديارهم ويحتسوا الشراب الممزوج بالنعناع على شرفات منازلهم. وقد يصبح سجل عمل المرء شيئا رائعا مثيرا للاهتمام يجعل كثيرا من الناس ينالون فرصة النظر فيه طوال العمر".

كان بيرسي ينقّل نظراته بيننا بارتياب، ورفع يده اليسرى على شعره وملس عليه. لم يتفوه بكلمة، لكنني أدركت أننا نلنا منه.

قلت "لنطرح هذا جانبا الآن. إنك تود عدم البقاء هنا أكثر مما نود لك ذلك، أليس كذلك؟".

WWW.REWITY.COM

"إنني أكره هذا المكان!". أخذ في الكلام بعنف. "أكره الطريقة التي تعاملانني بها، إنكما لم تمنحاني أي فرصة!".

كانت كلماته الأخيرة عارية تماما من الصحة، ولكنني رأيت أن هذا ليس بالوقت المناسب لمجادلته في هذا الأمر.

"ثم إنني لا أحب أن أُعامل بهذه القسوة. لقد علمني والدي أنني إذا تركت الناس يعاملونني بهذا الأسلوب من المرة الأولى، فسيقسون علي بلا شك طوال حياتي". كانت عيناه، اللتان لم تكونا بجمال يديه، متوهجتين. "إنني على وجه الخصوص لا أحب أن أعامل بقسوة من جانب القردة الضخمة مثل هذا الرجل". كان ينظر إلى صديقي العجوز مشمئزا. "بروتال، إنك تحمل لقبا ملائما لك على كل حال".

قلت "يجب أن تعي شيئا يا بيرسي، إذا نظرنا إلى الأمر من جهة أخرى، فسنجد أنك أنت من تقسو علينا. لقد أخبرناك مرارا وتكرارا بالطريقة التي ندير بها الأمور هنا ولكنك مستمر في التصرف على هواك، فإذا وقع الخطأ، نراك تحتمي بمعارفك من المسؤولين السياسيين. أما وأنت قد دهست فأر ديلاكروا..."، في هذه اللحظة نظر بروتال إليّ فتداركت بعدها الأمر وتراجعت سريعا عما كنت أقوله. "إن محاولة السير على فأر ديلاكروا إنما هي مجرد مثال بسيط لما تفعله. إنك لا تفتأ تضغط علينا المرة تلو الأخرى، فما كان منا إلا أن نردك عما أنت فيه بعد ما نفد صبرنا، هذا كل ما في الأمر. ولكن أود أن أقول لك إنه من الأفضل لك أن تدع ما أنت عليه من الاستهتار وعدم الاكتراث وأن تترك هذه الأفعال الصبيانية. لن يعلم أحد بشأن هذا النقاش البسيط الذي دار بيننا، فما قولك؟ أريدك أن تتصرف كرجل راشد. عدنا بأنك سترحل بعد إعدام ديل".

أخذ يقلب الأمر في رأسه وبعد لحظة أو اثنتين بدت في عينيه نظرة تشبه نظرة من حلّت بخاطره للتو فكرة حسنة. لم أستحسن ذلك كثيرا،

لأن أي فكرة تبدو حسنة لبيرسي قد لا تبدو هكذا بالنسبة إلينا.

قال بروتال "على كل الأحوال، ستفكر في الأمر، وستجد أنه من الأفضل لك أن تبتعد عن وارتون المثير للمتاعب".

أومأ بيرسي برأسه، ثم تركته ينهض عن الكرسي. أخذ يعدل قميصه، ويدس ظهر القميص داخل سرواله، وشرع يسوي شعره بمشطه، ثم نظر إلينا قائلا "حسنا، أوافق على ما تقولانه. سأحضر مساء الغد إعدام ديل، ثم أتقدم بطلب رسمي للانتقال إلى براري ريدج في اليوم التالي مباشرة. لننهِ الأمر إلى هذا الحد، أهذا حسن؟ قلت "هذا حسن للغاية". كانت تلك النظرة لا تزال في عينيه، ولكنني حينئذ كنت قد نلت من الارتياح ما دفعني لعدم الاكتراث بهذه النظرة. رفع بيرسي يده ومدها إليّ مصافحا "أعدك بذلك" مددت يدي وصافحته وكذلك فعل بروتال.

WWW.REWITY.COM

4

كان اليوم التالي من أكثر الأيام ضبابا، فقد كنا في آخر شهر أكتوبر بحرارته التي لم نعهدها من قبل. وكان الرعد يهزم ناحية الغرب عندما قدمت إلى العمل، وكانت السحب السوداء قد بدأت بالتكاثف هناك، وأخذت تتحرك أقرب فأقرب كلما أرخى الليل سدوله، وكنا نرى خيوط البرق البيضاء والزرقاء تندفع منها. فقد تعرض إقليم ترابينغاوس عند حوالى العاشرة من تلك الليلة إلى إعصار أودى بحياة أربعة أشخاص وأدى إلى اقتلاع سقف إسطبل الخيل في تيفتون، كما ضربت عواصف رعدية شديدة ورياح عاتية منطقة كولد ماونتن. وبدا لي الأمر بعد ذلك كما لو أن السماء تعلن احتجاجها على هذه النهاية المأساوية لإدوارد ديلاكروا.

كانت الأمور تسير على نحو رائع؛ فقد أمضى ديل يوما هادئا في زنزانته، كان يلهو فيه أحيانا مع السيد جينغلز، لكنه في معظم الوقت كان يلاطفه وهو مستلق على فراشه. حاول وارتون إثارة الاضطراب مرتين من قبل. فقد صاح ذات مرة محدثا ديل عن النساء...، إلا أن الرجل الفرنسي صغير الجسم لم يرد عليه، الأمر الذي دفع وارتون إلى التراجع بعد أن بدا له أنه استنفد ما لديه من محاولات.

عند الساعة العاشرة والربع وصل الأخ تشستر وأسعدنا إذ قال إنه سيتلو الصلاة مع ديل باللغة الفرنسية. فقد بدا هذا فأل خير، ولكن كنا في هذا مخطئين بالطبع.

بدأ الشهود بالتوافد حوالى الساعة الحادية عشرة، وكان معظمهم يتحدثون بنبرة منخفضة حول الطقس الذي ينذر بالخطر، إذ ساورتهم

الظنون بشأن إمكانية انقطاع التيار وإرجاء الإعدام. من الواضح أن أحدا منهم لم يعرف أن سباركي العجوز يعمل من خلال مولد، وأن العرض سيستمر ما لم يُصَب الجمع بصدمة برق مباشرة. كان هاري في غرفة التحكم في تلك الليلة، وكان هو وبيل دودج وبيرسي ويتمور يعملون كأدلة يرشدون الجمهور إلى مقاعدهم، ويسألون كل واحد منهم عما إذا كان يريد كوبا من الماء البارد. كان من بين الحضور امرأتان، إحداهما أخت الفتاة التي اغتصبها ديل وقتلها، والأخرى أم أحد ضحايا الحريق. كانت هذه السيدة الأخيرة ضخمة الجثة وشاحبة ومتحفزة. فقد عبرت لهاري تيرويليجر عن أملها في أن يكون الرجل الذي جاءت لرؤيته صحيحا ومرتاعا كي يعلم أن النيران متقدة في الأتون من أجله وأن جهنم بانتظاره. ثم ما لبثت أن انفجرت بالبكاء، ودفنت وجهها في منديل كان بحجم غطاء الوسادة تقريبا.

أخذ الرعد يضرب بقوة وبصوت مدوٍّ لم يفلح السقف الصفيح على الإطلاق في حجبه عن أسماع الحاضرين الذين كانوا يختلسون النظر إليه خائفين. كان الرجال، الذين بدا عليهم التعب جراء ارتداء ربطات العنق في هذه الساعة المتأخرة من الليل، يمسحون العرق عن وجناتهم المتوردة. فقد كانت حرارة الجو أشد من حرارة الوهج الأزرق في حجرة التخزين. كان الجميع بالطبع يداومون النظر إلى سباركي العجوز، وربما ابتدعوا النكات عن هذا العمل الروتيني في وقت مبكر من هذا الأسبوع، ولكن النكات ولت وحل محلها الجد عند الساعة الحادية عشرة والنصف تقريبا من تلك الليلة. لقد بدأت بإخبارك كل هذا لأن المزاح قد ذهب عن المشهد بسرعة بالنسبة إلى الأشخاص الذين من الواجب عليهم الجلوس على هذا الكرسي البلوطي، ولكن لم يكن السجناء المدانون وحدهم هم الذين فقدوا البسمة عن وجوههم عندما حل الموعد حقا. لقد بدا الكرسي جافا للغاية وكان، بطريقة أو

WWW.REWITY.COM

بأخرى، جاثما متأهبا فوق منصته، وقد التصقت كل ملزمة في ناحيتها من قائمتيه الأماميتين، تماما مثل التجهيزات التي يضعها المصاب بشلل الأطفال. لم يكن الكلام كثيرا، وعندما دوّى الرعد مجددا قويا حادا مثل انشقاق الأشجار، صدر عن أخت ضحية ديلاكروا صرخة واهنة. كان كيرتيس أندرسن، نائب المأمور موور، هو آخر من جلس على مقعده في الجانب المخصص للشهود.

عند الساعة الحادية عشرة والنصف، تقدمت إلى زنزانة ديلاكروا، وكان بروتال ودين يسيران خلفي مباشرة. كان ديل جالسا على فراشه واضعا السيد جينغلز في حجره. كان رأس الفأر ممتدا ناحية الرجل المدان، وكانت عيناه الزيتيتان مستغرقتين في وجه ديل. كان ديل يداعب قمة رأس السيد جينغلز بين أذنيه، وقد انساب على وجهه سيل من الدموع، وهي على ما يبدو ما كان الفأر يحدق النظر إليها. رفع ديل رأسه لدى سماعه وقع أقدامنا، كان شاحبا للغاية. وإلى الخلف منا، شعرت بجون كوفي يقف عند باب زنزانته يراقب الموقف.

أجفل ديل لدى سماعه صرير المفاتيح وهي تصطدم بالمعدن، ولكنه التزم الثبات مستمرا في مداعبة رأس السيد جينغلز عندما أدرت المفتاح في القفل وانفتح الباب.

قال "أهلا عزيزي إيدجكومب، مرحبا أيها الرجال، رحب بهم يا سيد جينغلز". ولكن السيد جينغلز تابع النظر بعمق إلى وجه صاحبه الأصلع صغير الجسم كما لو كان يتساءل عن سبب هذه الدموع. كانت البكرة الملونة موضوعة بنظام في جانب صندوق الكرونا، حسبته آخر وضع لها وعندئذ شعرت بغصة تباغتني.

"إدوارد ديلاكروا، بصفتي مسؤولا من جانب المحكمة...".

"سيد إيدجكومب؟".

فكرت في الاستمرار في إلقاء هذه الديباجة المعدة سلفا، ثم

استدركت الأمر مرة أخرى. "ماذا يا ديل؟".

حمل الفأر إليّ قائلا "ها هو، لا تدع مكروها يصيب السيد جينغلز".

"ديل، لا أظنه يرضى بي، إنه ليس...".

"لكنه قال إنه سيأتي إليك، فقد قال لي إنه يعرف كل شيء عنك يا سيد إيدجكومب، وأنك ستأخذه إلى ذلك المكان في فلوريدا الذي تؤدي فيه الفئران عروضها، لقد أخبرني أنه يثق بك". مد يده نحوي وما هي إلا لحظات حتى قفز الفأر من راحته ووثب على كتفي. لقد كان خفيفا لدرجة أنني لم أشعر به على معطفي النظامي، ولكنني شعرت به وكأنه ضرب من الحرارة البسيطة. "لا تدع ذلك الشرير يقترب منه مرة أخرى. لا تدعه يؤذي فأري".

"لا يا ديل، لن أدعه". ولكن السؤال الذي كان يحيرني هو ماذا كان يفترض بي أن أفعل حينئذٍ؟ لم يكن بمقدوري بالطبع أن أصطحب ديلاكروا، وأمر به أمام الشهود وفأره جاثم فوق كتفي.

في هذه الأثناء سمعت صوتا يدمدم خلفي قائلا "سآخذه منك أيها المشرف". كان هذا صوت جون كوفي، وكان غريبا إذ نطقه بهذه النبرة التي خرجت منه حينئذٍ، كما لو كان يقرأ ما جال في خاطري. "الآن فحسب إذا لم يمانع ديل".

أومأ ديل برأسه موافقا بارتياح "فلتأخذه أنت يا جون حتى ينتهي هذا الأمر السخيف! وبعدها..."، ثم تحول نظره إليّ أنا وبروتال قائلا "ستأخذانه إلى فلوريدا، إلى ذلك المكان المدعو ماوس فيل".

"نعم، سنفعل هذا بكل تأكيد، أنا وبول معا". قالها بروتال ناظرا بعين مضطربة غير مستقرة عندما قفز السيد جينغلز من فوق كتفي إلى راحة كوفي الضخمة الممتدة إلى الخارج. صدر هذا من السيد جينغلز من دون أي اعتراض أو محاولة للهروب؛ فقد قفز عن طيب خاطر إلى

WWW.REWITY.COM

ذراع جون كوفي مثلما وثب على كتفي من قبل. "سنأخذ في هذا بعضا من وقت عطلتنا، أليس كذلك يا بول؟".

أومأت برأسي وكذلك فعل ديل وقد لمعت عيناه، وارتسم على شفتيه أثر ضئيل من الابتسام. "سيدفع كل فرد عشرة سنتات لرؤيته، وستين فقط عن كل طفل، أليس هذا صحيحا يا سيد هويل؟".

"بلى يا ديل".

"أنت رجل طيب يا سيد هويل، وأنت أيضا يا سيد إيدجكومب. لقد حزنتما من أجلي من قبل، نعم إنكم جميعا أناس طيبون باستثناء بيرسي، وددت لو قابلتكم في مكان آخر.

قال ديل "وقت سيّئ، حظ سيّئ".

قلت له "لديّ شيء أقوله لك يا ديل، إنها تلك الكلمات التي ينبغي لي أن أقولها لكل فرد قبل أن نسير. ليس هذا أمرا ذا شأن ولكنه جزء من عملي. أتوافق على هذا؟".

فرد قائلا "نعم، سيدي". ثم نظر للمرة الأخيرة إلى السيد جينغلز الجاثم على كتف جون كوفي العريض قائلا "إلى اللقاء يا صديقي"، وشرع في البكاء على نحو أشد. "أحبك يا صغيري". ثم أرسل إلى الفأر قبلة في الهواء. من المفترض أن تكون تلك القبلة الطائرة على سبيل المزاح أو أن تكون مغايرة لغيرها من القبلات الطبيعية، إلا أنها لم تكن كذلك. نظرت إلى عيني دين لبرهة من الوقت، ثم كان عليّ أن أولي نظري عنه. نظر دين إلى أسفل الممر تجاه غرفة الحجز، وابتسم ابتسامة غريبة جعلتني أظن أنه على وشك البكاء. أما بالنسبة إليّ، فقد قلت ما كان عليّ قوله بادئا بالجزء المتعلق بكوني مسؤولا مكلفا من جانب المحكمة، وعندما فرغت مما أقوله، خرج ديلاكروا من زنزانته لآخر مرة في حياته.

"انتظر لحظة أخرى أيها المشرف" استوقفني بروتال ليفحص قمة

رأس ديل، حيث سيتم وضع قبعة الإعدام، ثم أومأ برأسه إليّ وأمسك بكتف ديل قائلا "أنت على ثباتك دوما، إننا في طريقنا الآن".

هكذا سار إدوارد ديلاكروا خطواته الأخيرة في الميل الأخضر وقد انهمرت على وجنتيه سيول طفيفة من العرق المبلل بالدموع متزامنة مع قصف هائل للرعد في السماء. سار بروتال على الناحية اليسرى من الرجل المدان وكنت أنا على الناحية اليمنى، وخلفنا كان دين.

كان تشستر في مكتبي، وكان الحارسان رينجولد وباتل يقفان في الركنين يراقبان الموقف. نظر تشستر إلى ديل وابتسم ثم وجه إليه كلاما بالفرنسية. بدت هذه الكلمات لي متكلفة رسمية، غير أنها صنعت الأعاجيب، فقد ابتسم ديل لتشستر وذهب إليه واضعا يده حوله محتضنا إياه. بدا التوتر على رينجولد وباتل، لكنني رفعت يدي إليهما، وهززت رأسي بأن يتركاه.

استمع تشستر إلى كلمات ديل الفرنسية المختنقة بسيل من الدموع، فأومأ برأسه كما لو كان يفهم ما يُقال بوضوح، ثم ربت على ظهره. كان ينظر إليّ من فوق كتف الرجل الصغير قائلا "أكاد لا أفهم ربع ما يقوله".

دمدم بروتال "لا أظن أن هذا يفيد".

"أنا أيضا يا بني"، قالها تشستر بابتسامة عريضة. لقد كان أفضل الناس، وأدركت الآن أنني لا أدري ماذا أصبح به، ووددت لو يحتفظ بمعتقداته مهما كان يحدث.

استحث ديلاكروا على الركوع على ركبتيه، ثم ثنى يديه وفعل ديلاكروا الشيء نفسه.

بدأ تشستر صلاته، وانضم إليه ديلاكروا. كانا يرددان معا الصلاة بتلك اللكنة الفرنسية الرخيمة تماما، عندئذٍ توقف ديلاكروا عن البكاء وبدا هادئا. عند الانتهاء من ذلك، همّ تشستر للنهوض، ولكن ديل علق

WWW.REWITY.COM

في كم قميصه وقال شيئا ما بالفرنسية. استمع تشستر بعناية وتجشم، ثم أجاب، ثم قال ديل شيئا آخر ناظرا إليه متوسلا.

التفت تشستر إليّ وقال "إنه يطلب مني شيئا آخر يا سيد إيدجكومب. إنه يطالبني بتلاوة صلاة لا أستطيع أن أضنّ بها عليه بدافع عقيدتي، أيمكنني هذا؟".

نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط، ورأيت أنه تبقى سبع عشرة دقيقة على منتصف الليل.

قلت "نعم، ولكن يجب أن تسرع، فأنت تعلم أنه يجب علينا الالتزام بمدد زمنية هنا".

"نعم أعلم". ثم التفت إلى ديلاكروا وأومأ له برأسه.

أغمض ديل عينيه تأهبا للصلاة، ولكنه لم ينطق بكلمة. ارتسم على جبهته التجشم وظهرت التجاعيد عليها وشعرت به مستغرقا في تفكيره إلى أبعد حدٍّ كما لو كان شخصا يفتش في عِلّيّة صغيرة عن شيء مهمل (أو متروك) منذ أمد بعيد للغاية. نظرت إلى الساعة مرة أخرى. هممت بالكلام لولا جذب بروتال كمي وهز رأسه لي للتوقف.

عندئذ بدأ ديل التحدث بصوت منخفض ولكن بنغمة سريعة بتلك اللكنة الفرنسية التي كانت مخارج حروفها دائرية ورقيقة ومثيرة.

وأخذ نفسا عميقا متهدجا ثم انسل البرق عبر إحدى نوافذ الغرفة في وهج وجيز يمزج بين اللونين الأزرق والأبيض حين نهض ديلاكروا واقفا على قدميه. وقف الجمع بما يشبه الخنوع باستثناء ديل الذي كان لا يزال مستغرقا في صلاته. بسط يده ولم ينظر ليعرف أين تتجه، فقد تناولها بروتال وضغط عليها برفق. نظر ديلاكروا إليه مبتسما ابتسامة خفيفة، وبدأ الكلام بقوله "-Nous voyons"، ثم ما لبث أن توقف، وتحولت لغته عن عمد إلى الإنجليزية "يمكننا الذهاب الآن يا سيد هويل، وأنت يا سيد إيدجكومب، فلقد اطمأن قلبي بذكر الله".

"هذا جيد". قلتها متسائلا عن ماهية الطمأنينة التي كان سيشعر بها ديل بعد عشرين دقيقة من الآن عندما يقف في الجانب الآخر من الكهرباء. وددت لو استُجيب دعاؤه، ذلك أن إدوارد ديلاكروا المغتصب والقاتل كان يحتاج في ذلك الوقت إلى كل دعاء وصلاة. عاد الرعد في الخارج يهزم بقوة في أرجاء السماء كافة. "هيا ديلاكروا، فنحن على وشك الاقتراب الآن".

"حسنا يا سيدي، هذا حسن، فلن أخاف بعد الآن". قال ذلك، ولكنني رأيت في عينيه الكذب، فعندما يتجاوزان المسافة المتبقية من السجادة الخضراء ويلجان الباب الصغير، سيكون جميعهم خائفين.

"قف هنا في الأسفل يا ديل"، أمرته بصوت منخفض لدى دخوله، ولكن لم أكن بحاجة إلى إسدائه هذه النصيحة؛ فقد وقف أسفل الدرج، وقف جامدا وكان هذا بسبب رؤيته بيرسي ويتمور واقفا على المنصة واضعا الدلو والإسفنجة بجوار إحدى قدميه، والهاتف الذي اتصل منه بالحاكم يكاد يبرز من فخذه الأيمن.

"لا"، قال ديلاكروا بصوت منخفض مروع، "لا، لا، ليس هو!".

قال بروتال "تقدم، لا تنظر إلا إليّ وإلى بول وتغاضى عن وجوده هناك".

"لكن...".

التفت الحضور للنظر إلينا، ولكنني تحركت بجسمي قليلا وكنت لا أزال أتمكن من الإمساك بمرفق ديلاكروا الأيسر من دون أن يرانا أحد. "اثبت"، قلت بصوت لم يسمعه إلا ديل وربما بروتال، "إن الشيء الوحيد الذي سيتذكرك به معظم هؤلاء القوم هو تحملك للموقف، ولهذا يجب أن تعطيهم انطباعا جيدا".

في هذه اللحظة ضرب الرعد أشد هزيمه، وكان من الحدة أن اهتز له السقف الصفيحي لحجرة التخزين. انتفض بيرسي كأن أحدا

WWW.REWITY.COM

وخزه في مؤخرته، وابتسم ديل بشخرة تنم عن الازدراء والسخط. "إذا ارتفعت حدة الهزيم أعلى من هذا، فسيتبوّل على نفسه مجددا"، قالها ثم أقام ظهره على قصر طوله. "هيا، لننهِ هذا الأمر".

سرنا إلى المنصة. ألقى ديلاكروا نظرة عصبية على الشهود لدى مرورنا، كان عددهم خمسة وعشرين فردا هذه المرة، لكن لم نتحول أنا وبروتال ودين بأبصارنا عن الكرسي. رفعت إبهامي وحركت حاجبي لبيرسي، الذي بدت على وجهه كشرة صغيرة، رغبة مني بالاستفسار عن سبب هذه الكشرة وعما إذا كان كل شيء على ما يرام، وكان رده أنه هكذا بالفعل.

وددت أن يكون هذا صحيحا.

توجهت وبروتال تلقائيا إلى مرفقي ديلاكروا عندما هم بالصعود إلى المنصة. لم يكن ارتفاعها سوى ثماني بوصات أو أكثر قليلا عن الأرض، ولكنك قد تدهش حين تعلم كيف أن العديد منهم، حتى أشدهم قوة، يحتاجون إلى من يعينهم على اتخاذ هذه الخطوة الأخيرة في حياتهم.

مع ذلك، خطاها ديل على نحو جيد، ووقف أمام الكرسي لحظة (وقد عزم على عدم النظر إلى بيرسي)، ثم خاطبه كما لو كان يعرفه بنفسه قائلا "هذا أنا". اقترب بيرسي منه، ولكن ديلاكروا استدار من نفسه وجلس. جثوت على ركبتي، وأصبحت الآن إلى الجانب الأيسر منه، وجثا بروتال إلى الجانب الأيمن منه. احترست لزاوية انفراج رجلي وحلقي بالطريقة التي بينتها من قبل، ثم أدرت الملزمة على محورها إلى الداخل بحيث يحيط فكاها المفتوحان بالجلد الأبيض الرقيق أعلى كاحل الرجل الفرنسي بقليل. هزم الرعد ثم نهضت. كان العرق يسيل على عينيّ فيوخزهما. ما فتئت أتذكر ماوس فيل لسبب أو لآخر، وكيف سيدفع الناس عشرة سنتات للكبار وسنتين للصغار من أجل الدخول ومشاهدة السيد جينغلز من نوافذه الزجاجية الشفافة.

كانت الملزمة عصية على الإغلاق. كنت أسمع ديل يطلق من أنفه أنفاسا عميقة من الهواء الجاف؛ فرئتاه اللتان ستصبحان كيسين متفحمين في أقل من أربع دقائق من الآن تعملان من أجل السيطرة على قلبه المفعم بالخوف. وحقيقة أنه قتل نصف دزينة من البشر بدت في تلك اللحظة أقل الأمور شأنا له. إنني لا أحاول هنا سرد شيء عن الصواب والخطأ، وإنما ما أردت إلا أن أصف الموقف.

جثا دين بجواري هامسا "ما الخطب يا بول؟".

"لا أستطيع..." وما إن شرعت في الكلام حتى أطبقت الملزمة فكيها محدثة صوت طقطقة مسموعا. لا بد من أنها أيضا قد قرصت بفكيها على جزء من جلد ديلاكروا، ذلك لأنه أجفل وأصدر صيحة هامسة. فقلت "آسف".

"لا بأس يا سيدي، إنها ستؤلمني لدقيقة فحسب". قال ديل.

كانت الملزمة من ناحية بروتال تحتوي على القطب الكهربائي، وهي تأخذ وقتا أطول قليلا لإغلاقها، وهكذا نهضنا نحن الثلاثة في وقت واحد تقريبا. توجه دين إلى ملزمة المعصم على الجانب الأيسر لديل، وذهب بيرسي إلى الأخرى على الجانب الأيمن. كنت جاهزا للتقدم إذا احتاج بيرسي إلى المساعدة، لكنه تعامل مع ملزمة المعصم أفضل مما فعلت مع ملزمة الكاحل. أرى الآن جسد ديل ينتفض عن بكرة أبيه، كما لو كان تيار منخفض يتخلله بالفعل. أكاد أشم رائحة عرقه أيضا، كان كريها وحادا وكان يذكرني بعصارة المخلل القديم.

أومأ دين إلى بيرسي. أدار بيرسي ظهره - يمكنني الآن رؤية موضع أسفل زاوية فكه مباشرة حيث جرح نفسه في أثناء الحلاقة في ذلك اليوم - قائلا بصوت منخفض حازم "انتهت الخطوة الأولى!".

كانت الهمهمة تسود المكان، وكانت من نوع يشبه صوت الثلاجة القديمة حين تقرقر، وكانت المصابيح المعلقة تسطع في غرفة التخزين.

WWW.REWITY.COM

وثمة أحاديث لاهثة خافتة وهمهمات تخرج من أفواه الحضور. انتفض ديل في موضعه على الكرسي، وكانت يداه تقبضان على طرفي الذراعين البلوطيتين بقوة تكفي لامتقاع لون مفاصل الأصابع. دارت عيناه من جانب إلى جانب في محجريهما، وتسارعت أنفاسه الجافة أكثر فأكثر، فقد أصبح يلهث الآن تقريبا.

"اثبت"، همهم بروتال، "اثبت يا ديل فأنت بخير. تشجع، فأنت بخير".

تعالوا إلى هنا! تعالوا لتشاهدوا ما يمكن أن يفعله السيد جينغلز! كانت هذه الكلمات تجول في خاطري فيما كان الرعد يهزم فوق رؤوسنا مجددا.

تقدم بيرسي من الخلف مختالا حتى وقف أمام الكرسي الكهربائي. كانت هذه لحظته الحاسمة، فهو الآن يقف في منتصف المنصة، وكل الأعين مصوبة نحوه. كان الجميع ينظرون إليه باستثناء شخص واحد. فما إن عرفه ديلاكروا حتى أحنى رأسه ناظرا إلى حجره بدلا من النظر إليه. كنت أراهن بدولار مني لقاء كعكة منك أن بيرسي سيتلعثم بما سيقوله أمام الجمهور، لكنه قال الكلمات بسهولة وسلاسة من دون أدنى خطأ من جانبه، فكانت هذه الكلمات تخرج من فمه بصوت هادئ مهيب.

"إدوارد ديلاكروا، لقد حُكم عليك بالإعدام على الكرسي الكهربائي بناء على حكم صدر عن هيئة محلفين من نظرائك وتأييد له من جانب قاضٍ ذي أهلية قانونية في هذه الولاية، فليحفظ الله شعب هذه الولاية. هل تود قول شيء قبل تنفيذ الحكم؟".

حاول ديل الكلام لكن لم يخرج منه في بادئ الأمر سوى همسة مروعة مليئة بالهواء والأصوات المتحركة. وكان ثمة طيف ابتسامة مفعمة بالازدراء يلامس جوانب شفتي بيرسي، وتمنيت لو أطلقت عليه النار عن طيب خاطر وهو واقف هناك. لعق ديل شفتيه وجدد المحاولة.

قال "إنني نادم على ما اقترفته، وددت لو كان باستطاعتي أن أفعل أي شيء لإدارة عقارب الساعة إلى الوراء، ولكن لا أحد يستطيع. وها أنا ذا الآن...". هزم الرعد فوقنا بقوة مثل قذيفة مدفع انفجرت في الهواء. وثب ديل بقدر ما سمحت له الملزمات، وكانت عيناه تبرزان بشدة من وجهه المخضل. "وها أنا ذا الآن أدفع الثمن. فليسامحني الله". لعق شفتيه مجددا ونظر إلى بروتال. "لا تنسَ وعدك بشأن السيد جينغلز"، قالها بصوت أقل انخفاضا قاصدا كلينا به.

"لن ننسى، لا تقلق". قلتها وربت على يد ديلاكروا الباردة كالصلصال. "سيذهب إلى ماوس فيل...".

"فليذهب إلى الجحيم". قال بيرسي متحدثا من جانب فمه بثقة وهو يربط حزام التقييد حول صدر ديلاكروا. "ليس لمثل هذا المكان وجود، وما هذه إلا حكاية خرافية من نسج هذين الرجلين ليضمنا هدوءك، يجب أن تعلم هذا أيها الأحمق".

أخبرني بريق الدهشة الذي لمع في عيني ديل أنه يعلم ذلك، ولكنه آثر إخفاء ما يعلم إذا كان بإمكانه. نظرت إلى بيرسي مشدوها مغتاظا، ثم نظر إليّ رابط الجأش كأنما يريد أن يسألني ما الذي يمكنني فعله. ولقد أصاب في هذا من دون شك؛ فلا يمكنني فعل شيء في هذا الشأن، ليس أمام الشهود، ليس في هذا الموقف الذي يعيش فيه ديلاكروا الآن آخر لحظات حياته. ليس لديّ ما أفعله الآن إلا مواصلة هذا الأمر والانتهاء منه.

أخذ بيرسي القناع عن علاّقته، وسحبه إلى الأسفل على وجه ديل، رابطا إياه بإحكام أسفل الذقن البارز لهذا الرجل النحيل وذلك من أجل بسط الفتحة الموجودة بقمة القناع. كانت الخطوة التالية هي التقاط الإسفنجة من الدلو ووضعها في القناع، وهنا حاد بيرسي للمرة الأولى عن الروتين المتبع؛ فبدلا من أن ينحني ويلتقط الإسفنجة، أخذ

WWW.REWITY.COM

القناع الحديدي من خلف الكرسي، وانحنى به وهو في يديه. بعبارة أخرى، بدلا من أن يجلب الإسفنجة إلى القناع، وهو المتبع في الأحوال العادية، جلب القناع إلى الإسفنجة. كان ينبغي لي أن أدرك أن هناك شيئا ما خطأ، لكنني كنت قلقا، فقد كانت هذه حالة الإعدام الوحيدة التي شعرت فيها بفقدان السيطرة. أما عن بروتال، فلم ينظر إلى بيرسي مطلقا، لم ينظر إليه وهو ينحني إلى الدلو (بحركة تحول دون رؤيتنا لما كان يفعل)، ولم ينظر إليه حين اعتدل والتفت إلى ديل والقناع في يديه والدائرة البنية للإسفنجة داخلها بالفعل. كان بروتال ينظر إلى قطعة القماش التي كانت تغطي وجه ديل بأكمله، كان يشاهد القناع الحريري الأسود وهو ينكمش مبينا محيط دائرة فم ديلاكروا المفتوح، ثم ينتفخ مرة أخرى بفعل أنفاسه. كانت ثمة قطرات كبيرة من العرق تنضح على جبهة بروتال وصدغه أسفل خط الشعر مباشرة. لم أره من قبل يتصبب عرقا في أي مشهد إعدام. وإلى الخلف منه كان دين يبدو ذاهلا، كما لو كان يمنع نفسه من التقيؤ. كنا جميعا ندرك أن ثمة شيء خطأ، أعلم ذلك الآن، ولكننا لم نستطع معرفة ما هو ذلك الخطأ. لم يعلم أحد، ولا حتى عن الأسئلة التي طرحها بيرسي من قبل إلى جاك فان هاي. كان هناك العديد منها، لكنني كنت أشك أن معظمها ما كان إلا تمويها. فلقد كان بيرسي يريد العلم بأمر الإسفنجة، وأعتقد أن هذا فقط هو ما كان يريد معرفته. كان يسأل عن الغرض منها، ولماذا تُنقع في المياه المالحة، وماذا يحدث لو لم تُنقع فيه.

ماذا يحدث لو كانت الإسفنجة جافة.

ضغط بيرسي بالقناع على رأس ديل، فوثب الرجل النحيل وأصدر أنينا مجددا ولكن بصوت أعلى هذه المرة. اضطرب بعض الشهود في مقاعدهم خائفين. تقدم دين نصف خطوة إلى الأمام قاصدا المساعدة على حزم رباط الذقن، إلا أن بيرسي أومأ إليه على نحو جاف بالتراجع.

تراجع دين حانيا ظهره قليلا وجافلا بسبب اهتزاز سقيفة التخزين على إثر ضربة أخرى من هزيم الرعد. وكانت هذه المرة متبوعة بتساقط أول قطرات من المطر عبر السقف. كان صوتها حادا مثلما تقذف بقوة حفنة من الفول السوداني على لوح غسيل.

لقد سمعت من قبل مقولة لقد جف الدم في عروقي أليس كذلك؟ بالطبع كلنا سمعناها، لكنني للمرة الأولى في حياتي شعرت بالفعل بجفاف الدم في عروقي. كان ذلك في ذلك اليوم الجديد المفعم بالصواعق في شهر أكتوبر من عام 1932 عند الساعة الثانية عشرة والعشر دقائق بعد منتصف الليل. لم يكن ذلك بسبب نظرة الانتصار المسمومة التي بدت على وجه بيرسي ويتمور لدى تراجعه عن الشخص الذي تغطي رأسه قلنسوة سوداء، والمكبل الجالس على سباركي العجوز، ولكن بسبب ما كان ينبغي لي أن أراه ولم أفعل. لم يكن هناك أي مياه تسيل على وجنتي ديل من خارج القناع. هذا ما أدركته في النهاية.

"إدوارد ديلاكروا"، طفق بيرسي يقول، "ستسري الكهرباء الآن عبر جسدك حتى الموت بموجب قانون الولاية".

نظرت إلى بروتال بكرب جعل مسالكي البولية تبدو وكأنها إصبع يهتز. الإسفنجة جافة! غمغمت له، لكنه كان يهز رأسه فقط تعبيرا عن عدم فهم ما أقوله، ثم نظر إلى القناع فوق وجه الرجل الفرنسي الذي كانت أنفاسه الأخيرة تسحب الحرير الأسود فينكمش ثم تدفعه فينتفخ مرة أخرى.

أمسكت بمفرق بيرسي ولكنه ابتعد عني ملقيا عليّ نظرة باردة في أثناء توليه. كانت نظرة لحظية، إلا أنها حملت المعاني جميعها إليّ. سيتمكن بعد ذلك من ترويج الأكاذيب والحقائق المنقوصة، وسيصدق معظمها لدى الأشخاص الذين يهتمون لأمره، لكنني أعرف حقائق أخرى. كان بيرسي تلميذا نجيبا عندما ينفذ ما يُعنى به، حيث اتضح

WWW.REWITY.COM

ذلك من التدريبات العملية التي تسبق عملية الإعدام عندما كان ينصت بعناية إلى جاك فان هاي وهو يشرح كيف أن الإسفنجة المشبعة بالماء الملحي توصل التيار الكهربائي وتمرره وتحول الشحنة إلى نوع من القذائف الكهربائية إلى المخ. آه نعم، كان بيرسي يعلم جيدا ما يفعله. أعتقد أنني صدقته بعد ذلك عندما قال إنه لا يعلم كيف سيسير الحال، ولكن لا قيمة لذلك حتى من قبيل النوايا الحسنة، أليس كذلك؟ لا أعتقد ذلك. ومع هذا، ما لم أصح أمام نائب المأمور والشهود كافة إلى جاك فان هاي بعدم جذب مفتاح التيار، فلا يمكنني فعل أي شيء. إذا أُمهلت خمس ثوانٍ أخرى، أعتقد أنه سيكون بإمكاني الصياح، ولكن بيرسي لم يمهلني هذه الثواني الخمس الأخرى.

"نسأل الله أن يتغمد روحك برحمته". قالها مخاطبا الشخص المنتفض المروع على الكرسي الكهربائي، ثم نظر عبره إلى المنطقة المستطيلة المغطاة بالشباك التي كان يقف فيها هاري وجاك، وكان جاك يضع يده على مفتاح التيار المكتوب عليه "مجفف الشعر مابل". كان الطبيب يقف إلى اليمين من تلك النافذة، وقد ركّز عينيه على الحقيبة السوداء بين قدميه، بهدوئه ورباطة جأشه كالعادة. "التهمت الخطوة الثانية".

في بادئ الأمر، كان المشهد يسير كعهدنا به دوما، كانت الهمهمة أعلى قليلا مما كانت عليه في الأصل، وكان ديل يندفع بجسده من دون تروٍّ بسبب تشنج عضلاته.

ثم بدأت الأمور تسير في الاتجاه الخطأ.

فقدت الهمهمة اتزانها، وبدأت بالاضطراب، وامتزجت بصوت فرقعة كخشخشة الورق المفضض. كنت أشم رائحة فظيعة لم أتعرف إليها؛ إذ كانت مزيجا من رائحة شعر محترق وإسفنج عضوي حتى رأيت خيوطا زرقاء من الدخان تنسل متموجة أسفل حوافّ القناع. كان المزيد

من الدخان يتدفق من الفتحة الموجودة أعلى الخوذة التي يدخل السلك منها، كان يشبه الدخان الخارج من فتحة إحدى خيام الهنود الحمر.

بدأ ديلاكروا يفزع ويتلوى على الكرسي، وكان وجهه المغطى بالقناع يتحرك بسرعة على الجانبين وكأنه في حالة رفض عنيف. وبدأت رجلاه تتخبطان إلى الأعلى وإلى الأسفل في ضربات قصيرة كانت تعيقها الملزمتان الموصدتان بكاحليه. هزم الرعد فوق رؤوسنا وهنا بدأ المطر ينهال بدرجة أشد.

نظرت إلى دين ستانتون، فحدّق إليّ غاضبا. كان ثمة صوت فرقعة مكتوم يخرج من أسفل القناع، مثل عقدة بخشب الصنوبر تنفجر في نار حامية. يمكنني الآن رؤية الدخان متسللا عبر القناع أيضا في خيوط متعرجة.

اندفعت إلى الشبكة الفاصلة بيننا وبين غرفة مفاتيح التحكم، ولكن قبل أن أتمكن من فتح فمي، قبض بروتوس هويل على مرفقي. كانت قبضته من الشدة بما يكفي لإيلام أعصاب المرفق. لقد استحالت بشرته إلى لون حانق، لكنه لم يكن فزعا، بل لم يكن قريبا من الفزع حتى. "لا تأمر جاك بالتوقف"، قال بصوت منخفض. "لا تأمره بذلك مهما حدث، لقد فات أوان التوقف".

عندما بدأ ديل بالصراخ لم يسمعه الشهود في بادئ الأمر. فقد ارتفع صوت انهمار المطر على السقف الصفيحي حتى بلغ أشده، وأصبح الرعد متواصلا، لكن كنا نحن الموجودون على المنصة نسمعه جيدا، كنا نسمع صراخه المختنق من أسفل القناع المعبأ بالدخان، كان يبدو كحيوان تم اصطياده وشيّه فوق كومة قش.

علت الآن حدة الهمهمة الصادرة من القناع وأصبحت شرسة، وكان يتخللها دوي يشبه تشويش المذياع. بدأ ديلاكروا بالاندفاع بقوة إلى الوراء وإلى الأمام على الكرسي مثل طفل أصابته نوبة غضب. اهتزت

WWW.REWITY.COM

المنصة، فقد كان يضرب حزام التقييد الجلدي بقوة تكفي لتفجيره. وكان التيار أيضا يسري فيه بحركة دائرية من جانب إلى آخر، وسمعت صوت سحق؛ إذ كُسر كتفه الأيمن أو انخلع من مكانه، كان الأمر يشبه انهيال شخص على قفص خشبي بمطرقة شديدة. واستحال منفرج قدميه، الذي تلاشى تماما بسبب الضربات الضاغطة العنيفة التي كان يحدثها بقدمه، إلى سواد. ثم ما طفق يطلق صرخات طويلة وحادة ومفزعة تشبه أصوات الفئران، وكانت تفوق صوت انهمار المطر.

"ماذا يحدث له؟"، صاح أحد الحضور.

"هل ستبقى هذه الملزمات على حالها؟".

"يا الله، الرائحة! أف!".

ثم تساءلت إحدى السيدتين "هل هذا طبيعي؟".

اندفع ديلاكروا إلى الأمام صارخا ثم سقط إلى الخلف ثم اندفع إلى الأمام صائحا ثم هوى إلى الخلف. كان بيرسي يحدق إليه بفزع أوهن فكه. لقد كان يتوقع شيئا ما بلا شك، ولكن ليس بهذه الصورة.

اندلعت النيران في القناع على وجه ديلاكروا، وقد امتزجت الآن رائحة الشعر والإسفنج برائحة اللحم المطهي. أمسك بروتال الدلو الذي كانت الإسفنجة فيه، لقد أصبح فارغا الآن بالطبع، وأمر بتعبئته بالمزيد، فقد كان هناك حوض مياه للحاجب في الركن.

"ألا يجب أن أفصل التيار يا بول؟"، صاح فان هاي عبر الشبكة، وكان صوته يشبه الثرثرة تماما. "ألا يجب أن...".

"نعم!"، صحت فيه. لقد فهم بروتال الأمر أولا، ولم أفهمه إلا متأخرا، يجب أن ننتهي من هذه المسألة. فأي شيء يتحتم علينا فعله بقية حياتنا لا بد من أن يأتي تاليا لهذا الأمر، يجب أن ننهي الأمر مع ديلاكروا. "بالله عليك لا تتوقف! استمر، استمر، استمر!".

التفت إلى بروتال، وأكاد لا أعي من يتحدث خلفنا من الحضور

الآن، كان بعضهم يقفون على أقدامهم، وصرخ زوجان منهم. صحت في بروتال "كف عن هذا! لا ماء! لا ماء! هل أنت مخبول؟".

التفت بروتال إليّ، وقد بدا على وجهه التفهم بانبهار لما أقوله؛ فلا يجب إلقاء ماء على رجل يسري فيه التيار الكهربائي. نعم، فهذه عين الفطنة. التفت حوله ووجد مطفأة الحرائق الكهربائية معلقة على الحائط، واستخدمها بدلا من الماء. يا له من فتى مخلص.

انسلخ القناع من وجه ديلاكروا بما يكفي لإزالة ملامحه التي أضحت أكثر سوادا من ملامح جون كوفي. فلقد جحظت عيناه اللتان لم تعودا الآن سوى كرتين مشوهتين من الهلام الأبيض الشفاف، وبرزتا من محجريهما وانسدلتا على وجنتيه. واختفت أهداب جفنيه، وعندما نظرت رأيت الجفنين قد طالتهما النيران وبدأا بالاحتراق. وخرج الدخان من فتحة قميصه. وكان طنين الكهرباء لا يزال مستمرا، كان يملأ رأسي ويهزه. أعتقد أنه الصوت الذي يطن في آذان المجانين أو شيء من قبيله.

تقدم دين إلى الأمام، ظانا أن بإمكانه إبعاد النيران بطريقة حريصة عن قميص ديل ويديه، بيد أنني جذبته بقوة كافية لسحبه من قدميه. إن ملامسة ديلاكروا في هذه اللحظة تزيد الموقف سوءا وتعقده.

لم ألتفت حتى الآن لأرى ما يدور خلفي، ولكن كنت أسمع ما يشبه الجلبة من انقلاب المقاعد وصياح الحضور، فقد كانت إحدى السيدات تصرخ بأعلى صوتها أن "أوقفوا ذلك الشيء، أوقفوه، ألا ترون أنه قد نال ما يكفيه؟". جذبني كيرتيس أندرسن من كتفي، وسألني عما كان يحدث، ماذا يحدث بحق الله، ولماذا لم آمر جاك بفصل التيار؟

"لأنني لا أستطيع". أجبته. "لقد وصلنا إلى مرحلة لا يمكن فيها التراجع، ألا ترى هذا؟ سينتهي الأمر في بضع ثوانٍ قليلة على كل حال".

WWW.REWITY.COM

لكن كان هناك دقيقتان على الأقل قبل الانتهاء، كانتا أطول دقيقتين في حياتي بأسرها، وكان ديلاكروا لم يفقد وعيه خلال السواد الأعظم منهما. كان يصرخ ويثب ويهتز من جانب إلى آخر. وتدفق الدخان من أنفه ومن فمه الذي استحال إلى اللون الأرجواني المزرق الداكن مثل ثمرة البرقوق الناضجة. وصعد الدخان من لسانه كما يصعد من صينية طهي حامية. وكانت جميع أزرار قميصه إما انفجرت أو ذابت. وبالرغم من عدم وصول النيران إلى قميصه الداخلي، إلا أنه تفحم وانسل الدخان عبره وكنا نشم رائحة شواء شعر صدره. وإلى الخلف منا، كان الجمع يفرون صوب الباب مثل قطيع ماشية أصابه تشتت مفاجئ. لم يتمكنوا من الخروج عبره بالطبع، فنحن في سجن لعين في النهاية؛ ومن ثم تجمعوا حوله فيما كان ديلاكروا يُقلى في النيران. (إنني أُقلى الآن، قالها توت توت العجوز عندما كنا نجري التجارب العملية قبل إعدام آرلن بيتربك، لقد أصبحت ديكا روميا مقليا) وواصل الرعد هزيمه وانهمر المطر من السماء بغضب جم.

فكرت في الطبيب في لحظة ما والتفت حولي بحثا عنه. كان لا يزال في مكانه، ولكنه منهار على الأرض بجوار حقيبته السوداء، لقد فقد وعيه.

جاء بروتال ووقف بجانبي حاملا مطفأة الحريق.

قلت له "ليس الآن".

"أعرف".

نظرنا حولنا بحثا عن بيرسي ووجدناه واقفا الآن خلف سباركي تقريبا، كان متجمدا في مكانه، وكانت عيناه متضخمتين وكان يحشو فمه بأحد مفاصل أصابعه.

في النهاية، سقط ديلاكروا إلى الخلف على الكرسي وقد انسدل وجهه المنتفخ المشوه على إحدى كتفيه. كان لا يزال ينتفض، ولكننا

رأينا ذلك من قبل، فالتيار كان لا يزال ساريا عبر جسده. انحرف القناع عن رأسه، ولكن عندما رفعناه قليلا في ما بعد، علقت به معظم فروة رأسه، وما تبقى من خصلات شعره كانت ملتصقة بالمعدن وكأنما دهنت بمادة لاصقة قوية المفعول.

"افصله!"، أمرت جاك بذلك عندما انقضت ثلاثون ثانية من دون حدوث أي شيء سوى زفرات كهربائية قادمة من كتلة متفحمة لهيكل آدمي مدخن ومتدلٍّ على الكرسي الكهربائي. توقف الطنين في الحال، وأومأت برأسي إلى بروتال.

استدار، وسلم المطفأة إلى بيرسي بعنف أدى إلى ترنح بيرسي إلى الخلف حتى كاد يهوي عن المنصة. "لقد فعلتها". قال بروتال، "إنك تدير هذا العرض بالرغم من كل شيء، أليس كذلك؟".

رمقه بيرسي بنظرة سقيمة وقاتلة في آن واحد، ثم حمل المطفأة بين ذراعيه ورجها وفتح صنبورها وصوب سحابة هائلة من الرغوة البيضاء فوق الرجل الجالس على الكرسي. رأيت قدم ديل تنتفض حين ارتطم الرذاذ بوجهه وظننت أنه علينا معاودة الكرة مرة أخرى، ولكنها كانت الانتفاضة الوحيدة التي صدرت منه.

استدار أندرسن، وصاح في جمهور الشهود المذعورين، قائلا لهم إن كل شيء على ما يرام، الموقف برمته تحت السيطرة، وما هذا إلا تموج مفاجئ في التيار نتيجة لعاصفة كهربائية، فلا شيء يدعو للقلق. وكان عليه أن يخبرهم بعد ذلك أن ما يشمونه، من رائحة بغيضة تمزج بين شعر محروق ولحم مقلي وغائط طازج محمص، ما هو إلا عطر شانيل رقم 5.

"أحضر سماعة الطبيب". قلت لدين بعد أن فرغت المطفأة. لقد أصبح ديلاكروا مطليا باللون الأبيض الآن، وإن أسوء الروائح المنتنة قد تغشاها رائحة كيميائية متفرقة ولاذعة كهذه.

WWW.REWITY.COM

"الطبيب... ينبغي لي أن...".

"لا عليك بالطبيب، أحضر سماعته فحسب". قلت له. "لننهِ هذا... ونخرجه من هنا".

أومأ دين. وكان في هذه اللحظة تجول في خاطره فكرتان، كانتا تجولان في خاطرينا نحن الاثنين. ذهب إلى حقيبة الطبيب وطفق يفتش فيها. بدأ الطبيب بالتحرك مرة أخرى، وبالتالي، فهو لم يصب بسكتة أو صدمة قلبية على الأقل. كان هذا حسنا، بيد أن الطريقة التي كان ينظر بها بروتال إلى بيرسي لم تكن هكذا.

قلت له "انزل إلى النفق وانتظر بجوار العربة".

ازدرد بيرسي لعابه قائلا "بول، اسمع. لم أعلم...".

"انزل إلى النفق وانتظر بجوار العربة، الآن".

ازدرد لعابه مشمئزا كما لو كان يبتلع حنظلا، ثم سار صوب الباب المؤدي إلى الدرج ومنه إلى النفق. حمل مطفأة الحريق الفارغة بين ذراعيه كما لو كانت طفلا رضيعا. مر دين به لدى عودته بسماعة الطبيب. اختطفتها منه ووضعت طرفيها في أذني، لقد فعلت ذلك من قبل عندما كنت في الجيش، وقد صار أمرا يسيرا عليّ لا يمكن نسيانه مثل قيادة الدراجة.

مسحت الرغوة عن صدر ديلاكروا، وكان عليّ أن أسد فمي كي لا أتقيأ؛ إذ انسلخ جزء كبير وساخن من جلده عن لحمه وانزلق إلى الأسفل، مثلما ينسلخ الجلد عن... حسنا، أنت تعلم ذلك، عن ديك رومي مطهي.

"يا الله" تنهد صوت خلفي لم أكد أدرك صاحبه. "هل يحدث هذا دوما؟ لماذا لم يخبرني أحد كي لا آتي؟!".

قلت في نفسي "فات الأوان يا صديقي". "أخرجوا هذا الرجل من هنا". قلت لدين أو بروتال أو من يستطيع سماعي، قلتها عندما كنت

متأكدا من عدم القدرة على الكلام من دون التقيؤ في حجر ديلاكروا المدخن. "أخرجوهم جميعا".

استجمعت شجاعتي بقدر ما استطعت، ثم وضعت قرص السماعة على رقعة اللحم النيء الأحمر الداكن التي صنعتها في صدر ديل. أصغيت داعيا ألا أسمع شيئا، بالفعل استُجيب دعائي.

"لقد مات". أخبرت بروتال.

"حمدا لله".

"نعم، حمدا لله. أحضر أنت ودين النقالة. لنفك قيوده ونخرجه من هنا بسرعة".

WWW.REWITY.COM

5

كان أكثر ما أخشاه هو أن ينسلخ لحمه المطهي عن عظامه عندما كنا نحمله، إذ جال في خاطري حينئذٍ وصف توت توت العجوز نفسه بالديك الرومي المطهي، ولكن لم يحدث ذلك.

كان كيرتيس أندرسن في الطابق العلوي يهدّئ من روع الحضور، كان يحاول على كل حال. وكان ذلك جيدا لبروتال لأن أندرسن لم يكن هناك ليراه وهو يتقدم إلى طرف العربة ويرفع يديه ليلطم بيرسي الذي كان واقفا هناك مذهولا. أمسكت ذراعه وكان هذا في صالح الاثنين. في صالح بيرسي لأن بروتال عمد إلى توجيه صفعة إليه بقوة كفيلة بفصل عنقه، وفي صالح بروتال لأنه كان سيفقد عمله إذا أصابت الضربة هدفها، وربما ينتهي به الحال إلى السجن نفسه.

"لا"، قلت له.

"ماذا تعني بلا؟"، سألني وهو يستشيط غضبا. "أنى لك أن تقول لا؟ لقد رأيت ما فعل! ماذا ستخبرني؟ أنك ستدع معارفه يحمونه؟ بعد كل ما فعله؟".

حدّق بروتال إليّ فاغر الفم وقد بدا الغضب في عينيه اللتين كانتا تدمعان.

"أصغِ إليّ يا بروتال، إذا لطمته، فمن المرجح أن نرحل جميعا، أنت وأنا ودين وهاري وربما جاك فان هاي. أي شخص آخر سيرتقي درجة أو درجتين بداية من بيل دودج وستعين إدارة مفوضية السجون آخرين لسد العجز. ربما يمكنك التعايش مع ذلك، لكن..."، أشرت إلى دين الذي كان ينظر من عل إلى النفق المعبأ بالعرق والمصطف بالآجر

حاملا نظارته في إحدى يديه وهو مشدوه مثل بيرسي. "لكن ماذا عن دين؟ فلديه من الأبناء اثنان، أحدهما في المدرسة الثانوية والثاني على وشك المشي".

"إذا، كيف ستتعامل مع الأمر؟"، سألني بروتال، "هل ستتركه ينجو بفعلته؟".

"لم أكن أعلم أنه يجب أن تكون الإسفنجة مبتلة". قال بيرسي بصوت خافت تلقائي. هذه كانت القصة التي نسجها من قبل بالطبع، عندما كان يتوقع أننا سنشاهد مزحة مؤلمة بدلا من هذا التغير العنيف الذي شاهدناه. "لم تكن مبتلة أبدا في أثناء التجارب العملية".

"تبا لك أيها الغرير". بدأ سبابه لبيرسي وهمّ بضربه لولا أن أمسكته وجذبته إلى الخلف. كان وقع قدميه يطقطق على درجات السلم. نظرت يائسا إلى الأعلى خشية رؤية كيرتيس أندرسن، لكنه كان هاري تيرويليجر. كانت وجنتاه بيضاوين بلون الورق وشفتاه ضاربتين إلى اللون الأرجواني، كما لو كان يأكل توت العليق.

عاودت النظر إلى بروتال مرة أخرى. "بالله عليك يا بروتال، لقد مات ديلاكروا، ولا أحد يستطيع تغيير هذا، ثم إن بيرسي لا يستحق العناء من أجله". هل كانت الخطة، أو بدايتها، في رأسي ساعتها؟ دعوني أقول لكم إنني تساءلت عن هذا منذ ذلك الحين. لقد تساءلت عما يجري طوال العديد من السنوات، ولم أتمكن مطلقا من الوصول إلى إجابة شافية. حسبت أنه لا يهم، فالعديد من الأمور غير مهمة، ولكنها لا تمنع الإنسان من التساؤل بشأنها، لقد لاحظت ذلك.

"إنكم تتحدثون عني كما لو كنت أبله". قال بيرسي، كان لا يزال مشدوها مرتبكا، وكأن أحدا سدد له لكمة قوية على معدته، ولكنه استعاد توازنه قليلا.

قلت "أنت أبله بالفعل يا بيرسي".

WWW.REWITY.COM

"هاي، لا يمكنك...".

كبحت جماح إلحاح يدعوني لضربه بكل ما أوتيت من قوة. تقطر الماء بغزارة من الآجر إلى النفق، وتراقصت ظلالنا الضخمة والمشوهة على الجدران مثل تلك الظلال في قصة بو حول القرد الضخم في سلسلة شارع مورغ. هزم الرعد، إلا أن هزيمه كان مكتوما هنا في الأسفل.

"لا أريد إلا أن أسمع منك شيئا واحدا يا بيرسي، وهو أن تكرر وعدك بالانتقال إلى براري ريدج غدا".

"لا تقلق بشأن ذلك". قالها وهو متجهم الوجه. نظر إلى الجسد المغطى على العربة ثم ولى نظره عنه ثم ومض بعينيه إلى الأعلى صوب وجهي للحظة ثم نظر بعيدا مرة أخرى.

قال هاري "سيكون هذا أفضل، وإلا ربما يكون عليك أن تعرف عن وايلد بيل وارتون أكثر مما تود أن تعرفه". سادت لحظة صمت. "ويمكن أن نؤكد ذلك".

كان بيرسي خائفا منا، وربما كان خائفا مما قد نفعله إذا استمر بيننا عندما نكتشف أنه تحدث مع جاك فان هاي حول الغرض من الإسفنجة وسبب نقعها دوما في الماء الملحي، إلا أن ذكر هاري لوارتون أيقظ في عينيه فزعا حقيقيا. أكاد أراه وهو يتذكر كيف أن وارتون حمله ونفش شعره وأخذ يجأر فيه.

"لن تجرؤ على هذا". همس بيرسي.

"بل أفعلها". رد عليه هاري بهدوء. "أتدري أيضا؟ لن يضر بشيء، لأنك أثبتّ بالفعل إهمالك وعدم اكتراثك بما تفعله بالسجناء. ثم إنك غير كفؤ أيضا".

ضم بيرسي قبضتيه معا واستحالت وجنتاه إلى لون القرنفل الباهت "أنا لا...".

"بالتأكيد". قال دين منضما إلينا. وقفنا في نصف دائرة حول بيرسي

أسفل الدرج، حتى لم يجد له ملجأ أعلى النفق. كانت العربة خلفنا محملة بكتلة من اللحم المدخن متوارية أسفل ملاءة قديمة. "لقد أحرقت ديلاكروا حيا فحسب. إذا لم يكن هذا عدم كفاءة، فماذا يكون؟".

ومضت عينا بيرسي. لقد كان يخطط إلى التذرع بالجهل، لكنه وجد نفسه الآن يقع في الشرك الذي نصبه. لا أدري ماذا عساه يقول بعد ذلك، إذ قدم في هذه اللحظة كيرتيس أندرسن نازلا الدرج بخطى متسارعة.

سمعنا وقع قدميه وابتعدنا عن بيرسي قليلا، حتى لا يبدو علينا أننا ننذره بالوعيد.

"ماذا كان هذا كله؟". صرخ أندرسن. "يا الله، القيء منتشر في كل مكان على الأرض فوق! والرائحة! لقد أمرت ماغنسون والعجوز توت توت بفتح البابين، غير أن هذه الرائحة لن تغادر المكان إلا بعد خمس سنوات، هذا ما أراهن عليه. وذلك المقيت وارتون الذي شرع يغني! يمكنني سماعه!".

سأل بروتال "هل غناؤه عذب يا كيرت؟". أتعلم كيف تستحث غازا قابلا للاشتعال باستخدام شرارة بسيطة ولا تُؤذَى وأنت تفعل ذلك قبل أن يصبح التركيز كبيرا؟ كان هذا حالنا. فلقد وقفنا لحظة فاغري الأفواه بسبب ما قاله بروتال، ثم ما لبثنا أن انفجرنا ضاحكين. كانت ضحكاتنا العالية الهستيرية تتلاطم إلى أعلى وأسفل النفق المظلم مثل شظايا الآجر. وكانت ظلالنا تتمايل وتخفق على الجدران. حتى بيرسي انضم إلينا في النهاية. انتهت الضحكات في النهاية وشعرنا بعدها بالتحسن قليلا؛ إذ شعرنا برجوع عقولنا إلى رؤوسنا مرة أخرى.

"حسنا يا رجال"، قال أندرسن ماسحا عينيه الدمعتين بمنديله وكان لا يزال يصدر فواقا عرضيا من أثر الضحك، "ماذا حدث؟".

"إعدام"، أجاب بروتال. أظن أن نبرته صوته أدهشت أندرسن إلا

www.rewity.com RAYAHEEN

WWW.REWITY.COM

أنها لم تدهشني كثيرا على الأقل، فقد كان بروتال يتمتع بالقدرة على تغيير تعبيراته بسرعة. "إعدام موفق".

"بالله عليك، كيف يمكن أن تدعو هذا الإخفاق نجاحا؟ لدينا شهود لن يذوقوا طعم النوم لشهر! تبا، هذه العجوز السمينة ربما لا تنام لمدة عام كامل!".

أشار بروتال إلى العربة والهيكل الماثل تحت الملاءة. "إنه ميت، أليس كذلك؟ أما بالنسبة إلى الشهود، فسيخبر معظمهم أصدقاءهم ليلة غد أنها عدالة الحق؛ فلقد حرق ديل مجموعة من البشر أحياء، فلقي جزاء ما فعله وحُرق حيا، باستثناء أنهم لن يقولوا إننا فعلنا ذلك بإرادتنا، إنما هي إرادة الله ينفذها من خلالنا، بل قد يكون ثمة بعض الصدق فيه. أتدري الأفضل من ذلك؟ التميز المطلق! سيتمنى معظم أصدقائهم لو كانوا هنا ليشاهدوا المنظر". قال جملته الأخيرة هذه وهو يرمق بيرسي بنظرة جمعت بين التقزز والسخرية.

"وإذا عزفوا عن الحضور، فماذا يكون الحال؟" سأل هاري. "إنهم متطوعون لهذه المهمة اللعينة، ولا أحد يجبرهم عليها".

"لم أعلم أهمية أن تكون الإسفنجة مبتلة". قال بصوته الآلي. "لم تكن مبتلة مطلقا في التجارب العملية".

نظر دين إليه بكل اشمئزاز وتقزز ثم قال مزمجرا "كم قضيت من السنوات وأنت تتبوّل على غطاء المرحاض قبل أن يخبرك أحد برفعه قبل أن تبدأ؟".

فتح بيرسي فمه ليهم بالرد، ولكنني أمرته بالصمت. وما يبعث على الدهشة أنه صمت، والتفتّ أنا إلى أندرسن.

"لقد أهمل بيرسي في عمله يا كيرتيس، هذا ما حدث بكل وضوح وصراحة". والتفت إلى بيرسي متحديا إياه أن يثبت عكس ما أقوله. ولكنه لم يفعل، ربما لأنه قرأ عيني؛ فمن الأفضل أن يعرف أندرسن

أنه ارتكب خطأ أحمق بدلا من أن يعرف أنه خطأ متعمد. علاوة على ذلك، لا أهمية لما يُقال هنا في النفق، ولكن المهم، الذي يهم بيرسي ويتمور دائما في دنياه، ما يُكتب أو يتناقل على ألسنة المتحمسين للحق، ألا وهم الأشخاص ذوو الشأن. إن ما يهم بيرسي في الدنيا هو كيف ستتعامل الصحف مع هذا الأمر.

نظر أندرسن إلينا متشكّكا، بل إنه نظر إلى ديل أيضا، ولكن لم يكن ديل ليتكلم. "أظن من الممكن أن يسوء الأمر". قال أندرسن.

"هذا صحيح". وافقته القول "من الممكن أن يكون حيا حتى الآن".

اتسعت عينا كيرتيس من الدهشة؛ فمن الواضح أن هذه الاحتمالية لم تخطر بباله. فقال "أريد تقريرا شافيا عن هذا على مكتبي غدا، ولن يخبر أحد منكم المأمور مورور عن هذا الشأن قبل أن أبلغه بنفسي، اتفقنا؟".

هززنا رؤوسنا في حماسة معبرين عن موافقتنا. فإذا أراد كيرتيس أن يخبر المأمور، فهذا جيد لنا.

"إذا كتب أي من هؤلاء المؤلفين التافهين عن هذا في صحفهم...".

فقاطعته "لن يفعلوا، وإذا حاولوا، فسيمنعهم رؤساء تحريرهم من ذلك. فالموقف مرعب للجمهور. ولكنهم لن يحاولوا، وجميعهم لم يعوا شيئا هذه الليلة، فالخطأ وارد في بعض الأحيان، هذا كل ما في الأمر. إنهم يعلمون ذلك كما نعلمه نحن".

أخذ أندرسن يفكر لحظة أطول، ثم أومأ برأسه. صرف انتباهه إلى بيرسي وقد ارتسم تعبير بالتقزز على وجهه المبتسم عادة. وقال "أنت شخص تافه، ولا أكنّ لك ودّا قدر ذرة". أومأ إلى منظر بيرسي المفعم بالدهشة والذهول. "إذا أخبرت ما قلته لك أيا من أصدقائك الجبناء،

WWW.REWITY.COM

فسأنكره حتى يلج الجمل في سم الخياط، وسيؤيدني هؤلاء الرجال. أنت في مشكلة يا بني".

استدار وبدأ يصعد الدرجات. تركته يصعد أربعا منها ثم ناديته "كيرتيس؟".

استدار إلى الخلف وقد ارتفع حاجبه ولم يتفوه بشيء.

قلت له "لست بحاجة إلى القلق كثيرا بشأن بيرسي. فسيغادر إلى براري ريدج قريبا. هذا أعظم وأفضل، أليس كذلك يا بيرسي؟".

"فور حلول موعد انتقاله". أضاف بروتال.

تدخل دين في الحوار مضيفا "وإلى أن يحين، سيأخذ إجازة مرضية كل ليلة".

أثار هذا الكلام حنق بيرسي؛ إذ لم يعمل في السجن مدة تكفي لأن يتجمع لديه أي أيام مرضية مدفوعة الأجر، ورأيناه يلقي على دين نظرة مليئة بالكره والنفور قائلا "إنك تتمنى ذلك".

6

عدنا إلى المبنى عند الساعة الواحدة والخمس عشرة دقيقة أو ما يقاربها (باستثناء بيرسي الذي كُلف بتنظيف حجرة التخزين، وكان عبوسا على طريقته وهو يؤدي المهمة). أما أنا، فكان لديّ تقرير لأكتبه. قررت أن أكتبه في مكتب المناوبة؛ لأنني إذا جلست على كرسي مكتبي الأكثر راحة، فربما يغلبني النعاس. قد يبدو هذا غريبا بالنسبة إليك، فبالرغم من أنه لم يمر على ما حدث سوى ساعة واحدة، إلا أنني شعرت أنني حييت ثلاثة أضعاف المدة منذ الساعة الحادية عشرة الليلة الماضية، أمضيتها كاملة من دون نوم.

كان جون كوفي يقف عند باب زنزانته والدموع تنهمر من عينيه الفاترتين الشاردتين؛ وكأنك ترى الدماء تسيل من جرح لا يندمل مع أنه غير مؤلم. كان وارتون يجلس على فراشه بالقرب من المكتب متأرجحا من جانب إلى آخر، وكان يغني أغنية من الواضح أنها من نسج خياله، وكانت كلماتها هراء تماما. وكانت، على قدر ما أستطيع أن أتذكر، من هذا القبيل:

"إنه الشواء! يفوح مني ومنك!

نتن، عفن، أف، أف، أف!

إنه ليس بيلي ولا فيلادلفيا فيلي، ليس جاكي ولا روي! إنه أحر قليلا، قثاء حار، اسمه ديلاكروا!".

نهرته "اخرس أيها الأحمق".

ابتسم وارتون ابتسامة عريضة ظهرت معها أسنانه الداكنة ملء فمه. إنه لم يحتضر على الأقل حتى الآن، كان منتبها، سعيدا، يرقص رقصا

WWW.REWITY.COM

نقريا. "تعالَ إلى هنا وغنِّ معي، لماذا لا تأتي؟"، قال سعيدا، ثم شرع في ترديد مقطع آخر من "أغنية الشواء" ناسجا كلمات لم تكن عشوائية بالكامل. كان هناك شيء ما يدور بلا شك، نوع من الذكاء الفطري والحاد المتقد على طريقته.

نزلت إلى جون كوفي. مسح دموعه بظاهر يده. كانت عيناه حمراوين تكسوهما نظرة حزينة، ولاح لي أنه مرهق أيضا. لماذا يكون كذلك؟ فهو رجل يمشي حول ساحة التمرين ربما ساعتين في اليوم، أم إنه يكون جالسا أو مستلقيا في زنزانته بقية الوقت، لم أكن أعرف، إلا أنني لم أشك في ما أراه، فقد كان الأمر واضحا تماما.

قال بصوت منخفض أجش "ديل المسكين، ديل العجوز المسكين".

قلت "نعم، ديل العجوز المسكين. هل أنت بخير يا جون؟".

قال كوفي "لقد انتهى أمره، انتهى أمر ديل، أليس كذلك يا سيدي؟".

"نعم. أجب عن سؤالي يا جون، هل أنت بخير؟".

"لقد انتهى أمر ديل، إنه لمحظوظ. لا يهم كيف حدث ذلك، ولكنه محظوظ".

ظننت أن ديل ربما أعطاه فكرة عن هذا، إلا أنني لم أقل ذلك، غيرت مجرى الحديث، وألقيت نظرة عجلى على زنزانة كوفي قائلا "أين السيد جينغلز؟".

"جرى إلى هناك، إلى الأسفل". وأشار عبر القضبان إلى أسفل الردهة المؤدية إلى باب غرفة الحجز.

أومأت برأسي "حسنا، سيعود".

لكنه لن يعود؛ فأيام السيد جينغلز في الميل الأخضر قد انقضت. والأثر الوحيد المتبقي منه والذي نشاهده دوما كان ما وجده بروتال في

ذلك الشتاء بضع شظايا خشب باهتة اللون ورائحة حلوى النعناع تفوح من ثقب في أحد الروافد.

عمدت إلى المغادرة عندئذٍ، ولكنني لم أفعل. نظرت إلى جون كوفي، ونظر إليّ مجددا كما لو كان يعرف ما كان يجول في خاطري. قلت لنفسي إنه يجب المغادرة هذه الليلة على الأقل والعودة إلى مكتب المناوبة لاستكمال تقريري. إلا أنني بدلا من ذلك ناديت عليه باسمه "جون كوفي".

"نعم سيدي". لبى النداء على الفور.

يُصاب المرء أحيانا بلعنة الحاجة إلى معرفة شيء ما، وكان هذا حالي حينئذٍ. جثوت على إحدى ركبتي، وبدأت أخلع حذائي.

WWW.REWITY.COM

7

توقف المطر لدى وصولي إلى المنزل، وبزغ هلال القمر فوق قمم التلال جهة الشمال. بدا النوم وكأنه قد ولّى عني ذاهبا مع السحاب. كنت يقظا حذرا، وكنت أشم رائحة ديلاكروا تفوح مني. ظننت أنني ربما أشم رائحته تفوح من شواء جلدي، مني ومنك، نتن عفن، أف، أف، أف لمدة طويلة قادمة.

كانت جانيس بانتظاري كعادتها دائما في ليالي تنفيذ الإعدام. تعمدت ألا أخبرها ما حدث؛ فلم أرَ من داعٍ لإفزاعها، غير أنها ألقت على وجهي نظرة حصيفة لدى دخولي من باب المطبخ كشفت ما بداخلي تماما. هكذا جلست، وأمسكت بيديها الدافئتين وألقيتهما في يدي الباردتين (فمدفأة سيارتي الفورد القديمة كانت تعمل بشق الأنفس، وكانت درجة الحرارة مئة وثمانين منذ العاصفة)، وأخبرتها ما ظننت أنها تريد سماعه. وقبل أن أصل إلى منتصف حديثي، انفجرت بالبكاء، وهذا ما لم أكن أتوقعه. كنت أشعر بالخزي قليلا، نعم قليلا، إنها هي التي لم ترهقني مطلقا في الأوقات التي انحرفت فيها عن الطريق الذي أعتقد أنه ينبغي على المرء الالتزام به... الطريق الذي ينبغي لي أن أكون عليه، مهما يكن من أمر. إن الرجل المرتبط بزوجة صالحة هو أكثر مخلوقات الله حظا، وذاك الذي من دون زوجة صالحة لا بد من أن يكون أتعس مَن على الأرض، وأحسب أن النعمة الوحيدة في حياته هي أنه لا يعلم كم هو تعس. بكيت ووضعت رأسي على صدرها، وعندما هدأ روعي، شعرت بالتحسن... قليلا، على كل حال. وأعتقد أن ذلك كان عندما استرددت أول مشهد محسوس في ذهني. ليس الحذاء، لم أقصد ذلك.

كان الحذاء ذا صلة، ولكن على نحو مختلف. كان ما يجول في ذهني بالفعل حينئذٍ نوع من الإدراك الغريب، وهو أن جون كوفي ومليندا موور بالرغم من أنهما قد يختلفان في الحجم والجنس ولون البشرة، لهما نفس العينين تماما؛ عينان بائستان وحزينتان وشاردتان. عينان ميتتان.

"تعالَ إلى الفراش"، قالت زوجتي في النهاية. "تعالَ إلى الفراش معي يا بول".

ذهبت معها، وبعد أن انتهينا، ذهبت إلى النوم. وبينما أنا مستلقٍ أراقب هلال القمر، واستمع إلى تكات عقارب الساعة التي وصلت إلى وجهتها، وأبدلت الصيف بالخريف، كنت أفكر في جون كوفي وهو يقول إنه أنقذه. لقد أنقذت فأر ديل، أنقذت السيد جينغلز، إنه فأر سيرك. كان هذا مؤكدا...

نمت قليلا عندما بدأ نور الصباح بالبزوغ. أظن أنني نمت لساعتين، ربما لثلاث ساعات، نمت بنفس الطريقة التي أنام بها دائما هذه الأيام هنا في جورجيا سنايبز؛ فترات قصيرة وقليلة.

نمت متفكرا... في إدوارد ديلاكروا، في النار لدى اجتيازه للبرق، ومليندا موور وولدي الكبير بعينين لا تنفض الدموع منهما. تحولت هذه الأفكار إلى حلم. وفيه رأيت جون كوفي يجلس على ضفة نهر متوجها بحزنه الشارد المكتوم في صدره إلى السماء في أوائل الصيف، بينما يوجد على الضفة الأخرى قطار شحن يندفع بلا نهاية صوب جسر عتيق يجتاز ترابينغاوس. وفي الجزء المعقوف من كل ذراع كان الرجل الأسود يحمل جسد طفلة عارية شقراء الشعر. وكانت قبضتاه، اللتان تشبهان صخرتين سمراوين في نهايتي هاتين الذراعين، مقفلتين. وكان كل ما حوله صراصير وجنادب تصر وذباب لاذع يحتشد في جو شديد الحرارة. ذهبت إليه في حلمي، وجثوت أمامه، وأمسكت يديه. تراخت يداه وباحتا ما فيهما من أسرار. كان في إحداهما بكرة ملونة بالأخضر

WWW.REWITY.COM

والأحمر والأصفر، وفي الأخرى حذاء حارس أحد السجون.

قال جون كوفي "لا أقدر على ذلك، لقد حاولت إعادته، لكن فات الأوان".

في هذه المرة، في حلمي، أدركت ما يرمي إليه.

8

رنّ جرس الهاتف عند الساعة التاسعة من صبيحة اليوم التالي، في أثناء تناولي فنجانا ثالثا من القهوة في المطبخ (لم تقل زوجتي شيئا، ولكنني كنت أرى عدم الرضا على وجهها بوضوح عندما أحضرت القهوة لي). ذهبت إلى غرفة الاستقبال للرد على الهاتف، وكانت عاملة السنترال تخبر شخصا ما أن الخط مفتوح. ثم تمنت لي يوما سعيدا ووضعت السماعة، أظن ذلك. فمع السنترال لا يمكنك التأكد من شيء.

ألقى صوت هال موور في نفسي الرعب. فقد كان مرتعشا وأجش، فهو يشبه صوت شخص عمره ما بين الثمانين والتسعين سنة. خطر لي أنه كان جيدا أن تسير الأمور على ما يرام مع كيرتيس أندرسن في النفق الليلة الماضية، لدرجة أنه علم هو الآخر ما نعلمه عن بيرسي ويتمور؛ حيث إن هذا الرجل الذي أتحدث معه من المحتمل جدا ألا يعمل بعد الآن في كولد ماونتن.

"بول، أعلم أن ثمة مشكلة حدثت الليلة الماضية، وأعلم أيضا بأمر عداء صديقنا السيد ويتمور واشتراكه فيها".

"مشكلة بسيطة"، اعترفت له، مقربا السماعة تماما من أذني ومنحنيا تجاه أداة التحدث، "لكن المهمة قضيت، وذلك ما يهم في الأمر".

"نعم، بالطبع".

"هل لي أن أسأل من أخبرك؟"، وتابعت في نفسي "حتى أسومه سوء العذاب؟".

"يمكنك أن تسأل ذلك، ولكن طالما أن هذا ليس من شأنك بالفعل، فلن أخوض فيه. غير أنني عندما اتصلت بمكتبي لأسأل عما إذا كان

www.rewity.com RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

ثمة أي رسائل أو أمور ملحة، أُخبرت بأمر ذي شأن".

"آه!".

"نعم، يبدو أن ثمة طلب نقل وضع في صندوق بريدي. يريد بيرسي ويتمور الانتقال إلى براري ريدج في أقرب وقت ممكن. لا بد من أنه ملأ الطلب حتى قبل انتهاء نوبة ليلة أمس، ألا تعتقد هذا؟".

"يبدو كذلك". وافقته الرأي.

"من الطبيعي أن أترك كيرتيس يدبر الأمر، ولكن بالنظر إلى الأجواء في العنبر (هـ) مؤخرا، طلبت من هانا أن تقرأه لي شخصيا على عجل في أثناء فترة الغداء، فوافقت عن طيب خاطر. سأوافق عليه، وسأوجهه إلى العاصمة هذا المساء. أعتقد أنك ستفرح عندما تشاهد بيرسي يغادر قبل مرور شهر، وربما أقل".

لقد اعتقد أنني سأسعد بهذه الأخبار، وله الحق في اعتقاده. لقد اقتطع لحظات من وقت زوجته للإسراع بشأن قد يستغرق ما يناهز النصف عام، حتى مع معارف بيرسي المتبجحين. مع ذلك، خار قلبي. شهر كامل! ولكن ربما لا يكون ذلك مهما بشكل أو بآخر. فقد أزال رغبة طبيعة عارمة بالانتظار وقضى على محاولة خطرة، وما كنت أفكر فيه الآن قد يكون خطرا بالفعل. يحبذ أحيانا، في مثل هذا الموقف، أن يقفز المرء قبل أن يفقد أعصابه. إذا كان علينا أن نتعامل مع بيرسي بأي شكل (أجزم دائما أنه بإمكاني جعل الآخرين يمتثلون لحماقتي وجنوني، أو بعبارة أخرى، أجزم دائما بوجود صيغة الجمع نحن)، ربما يكون الليلة أيضا.

"بول؟ هل لا تزال على الخط؟"، انخفض صوته قليلا، كأنما يعتقد أنه يتحدث مع نفسه. "اللعنة، أحسب أنني فقدت الاتصال".

"لا، أنا هنا يا هال. إنها أخبار عظيمة".

"نعم"، وافقني الرأي، وصدمت مرة أخرى بحقيقة تقدمه في العمر.

إنه هش بعض الشيء. "آه، أعلم في ما تفكر".

لا، إنك لا تعلم أيها المأمور، قلت في نفسي. لا يمكنك أن تعلم ما بداخلي حتى ولو بعد مليون عام.

"أنت تتوقع أن صديقنا الشاب سيمكث حتى موعد إعدام كوفي. ربما يكون ذلك صحيحا، أعتقد أن كوفي سيعدم قبل مناسبة الشكر، ولكن يمكن أن ننقله إلى غرفة التحكم. لن يعترض أحد، بما في ذلك هو نفسه حسب ظني".

قلت له "سأفعل ذلك، كيف حال ملينداً؟".

سادت فترة صمت طويلة، وكانت من الطول أن ظننت أنني فقدته لولا صوت أنفاسه. عندما تكلم هذه المرة، كانت نبرة صوته أكثر انخفاضا. أجابني قائلا "إنها تغور".

تغور، تلك اللفظة الرهيبة التي لم يعتد كبار السن على استخدامها في وصف الإنسان الذي كان يحتضر بالطبع، وإنما الشخص الذي بدأ في الانفصال عن الحياة.

"لقد تحسنت حالات الصداع قليلا... الآن، على كل حال... إلا أنها لا تستطيع السير من دون مساعدة، لا يمكنها التقاط الأشياء، لقد فقدت التحكم بالتبول في أثناء النوم...". سادت فترة أخرى من الصمت قطعها هال بصوت أقل انخفاضا قائلا شيئا مثل "إنها ترتدي".

"ترتدي ماذا يا هال؟" سألته بعبوس. جاءت زوجتي إلى باب غرفة الاستقبال ووقفت هناك تمسح يديها بمنشفة صحون وهي تنظر إليّ.

"لا" قال بصوت يتراوح بين الغضب والبكاء. "إنها تسبّ".

"آه". كنت لا أزال أجهل ما يقصده، ولكنني لم أنوِ الاستمرار فيه. ليس عليّ هذا؛ إنه يجهد نفسه في الرد عليّ.

"تكون طبيعية، طبيعية تماما، تتحدث عن بستان أزهارها أو عن ثوب رأته في فهرس مصور، أو ربما تحكي كيف أنها استمعت إلى

WWW.REWITY.COM

روزفلت عبر المذياع وكيف كان رائعا، وفجأة تبدأ بالتفوه بأفظع الألفاظ، أفظعها على الإطلاق، ولا ترفع صوتها. أحسب أنه من الأفضل أن ترفعه، لأنه حينئذٍ... أنت تعلم، حينئذٍ...".

"لا تبدو على حالتها الطبيعية".

"نعم، صحيح"، قال شاكرا، "ولكن لو سمعتها تنطق هذه الألفاظ الشنيعة السوقية بصوتها العذب... معذرة يا بول". خفت صوته وسمعت صخبٍ تنحنحه، ثم عاود الكلام بصوت أشد قليلا ولكنه مكروب. "إنها تريد حضور دونالدسون رجل الدين وأنا أعرف أنها تتعزى به، ولكن كيف أطلب منه هذا؟ تصور أنه جالس بقربها يتلو الصلاة، ورمته بإحدى فواحش الألفاظ. يمكنها ذلك؛ لقد نادتني بإحداها الليلة الماضية قائلة هلا ناولتني مجلة ليبرتي يا...؟ ترى أين سمعت مثل هذه الألفاظ يا بول؟ أنى لها هذه الكلمات؟

"لا أعلم. هل ستكون في المنزل هذا المساء يا هال؟".

يتمتع هال موور بجانب لاذع ومتهكم من شخصيته عندما يكون صافي المزاج، مسيطرا على نفسه، لا يشغله هم أو كرب؛ وأحسب أن مرؤوسيه يخشون فيه هذا الجانب أكثر من غضبه أو احتقاره. فعادة ما يكون تهكمه غير محتمل وغالبا ما يكون جافا، لاذعا مثل الحمض. وهو الآن يلقي عليّ قليلا منه. لم يكن متوقعا، إلا أنني كنت سعيدا أن أسمع منه هذا في كل الأحوال. يبدو أن حب المشاكسة لم يخرج منه كليًا حتى الآن.

"لا"، أجابني، "سأخرج مع مليندا ونرقص رقصة رباعية. سنؤدي حركات دو سي دو والرقصات الألمانية، ثم أخبر عازف الكمان أنه وغد مختال".

كممت فمي بيدي حتى أمنع نفسي من الضحك. ومن رحمة القدر بي أنه كان دافعا ملحا لديّ سرعان ما زال.

واصل بقوله "معذرة، لم أنل قسطا وافرا من النوم مؤخرا، وهذا ما يجعلني نكدا. سنكون في المنزل بالطبع. لماذا تسأل؟".

أجبته "أحسب أنه لا يهم".

"كنت تفكر في القدوم إلينا، أليس كذلك؟ لأنك إذا كنت سهران الليلة الماضية، ستكون هكذا هذه الليلة، إلا إذا اختلفت إلى شخص ما؟".

قلت "لا، لم أختلف، أنا سهران الليلة".

"لن تكون فكرة جيدة على كل حال، ليس بالطريقة التي عليها الآن".

"ربما لا. شكرا على أخبارك".

"عفوا، ادعُ الله من أجل مليندا يا بول".

قلت سأفعل ظنّا مني أنني ربما أفعل أكثر من الدعاء قليلا. فليساعد الله أولئك الذين يساعدون أنفسهم. أنهيت المكالمة، ونظرت إلى جانيس.

سألت "كيف حال ملي؟".

"ليست على ما يرام"، أخبرتها بما أخبرني هال، بما فيه الجزء المتعلق بالسباب باستثناء لفظة... انتهيت بكلمة هال تغور وأومأت جان بحزن. ثم ألقت عليّ نظرة.

"ما الذي يشغل بالك؟ إنك تفكر في شيء ما، غير جيد على الأرجح، فهذا واضح على وجهك".

لم يكن الكذب ليجدي؛ فهذا لم يكن حالي معها. أخبرتها أنه من الأفضل ألا تعرف، في الوقت الراهن على الأقل.

"هل... أيمكن أن يسبب لك متاعب؟"، لم يكن ليبدو عليها الإلحاح لمعرفة الأمر، بالرغم من أنه أكثر إثارة من أي شيء آخر، وهذا ما كنت أحبه دائما فيها.

WWW.REWITY.COM

أجبتها "ربما".

"هل هو شيء حسن؟".

"ربما". كررت الإجابة. كنت أقف هناك أدير قرص الهاتف بإصبع بتراخٍ، بينما كانت أداة التحدث والاستماع تتدلى من إصبع بيدي الأخرى.

سألت "هل تود أن أتركك وحدك في أثناء استخدام الهاتف؟".

"كوني امرأة طيبة ولا تتدخلي في ما لا يعنيك؟ لم لا تغسلين بعض الصحون؟ أو تحيكين بعض الملابس؟".

أومأت برأسي. "ليس هذا السبيل الذي ألجأ إليه، لكن...".

"هل سيأتي أحد على الغداء يا بول؟".

قلت "آمل ذلك".

9

اتصلت ببروتال ودين مباشرة؛ حيث إنهما مشتركان في خدمة الاتصالات الهاتفية. لم يكن هاري مشتركا حينئذٍ على الأقل، لكنني كنت أعرف رقم أحد أقرب جيرانه الذي كان مشتركا بالفعل. اتصل بي هاري بعد عشرين دقيقة تقريبا، وقد بدا عليه الارتباك بشأن تحصيل رسوم المكالمات ونقض وعود دفع ما يترتب عليه عند حلول موعد فاتورتنا التالية. أخبرته أن علينا مناقشة هذا الأمر في حينه، وسألته في الوقت الراهن عما إذا كان يمكن أن يأتي إلى منزلي لتناول الغداء. سيكون بروتال ودين موجودين ووعدتني جانيس أن تقدم بعضا من سلطة الكرنب المفروم بالإضافة إلى أصناف الطعام الممتازة التي تبرع في طهيها.

"وما سبب الغداء؟" بدا على صوته الريبة.

اعترفت له أن لديّ أمرا أود التحدث إليهم بشأنه، ومن الأفضل ألا نناقشه مطلقا عبر الهاتف. وافق هاري على الدعوة، فأعدت السماعة إلى شعبتيها، وذهبت إلى النافذة، ونظرت منها شاردا في تفكيري. بالرغم من أننا قد أمضينا نوبة الليل، لم أوقظ بروتال أو دين، حتى هاري لم يبدُ من صوته أنه مستيقظ لتوه من سبات عميق. يبدو أنني لم أكن وحدي المهموم بشأن ما حدث الليلة الماضية؛ وربما كان ذلك حسنا بالنظر إلى ما كان يدور في ذهني من جنون.

وصل بروتال، الذي كان يسكن بالقرب مني، عند الحادية عشرة والربع، وجاء دين بعده بخمس عشرة دقيقة، ثم حضر هاري، الذي كان بملابس العمل بالفعل، بعد دين بخمس عشرة دقيقة. قدّمت جانيس

WWW.REWITY.COM

إلينا شطائر اللحم البارد وسلطة الكرنب المفروم والشاي المثلج في المطبخ. فقد كنا ننوي احتساءه أول أمس على الشرفة الجانبية ونحن ننعم بالنسيم، لولا هبوب رياح شديدة من قمم التلال.

قلت لزوجتي "يمكنك الجلوس معنا على الرحب والسعة".

هزت رأسها قائلة "لا أحسب أنني أريد معرفة ما يدور بينكم، وإنه لا يقلقني ألا أعرف ما تقولونه. سأتناول بعض الطعام في غرفة الاستقبال، فلديّ موعد مع السيدة جين أوستن هذا الأسبوع لا سيما وأنها خير رفيقة".

"من تكون جين أوستن؟"، سأل هاري لدى مغادرتها. "هل هي من معارفك أنت أم جانيس يا بول؟ أهي ابنة عم لكما؟ هل هي جميلة؟".

"إنها كاتبة أيها الأحمق". أخبره بروتال. "ماتت منذ أمد بعيد".

"آه". بدا على هاري الارتباك وقال "أنا لا أقرأ كثيرا، أكتفي بكتيبات برامج المذياع على الأكثر".

سألني دين "ماذا يدور في خلدك يا بول؟".

"لنبدأ الحديث بجون كوفي والسيد جينغلز". أدهشهم ما قلته؛ إذ كانوا يظنون أنني أريد التحدث عن ديلاكروا أو بيرسي، أو ربما كليهما. نظرت إلى دين وهاري قائلا "ما حدث للسيد جينغلز وما فعله كوفي بسرعة فائقة. لا أدري ما إذا كنتم موجودين هناك أم لا لتروا كيف أن عظام الفأر كانت مهشمة".

هز دين رأسه "رأيت الدماء على الأرض مع ذلك".

التفتّ إلى بروتال.

"ذلك الحقير بيرسي سحقه"، قالها بوضوح. "لم يكن له مفر من الموت، ولكنه لم يمت. لقد أنقذه كوفي، داواه بطريقة أو بأخرى. لا أدري كيف حدث ذلك، ولكنني رأيته بأم عيني".

قلت "لقد داواني أنا أيضا، ولم أرَ ذلك فحسب، وإنما شعرت به أيضا". أخبرتهم عن مرض التهاب المسالك البولية الذي كنت أعاني منه، وكيف عاودني وكيف كان مؤلما (أشرت عبر النافذة إلى كومة الحطب التي التصقت بها في ذلك الصباح الذي هاجمني فيه الألم بضراوة)، وكيف أنني برئت منه تماما بعد أن لمسني كوفي. ولم يعاودني مطلقا.

لم أستغرق وقتا طويلا لأخبرهم بذلك. وعندما فرغت، جلسوا وأخذوا يفكرون فيه للحظات وهم يمضغون شطائرهم، ثم قال دين "لقد أخرج من فمه أشياء سوداء مثل البقّ".

وافقه هاري "هذا صحيح، كانت سوداء في البداية على كل حال، ثم تحولت إلى اللون الأبيض، واختفت". نظر حوله متأملا. "يبدو وكأنني كنت على وشك نسيان الأمر برمته لولا أنك ذكرتني به يا بول. أليس هذا غريبا؟".

قال بروتال "لا غرابة فيه ولا عجب". أعتقد أن هذا ما دأب الناس عليه في معظم الأحيان بشأن الأشياء التي لا يستطيعون استيعابها، فما منهم إلا أن ينسوها. ألا يجدر بالمرء أن يبذل جهده في تذكر أشياء غير معقولة. ما رأيك في هذا يا بول؟ هل كان ثمة بقّ عندما كان يداويك؟".

"نعم، أعتقد أنه المرض... الألم... الوجع. لقد قبض عليه ثم تركه في الهواء الطلق مرة أخرى".

سأل دين "أين اختفى؟".

هززت كتفي متشكّكا، لم أدرِ إذا ما كان اختفى أم لا، بل لم أكن متيقنا من جدواه.

"هل امتصه منك؟"، سأل بروتال. "لقد بدا وكأنه يمتص الوجع من الفأر، يمتص الـ... أتدري... يمتص الموت".

WWW.REWITY.COM

"لا"، قلت. "لقد لمسني فحسب، وشعرت به. ضرب من الرجة مثل الكهرباء لكنها غير مؤلمة. غير أنني لم أكن أحتضر، كنت أتألم فحسب".

أومأ بروتال. "اللمسة والنفس، تماما مثلما...".

"حسنا"، قال دين. "إذا كنتم تجزمون بوقوع هذا كله، فأحسب نفسي مصدقه. فلله سبله الخفية التي يظهر بها عجائبه. ولكن ما شأننا بهذا؟".

حسنا، كان هذا السؤال هو الأهم، أليس كذلك؟ أخذت نفسا عميقا وأخبرتهم ما أريد فعله. استمعوا إليّ مندهشين، حتى بروتال، الذي كان يحب قراءة تلك المجلات التي تحكي عن الرجال الخضر القصار القادمين من الفضاء، كان ينظر إليّ بدهشة وذهول. ساد صمت أطول عندما انتهيت من الكلام هذه المرة، ولم يعد أحد منهم يمضغ أيا من شطائره.

في النهاية، قطع بروتال الصمت قائلا بصوت لطيف معتدل "قد نفقد وظائفنا إذا عرف أحد يا بول، وقد نكون أصحاب حظوظ عظيمة إذا حدث هذا بأسره. وربما قد ينتهي بنا المطاف إلى المبنى (أ) كضيوف للولاية، نصنع الحافظات ونغتسل اثنين اثنين".

قلت "نعم، قد يحدث هذا".

واصل حديثه "أستطيع فهم ما تشعر به يا بول، قليلا، أنت تعرف موور أكثر منا؛ فهو صديقك إلى جانب كونه المأمور، وأعلم أنك تهتم كثيرا لأمر زوجته...".

قاطعته "إنها ألطف امرأة يمكن أن تقابلها في حياتك، وهي عنده الدنيا بأسرها".

قال بروتال "لكننا لا نعرفها كما تعرفها أنت وجانيس، أليس كذلك يا بول؟".

قلت "ستحبونها متى عرفتموها، على الأقل كنتم ستحبونها إذا تعرفتم إليها قبل أن تقع في براثن ذلك المرض اللعين. إنها تفعل الخيرات، وإنها لصديقة مخلصة، ومتدينة. والأكثر من ذلك، أنها مرحة، كانت كذلك دائما على كل حال. يمكنها أن تحدثكم بأشياء تضحككم حتى يسيل الدمع على وجناتكم. ولكن ما كان هذا كله يدعوني لإنقاذها، إذا كان في الإمكان إنقاذها. إن ما تتعرض له شيء مؤذٍ بكل ما في الكلمة من معنى، مؤذٍ للعين والأذن والقلب".

قال بروتال "عمل شهم للغاية، غير أنني لست مقتنعا أن يكون هذا ما حملك على التفكير في شيء كهذا، أعتقد أن السبب هو ما حدث لديلاكروا. تريد أن تعيد لنفسك التوازن".

كان على حق، وكان كلامه صحيحا بلا ريب. إنني أعرف مليندا موور أكثر من الآخرين، ولكن في النهاية ربما لا يكون ذلك كافيا لأن أطلب منهم المخاطرة بوظائفهم من أجلها، بل ربما يفقدون حريتهم أيضا. أو قد أفقد وظيفتي وحريتي من أجل هذا الأمر. فلديّ ولدان وآخر شيء في الدنيا أود من زوجتي أن تفعله هو أن تعلن لهما خبر تقديم والدهما للمحاكمة بتهمة... حسنا، ماذا ستكون التهمة؟ لم أكن أعرف بالتأكيد، على أن أقرب التهم احتمالا هي المساعدة على محاولة الهرب والتحريض عليها.

غير أن موت إدوارد ديلاكروا كان أفظع وأبشع شيء شاهدته في حياتي، ليس في حياتي العملية فحسب، وإنما في حياتي بأسرها، كما أنني كنت مشتركا فيه. لقد اشتركنا جميعا فيه، لأننا سمحنا لبيرسي ويتمور بالبقاء حتى بعد علمنا بأنه غير مناسب للعمل في مكان مثل العنبر (هـ). لقد اشتركنا في اللعبة، حتى المأمور موور نفسه اشترك فيها. "سيقرر معارفه ما إذا كان ويتمور سيبقى ضمن الفريق أم لا"، أخبرني ذلك، وربما كان جيدا للغاية، بالنظر إلى ما فعله الفرنسي صغير الحجم،

WWW.REWITY.COM

ولكن في النهاية فعل بيرسي أكثر من طهي رأس ديل؛ لقد فجر مقلتي عيني الرجل صغير الحجم من محجريهما وأضرم النيران في وجهه. ولماذا؟ هل لأن ديل قتل ست مرات؟ لا. بل لأن بيرسي بال على نفسه وبلغ التهور من الرجل الفرنسي صغير الحجم أن سخر منه. لقد اشتركنا في عمل بشع حقًا، وكان بيرسي سيفلت بفعلته. كان سيذهب إلى براري ريدج سعيدا لا غبار عليه، وهناك يجد ملاذا مليئا بالمجانين ليمارس أعماله الوحشية عليهم. لم يكن بمقدورنا عمل أي شيء بذلك الشأن، ولكن ربما فات الأوان لنمحو بعضا من الإثم عن أنفسنا.

"في كنيستي يدعونها كفارة بدلا من توازن"، قلت، "ولكن أحسب أن كليهما يحملان المعنى نفسه".

سأل دين بصوت رقيق ورع "هل تعتقد حقا أن بمقدور كوفي إنقاذها؟".

"مجرد... ماذا؟... امتصاص ذلك الورم من مخها؟ كما لو كان يُخرج... نواة من ثمرة خوخ؟".

"أعتقد أن بمقدوره ذلك، إلا أنني غير متأكد بالطبع، ولكن بعد ما فعله لي وللسيد جينغلز...".

قال بروتال "لقد سحق ذلك الفأر على نحو خطير بلا شك".

"وهل سيوافق على فعل هذا؟"، قال بروتال متأملا. "هل سيوافق؟".

قلت "سيوافق إذا كان باستطاعته".

"لماذا؟ إنه حتى لا يعرفها قط!".

"لأن هذا ما يفعله. لقد اختاره الله لذلك".

تلفت بروتال حوله مذكرا إيانا جميعا بأن ثمة شخصا غائبا.

سألني "ماذا عن بيرسي؟ هل تعتقد أنه سيدع هذا الأمر يسير على ما يرام؟". دفعني هذا لإخبارهم ما في رأسي بشأن بيرسي. وفور انتهائي،

كان هاري ودين ينظران إليّ بدهشة واستغراب وقد ارتسمت على وجه بروتال ابتسامة إعجاب لا تنم عن رضا تام وقال "إنك جد جريء يا أخي! لقد ملأني هذا دهشة وإعجابا!".

قال دين بصوت لا يكاد يسمع "ولكن ألن يكون هذا أفضل!". ثم طفق يضحك ويصفق براحتيه مثل الأطفال. "أعني أن تهرب كلما سنحت لك الفرصة للهروب!". يجب أن تتذكر أنه كان يُعنى بصفة خاصة الجزء المتعلق ببيرسي في الخطة التي أدبرها، فبيرسي، في النهاية، كاد يترك دين يقتل وهو واقف متحجرا في مكانه.

قال هاري "نعم، ماذا بعد ذلك؟". كان غامضا، إلا أن عينيه تفصحان عمّا يكنه؛ فقد كانتا متقدتين، عينا رجل يريد أن يقتنع بما يسمعه. "ماذا بعد؟".

"يُقال في الأمثال إن الميت لا يبوح بأسرار". دمدم بروتال، وألقيت عليه نظرة سريعة للتأكد من أنه يمزح.

قلت "أعتقد أنه لن يفتح فمه".

قال دين وقد بدا عليه الشك "حقا؟"، نزع نظارته، وشرع يلمعها. "أقنعني".

"أولا، لن يعلم بما يجري؛ فسيظن أنها مجرد مزحة. ثانيا، وهو الأهم، سيخشى التفوه بأي شيء، وهذا ما أعوّل عليه كثيرا. سنخبره أنه إذا ما أبلغ عما يحدث، فسنبلغ نحن أيضا".

قال هاري "عن الإعدام".

فأضاف بروتال "وعن الطريقة التي وقف بها جامدا عندما تعرض دين للهجوم". "أعتقد أن ما يخشاه بيرسي بالفعل هو أن يكتشف الناس هذا عنه". أومأ برأسه ببطء وتأمل. "قد يجدي هذا. ولكن أليس إحضار السيدة موور إلى كوفي أكثر منطقية من ذهاب كوفي إليها يا بول؟ يمكننا تدبر أمر بيرسي كثيرا في أثناء إعدادك لتنفيذ الخطة، ثم نحضرها إلى

WWW.REWITY.COM

هنا عبر النفق بدلا من أخذ كوفي إلى الخارج عبره".

هززت رأسي بالنفي. "لن يحدث مطلقا، ولو بعد مليون عام".

"بسبب المأمور موور؟".

"هذا صحيح. إنه شخص عنيد وشكاك، لا يصدق شيئا إلا بدليل دامغ. فإذا ما أحضرنا كوفي إلى منزله، أعتقد أنه يمكننا على الأقل مباغتته بحمله على أن يترك لكوفي المحاولة. من ناحية أخرى...".

سأل بروتال "ما رأيك في استخدام مركبة؟".

قلت "فكرت في عربة الجياد في بادئ الأمر، ولكن رأيت أننا لن نبرح الفناء من دون أن نُلاحَظ، إذ يمكن لأي أحد في محيط عشرين ميلا أن يعرف ما يجري على كل حال. أعتقد أنه يمكننا استخدام سيارتي الفورد".

قال دين "عليك التفكير مرة أخرى"، واضعا نظارته على أنفه مرة أخرى "لن تستطيع إدخال جون كوفي إلى سيارتك إلا إذا جردته من ملابسه، ودهنت جسمه بالطلاء واستعملت لبّاسة أحذية. لقد أنساك طول النظر إليه أنه ضخم الجثة".

لم أرد على ما قال، فلقد كان معظم اهتمامي في ذلك الصباح منصبا على مشكلة بيرسي، وعلى مشكلة وايلد بيل وارتون أيضا بدرجة أقل ولكن من دون إغفالها. أدركت الآن أن عملية النقل لن تكون بالشيء الهين الذي كنت أتمناه.

التقط هاري تيرويليجر ما تبقى من شطيرته الثانية ناظرا إليها بضع ثوانٍ ثم ما لبث أن أعادها إلى موضعها مرة أخرى وقال "إذا كنا سنمضي في هذا الشيء الجنوني، أظن أنه بإمكاننا استخدام شاحنتي، نضعه في صندوقها، ولن يكون الكثير من المارة على الطريق في تلك الساعة. إننا نتحدث عن وقت يتجاوز منتصف الليل، أليس كذلك؟".

أجبته "نعم".

قال دين "لقد فاتكم شيء أيها الفتيان. أعرف أن كوفي باقٍ على هدوئه تماما منذ قدومه إلى المبنى، لا يفعل شيئا سوى الاستلقاء على فراشه وذرف الدموع من عينيه. ولكنه قاتل وضخم أيضا. فإذا قرر أن يهرب من صندوق شاحنة هاري، فإن السبيل الوحيد إلى إيقافه سيكون إطلاق الرصاص عليه وقتله، ورجل كهذا لن يُقتل بسهولة حتى باستخدام سلاح عيار 45! إنني أكره أن أفقد وظيفتي، وأكره السجن، فلديّ زوجة وأطفال يعتمدون عليّ في قوتهم، ولكنني لا أعتقد أن بغضي أيا من هذين الأمرين يتساوى مع كرهي رؤية فتاة صغيرة أخرى تموت".

قلت "لن يحدث هذا".

"بالله عليك أخبرني أنّى لك هذا اليقين؟".

لم أجبه، لم أعرف كيف أبدأ، أعلم أن هذا قد يحدث، بالطبع أعلم، ولكن لا أزال أجهل كيف أبدأ بإخبارهم بما أعلم. ساعدني بروتال في ذلك.

"تظن أنه لم يفعلها، أليس كذلك يا بول؟"، قال وقد بدا عليه الشك. "تظن أن هذا الأخرق الكبير بريء".

فقلت "أنا متأكد من براءته".

"من أين لك هذا اليقين؟".

قلت "ثمة سببان... أحدهما حذائي". ملت إلى الأمام فوق المنضدة، وشرعت في الكلام.

WWW.REWITY.COM

الجزء الخامس

الرحلة الليلية

WWW.REWITY.COM

1

كتب السيد هابي ويلز ذات مرة قصة عن رجل اخترع آلة الزمن، وقد اكتشفت أنه بكتابتي هذه المذكرات فإنني أصنع آلة الزمن الخاصة بي. لكنها على عكس آلة السيد ويلز، لا يمكنها السفر في الماضي سوى إلى سنة 1932، في حقيقة الأمر، عندما كنت موظفا قليل الشأن في العنبر (هـ) في سجن كولد ماونتن. ولا تزال آلة الزمن تذكرني بسيارة الفورد القديمة التي كنت أمتلكها في تلك الأيام والتي لم يكن ليداخلك الشك في أنها ستدور في نهاية الأمر، لكن ما إذا كان ذلك سيحدث إن بعد إدارة المفتاح لتشغيل المحرك أم يدويا بإدارة ذراع الحركة حتى يكلّ ساعداك... يبقى ذلك في علم الغيب.

كانت ذاكرتي تسعفني منذ بدأت سرد قصة جون كوفي، بيد أنه في الأمس وجدت صعوبة وحاجة إلى جهد شاق في التذكر. ربما يكون ذلك راجعا إلى أنني وصلت إلى إعدام ديلاكروا، وأن عقلي يأبى أن ينبش في تلك الذكرى الأليمة، فقد كان إعدامه بشعا وأليما، وكان السبب في ذلك بيرسي ويتمور، وكان شخصا أحمق لم يتقبل السخرية، حتى وإن كانت من إنسان قليل الحيلة لن يرى ذكرى الميلاد مجددا.

كما هو الحال في غالبية المهام البغيضة، فإن الجزء الأصعب لم يبدأ بعد. إن المحرك لا يعنيه أن تستخدم المفتاح أم تقوم بتدوير الذراع بيديك، فما إن تقوم بتشغيله، فإنه يعمل على ما يرام أيا كانت الطريقة. وهو ما حدث معي البارحة. في البداية، كانت الكلمات تأتيني في انفجارات تعبيرية بسيطة، ثم في جمل كاملة، ثم انسابت كفيض متدفق. إن الكتابة شكل خاص وربما مرعب من التذكر، وقد تبين لي

WWW.REWITY.COM

أنها تأتي أحيانا في صورة أشبه بالاغتصاب. هل أكون أنا فقط الذي أشعر بذلك بحكم كهولتي (وهو شيء أشعر به أحيانا في انحناءة ظهري)؟ لا أعتقد ذلك. أعتقد أن الجمع بين قلم الرصاص والذاكرة ينتج نوعا من السحر العملي، والسحر شيء خطير. وبصفتي شخصا عرف جون كوفي ورأيت ما الذي يمكن أن يفعله، للفئران والرجال، فإنني أرى نفسي مؤهلا حقا لقول ذلك.

إن السحر شيء خطير.

أيا كان الحال، فقد أمضيت في الكتابة طيلة يوم أمس، كانت الأفكار والكلمات تأتي طواعية في إثر بعضها البعض. ذهبت إلى الغرفة المشمسة في ذلك المنزل القديم، واحتلت مخيلتي غرفة التخزين في نهاية الميل الأخضر حيث الجلسة الأخيرة لمثيري المشكلات وحيث نهاية السلالم المؤدية إلى النفق أسفل الطريق. كان ذلك هو المكان الذي تقابلت فيه أنا ودين وهاري وبروتال مع بيرسي ويتمور فوق جسد ديلاكروا الذي يتصاعد منه الدخان، وحيث جعلنا بيرسي يجدد وعده بالانتقال إلى مستشفى الأمراض العقلية في بريار ريدج.

كانت الغرفة المشمسة لا تخلو أبدا من الزهور الندية، بيد أنني في ظهيرة البارحة لم أشم سوى الرائحة الكريهة للحم الرجل الميت وهو يشوى. لم يعد صوت الجزازة التي تعمل بالكهرباء فوق المرجة في الأسفل موجودا، وإنما ذلك الصوت المزعج لقطرات الماء وهي تتساقط ببطء مربك عبر سطح النفق المقوّس. فقد بدأت الرحلة، وسافرت عائدا إلى عام 1932 بالروح والعقل، وليس بالجسد.

لم أنتبه إلى موعد الغداء، ومكثت أكتب حتى الساعة الرابعة أو نحو ذلك، وعندما وضعت القلم، كانت يداي تؤلمانني. سرت ببطء إلى الأسفل حتى نهاية الردهة في الدور الثاني. كانت هناك نافذة تطل على مكان رَكنِ سيارات الموظفين. كان براد دولان، ذلك الممرض الذي

يذكرني ببيرسي، هو الشخص الوحيد الذي يتتبع خطوي ليعرف أين أذهب وماذا أفعل في جولاتي على القدمين، وكان يقود سيارة شيفروليه قديمة تحمل ملصقا على متلقي الصدمات. لم تعد السيارة موجودة، فقد انتهت وردية براد وأوى بنفسه إلى مكان في حديقة ما يطلق عليه المنزل. أتخيله مقطورة إيرستريم بجوار الحائط حيث قناني الشراب من نوع ديكسي ملقاة في الأركان.

دلفت إلى المطبخ حيث يجرى إعداد العشاء. سألني نورتون "ماذا لديك في هذه الحقيبة سيد إيدجكومب؟" فأجبته بأنها "زجاجة فارغة". "لقد اكتشفت عين الشباب هناك بين الأشجار. أجلس هناك كل مساء في مثل هذا الوقت لآخذ منها قليلا. وأشربه وقت النوم. إنه شعور جيد. أستطيع أن أخبرك بذلك".

قال جورج، الطاهي الآخر "ربما بإمكان ذلك أن يحفظ شبابك، لكنه لا يفعل شيئا لعافيتك". ضحكنا على هذا الأمر، ثم غادرت المكان. وجدت نفسي أبحث عن دولان بالرغم من أن سيارته لم تكن هناك في مكانها، متهما نفسي بالعجز لأنني منحته الفرصة ليصبح مخيفا لي إلى هذا الحد، ثم عبرت ملعب الكروكي. كان وراء ذلك حقل أخضر يبدو أجمل في كتيبات جورجيا سنايبز، ووراء ذلك درب ينتهي بأيكة من الأشجار إلى الشرق من منزل التمريض، وبجوار هذا الدرب تمتد سقيفتان، لم يعد لأي منهما استخدام هذه الأيام. وقد ذهبت ومكثت لبعض الوقت في السقيفة الثانية التي تمتد بالقرب من الجدار الحجري المرتفع بين جورجيا سنايبز وطريق جورجيا السريع رقم 47.

تناولت عشاء جيدا في هذه الليلة، وأمضيت قليلا من الوقت أشاهد التلفاز، ثم أويت إلى فراشي مبكرا. في ليالٍ كثيرة استيقظ من نومي، وأشق طريقي نحو غرفة التلفاز، أمضي بعض الوقت في مشاهدة الأفلام القديمة على قناة الأفلام الأميركية؛ أميركان موفيز. لكنّ هذا لم يحدث

www.rewity.com RAYAHEEN WWW.REWITY.COM

الليلة الفائتة، فقد نمت في تلك الليلة وكأنني لم أنم من قبل، ولم تزعجني خلالها الأحلام التي تطاردني منذ بدأت مغامراتي في الكتابة الأدبية. لا بد من أن هذه الكتابات قد أنهكتني، فلم أعد شابا يقوى على الجلد.

عندما استيقظت، ووجدت أن بقعة الشمس التي غالبا ما تكون على الأرضية عند الساعة السادسة صباحا قد حطت فوق سريري، غادرت مضجعي مسرعا غير آبه بوخز التهابات المفاصل في فخذيّ وركبتيّ وكعبيّ. لبست مسرعا، واجتزت الصالة إلى النافذة التي تطل على مكان رَكنِ سيارات الموظفين، متمنيا أن أجد المكان الذي يترك فيه دولان سيارته القديمة لا يزال خاليا. ففي بعض الأحيان يصل متأخرا حوالى نصف الساعة، لكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه؛ فقد كانت السيارة هناك قابعة بمظهرها الباهت تحت أشعة شمس الصباح المشرقة. لأن السيد براد دولان لديه ما يجعله يصل في موعده هذه الأيام، أليس كذلك؟ نعم، فالسيد بولي إيدجكومب يذهب إلى مكان ما في الصباح الباكر، ويفكر هذه الأيام في شيء لا يعلمه أحد. وبالطبع، فلن يهدأ للسيد دولان بال حتى يعرف هذا الشيء. ما الذي تفعله هناك في الأسفل، بولي؟ أخبرني. من الجائز أنه يبحث عني الآن. سيكون تصرفا سليما أن أجلس حيث كنت... لولا أنني لا أستطيع.

"بول؟".

استدرت بسرعة كدت مع هذه الاستدارة أسقط على الأرض. إنها صديقتي إيلين كونيللي. كانت حدقتاها متسعتين ويداها ممتدتين وكأنها تهم بإمساكي. لحسن حظها أنني حافظت على توازني؛ فلو وقعت بين ذراعيها مع التهاب المفاصل الشديد الذي تعاني منه لتهشمت نصفين كعصا جافة. إن الرومانسية لا تموت عندما تدخل إلى العالم الغريب الذي يقع بعد تخوم الثمانين من العمر، لكنك قد تنسى فقط مجون الشباب.

"أنا آسفة، لم أقصد ترويعك".

قلت لها بابتسامة واهنة "لا بأس، إنها وسيلة جيدة للاستيقاظ في الصباح بدلا من الماء البارد، ربما ينبغي لي أن أطلب منك العمل لديّ كي تفعلي ذلك كل صباح".

"كنت تبحث عن سيارته، أليس كذلك؟ سيارة دولان".

لم يكن من الصراحة بدّ، لذا هززت رأسي موافقا. "لكم أتمنى أن يكون قد ذهب إلى الجناح الغربي. أحب أن أخلو بنفسي لبعض الوقت، ولا أريده أن يراني".

ابتسمت ابتسامة شقية لا بد من أنها كانت ابتسامتها في ميوعة الشباب. "كائن مزعج، أليس كذلك؟".

"نعم".

"وهو ليس في الجناح الغربي كذلك. لقد جئت لتوي من الأسفل حيث كنت أتناول الإفطار، كان رأسي لا يزال مثقلا بالنوم، وأستطيع أن أخبرك أين هو الآن، لأنني اختلست النظر هناك. إنه في المطبخ".

نظرت إليها قلقا. أنا أعرف أن دولان فضولي ولكن ليس إلى هذا الحد.

"هل بإمكانك أن تقلع عن سيرك الصباحي؟"، سألتني إيلين.

فكرت في الأمر... "أعتقد أنه يمكنني، لكن...".

"ينبغي ألا تفعل".

"نعم، ينبغي ألا أفعل".

الآن، دار في ذهني أنها ربما ستسألني أين أذهب، وما الشيء الذي أجده هناك في الغابات ويمثل تلك الأهمية بالنسبة إليّ.

لكنها لم تسألني. وإنما ابتسمت ابتسامتها الشقية مجددا. كانت تلك الابتسامة غريبة ورائعة على وجهها الحزين الذي أنهكه الألم. سألتني

WWW.REWITY.COM

"هل تعرف السيد هاولاند؟".

"بالطبع". بالرغم من أنني لا أراه كثيرا، فقد كان في الجناح الغربي، ذلك المكان الذي يشبه في جورجيا سنايبز بلدا مجاورا. "لماذا؟".

"هل تعرف ما الذي يميزه؟".

هززت رأسي.

قالت إيلين وهي تبتسم ابتسامة أعرض من ذي قبل"السيد هاولاند، واحد من بين خمسة فقط مقيمين في جورجيا سنايبز يحمل إذنا بالتدخين. لأنه كان مقيما قبل أن تتغير اللوائح هنا".

ميزة لأحد الأجداد، كان ذلك ما دار في فكري. وهل هناك مكان أنسب للمرء من منزل الكهولة؟

وضعت يدها في جيب ثوبها المخطّط بالأزرق والأبيض، وأخرجت شيئين سيجارة وعلبة ثقاب. "لص أخضر، لص أحمر". بدأت تغني بصوت جذل ومضحك. "إيلي الصغيرة ستترك سريرها مخضلا".

"إيلين، ماذا –".

"يجعل فتاة كبيرة تفعل ذلك؟"، قالت ذلك ثم أعادت السيجارة وعلبة الثقاب إلى جيبها، وأخذت ذراعي في إحدى يديها كثيرة العقد. بدأنا نسير عائدين في الردهة. في هذه الأثناء، قررت أن أترك لها قيادتي. كانت متقدمة في السن وضعيفة، لكنها تحتفظ برزانتها وجاذبيتها.

في أثناء تحركنا إلى الأسفل نسير الهوينا حفاظا على ما بقي لنا من العافية، قالت إيلين "انتظر قليلا. سأذهب إلى الجناح الغربي، إلى الحمام الموجود في الردهة. تعرفه، أليس كذلك؟".

أجبتها "نعم، ذلك الحمام الموجود خارج منتجع المياه المعدنية. لكن لِمَ؟".

قالت "لم أدخن سيجارة منذ خمسة عشر عاما، لكنني أرغب بفعل

ذلك هذا الصباح. لا أعلم ما الذي يحتاج إليه تعطيل جهاز كشف الدخان هناك، لكنني عازمة على المحاولة".

رمقتها بنظرة إعجاب، وفكرت إلى أي مدى تذكرني بزوجتي جان والتي ربما كانت ستفعل الشيء نفسه. نظرت إليّ إيلين، وابتسمت ابتسامتها المعهودة. وضعت يدي خلف رقبتها الطويلة الجميلة، وأدنيت وجهها مني ثم قبلت شفتيها قبلة صغيرة. "أحبك يا إيلي".

"آه، دعنا من هذا الكلام". لكنها كانت سعيدة بذلك، أستطيع أن أؤكد ذلك.

سألتها "ماذا عن تشاك هاولاند؟"هل سيتعرض لأي مشكلات؟".

"لا، لأنه في حجرة التلفاز يشاهد برنامج **صباح الخير يا أميركا** هو وما يقارب الدزينتين من الرجال. وسأختفي بمجرد أن يقوم جهاز كشف الدخان بتشغيل إنذار الحريق الموجود في الجناح الغربي".

"انتبهي سيدتي لئلا تسقطي وتصابي بأذى. فلن أسامح نفسي لو –".

"آه، توقف عن هذه المبالغات". قالت ذلك ثم قبلتني. الحب بين الحطام. ربما يبدو الأمر مضحكا لبعضكم وغريبا للبعض الآخر، لكنني أقولها لكم أيها الأصدقاء، إن حبا غريبا أفضل من لا حب على الإطلاق.

راقبتها وهي تبتعد، تتحرك ببطء وصعوبة (لكنها لم تكن لتستخدم سوى عكاز في الأيام المطيرة وعندما يشتد عليها الألم؛ وهذه إحدى ميزاتها)، انتظرت. مرت خمس دقائق ثم عشر، وعندما حدثتني نفسي أنه ربما خانتها شجاعتها وتراجعت عن الأمر أو أن بطارية جهاز كشف الدخان الموجود في الحمام فارغة، انطلق صوت إنذار الحريق في الجناح الغربي مدويا.

WWW.REWITY.COM

بدأت السير باتجاه المطبخ في الحال، لكن ببطء، لم يكن هناك ما يدعو للإسراع حتى أتأكد من أن دولان ليس في طريقي. خرجت مجموعة من المسنين، بأرديتهم، من حجرة التلفاز (تطلق عليها هنا مركز الموارد، أمر مضحك الآن) ليستكشفوا الأمر. كان من بينهم تشاك هاولاند، كنت سعيدا لرؤيته.

"إيدجكومب!"، جاءني صوت كينت أفيري وهو يصيح مرتكزا إلى عربة المشي بإحدى يديه وهو يجذب سروال ثوب نومه باليد الأخرى. "إنذار حقيقي أم آخر كاذب؟ ماذا ترى؟".

قلت له "لا سبيل لمعرفة ذلك".

في هذه الأثناء، مر بنا ثلاثة ممرضين متجهين إلى الجناح الغربي، وأخذوا يصرخون في الحشد المتجمع حول باب غرفة التلفاز بأن يذهبوا إلى الخارج وينتظروا إلى حين عودة الأمور إلى نصابها. كان ثالثهم هو نفسه براد دولان. لم ينظر إليّ حتى وهو يمر بنا، وقد أسعدني ذلك كثيرا. في طريقي نحو المطبخ خطر لي أن فريق إيلين كونيللي وبول إيدجكومب يمكنه الصمود في وجه دزينة على الأقل من أشباه براد دولان ونصف دزينة من أشباه بيرسي ويتمور، بل ويتفوق عليهم.

كان الطهاة في المطبخ منهمكين في إعداد الإفطار، غير منتبهين مطلقا إلى صوت إنذار الحريق.

قال جورج "انظر سيد إيدجكومب، أعتقد أن براد دولان كان يبحث عنك. في الحقيقة لقد فوّته لتوك".

لحسن حظي، قلت في نفسي. أما ما قلته بصوت مسموع فكان هو أنني ربما أرى السيد دولان في وقت لاحق. ثم سألت عما إذا كان لا يزال لديهم خبز محمص من الإفطار.

فردّ السيد نورتون "بكل تأكيد، لكنه بارد الآن. لقد أتيت متأخرا هذا الصباح".

فقلت "نعم، لكنني جائع".

قال جورج "ما هي إلا دقيقة لتسخين الخبز". ومد يده إلى الخبز.

قلت له "لا، لا بأس به باردا"، وعندما أعطاني قطعتين (لا أعرف لماذا كانتا تبدوان غريبتين لي)، خرجت مسرعا من الباب، يداخلني شعور يذكرني بشعوري عندما كنت طفلا أهرب من المدرسة لأذهب للصيد بشصّ ملفوف بورق مشمع مخبأ تحت قميصي.

خارج باب المطبخ، نظرت بحثا عن دولان فلم أجده، فأسرعت عابرا ملعب الكروكي وأنا أقضم إحدى قطعتي الخبز المحمص في أثناء سيري. أبطأت قليلا عند دخول المخبأ في الغابة، وسرت إلى الأسفل في الدرب، ووجدت ذاكرتي تعود مرة أخرى إلى اليوم التالي لإعدام إدوارد ديلاكروا.

لقد تحدثت إلى هال موور في ذلك الصباح، وأخبرني أن ورم المخ الذي أصيبت به مليندا يجعلها تدخل في نوبات هذيان تتلفظ فيها بشتائم وكلام بذيء... وهو ما أسمته زوجتي في ما بعد (على نحو مؤقت، إذ لم تكن متأكدة من أنه نفس الشيء) مرض توريت. لقد دفعني تهدج صوته لتذكر كيف استطاع جون كوفي أن يشفي عدوى البول التي أصابتني والظهر المكسور لفأر السيد ديلاكروا، ومن ثم إلى الخط الفاصل بين التفكير في شيء وفعل شيء آخر.

كان هناك شيء آخر، شيء يتعلق بيدي جون كوفي وحذائي.

لذا، فقد استدعيت الرجال الذين عملت معهم ووثقت بهم طوال حياتي دين ستانتون وهاري تيرويليجر وبروتوس هويل. كانوا قد أتوا لتناول الغداء في منزلي في اليوم التالي لإعدام ديلاكروا، وأنصتوا إليّ على الأقل عندما شرحت خطتي. إنهم يعرفون بالطبع أن كوفي استطاع أن يعالج الفأر، فقد رأى بروتال ذلك. لذا، فعندما قلت لهم إن إنجازا

WWW.REWITY.COM

آخر قد يحدث لو أخذنا جون كوفي إلى ملينداموور، لم يستبعدوا الأمر. كان دين ستانتون هو الذي أثار السؤال الأكثر إرباكا، ماذا لو هرب جون كوفي في أثناء اصطحابنا إياه في هذه الزيارة؟

سأل دين "لنفترض أنه قتل شخصا آخر؟ أكره أن أفقد وظيفتي، أكره أن أذهب إلى السجن ولديّ زوجة وأطفال أعولهم، لكنني لا أعتقد أنني أكره أيا من هذه الأشياء مثلما أكره أن أحتمل ذنب قتل فتاة صغيرة أخرى".

خيم الصمت علينا، ثم اتجهت أبصارهم جميعا إليّ بانتظار الرد. كنت أعرف أن كل شيء يمكن أن يتغير إذا قلت ما كان على طرف لساني، لقد وصلنا إلى نقطة ربما يصبح الرجوع بعد تجاوزها مستحيلا، بل ربما كان الرجوع بالنسبة إليّ على الأقل قد أصبح بالفعل مستحيلا. فتحت فمي وقلت...

2

"هذا لن يحدث".

سأل دين "أنى لك بهذه الثقة؟".

لم أجب. لم أعرف حتى كيف أبدأ. كنت أعلم أن هذا سيحدث، قطعا كنت أعلم، لكنني لا أزال لا أعرف كيف أحكي لهم عما دار في عقلي وقلبي. لكن بروتال ساعدني على الخروج من ذلك المأزق.

"لا تعتقد أنه فعل ذلك، أليس كذلك يا بول؟"، ونظر إليّ نظرة تحمل معنى الشك. "تعتقد أن ذلك الأخرق الضخم بريء".

فأجبت "أنا واثق من أنه بريء".

"ولماذا أنت واثق؟".

قلت "هناك سببان؛ أحدهما حذائي".

"حذاؤك؟" تعجب بروتال. "ما دخل حذائك في ما إذا كان جون كوفي قد قتل هاتين الفتاتين الصغيرتين أم لا؟".

"خلعت فردة من حذائي وأعطيته إياها الليلة الماضية، كان ذلك بعد الإعدام، عندما استقرت الأمور بعض الشيء. لقد دفعت فردة الحذاء عبر القضبان فأخذها بيديه الكبيرتين. طلبت منه أن يقوم بربط شريطها. كنت أريد أن أتأكد، لأن السجناء لا ينتعلون إلا الخفّ، فإذا كان يرغب بالانتحار، فيمكنه فعل ذلك باستخدام شريط الحذاء، إذا كان مصمما على ذلك. هذا شيء بديهي".

وافقوني على ذلك.

"لقد وضعها في حجره، وجعل طرفي الشريط في وضع متقاطع،

WWW.REWITY.COM

ثم توقف وقال إنه متأكد من أن أحدا قد علمه كيف يفعل ذلك عندما كان غلاما صغيرا، ربما والده أو أحد أصدقاء والدته بعد أن هجرهم الوالد، لكنه نسي ذلك الآن".

قال دين "أنا مع بروتال، ولا أزال أرى أنه لا دخل للحذاء في ما إذا كان كوفي قد قتل التوأم ديتيريتش أم لا".

لذلك، فقد عدت بذاكرتي إلى قصة الخطف والقتل مرة أخرى، ما قرأته في ذلك اليوم الحار في مكتبة السجن حيث كانت أربيتي تكاد تحترق من الحرارة وكان غيبونز يغط في النوم بجانبي، واستعدت كل ما قاله لي هامر سميث في ما بعد.

قلت لهم "لم يكن كلب عائلة ديتيريتش من النوع الشرس الذي يهاجم للعض، لكنه كان كلبا نبّاحا، والشخص الذي أخذ الفتاتين أسكت الكلب بإطعامه النقانق. كان يقترب زاحفا في كل مرة يعطيه واحدة، أتخيل ذلك، وبينما كان الكلب يأكل القطعة الأخيرة، هجم عليه، وأمسك برأسه، وقام بكسر عنقه. لاحقا، عندما قاموا بالقبض على كوفي، اكتشف الوكيل المسؤول عن جماعة حفظ النظام وكان اسمه روب ماكجي برود شيء في جيب الصدرية التي كان يرتديها كوفي، فاعتقد للوهلة الأولى أنها ربما تكون بندقية. فيما قال كوفي إنها وجبة الغداء، وهو ما كان بالفعل؛ شطيرة لحم ومخلل ملفوفان بصفحتين من صحيفة ومربوطان بخيط جزار. ولم يستطع كوفي أن يتذكر من أعطاه إياها، لم يتذكر سوى أنها امرأة تضع مئزرا -".

قال بروتال "شطيرة لحم ومخلل ولا يوجد نقانق".

رددت موافقا "لا توجد نقانق".

قال دين "بالطبع لا توجد؛ فقد أطعمها للكلب".

قلت موافقا "حسنا، هذا ما قالته النيابة في المحكمة، ولكن لو افترضنا أن كوفي فتح غداءه وأطعم النقانق للكلب، كيف كان سيتسنى

له ربط ورق الصحيفة الذي يلف به الغداء مرة أخرى باستخدام خيط الجزار؟ ولا أعرف حتى متى أتيحت له الفرصة للقيام بذلك، لكن دع هذا جانبا الآن. هذا الرجل لا يمكنه حتى ربط عقدة بسيطة سهلة الفك!".

ساد الصمت لبرهة طويلة، ثم كسره صوت بروتوس "يا للعنة"، قالها بصوت منخفض، "كيف لم يقل ذلك أحد أمام المحكمة؟".

قلت"لم يفكر أحد في ذلك". ووجدت نفسي أفكر مجددا في هامر سميث، ذلك الشخص الذي ذهب إلى الكلية في باولينغ غرين، والذي يرى نفسه إنسانا منفتحا، لقد قال لي ذات مرة إن الكلاب الهجينة والزنوج يمثلان شيئا واحدا، إن أيا منهما يمكنه أن يخطف منك أي شيء فجأة ومن دون أي سبب. في ما عدا أنه ظل يطلق عليهم زنوجك، كما لو كانوا لا يزالون ملكية... ولكن ليسوا ملكيته. لا ليسوا ملكه. ولن يكونوا أبدا ملكا لأحد. في ذلك الوقت كان الجنوب مليئا بأمثال هامر سميث. لم يكن أحد مستعدًا مطلقا للتفكير في ذلك، بما في ذلك المحامي الخاص بكوفي.

قال هاري "لكنك فعلت، انتبهوا أيها الرفاق، نحن نجلس مع السيد شارلوك هولمز". كان يبدو مازحا وجادا في الوقت نفسه.

قلت لهم "آه، لكن الأمر لا يخلو من ثغرة، لم أكن لأفكر فيها أيضا، لو لم أقارن بين ما قاله كوفي للوكيل ماكجي في ذلك اليوم مع ما قاله بعد أن عالجني من العدوى، وما قاله بعد أن عالج الفأر".

سأل دين "ماذا قال؟".

"عندما ذهبت إلى زنزانته أحسست كما لو كنت تعرضت للتنويم المغناطيسي. لم يكن باستطاعتي رفض مطالبه، حتى لو حاولت".

قال هاري "لا يروق لي ذلك". وتململ في مقعده.

"وسألته ماذا يريد، وأجاب أنه يريد المساعدة فقط. أتذكر ذلك

www.rewity.com RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

جيدا. وعندما انتهى الأمر وتحسنت حالتي، عرف ذلك. قال لي: لقد نجحت في المساعدة. لقد ساعدتك، أليس كذلك؟".

كان بروتال يومئ موافقا. "مثلما حدث مع الفأر". قلت "لقد ساعدتك، أليس كذلك؟"، وكرر كوفي ذلك مجددا كما لو كان ببغاء. "لقد ساعدت فأر ديل".

"هل كان هذا هو الوقت الذي عرفت فيه الحقيقة؟ كان هو، أليس كذلك؟".

"نعم، أعتقد ذلك. فقد تذكرت ما قاله لماكجي عندما سأله الأخير عما حدث. كان ذلك محور حديث الجميع عن القتل. لم يكن في وسعي فعل شيء. حاولت التراجع، لكن بعد فوات الأوان. شخص يقول شيئا كهذا وعلى ذراعيه فتاتان صغيرتان قد فارقتا الحياة، فتاتان بيضاوان وشقراوان، وهو ضخم كمنزل، فلا شك في أنهم قد أساؤوا التقدير. لقد استمعوا إلى ما يقوله بطريقة تتفق مع ما كانوا يرونه، ولم يكونوا يرون سوى لونه الأسود. لقد اعتقدوا أنه يعترف، وأنه لم يستطع أن يقاوم الدافع لاختطاف الفتاتين واغتصابهما ثم قتلهما. وأنه عاد إلى رشده وحاول التوقف".

همس بروتال "ولكن حينها كان الأمر قد قضي".

"نعم. لكن ما كان يحاول أن يخبرهم به هو أنه عثر على الفتاتين مضرجتين في دمائهما وحاول علاجهما لإعادتهما إلى الحياة، ولكنه لم ينجح في ذلك. كانتا قد فارقتا الحياة تماما".

سأل دين "بول، هل تصدق ذلك؟ هل تصدق ذلك حقا وعن اقتناع؟".

اختبرت مشاعري مرة أخيرة، ثم أومأت برأسي. أنا لم أعرف ذلك الآن فقط، كان هناك شيء داخلي يشعرني بأن هناك شيئا ما غير صحيح في موقف كوفي منذ البداية، عندما قدم بيرسي معلقا بذراع كوفي صارخا

شخص ميت يمشي! بأعلى صوته قمت بمصافحته، أليس كذلك؟ لم يسبق لي أبدا أن صافحت رجلا يأتي إلى الميل الأخضر من قبل، لكنني صافحت كوفي.

قال دين "يا الله، يا الله القدير".

قال هاري "حذاؤك شيء، فما هو الشيء الآخر؟".

"قبل أن تعثر جماعة حفظ النظام على كوفي والفتاتين بفترة ليست بطويلة، خرج الرجال من الغابة بالقرب من الضفة الجنوبية لنهر ترابينغاوس. لقد وجدوا مساحة من العشب المسحون بالأرجل هناك، والكثير من الدماء والجزء المتبقي من ثوب النوم الخاص بكورا ديتيريتش. لقد ارتبكت الكلاب قليلا. وكانت تريد التوجه نحو الجنوب الشرقي، بامتداد الضفة في اتجاه مجرى النهر. فيما كان اثنان من الكلاب يميلان إلى السير عكس اتجاه مجرى النهر. كان بوب مارشانت هو من يقود الكلاب، وعندما جعلهما يشمان ثوب النوم اتجها للسير مع الآخرين".

سأل بروتال "التبس الأمر على كلاب الراكون، أليس كذلك؟". وظهرت ابتسامة غريبة فيها شيء من الاستهجان على جانبي فمه. "في الواقع، هذه الكلاب لا تجيد التعقب بطبيعتها، وغالبا ما يصيبها الارتباك في أثناء العمل".

"نعم".

قال دين "لم أفهم ذلك".

قال بروتال "لقد نسيت كلاب الراكون الرائحة التي عرفها إليها بوبو، وما إن خرجت من ضفة النهر، حتى كانت كلاب الراكون تتبع القاتل، وليس الفتاتين. لم يكن ذلك مشكلة ما دام القاتل والفتاتان معا، ولكن...".

كانت عينا دين تتألقان. أما هاري فقد فهم قصدي.

WWW.REWITY.COM

قلت "عندما تفكر في الأمر، تتعجب كيف أن أي شخص، بما في ذلك قاضٍ يرغب بإلصاق الجريمة برجل أسود متجول، يمكنه أن يعتقد أن جون كوفي هو من فعلها ولو لدقيقة. إن فكرة إلهاء الكلب بالطعام ثم الاقتراب منه وكسر رقبته فوق استطاعة كوفي. إنه لم يتعدَّ الضفة الجنوبية لنهر ترابينغاوس مقتربا من مزرعة عائلة ديتيريتش، هذا ما أعتقده. على بعد ستة أميال أو أكثر. لقد كان يتسكع على امتداد النهر، ربما كان يريد السير حتى خط السكة الحديدية واللحاق بشاحنة إلى مكان آخر - عندما يخرجون من الجسر، فسيبطّئون قليلا حيث يتمكن من الركوب - عندما سمع أصواتا من جهة الشمال".

سأل بروتال "القاتل؟".

"القاتل. ربما كان قد اغتصبهما بالفعل، أو ربما كان الاغتصاب هو ما سمعه كوفي. وأيا كان الحال، فإن بقعة الدم التي كانت فوق العشب هي المكان الذي ارتكب فيه القاتل جريمته؛ حطم رأسيهما معا، ثم تركهما وفر مسرعا".

قال بروتال "فر هاربا باتجاه الشمال الغربي"، الاتجاه الذي كانت كلاب الراكون تريد أن تمضي فيه".

"صحيح. لقد أتى جون كوفي من ناحية أجمة شجر تنمو على مقربة من المكان باتجاه الجنوب الغربي حيث ترك القاتل الفتاتين، ربما دفعه الفضول ليعرف ماذا وراء تلك الضوضاء، ليفاجأ بجثتيهما. ربما كانت إحداهن لا تزال على قيد الحياة في ذلك الوقت؛ وربما كانتا كلتاهما على قيد الحياة وإن لم يكن ذلك لوقت طويل. لم يكن جون كوفي يعرف أنهما فارقتا الحياة، هذا مؤكد. إن كل ما كان يعرفه أنه يمتلك القدرة على الشفاء بيديه، وحاول استخدامها لإعادة كورا وكائي ديتيريتش إلى الحياة. وعندما لم تفلح قدرته، انهار صارخا، ودخل في نوبة هستيرية، وعلى هذا الحال وجدوه".

تساءل بروتال "لماذا لم يمكث هناك، حيث وجدهما؟ لماذا أخذهما جنوبا بامتداد ضفة النهر؟ هل خطرت له فكرة معينة؟".

أجبت "أعتقد أنه مكث في مكانه، في البداية، ففي المحاكمة، ظلوا يتكلمون عن مساحة كبيرة من العشب والدم. وجون كوفي رجل ضخم".

"جون كوفي عملاق ملعون"، قال هاري ذلك بصوت منخفض للغاية حتى لا تسمعه زوجتي يلعن إذا تصادف وكانت تسمع.

"ربما تملكه الرعب عندما رأى أن محاولته باءت بالفشل، أو ربما واتته فكرة أن القاتل لا يزال هناك، في الغابات أعلى النهر، يراقبه. إن كوفي ضخم الجثة، صحيح، لكنه ليس شجاعا حقيقيا. ألا تتذكر يا هاري عندما طلب منا أن نترك المصابيح مضاءة في العنبر عندما يحين موعد النوم؟".

"نعم، أتذكر كيف رأيت ذلك مضحكا بالنظر إلى حجمه". بدا هاري مشتتا غارقا في التفكير.

سأل دين "حسنا، إذا لم يكن قد قتل الفتاتين الصغيرتين، فمَن فعل ذلك؟".

هززت رأسي. "شخص آخر. شخص آخر ذو بشرة بيضاء هو أفضل تقدير لي. لقد بذل طرف المدعي مجهودا كبيرا في توضيح أن شخصا قويا بإمكانه قتل كلب ضخم ككلب عائلة ديتيريتش، ولكن -".

دمدم بروتوس "لكن هذا أمر قذر، إن فتاة قوية تبلغ اثني عشر عاما يمكنها كسر رقبة كلب ضخم، إذا أخذت الكلب على حين غرة. إذا لم يقم كوفي بذلك، فربما كان الأمر فعل شخص آخر... أي شخص آخر. ربما لا نعرف مطلقا".

قلت، "ما لم يفعلها مجددا".

قال هاري "وربما لا نعرف كذلك حينها ما إذا كان قد فعل ذلك

WWW.REWITY.COM

في وسط تكساس أو أطراف كاليفورنيا".

ارتكز بروتال إلى الخلف، وسمّر قبضتيه قبالة عينيه كطفل متعب، ثم أسقطهما في حجره مرة أخرى. ثم قال "إنه كابوس. إن لدينا رجلا ربما يكون بريئا - يحتمل أن يكون بريئا - وعليه أن يمشي الميل الأخضر لا شك في ذلك. ما الذي يفترض بنا أن نفعله حيال ذلك؟ إذا بدأنا بقصة اليدين اللتين تشفيان، فسيسخر منا الجميع، وسينتهي به المطاف إلى حبل المشنقة".

قلت "لندع ذلك لوقته". لأنه لم يكن لديّ أدنى فكرة عن الإجابة. "إن السؤال الذي يطرح نفسه الآن، ما الذي نفعله أو لا نفعله في ما يخص مليندا؟ أنا أنصح بالتروي والتفكير في الأمر لعدة أيام، لكن كل يوم ننتظره يزيد من فرص عدم قدرته على مساعدتها".

سألني بروتال "هل تتذكره وهو يرفع يده عن الفأر، ويقول أحضره لي طالما هناك وقت، طالما هناك وقت".

"أتذكر".

فكّر بروتال، ثم أومأ برأسه. "إنني مهموم، إن حكاية ديل تؤلمني، لكن في الغالب أعتقد أنني أرغب بمعرفة ما الذي سيحدث عندما يلمسها. ربما لا شيء، لكن ربما...".

قال هاري "أشك كثيرا في ما إذا كان بإمكاننا إخراج ذلك الضخم من العنبر"، ثم تنهد وأطرق. "لكن من يعنيه الأمر؟ اعتبروني من المعنيين به".

قال دين "وأنا أيضا، من الذي يقيم في العنبر يا بول؟ هل نقترع من أجل الأمر؟".

فأجبت بالقول "لا، لا حاجة إلى الاقتراع. أنت الذي سيقيم".

"هل الأمر هكذا؟ ماذا هذا الذي تقوله!"، أجاب دين، متأذيا وغاضبا. مسح نظارته، وبدأ بتلميعها بقميصه بانفعال بادٍ. "أي نوع من المصير القاسي هذا؟".

قال بروتال "عندما يحل بك ما حل به من سجن ولديك أطفال صغار لا يزالون في المدرسة. أنا وهاري أعزبان. بول متزوج، لكن أولاده كبار ويتولون شؤون أنفسهم على الأقل. إنه لعمل خطير الذي نخطط له هنا؛ أعتقد أننا على وشك أن يقبض علينا". نظر إليّ بهدوء. "شيء واحد لم تذكره يا بول، وهو أنه إذا نجحنا في إخراج كوفي ولم يستطع كوفي العلاج، فإن هال مورر سيسخط علينا". وانتظر ردي على هذا، ربما لأفنّد ذلك، لكنني لم أستطع والتزمت الصمت. التفت بروتال إلى دين واستمر في كلامه. "لا تُسِئ فهمي، ستفقد وظيفتك، لكنك على الأقل ستجد الفرصة للخروج من السجن إذا لم تسِر الأمور على ما يرام". ربما يعتقد بيرسي أنها كانت مزحة، إذا كنت في مكتب المناوبة، ربما يمكنك القول إنك فكرت في الشيء نفسه ولم نخبرك مطلقا بشيء جديد".

فقال دين "لا أزال غير متقبل للأمر". بيد أنه من الواضح أنه تورط في الأمر، شاء أم أبى. إن فكرة أطفاله الصغار أقنعته. "وهل سيتم هذا تلك الليلة؟ هل أنت متأكد؟".

قال هاري "إذا كنا نريد القيام بذلك، فإن أفضل توقيت له هو الليلة، إن المرء إذا أخذ وقتا في التفكير، ربما فقد شجاعته".

قال دين "سأكون أنا الشخص الذي يمر بالمستشفى، فأنا أستطيع أن أقوم بذلك جيدا على الأقل، أليس كذلك؟".

فأجاب بروتال "ما دام بإمكانك القيام بما تريده من دون أن يمسك بك أحد".

شعر دين بالاستياء من ذلك، لكنني ربت على كتفه. "بعد أن يتأخر الوقت... اتفقنا؟".

"أنت تخاطر".

أطلت زوجتي برأسها من الباب وكأنما أعطيتها إشعارا بفعل ذلك.

WWW.REWITY.COM

"من يرغب باحتساء المزيد من الشاي المثلج؟"، سألت بابتهاج. "ماذا عنك يا بروتوس؟".

فأجاب "لا، شكرا. إن ما أريده فعلا هو كأس جيدة وثقيلة من الشراب الاسكتلندي، ولكن في مثل هذا الوقت، لن تكون فكرة جيدة".

نظرت جانيس نحوي، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيها فيما كان القلق باديا في عينيها. "ما الأمر الذي جمعت هؤلاء من أجله يا بول؟" ولكن قبل أن أفكر حتى في إيجاد الرد، رفعت يدها وقالت "لا عليك، لا أريد أن أعرف".

3

بعد ذلك، وبعد ذهاب الآخرين بوقت طويل، وعندما كنت أرتدي ثياب العمل، أخذتني من ذراعي وطوقتني بذراعيها، ونظرت في عيني بتركيز شديد.

وسألتني "ملينداً؟".

أومأت برأسي.

"هل بإمكانك أن تفعل شيئا من أجلها يا بول؟ حاول مساعدتها، أم أن الأمر لا يعدو كونه أضغاث أحلام لما رأيته الليلة الماضية؟".

فكّرت في عيني كوفي ويديه وفي الطريقة الشبيهة بالتنويم المغناطيسي التي ذهبت بها إليه عندما دعاني. فكرت فيه وهو يفتح ذراعيه لجسد السيد جينغلز المحطم غير القادر على الحراك. بينما كان لا يزال هناك وقت، كما قال. والأشياء السوداء التي تحولت إلى اللون الأبيض واختفت.

قلت أخيرا "أعتقد أننا ربما نكون الفرصة الوحيدة الباقية لها".

"إذا، لا تفوتها". قالت ذلك وهي تزرّر معطفي الخريفي الجديد الذي كان في خزانة الملابس منذ ذكرى ميلادي في بداية سبتمبر، لكن كانت هذه المرة الثالثة أو الرابعة التي أرتديه فيها. "لا تفوتها".

ودفعتني نحو الباب إلى الخارج.

WWW.REWITY.COM

4

ذهبت إلى العمل في تلك الليلة – والتي تُعدّ من وجوه كثيرة أغرب ليلة في حياتي كلها – عند الساعة الثامنة والست دقائق. أعتقد أنني كنت لا أزال أشم الرائحة المخدرة الثقيلة للحم المحترق في الهواء. لقد كانت بالضرورة وهما. فالأبواب الخارجية، سواء في المبنى أو غرفة التخزين، كانت مفتوحة معظم اليوم، وقد أمضى عمال الورديتين السابقتين ساعات في تنظيف المكان؛ لكن ذلك لم يغير من الرائحة التي تصلني عبر أنفي ولا أعتقد أنني أكلت أي نوع من العشاء حتى لو لم أكن مرعوبا بشدة من المساء القادم.

وصل بروتال إلى المبنى عند الساعة السابعة إلا ربع، فيما وصل دين عند الساعة العاشرة. سألت دين إذا ما كان يستطيع الذهاب إلى المستشفى لإحضار ضمادة تدفئة لظهري، الذي يبدو أنني أرهقته هذا الصباح في محاولة حمل جسد ديلاكروا إلى داخل الممر، فيما قال دين إنه سيسعده القيام بذلك. أعتقد أنه أراد أن يغمز لي، لكنه تراجع.

وصل هاري عند الساعة السابعة إلا ثلاث دقائق.

سألت "الشاحنة؟".

"حيث اتفقنا".

كانت الأمور حتى الآن على ما يرام. مر بعض الوقت عندما وقفنا بجوار مكتب المناوبة، نرتشف القهوة ولا نتكلم في ما نفكر فيه جميعا، ونتطلع إلى أن يتأخر بيرسي أو ألا يأتي مطلقا. وإذا وضعنا في اعتبارنا الآراء العدائية التي وجهت إليه بسبب الطريقة التي تعامل بها مع التحذير الإلكتروني، ربما كان ذلك ممكنا.

لكن يبدو أن بيرسي عمل بالحكمة القديمة التي مفادها أنه ينبغي أن تعود على الحصان الذي أوقعك، فقد أتى عبر الباب عند الساعة السادسة والسبع دقائق، متألقا في زيه، يتدلى مسدسه فوق وركه وهراوته في جرابها المميز على الجانب الآخر. قام بخرم بطاقة الحضور، ثم نظر حوله إلينا باحتراس (باستثناء دين الذي لم يعد من المستشفى بعد). وقال "لقد تعطّل بادئ الحركة. كان علي أن أقوم بتدويرها يدويا". فأجاب هاري "آه، يا مسكين".

فيما قال بروتال بلطف "كان يجب أن تبقى في المنزل حتى يتم إصلاح العطل. لم نكن نريدك أن تجهد ذراعك، أليس كذلك يا رجال؟".

"نعم كنتم تريدون ذلك، أليس كذلك؟" بدا بيرسي ساخرا، لكن يبدو أنه اطمئن للأسلوب اللطيف في إجابة بروتال. كان ذلك جيدا. فقد كان علينا أن يكون سلوكنا متزنا معه، بعيدا عن العدائية المفرطة أو التودد البالغ. فبعد الليلة الماضية، ربما يشك في أي شيء حتى المعاملة الطيبة. لم نكن ننوي الإطاحة به وبحُماته بالطبع، إننا نعرف ذلك، لكن أعتقد أنه كان بإمكاننا التغلب عليه لو أجدنا تدبير الأمور. كان من الأهمية أن نتحرك بسرعة، وأيضا، بالنسبة إليّ على الأقل، ألا يصاب أحد منا بأذى. حتى بيرسي ويتمور.

عاد دين وأومأ لي إيماءة قصيرة.

قلت "بيرسي، أريدك أن تهبط إلى المخزن وتقوم بتنظيف الأرضية، والسلالم حتى النفق كذلك، بعد ذلك يمكنك كتابة التقرير عن الليلة الماضية".

قال بروتال "ينبغي أن يكون ذلك عملا مبدعا"، معلقا إبهاميه في حزامه وناظرا إلى السقف.

قال بيرسي "لديكم روح دعابة أكثر من أي شخص في دار العبادة".

RAYAHEEN www.rewity.com
WWW.REWITY.COM

لكنه لم يعترض، حتى إنه لم يجادل في نقطة بديهية وهي أن الأرضية في المخزن قد تم تنظيفها مرتين في ذلك اليوم. وفي اعتقادي فإنه وجدها فرصة للابتعاد عنا.

ألقيت نظرة على تقرير الوردية السابقة، ولم أرَ فيه شيئا مثيرا للاهتمام، ثم تمشيت هابطا إلى زنزانة وارتون. كان هناك جالسا على سريره، ركبتاه إلى صدره ويداه حول ساقيه، ينظر إليّ وهو يبتسم ابتسامة ماكرة.

بادر قائلا "حسنا، إذا لم يكن الزعيم الكبير كبيرا كالحياة وقبيحا ضعفها. تبدو أسعد من حيوان غارق لركبتيه في الوحل، أيها الرئيس إيدجكومب. يبدو أن زوجتك أعطتك جرعة شجاعة قبل أن تغادر منزلك، أليس كذلك؟".

"كيف حال أطفالك؟"، سألت بشيء من السكينة، فانبسطت أساريره. رفع يديه عن ساقيه، ونهض واقفا. زادت ابتسامته اتساعا، وخفّت لهجته العدائية.

قال "اللعنة. إنها المرة الأولى التي تخاطبني فيها هكذا! ما الأمر، سيد إيدجكومب؟ هل أنت مريض أم ثمل؟".

لست مريضا. كنت مريضا، لكن جون كوفي عالجني من مرضي. لم تعد يداه تعرفان كيفية ربط حذاء، إن كانتا قد عرفتا ذلك من قبل، لكنهما تعرفان مهارات أخرى. نعم، إنهما تعرفان.

"صديقي، إذا كنت ترغب بأن تكون بيلي ذا كيد بدلا من بيلي المتوحش فإن الأمرين سيان بالنسبة إليّ".

أطلق نفسا عميقا كإحدى الأسماك الكريهة التي تعيش في أنهار أميركا الجنوبية والتي يمكنها أن تلسعك بالأشواك الموجودة على ظهرها وجانبيها لسعة تواريك الشرى. لقد تعاملت مع عدد كبير من الرجال الخطرين في أثناء الفترة التي أمضيتها في الميل، بيد أن عددا قليلا

منهم، وربما لا أحد، كانوا بغيضين مثل ويليام وارتون؛ كان يعتبر نفسه أكبر خارج على القانون، وكان لا يكفّ عن التبول والبصق خارج حدود الزنزانة. ولم نكن نتوقف عن عقابه على ذلك. لكن في هذه الليلة، كنا لا نريد أن نثير حفيظته، أيا كان ما سيفعله.

قال وارتون "إنني أشترك مع بيلي ذا كيد في الكثير، وأفضل لك أن تصدق ذلك. مجيئي إلى هنا لم يكن لأنني سرقت حلوى من متجر بقالة". كان يفخر بذلك كشخص جند في كتيبة الأبطال في فيلق الأجانب الفرنسي وليس شخصا تم الزج به في زنزانة لا تبعد سوى سبعين خطوة عن الكرسي الكهربائي. "أين عشائي؟".

"اقترب، أيها الولد، يقول التقرير إنك حصلت عليه عند الساعة الخامسة والخمسين دقيقة. طبق لحم مع البازلاء المطحونة المطبوخة بالصلصة. لا يمكنك خداعي بهذه السهولة".

ضحك بشدة، ثم جلس على سريره مرة أخرى. "إذا أدر المذياع". لفظ كلمة المذياع بالطريقة التي يقولها الناس عندما يتندرون. إنه لشيء مضحك أن يتذكر المرء كل هذا عن الأيام الخوالي عندما تكون أعصابه مشدودة.

قلت له "ربما لاحقا، أيها الطفل الكبير". خرجت من زنزانته، ونظرت باتجاه الردهة. كان بروتال قد توجه إلى النهاية الأخرى ليتأكد من أن باب غرفة الحجز مغلق بالقفل المفرد وليس المزدوج. أعرف أنه مغلق بالقفل المفرد، فقد تحققت من ذلك بنفسي. بعد ذلك سنحتاج إلى فتح الباب بأقصى سرعة ممكنة. لن يكون هناك متسع من الوقت لتفريغ المكان من الأشياء التي تجمعت فيه مع مرور الزمن، فقد قمنا بإخراجها وفرزها وتخزينها في أماكن أخرى بعد انضمام وراتون إلينا ليس بوقت بعيد. بدا لنا أن الغرفة ذات الجدران الملساء يمكن استخدامها لأكثر من غرض، على الأقل حتى قدم إلى الميل بيلي ذا كيد.

WWW.REWITY.COM

كان جون كوفي، الذي كان يهجع في مثل هذا الوقت، مدليا قدميه ووجهه للحائط، جالسا على طرف سريره، يداه متشابكتان ويراقب بروتال بانتباه بالغ، وهو شيء غير معهود فيه. لم يكن يختلس النظرات هكذا.

تحقق بروتال من باب غرفة الحجز، ثم عاد إلى الميل. نظر إلى كوفي وهو يمر بزنزانته، وقال له كوفي شيئا غريبا "نعم. أحب أن أكون بصحبتكم". كأنما يجيب عن سؤال طرحه بروتال.

قابلت عينا بروتال عينيّ. إنه يعلم بما يجري، اعتَقَد أنني سمعته يقول ذلك. ربما يعرف بطريقة أو بأخرى.

هززت كتفي، ومددت يديّ كما لو أنني أقول "بالطبع هو يعرف".

5

أخذ توت توت العجوز رحلته الأخيرة إلى العنبر (هـ) مع عربته حوالى الساعة التاسعة إلا ربع. كان علينا أن نتحمل حماقاته حتى نرضيه لبعض الوقت.

سألنا "هل رأيتم ذلك الفأر أيها الرجال".

هززنا رؤوسنا.

قال توت توت "ربما يكون الفتى الجميل قد رآه"، وأشار برأسه باتجاه حجرة التخزين، حيث كان بيرسي إما يمسح الأرضية أو يكتب التقرير أو يجلس متكاسلا.

قال بروتال "ولماذا تزعج نفسك بالأمر؟ لا شأن لك بذلك، على كل حال. أدر العجلات يا توت توت. أنت تلوث المكان".

ابتسم توت توت ابتسامة بغيضة كشفت عن فم خالٍ من الأسنان وتنشق الهواء. "ليست رائحتي تلك التي تشمونها، إنها رائحة ديل، قلت ذلك من مدة".

استدار بعربته محدثا ضجة، وخرج من الباب إلى الفناء. وقد مضى يدفعها لمدة عشرة أعوام أخرى، لوقت طويل بعدما تركت المكان، وبعدما بدأ ببيع الحلوى والمشروبات الغازية للحراس والسجناء الذين في وسعهم الشراء. وأحيانا ما أسمعه حتى الآن في أحلامي، يصرخ أنه يشوى، يشوى كالديك الرومي.

طال الزمن بعد أن ذهب توت توت، أصبح يمر بتثاقل كئيب. عندما استمعنا إلى المذياع لساعة ونصف، كان وارتون يضحك بصوت مرتفع

WWW.REWITY.COM

على نكات فريد ألن وآلن ألي، بالرغم من أنني أشك في أنه كان يفهم الكثير من النكات. جلس جون كوفي على طرف سريره، يداه متشابكتان، لا يصرف بصره عن الشخص الجالس إلى مكتب المناوبة. يذكرني ذلك دوما بالأشخاص الذين أراهم في محطة الحافلات ينتظرون مرور الحافلة التي تقلّهم إلى وجهتهم.

وصل بيرسي من غرفة التخزين حوالى الساعة الحادية عشرة إلا ربع، وقام بتسليمي تقرير مكتوب بقلم رصاص يبدو أنه احتاج إلى جهد كبير. فلا يزال فتات الممحاة معلقا على سطح الورق في خطوط خشنة. رآني أمرر إبهامي على أحد هذه الخطوط، فقال مسرعا "هذا ليس إلا محاولة أولى. سأقوم بنسخها على ورقة أخرى. ما رأيك؟".

كان رأيي أنه أسوأ تقرير قرأته طوال فترة عملي. لكنني أخبرته أنه جيد، وانصرف راضيا.

كان دين وهاري يلعبان الورق، ويعلو صياحهما ويتشاجران حول العدد بين الحين والآخر وينظران إلى الساعة التي تتحرك ببطء كل خمس ثوانٍ أو نحو ذلك. وفي واحدة من ألعابهم على الأقل في هذه الليلة، بدا أنهم يدورون حول الطاولة ثلاث مرات بدلا من مرتين. كان الجو مليئا بتوتر شديد شعرت أنه بإمكاني تشكيله كالطين، لكن بيرسي وبيل المتوحش لم يكونا يشعران بذلك.

أصبحت الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق، ولم أعد أستطيع الانتظار أكثر من ذلك وأعطيت دين إيماءة صغيرة. ذهب إلى مكتبي حاملا زجاجتي أر سي كولا اشتراهما من عربة توت توت، وخرج عائدا بعد دقيقة أو اثنتين. بعد أن أفرغ الكولا في كوب من القصدير، بحيث لا يستطيع السجين كسرها أو استخدامها في جرح الجلد.

أخذتها وتلفت حولي. كان هاري ودين وبروتال ينظرون جميعا إليّ، وكذلك، لهذا السبب، كان جون كوفي. ولم يكن بيرسي يرانا.

كان بيرسي قد عاد إلى غرفة التخزين، حيث يشعر براحة أكبر في تلك الليلة. شممت الكوب ولم أشم سوى رائحة مادة الأر سي، والتي كان لها رائحة غريبة ولكنها محببة، أشبه برائحة القرفة في تلك الأيام.

أخذتها إلى زنزانة وارتون. كان مستلقيا على سريره. يعبث في بعض أشيائه.

"أنت"، ناديت عليه.

رد قائلا "لا تزعجني".

قلت موافقا "حسنا، لقد ابتعت مشروبا غازيا لتتصرف كبشر طوال الليلة، لكن يبدو أنني سأشربه".

تصنعت أنني أشربه، رافعا الكوب (تحركت حول قضبان السجن جيئة وذهابا) إلى فمي. انتفض وارتون من السرير بلمح البصر، ولم أدهش لذلك. فلم تكن مخادعة عالية الخطورة، فأغلب المحتالين والمغتصبين ومن ينتظرون الإعدام على الكرسي الكهربائي، ما هم إلا عبيدا لشهواتهم، ولم يكن وارتون استثناء منهم.

قال وارتون "أعطِني إياه، أيها الأبله". كان يتحدث وكأنه رئيس عمال وأنا أحد عماله. "هيا أعطِني إياه".

أمسكت به خارج القضبان كي يمد يده إليه. لأنني لو مددت يدي به إلى الداخل لحدث ما لا تحمد عقباه، وهو أمر يعلمه جيدا أي سجان متمرس. إنها تلك الأشياء التي فكرنا فيها من دون حتى أن نعرف أننا كنا نفكر فيها؛ مثلما نعرف ألا ندع المجرمين ينادوننا بأسمائنا الأولى، الطريقة التي نعرف بها أن صوت المفاتيح التي تصلصل بسرعة يعني وجود مشكلة في المبنى، لأن الصوت صادر عن حارس سجن يجري، وحراس السجن لا يجرون ما لم تكن هناك مشكلة في المكان. وهي أشياء لم يكن بيرسي ويتمور ليعرفها أبدا.

بيد أنه في تلك الليلة لم يكن وارتون راغبا بالجذب أو الخنق.

WWW.REWITY.COM

اختطف الكوب وشربه في ثلاث رشفات طويلة، ثم تجشأ بصوت عالٍ وقال "رائع!".

سحبت يدي نحوه "الكوب".

أمسك به للحظة، يضايقني بعينيه. "أفترض أنني احتجزته منك؟".

هززت كتفي. "سندخل إليك، ونأخذه منك. وستذهب إلى الغرفة الصغيرة. وسيكون ذلك آخر كوب أر سي تحتسيه، قبل موتك، هذا كل ما في الأمر".

خبت ابتسامته. "لا أحب الحديث عن الموت، أيها العجوز". ودفع بالكوب إلى خارج القضبان "خذه".

أخذته. ومن خلفي وجدت بيرسي يقول "لماذا تريد أن تعطي شخصا مثله مشروب صودا؟".

لأنه مخلوط بمخدر من المستشفى كي ينام لمدة ثمانية وأربعين ساعة، كما أنه لم يتذوق شيئا على الإطلاق، أعتقد.

قال بروتال "مع بول، تتقاطر الرحمة كالغيث من السماء".

سأل بيرسي بتجهم "أهو هكذا؟".

"يعني أنه إنسان رحيم. طالما كان هكذا، وسيظل. هل ترغب بقضاء بعض الوقت في لعبة كريزي إيتس، بيرسي؟".

امتعض بيرسي. "باستثناء جو فيش وأولد ميد، إنها أغبى لعبة ورق عرفتها".

قال بروتال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة "لهذا رأيت أنك ربما تحتاج إلى أيدٍ قليلة".

قال بيرسي "يبدو أن الجميع تعلموا التلفظ بالحكم هذه الأيام".

ثم اندفع إلى داخل مكتبي. لم أكترث له وظللت صامتا.

زحفت الساعة قليلا. الثانية عشرة وعشرون دقيقة؛ الثانية عشرة وثلاثون دقيقة. عند الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة نهض جون كوفي عن سريره، ووقف على باب زنزانته، قابضا بيديه على القضبان. سرت أنا وبروتال إلى زنزانة وارتون، واختلسنا النظر إلى داخلها، كان يرقد على سريره ينظر إلى السقف مبتسما. كانت عيناه مفتوحتين، لكنهما كانتا ككرتين من الزجاج. وكانت إحدى يديه على صدره فيما تدلت الأخرى إلى جانب السرير، تعبث بالأرض.

قال بروتال "يا الله، لقد تحول من بيلي ذا كيد إلى ويلي الباكي في أقل من ساعة. يا تُرى كم قرص مورفين وضع دين في هذا المشروب".

قلت "ما يكفي". كان هناك تهدج في صوتي. لم أعرف إذا ما كان بروتال قد سمعني أم لا، لكنني متأكد من أنه سمع. "هيا. سنفعل ذلك الآن".

"أعتقد أنك لا تريد أن تنتظر إلى أن يمر ذلك الوسيم من هنا؟".

"لقد مر خارجا الآن، بروت. أنت الزعيم".

"أنت الزعيم". كان دين يجلس منتصبا إلى مكتب المناوبة، يخلط الورق بسرعة وقوة تجعله يكاد يشتعل، يلقي بنظره بين فينة وأخرى إلى يساره، نحو مكتبي، ويراقب بيرسي في الوقت نفسه.

سألني هاري "هل حان الوقت؟". كان وجهه الطويل يبدو شاحبا، فوق زيه الأزرق، لكن بدا عليه التصميم.

قلت "نعم. إذا كنا سنقوم بذلك، فهذا هو الموعد المناسب".

رسم هاري رمز النصارى الديني وقبل إبهامه. ثم توجه إلى غرفة الحجز، فتح قفلها، وأحضر سترة السجناء. وناولها لبروتال. مشينا عبر الميل الأخضر. وقف كوفي على باب زنزانته يشاهدنا ونحن نذهب،

www.rewity.com RAYAHEEN WWW.REWITY.COM

ولـم يتفـوه ببنـت شـفه. عندما وصلنـا إلى مكتب المناوبة، وضع بروتال السترة خلف ظهره، والذي كان عريضا بما يكفي لإخفائها.

قال دين "يا للحظ". كان شاحبا كهاري تماما، وكان يبدو مصمما مثله كذلك.

كان بيرسي خلف مكتبي مباشرة، يجلس على كرسيي وينظر في الكتاب الذي لم يكن يفارقه في الأيام القليلة الماضية؛ الغريب أن الكتاب كان حول العناية بالمرضى العقليين في المؤسسات. ربما اعتقدت، من النظـرة التـي تحمـل مشـاعر الإثـم والقلـق والتي ألقاهـا باتجاهنا، عندما تحركنا، بأنها كانت الأيام الأخيرة لسدوم وعمورية.

"ماذا؟"، سأل وأغلق الكتاب بسرعة. "ماذا تريدون؟".

قلت له "أن نتحدث إليك يا بيرسي، هذا كل ما في الأمر".

لكنه قرأ أكثر من مجرد الرغبة بالحديث في وجوهنا، ونهض واقفا كطلقة نارية، مسرعا موشكا على الجري باتجاه الباب المفتوح إلى غرفة التخزيـن. لقـد كان يعتقـد أننـا أتينـا لمشـاحنته علـى الأقـل، وربما لننال منه.

قطع هاري الطريق خلفه، وأعاق ممر الباب، واضعا يديه مطويتين على صدره.

"انظر!" التفت بيرسـي إليّ، مدركا للوضع لكن محاولا ألا يظهر اهتماما. "ما هذا؟".

قلـت لـه "لا تسـأل يـا بيرسـي". كنـت أعتقـد أننـي سـأكون بخير، سـأعود إلى حالتي الطبيعية على كل حال، ما إن ننتهي من هذا العمل المجنون، لكن الأمر لم يسـر على هذا النحو. لم أصدق ما كنت أقوم بفعله. كان الأمر أشبه بكابوس مزعج. ظللت أنتظر أن توقظني زوجتي وتخبرني أنني كنت أتأوه في منامي. "سـيكون من الأسـهل أن تواصل الأمر إلى نهايته".

"ما الذي يخبئه هويل خلف ظهره؟"، سأل بيرسي بصوت مرتجف، واستدار ليتمكن من إلقاء نظرة أفضل على بروتال.

"لا شيء" قال بروتال. "حسنا... هذا، أعتقد -!".

انتزع سترة السجناء وهزها بجوار وركه، مثل مصارع الثيران الذي يحرك قبعته كي يهاجمه الثور.

اتسـعت حدقتا بيرسـي، واندفع إلى الأمام. كان ينوي الفرار، لكن هاري التقط ذراعه ولم يستطع أن يفعل شيئا بعدها.

"اتركنـي!" صـرخ بيرسـي محـاولا الإفـلات مـن قبضـة هاري. لم يكن ذلك ليحدث بالطبع، كان هاري يفوقه وزنا بحوالى مئة رطل وله عضلات شخص أمضى جل أوقات فراغه في الحراثة وقطع الأخشاب بالفـأس، لكـن بيرسـي بـذل مجهـودا كبيرا ليسـحبه إلـى منتصف الغرفة وتنخلع السجادة الخضراء الرثة التي طالما سعيت لاستبدالها. وللحظة شـككت في أن بإمكانه تحرير إحدى ذراعيه، قد يكون الرعب جحيما للمحرض.

قلت له "اهدأ يا بيرسي، سيكون الأمر أسهل إذا -".

"لا تطلب مني أن أهدأ أيها الأحمق!"، كان بيرسي يصرخ، ويهز كتفيـه محـاولا تحريـر ذراعيـه. "فقـط ابتعدوا عنـي! جميعكم! أنا أعرف شخصيات! شخصيات كبيرة! إذا لم تكفوا عن ذلك، فسيكون مصيركم النفي إلى جنوب كارولينا حيث العذاب المقيم!".

اندفع إلى الأمام مرة أخرى، ووضع أعلى فخذيه على مكتبـي، وقع الكتاب الذي كان يقرأه، رعاية المرضى العقليين في المؤسسات، وخرج منه كتيب أصغر كان مخبأ في داخله. لا شـك في أن بيرسي بدا مذنبا عندمـا رأيناه، لـم تكـن الأيـام الأخيرة لسـدوم وعمورية، وإنما كتابا من تلك التي نعطيها في بعض الأحيان للنـزلاء للترفيه عن أنفسهم والذين يتسمون بحسن السير والسلوك ويستحقون معاملة جيدة.

WWW.REWITY.COM

شعرت بالحزن لأن بيرسي كان في مكتبي يقرأ مثل هذه الكتب، وبدا هاري، كما رأيته من فوق كتف بيرسي، مشمئزا، لكن بروتال انفجر ضاحكا، وكان ذلك كافيا لإيقاف بيرسي عن الشجار ولو لبعض الوقت.

"آه بيرسي"، قال له بروتال. "ماذا ستقول أمك؟ بالنسبة إلى هذا الأمر، ماذا سيقول الحاكم؟".

تحول وجه بيرسي إلى اللون الأحمر الداكن من الخجل. "أغلق فمك. ولا تقحم أمي في ذلك".

قذف بروتال بسترة السجناء إليّ واقترب بوجهه من بيرسي "شيء مؤكد. ضع ذراعيك إلى جانبيك كطفل مطيع".

كانت شفتا بيرسي ترتعشان وعيناه تلمعان بشدة. لقد كان، في اعتقادي، على وشك البكاء. "لن أفعل". قال ذلك بصوت طفولي مرتعش "ولا يمكنكم أن تجبروني على ذلك". ثم رفع صوته، وبدأ يصرخ طالبا المساعدة. ارتبك هاري وكذلك أنا، كانت هذه أقرب لحظة قد نتخلى فيها عن الأمر برمته. وربما فعلنا ذلك، باستثناء بروتال. لم يتردد. أخذ خطوة خلف بيرسي حتى أصبح كتفا لكتف مع هاري، الذي كان لا يزال قابضا على يدي بيرسي خلفه. اقترب بروتال وأمسك بأذني بيرسي.

قال له "توقف عن الصراخ. إلا إذا كنت ترغب بالحصول على زوجين من أندر علب الشاي في العالم".

توقف بيرسي عن الصراخ، ووقف مكانه يرتعش وينظر إلى الأرض إلى غلاف كتاب الكرتون الفج، والذي يصور بوباي وأوليف يقيمان علاقة بطريقة مبتكرة سمعت عنها لكنني لم أحاول تجريبها.

قال بروتال "ضع يديك إلى جانبك، وتوقف عن أي حماقات. نفذ الآن".

قال بيرسي "لن أفعل، لن أفعل، ولا يمكنك إرغامي على ذلك".

"أنت غير مصيب في ذلك، أنت تعرف"، قال بروتال، ثم ضغط على أذني بيرسي وقام بليهما كأنك تلوي مؤشر فرن لا يقوم بالطهي على النحو المطلوب، خرجت من بيرسي صرخة ألم ودهشة لم أكن أتمنى سماعها. لم يكن الألم والدهشة هما السبب، إنما الإدراك. إنها المرة الأولى في حياته التي يدرك فيها بيرسي أن الأشياء الأليمة لا تحدث فقط للآخرين، هؤلاء الذين لم يسعدهم حظهم بالقرب من المأمور. أردت أن أطلب من بروتال التوقف، لكنني لم أستطع بالطبع. فقد وصلت الأمور إلى نقطة اللاعودة. كل ما كان بإمكاني فعله هو أن أذكر نفسي بأن بيرسي جعل ديلاكروا يتجرع العذاب لأن الأخير سخر منه. بيد أن هذا التذكار لم ينجح في التخفيف من الطريقة التي شعرت بها. ربما كان يمكن، لو كانت طبيعتي مثل طبيعة بيرسي.

قال بروتال "ثبت ذراعيك هناك يا عزيزي، أو ستحصل على أخرى".

كان هاري قد ترك السيد ويتمور. مد بيرسي ذراعيه أمامه وهو ينشج كطفل صغير فيما سالت الدموع التي كانت محتجزة في عينيه على خديه، تماما مثل من يمشي وهو نائم في فيلم كوميدي. جعلت كمي سترة السجن فوق ذراعيه في لمحة. تمكنت بالكاد من وضعها فوق كتفيه بعد أن ترك بروتال ذراعي بيرسي وأمسك بالشرائط المدلاة من أطراف كمي السترة. وقام بجذب أيدي بيرسي حول جانبيه، حيث ثبتت ذراعاه بإحكام على نحو متقاطع فوق صدره. وفي ذات الوقت جاء هاري من خلفه وربط الشرائط. وبعد أن استسلم بيرسي لم يستغرق الأمر أكثر من عشر ثوانٍ.

قال بروتال "حسنا يا عزيزي، تقدم إلى الأمام".

WWW.REWITY.COM

لكنه لم يفعل. نظر إلى بروتال ثم حوّل عينيه المرعوبتين الدامعتين إليّ. لا حديث عن اتصالاته الهامة الآن، أو كيف سنُنفى إلى كارولينا الجنوبية حيث العذاب المقيم، لقد نسي كل ذلك.

"من فضلكم"، همس بصوت أجش واهن. "لا تضعني معه يا بول".

عندئذ فهمت سبب الرعب الذي أصابه، ولماذا قاومنا بهذه الشراسة. لقد كان يعتقد أننا سنضعه مع وارتون المتوحش؛ وأن عقابه بسبب الإسفنجة الجافة سيكون بتعريضه للاغتصاب على يد هذا المهووس. وبدلا من التعاطف مع بيرسي لهذا التصور، شعرت بالاشمئزاز والتصميم على قراري. إنه، بالرغم من كل ذلك، يحكم علينا بالطريقة التي كان سيتصرف بها لو تبادلنا المواقع.

قلت له "ليس وارتون. غرفة الحجز يا بيرسي. ستمضي ثلاث أو أربع ساعات هناك، وحيدا في الظلام، تفكر في ما فعلته بديل. ربما يكون قد فات الأوان لتتعلم أي دروس جديدة حول السلوك القويم - هذا رأي بروت - لكنني متفائل. تحرك الآن".

تحرك وهو يغمغم بأننا سنندم على ذلك، أشد الندم، وإن غدا لناظره قريب، لكنه بدا مطمئنا وهدأ روعه.

عندما اقتدناه في الردهة، نظر إلينا دين نظرة تحمل الدهشة والبراءة لدرجة أنني كدت أضحك لولا جدية الأمر الذي نقوم به.

سأل دين "ألا تعتقد أن هذه المزحة قد طالت؟".

قال بروتال متذمرا "عليك أن تصمت فقط، أنت لا تفقه شيئا". هذه هي السطور التي كتبناها على العشاء، وهكذا بدت لي، سطورا مكتوبة، لكن إذا كان بيرسي مرعوبا ومرتبكا بعض الشيء، فإنه لا يزال بإمكانها أن تنقذ دين ستانتون. أنا نفسي لا أعتقد ذلك، لكن أي شيء ممكن. عندما كنت أشك في ذلك، من حين إلى آخر، كنت فقط أفكر

في جون كوفي وفأر ديلاكروا.

أخذنا بيرسي إلى أسفل الميل الأخضر وهو يتعثر ويتشبث بنا حتى نبطّئ السير حتى لا يقع على وجهه إن لم نفعل. كان وارتون على سريره، لكننا مررنا بسرعة حتى إنه لم يتسنَّ لي أن أعرف ما إذا كان مستيقظا أم نائما. كان جون كوفي واقفا على باب زنزانته يراقب ما يحدث، ثم قال "أنت رجل سيِّئ وتستحق أن يقذف بك في غياهب المكان المظلم". لكن لا أعتقد أن بيرسي سمعه.

ذهبنا إلى غرفة الحجز، كانت وجنتا بيرسي محمرتين تبللهما الدموع، وتتحرك عيناه هنا وهناك، وكانت خصلات من شعره تتدلى على جبهته. جذب هاري مسدس بيرسي بإحدى يديه وهراوته، مطرقة الرأس، باليد الأخرى. قال هاري وقد ظهر عليه بعض الارتباك "سنعيدهما إليك، لا تقلق".

أجاب بيرسي "أتمنى أن أقول الشيء نفسه عن وظيفتك، وظائفكم جميعا. لم يكن لكم أن تفعلوا ذلك بي! لم يكن!".

كان مستعدا أن يطلق لنفسه العنان على هذه الوتيرة لفترة من الوقت، لكن لم يكن لدينا الوقت لنستمع إلى عظاته. كان في جيبي لفة من شريط الاحتكاك، السلف المستخدم في الثلاثينيات لشريط الرباط المستخدم اليوم. رآه بيرسي وبدأ يتراجع إلى الوراء. أمسك به بروتال من الخلف، وحضنه حتى تمكنت من وضع الشريط على فمه، ولففت بالشريط خلف رأسه، لمزيد من الاطمئنان. سيكون عليه أن يفقد مجموعة صغيرة من الشعر عند نزع الشريط، لكن لم يعد ذلك يهمني، فقد فاض بي الكيل من بيرسي ويتمور.

انصرفنا عنه. وقف في منتصف الغرفة تحت المصباح يرتدي سترة السجناء، ويتنفس حمما من الغيظ، ويزأر بصوته بفعل الشريط. كان يبدو مخبولا كأي سجين يقذف به في هذه الحجرة.

WWW.REWITY.COM

قلت له "كلما كنت أكثر هدوءا، خرجت من هذه الحجرة بسرعة. حاول أن تتذكر ذلك يا بيرسي".

نصحه هاري "وإذا شعرت بالوحدة فكر في أوليف أويل".

ثم خرجنا من المكان، أغلقت الباب، وقام بروتال بقفله. كان دين يقف على مقربة في مكان أعلى الميل، خارج زنزانة كوفي بقليل. وكان قد قام بالفعل بوضع المفتاح الرئيسي في القفل العلوي. نظرنا نحن الأربعة إلى بعضنا البعض، ولم يقل أحد شيئا. لم يكن هناك داعٍ للكلام. وكل ما كنا نتمناه أن نسير في طريقنا بلا مشكلات.

سأله بروتال "هل لا تزال راغبا بالذهاب معنا يا جون؟".

قال كوفي "نعم يا سيدي، أعتقد ذلك".

"جيد" قال دين، ثم قام بفتح القفل الأول وإزالة المفتاح ووضعه في الثاني.

سألته "هل تحتاج إلى ربطك يا جون؟".

بدا كوفي وكأنه يفكر في الإجابة، ثم قال "يمكنك إذا أردت. إلا أننا لا نحتاج إلى ذلك".

قلت لبروتال، الذي فتح باب الزنزانة، ثم استدار إلى هاري، الذي كان يشير إلى كوفي عندما خرج من زنزانته "أعطِ هذه الأشياء لدين".

انتفض هاري كشخص أوقظ من غفوة عندما رأى مسدس وعصا بيرسي في يديه ثم ناولهما لدين. وفي ذات الوقت تحرك كوفي متثاقلا في الردهة تكاد صلعته تلامس المصابيح العلوية.

جعلني منظره وهو يقف هناك يداه أمامه وكتفاه تنحنيان إلى الأمام على جانبي صدره الواسع أنظر إليه، كما رأيته في المرة الأولى، كدب ضخم مأسور.

قلت لدين "ضع أدوات بيرسي في مكتب المناوبة، وأغلق عليها حتى نعود".

قال هاري "هذا إن عدنا".

فرد دين غير آبهٍ لما قاله هاري "سأفعل".

"وإذا أتى أي شخص، وأغلب الظن ألا يأتي أحد، لكن إذا حدث، ماذا تقول؟".

فقال "إن كوفي أصابته علة في منتصف الليل". نظر دين بتركيز كطالب يتلقى امتحانا يحدد مصيره. "كان علينا أن نعطيه السترة ونضعه في غرفة الحجز. لم يكن من ذلك بد لتفادي انتباهه إلينا"، رفع ذقنه إلى جون كوفي. سأل بروتال "وماذا عنا؟". قال دين "يذهب بول إلى الإدارة، ويسحب ملف ديل ويقوم بالاطلاع على أسماء الشهود". إن الأمر له أهمية خاصة هذه المرة، لأن الإعدام قد اقترب. لقد قال إنه ربما يكون هناك لبقية ورديته. أنت وهاري وبيرسي كنتم في المغسلة، تغسلون ملابسكم".

حسنا، هذا ما قاله الرجال على كل حال. كانت هناك لعبة دنيئة في غرفة إمداد المغسلة في بعض الليالي؛ وفي ليالٍ أخرى كانوا يلعبون بلاك جاك أو بوكر أو أيسي ديوسي. وأيا كان ما قيل، فإن الحراس الذين شاركوا في الأمر قيل إنهم كانوا يغسلون ملابسهم. كانت هناك أضواء قمرية في هذه الاجتماعات، وأحيانا يقوم شخص بمراقبة المجموعة. وهو نفس الأمر الذي يحدث في السجون منذ اختراعها، في اعتقادي. عندما تمضي حياتك في مخالطة السفلة، فلن تستطيع أن تنأى بنفسك عن أن تصبح قذرا بعض الشيء. وعلى كل حال، فلم يكن من المحتمل أن تتم مراجعتنا. "غسيل الملابس" يعامل بشيء من الريبة في كولد ماونتن.

"صحيح مع إيفر شارب"، قلت ذلك وقمت بتوجيه كوفي إلى الطريق ودفعه للحركة. "إذا وقع تهاوى كل شيء، يا دين، أنت لا تفقه أي شيء".

WWW.REWITY.COM

"هذا أمر يسهل قوله، لكن -".

في هذه اللحظة، ظهر ذراع غليظ من بين قضبان زنزانة وارتون وجذب كوفي من الكتف. صعقنا جميعا لذلك. من المفترض أن يكون وارتون يغط في نوم عميق، ولكن ها هو يترنح كمحارب مرهق.

كان رد فعل كوفي رائعا. لم يَرتَع، لكنه لهث وسحب الهواء فوق أسنانه كشخص لمس شيئا باردا كريها. اتسعت عيناه للحظة ونظر كما لو أنه وهذا المعتوه لم يتقابلا أبدا، وليس كأنهما يريان بعضهما كل صباح ويتجاوران كل ليلة. كان يبدو حيا هناك عندما أراد أن أدخل إلى زنزانته حتى يمكنه أن يلمسني. قال كوفي "ساعدني". لقد نظر بنفس الطريقة الآن عندما كان يمد يديه ممسكا بالفأر. والآن وللمرة الثالثة، أضاء وجهه، كما لو أن مصباحا أضيء داخل عقله. لكن الأمر كان مختلفا هذه المرة. كان الجو أكثر برودة وللمرة الأولى تساءلت عما قد يحدث إذا تحول جون كوفي إلى وحش راغب بالقتل. نحن نحمل مسدساتنا ويمكننا أن نرديه قتيلا، لكن لن يكون ذلك سهلا.

قرأت أفكارا مشابهة على وجه بروتال، لكن وارتون واصل ابتسامته الممتعضة وسأل "إلى أين تعتقدون أنكم ذاهبون؟" كان الكلام يخرج من بين أسنانه مقتضبا.

كان كوفي يقف منتصبا، ينظر أولا إلى وارتون ثم إلى يديه، ثم مرة ثانية إلى وجهه. ولم أفهم مغزى هذه النظرات. أعني، بالرغم من أنها كانت تنم عن ذكاء، لكن لم استطع قراءتها. وبالنسبة إلى وارتون، لم أكن قلقا عليه على الإطلاق. لن يتذكر أي شيء من ذلك لاحقا، كان يبدو وكأنه شخص ثمل يتخبط في الظلام.

"أنت شخص سيّئ"، همس كوفي، ولم أستطع أن أتفهم ما الذي سمعته في صوته، هل هي نغمة ألم أم غضب أم خوف؟ ربما كل ذلك. نظر كوفي إلى الأسفل إلى اليد الموجودة على ذراعه مرة أخرى، بالطريقة

التي تنظر بها إلى حشرة تخشى لدغتها.

قالها وراتون وهو يبتسم بغرور "هذا صحيح، أيها الزنجي، سيّئ كما تريد".

تأكدت فجأة من أن شيئا مروعا سيحدث، شيئا سيغير المسار المرسوم تماما مثلما يغير الزلزال مسار النهر، شيئا سيحدث ولن يفلح أي شيء أقوم به أنا أو غيري في إيقافه.

لكن بروتال تقدم، ورفع يد وارتون عن ذراع جون كوفي فزال مني هذا الشعور. كان الأمر كما لو أن دائرة خطرة قد تم قطعها. أخبرتكم أنه خلال وجودي في العنبر (هـ) لم يرن هاتف المأمور ولو لمرة واحدة. كان ذلك صحيحا، ولكن أتخيل أنه لو كان ذلك قد حدث، كنت سأشعر بنفس الراحة التي تسربت إلى داخلي عندما أزال بروتال يد وارتون عن ذراع الرجل الضخم الذي كان يقف إلى جانبي كناطحة سحاب. زال اللمعان من عيني كوفي كما لو أن مصباح البحث الذي أوقد في رأسه قد انطفأ.

قال بروتال "واصل نومك يا بيلي. خذ قسطا من الراحة". كانت هذه كلماتي التي أستخدمها، لكن في مثل هذه الظروف، لا أمانع أن يستخدمها بروتال.

قال وارتون موافقا "ربما أفعل". تراجع إلى الوراء، ودار متأرجحا، لكنه استعاد توازنه في الثانية الأخيرة. "آه، ما هذا. الغرفة تدور كما لو أنني ثمل".

عاد إلى سريره محتفظا بعجرفته تجاه كوفي. وتمتم قائلا "يجب أن يكون مصير الزنوج الكرسي الكهربائي". ثم اصطدمت ركبتاه من الخلف بسريره ووقع عليه. كان قد غطّ في النوم قبل أن يلامس رأسه وسادة سريره الرقيقة، وظهر اللون الأزرق الغامق تحت عينيه المتسعتين وتدلّى طرف لسانه.

WWW.REWITY.COM

همس دين "يا الله، كيف نهض من فراشه بعد كمية المخدر الكبيرة التي وُضِعَت له؟".

أجبته "لا تعر الأمر اهتماما، فقد عاد الآن إلى سباته. إذا عاود النهوض مرة أخرى، أعطِه قرصا آخر في كوب من الماء. قرصا واحدا لا غير. نحن لا نريد أن نقتله".

دمدم بروتال "تحدث عن نفسك"، وألقى على وارتون نظرة ازدراء. "لا يمكنك قتل قرد مثله بالمخدر، على كل حال. إنهم يتعشون به".

قال كوفي "إنه رجل سيّئ". لكن بصوت منخفض هذه المرة، كما لو كان واثقا مما يقوله أو يعنيه.

قال بروتال "هذا صحيح. أحقر مَن رأيتهم. لكن ليست هذه هي المشكلة الآن، لأننا لن نتساهل معه مجددا". بدأنا السير مجددا، سألته "أريد أن أسألك عن شيء، هل تعرف يا جون إلى أين نصطحبك؟".

فأجاب قائلا "لتقديم المساعدة. أعتقد... لمساعدة... سيدة؟"، ونظر إلى بروتال بترقب.

فأومأ بروتال موافقا. "هذا صحيح. لكن كيف عرفت ذلك؟ كيف عرفت؟".

فكر جون كوفي في السؤال جيدا، ثم هز رأسه. وقال لبروتال "لا أعرف، وكي أصدقك القول، يا ريس، أنا لا أعرف كثيرا عن أي شيء. أبدا لا أعرف".

وكان علينا أن نقتنع بهذه الإجابة.

6

أعرف الباب الصغير الموجود بين المكتب والدرج المؤدي إلى غرفة التخزين. حين تم إنشاؤه، لم يوضع في الحسبان أن هناك أشخاصا مثل كوفي سيدخلون منه، ولم أدرك كم كانت المفارقة كبيرة إلا عندما وقف أمام الباب ناظرا إليه بتمعن.

ضحك هاري بيد أن جون نفسه لم يرَ أن وقوف رجل ضخم البنيان أمام باب صغير كهذا أمر يستدعي الضحك. لم يكن ليضحك في هذا الموقف بالطبع حتى ولو كانت شخصيته تتسم بشيء أكثر من المرح. لقد كان ضخم البنيان معظم حياته، وبدا الباب كشيء صغير للغاية مقارنة بجسده الضخم.

جلس جون على قدميه، واجتاز الباب مسرعا، ثم نهض مجددا، ونزل على الدرج إلى حيث كان بروتال ينتظره. وقف هنالك ينظر إلى الغرفة الخالية حيث يقبع سباركي العجوز في صمت مخيف كعرش الملك في إحدى القلاع بعد موته. كان على أحد الأعمدة الخلفية غطاء الرأس معلقا كأنه تاج ملك وليس قناع مهرج. كان ظل الكرسي ممتدا ومتشعبا في الغرفة حتى علا أحد الجدران بصورة تبث الرهبة في النفس. نعم، لقد انتابني شعور بالخوف واعتقدت أنني أشم رائحة لحم محترق. كانت تخيلات بالتأكيد، لكنني اعتقدت حينئذ أنها أكثر من مجرد تخيلات.

انطلق هاري مسرعا من الباب ثم لحقت به. إن الطريقة التي كان ينظر بها جون إلى الكرسي الكهربائي لم تَرُق لي، والأكثر من ذلك أن النتوءات الموجودة على ذراعيه أصابتني بحالة اشمئزاز حين اقتربت منه.

WWW.REWITY.COM

قلت مناديا "هيا أيها الولد الكبير". ثم قبضت على معصمه، وحاولت جذبه نحو الباب المؤدي إلى النفق. في البداية رفض التحرك بالرغم من أنني حاولت جاهدا معه كما لو كنت أحاول اقتلاع صخرة كبيرة بيدي.

قال هاري ضاحكا بصورة مستفزة للمرة الثانية "هيا يا جون، يجب أن نذهب إلا إذا أردت تأخير العربة، ثم أمسك بذراع جون الأخرى، وشرع يشده بقوة، بيد أن جون لم يحرك ساكنا. آنذاك، قال جون بصوت حالم منخفض شيئا ما، لم يكن يتحدث مع أحد منا، لكنني على كل حال لا أزال أتذكر ما قاله جيدا "لا زالوا هناك، لا تزال أشلاؤهم هناك، إنني أسمع صراخهم".

توقفت آنذاك ضحكات هاري المستفزة، لكن ابتسامة خافتة بقيت مرسومة على فمه كمصراع ملتوٍ على باب بيت غير مأهول. رمقني بروتال بنظرة تنم في الغالب عن حالة من الخوف، ثم تنحى جانبا عن جون كوفي. حينئذٍ، انتابني شعور وللمرة الثانية خلال خمس دقائق أن المشروع برمته على وشك الانهيار. في تلك الأثناء، كنت أنا الشخص الذي تراجع، وعندما داهمنا الخطر للمرة الثالثة وكان عقب تراجعي بقليل تراجع هاري. لقد كان لكل منا تجربته في تلك الليلة من دون شك.

مشيت بهدوء شديد أمام جون حتى أمسيت عائقا بينه وبين الكرسي الذي كان ينظر إليه بتمعن شديد واقفا على أصابع قدمي حتى أتأكد أنني حجبت رؤيته تماما؛ ثم طقطقت أصابعي بصوت عالٍ أمامه.

ثم قلت"هيا، تحرك، لقد قلت إنك لا تريد أن تُكبل حريتك، الآن عليك أن تثبت ذلك، تحرك أيها الولد الكبير، تحرك يا جون كوفي إلى هناك، إلى ذاك الباب".

راقت عيناه وقال "نعم سيدي". حمدا لله، فقد شرع في المشي.

"انظر إلى الباب يا جون كوفي، إلى الباب فقط ولا شيء سواه".

ثم قال جون مثبتا عينيه على الباب "نعم سيدي".

"بروتال". قلت ثم أشرت إليه.

أسرع بروتال أمامنا، وتفحص المفاتيح التي بحوزته ثم وجد المفتاح المطلوب. في تلك اللحظة كان جون يثبت عينيه على الباب الذي يؤدي إلى النفق بينما كنت أنا أثبت عيني عليه، وبالرغم من ذلك تمكنت من رؤية هاري وهو ينظر إلى الكرسي بشكل عصبي كما لو أنه لم يره من قبل طيلة حياته.

"لا تزال أشلاؤهم هناك. إنني أسمع صراخهم".

إذا كان ذلك صحيحا حقا، فقد كان على إدوارد ديلاكروا أن يكون أعلاهم وأطولهم صراخا، على كل حال، فقد كنت سعيدا لأنني لم أستطع سماع ما سمعه جون كوفي.

فتح بروتال الباب، ثم نزلنا على الدرج يتقدمنا جون، وهناك أسفل الدرج أخذ جون ينظر والكآبة في عينيه إلى النفق ذي السقف المنخفض المبني من الطوب. كاد أن يصاب بحالة تشنج في ظهره حينما أدركنا نهاية النفق لولا أنني تمكنت من تجهيز العربة في التو. كان على الملاءة التي وضعنا ديل عليها من قبل خطوط (أو ربما حروق)، لذا كانت رؤية الوسادة الجلدية السوداء في العربة أمرا ممكنا. ناديت جون قائلا "تفضل بالدخول". ثم نظر إليّ بريبة، فقلت مشجعا "سيكون هذا أسهل لك ولنا".

قال "حسنا سيدي إيدجكومب". جلس ثم اتكأ إلى الخلف ناظرا إلينا بعينيه العسليتين وقد انتابه القلق. كانت قدماه المكسوتان بنعل زهيد الثمن تترنحان على طول الطريق. اخترقنا بروتال، ودفع جون كوفي نحو الممر المبتل مثلما دفع الكثيرين من قبل، بيد أن ثمة اختلافا هذه

WWW.REWITY.COM

المرة، حيث الراكب الحالي لا يزال على قيد الحياة. عند بلوغ منتصف الطريق تقريبا أسفل الطريق السريع، كنا نسمع أصوات السيارات المارة، حينئذٍ بدأ جون يبتسم قائلا "قل إن ذلك مجرد متعة". لم يكن بمقدوره التفكير في شيء، لذا ركب العربة، هكذا اعتقدت آنذاك. في الحقيقة حينما ركب العربة لم يفكر أو يشعر بشيء، وهل يمكن هذا؟ وهو لا يردد سوى "لا تزال أشلاؤهم موجودة هناك، إنني أسمع صراخهم"... هكذا قال.

أصابتني رعشة من دون أن يلاحظ أحد بينما أسير خلف الآخرين.

قال بروتال عندما بلغنا الجانب الآخر من النفق "آمل أن تكون قد تذكرت مفتاح علاء الدين يا سيدي إيدجكومب".

قلت "لا تقلق". لم يختلف مفتاح علاء الدين شكلا عن باقي المفاتيح التي حملتها في هذه الأيام - كان بحوزتي آنذاك مجموعة مفاتيح لا يقل وزنها عن أربعة أرطال بأي حال من الأحوال - إلا أن مفتاح علاء الدين كان سيد كل المفاتيح الذي فتح كل شيء. في تلك الأيام كان يوجد مفتاح علاء الدين لكل قفل من الأقفال الخمسة الثمينة الموجودة على الغرف الخمس. كان يمكن لبعض الحراس الآخرين استعارة أي منها بتوقيع أسمائهم، لكنّ ثمة نوعا من المفاتيح لم يكن يحتاج إلى توقيع.

كان يوجد في الطرف الآخر من النفق بوابة ذات قضبان حديدية. كانت تذكرني دوما بالصور التي رأيتها للقلاع القديمة، حينما كان الأمراء شجعان والجنود فرسان. كان طريق كولد ماونتن طويلا من كيملوت. كان يوجد درج خلف البوابة يؤدي إلى باب خفي قد عُلّقت عليه يافطات كتب عليها "ممنوع الدخول"، و"أملاك دولة"، و"سياج مكهرب" من الخارج.

فتحت البوابة ثم أعادها هاري إلى حيث كانت. صعدنا الدرج بينما جون كوفي في المقدمة مرة أخرى منحني الرأس والكتفين، وفي أعلى الدرج تمكن هاري (بعد أن واجه بعض الصعوبات بالرغم من كونه أصغرنا حجما) من رفع الحاجز. لقد كان ثقيلا، واستطاع أن يحركه نوعا ما بيد أنه لم يستطع قلبه.

قال جون "مهلا يا سيدي"، ثم اندفع نحو المقدمة مجددا دافعا هاري بقوة نحو الحائط، ورفع الحاجز بيد واحدة.

ربما يُخيل إليك من بعيد أنها لفائف من ورق الكرتون المطلي بدلا من كونها قوائم حديدية.

لفح هواء الليل البارد، المصاحب للرياح في هذه الفترة من العام والتي قد نتعرض لها معظم الوقت حتى مارس أو إبريل، وجوهنا. أمسك جون بيده الطليقة ورقة شجر من الأوراق الجافة التي ساقتها الرياح إلينا، ولن أنسى أبدا كيف كان ينظر إليها وكيف وضعها عند أنفه العريض كي يشمّ رائحتها.

قال بروتال "هيا، دعنا نمضي إلى الفتحة الأمامية".

بعد ذلك صعدنا إلى الخارج، وقام جون بتنزيل الحاجز بينما أغلقه بروتال؛ لم يكن هناك حاجة إلى مفتاح علاء الدين لهذا الباب، بيد أننا كنا بحاجة إليه لفتح البوابة الموجودة في الكهف الذي كان يحيط بالحاجز.

قال هاري مغمغما "ضع يديك إلى جانبيك في أثناء سيرك أيها الولد الكبير، ولا تلمس السلك إذا أردت أن تنجو بنفسك".

تمكنا من الخروج بسلام، ثم وقفنا إلى جانب الطريق نلتف حول بعضنا (ثلاث تلال حول جبل، هكذا تخيلت شكلنا حينذاك)، ونحدّق إلى جدران وأنوار وأبراج حراسة معتقل كولد ماونتن. بالفعل، تمكنت للحظة ما من رؤية خيال مبهم لأحد الحراس داخل أحد هذه الأبراج

WWW.REWITY.COM

ينفخ في يديه، فقد كانت نوافذ البرج المطلة على الطريق صغيرة وقليلة الأهمية. في تلك الأثناء كان يجب علينا أن نكون هادئين تماما، فإذا ما مرت إحدى السيارات على الطريق فقد تواجه متاعب جمة.

همست قائلا "هيا، سر أنت في المقدمة يا هاري".

بدأنا نتسلل شمالا باتجاه الطريق السريع الواحد تلو الآخر يتقدمنا هاري ثم جون كوفي ثم بروتال وأخيرا أنا. تخطينا الحاجز الأول، وسرنا نحو الجانب الآخر حيث لم يعد بإمكاننا أن نرى من المعتقل سوى نور الأضواء التي علت قمم الأشجار بينما لا يزال هاري يتقدمنا نحو الداخل.

همس بروتال قائلا والبخار يخرج من فمه كسحابة بيضاء "أين وضعتها؟ بالتيمور؟".

أجاب هاري بثورة عارمة "ها هي فوق رأسك، أمسك لسانك اللعين يا بروتال".

غير أن كوفي ربما كان حسبما لاحظت عليه سعيدا بالسير حتى لو بقينا هكذا طيلة هذه الليلة أو ربما طيلة نهار اليوم التالي أيضا. كان آنذاك يقلب نظره يمينا ويسارا حتى سمع صوت بومة فشعر عند ذلك بالابتهاج لا بالخوف بكل تأكيد، وخطر ببالي أنه لربما يكون خائفا من ظلمة الداخل، لكنه لم يكن هكذا على الإطلاق بالنسبة إلى ظلام الخارج هنا. لقد كان يعانق الليل معانقة الرجل لامرأة بكل مشاعره وأحاسيسه.

قال هاري مغمغما "سنتحول عن الطريق هنا".

بالفعل، غيرنا سيرنا باتجاه ممشى ضيق غير ممهد مليء بالأعشاب غير النافعة، وسرنا لمسافة ربع ميل. بدأ بروتال يتذمر مجددا حينما توقف هاري، وذهب إلى الجانب الأيسر من الممشى، وشرع في إزالة أغصان الصنوبر المتكسرة. انضم جون وبروتال لمساعدة هاري وقبل أن

أتمكن من اللحاق بهم كانوا قد وجدوا خرطوما لشاحنة فارمال قديمة بينما كشافات إنارتها مصوبة نحونا.

قال هاري بصوت خافت موبخا بروتال، "أنت تعرف أنني أردت أن أكون حذرا بقدر المستطاع يا بروتوس هويل، ربما يكون الأمر بالنسبة إليك مجرد مزحة كبيرة، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة إليّ، فأنا من أسرة متدينة للغاية، ولو رآني أولاد أعمامي أفعل ذلك لربما -".

قال بروتال "لا عليك، أنا متوتر وحسب".

رد هاري "وأنا أيضا. الآن إذا بدأت هذه الشاحنة القديمة اللعينة بـ...".

ثم شرع يمشي حول غطاء الشاحنة وهو لا يزال يتمتم بينما نظر بروتال إليّ بطرف عينه. في هذه اللحظات لم يكن كوفي، من حسن الحظ، مكترثا لما يحدث وإلا تعرضت حياتنا للخطر، فقد أمال رأسه إلى الخلف محتسيا بعض الشراب حيث ضوء النجوم التي كانت تزين السماء.

اقترح بروتال قائلا "سأركب معه في الخلف إن شئتما". آنذاك، سمعنا صوت محرك الشاحنة يُعوِّل بصورة متقطعة حيث بدا كعواء كلب يستجمع قواه في صباح يوم بارد من أيام الشتاء ثم دار فجأة. قاد هاري الشاحنة بسرعة مفرطة مما أدى إلى عطبها.

قلت "انهض واجلس في مقدمة الشاحنة، بمقدورك أن تركب معه في أثناء رحلة العودة، هذا إذا استطعنا أن نحافظ على ذلك الأسير الموجود في الجزء الخلفي من الشاحنة، هذا كل ما في الأمر".

قال وقد بدا عليه الانزعاج بالفعل "لا تتحدث معي بهذه الطريقة بول، آه يا الله!"، قالها كما لو أنه أدرك للمرة الأولى مدى الخطورة التي سنواجهها حال القبض علينا.

قلت "هيا اذهب إلى مقدمة المركبة حيث يكون السائق".

WWW.REWITY.COM

فعل بروتال ما طُلب منه. أخذت أجذب ذراع جون كوفي بقوة حتى تمكنت من تحويل انتباهه نحو الأرض وما يحدث حوله لفترة قصيرة، ثم اصطحبته إلى الجزء الخلفي من الشاحنة التي كان هناك قضبان حاجزة لحماية الأحمال الموجودة بداخلها. في تلك الأثناء كان هاري قد نجح في تثبيت بعض قطع القماش القديمة حول هذه القضبان الأمر الذي ربما يكون مفيدا لنا بعض الشيء حال مرورنا بالسيارات والشاحنات التي تسير بالاتجاه الآخر، بيد أنه لم يفلح في عمل الشيء ذاته في الجزء الخلفي المفتوح للشاحنة.

قلت "أحسنت صنعا أيها الولد الكبير. هل نذهب لبدء رحلتنا الآن؟ حسنا".

قال مبتسما "حسنا". كانت ابتسامة جملية ودودة، ربما الأكثر جمالا حتى هذه اللحظة وذلك لأنها كانت تلقائية وبعيدة عن تعقيدات الفكر. نهض، ومضى نحو الجزء الخلفي من الشاحنة. تبعته ثم ذهبت إلى مقدمة سطح الشاحنة، وطرقت بقوة على صندوقها الأمامي. حينئذ وضع هاري ناقل الحركة على المستوى الأول، وبدأت الشاحنة تخرج من وسط الكوخ الذي كان يخفيها فيه وهي تهتز بشدة.

وقف جون كوفي متباعد القدمين ورأسه مرفوع مجددا نحو السماء حيث النجوم وابتسامة عريضة مرسومة على شفتيه غير آبه بالأغصان التي ضربت جسده حينما كانت الشاحنة تستدير نحو الطريق السريع. عندئذ صاح بصوت ناعم طروب مشيرا بيده نحو ظلام الليل "إنها ذات الكرسي، تلك السيدة التي تجلس على الكرسي الهزاز".

كان صادقا في ما قاله؛ فقد كنت قادرا على رؤيتها وسط درب من النجوم التي تظهر بين الأجسام المظلمة للأشجار التي نمر بها. غير أنها لم تكن كاسيوبيا التي فكرت بها حينما تحدث عن السيدة التي تجلس على الكرسي الهزاز؛ بل مليندا مورس.

قلت وأنا أشد ذراعه بقوة "إنني أراها يا جون، لكن عليك أن تجلس الآن، حسنا؟".

جلس ساندا ظهره إلى صندوق الشاحنة الأمامي مثبتا عينيه نحو السماء. بدت على وجهه علامات سعادة غامرة غير مشوبة بالفكر. في تلك الأثناء كنا نبتعد بصورة أكبر عن الميل الأخضر مع كل دوران لإطارات المركبة، وقد توقفت دموع جون كوفي التي كان يذرفها بلا توقف في الوقت الراهن على الأقل.

www.rewity.com RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

7

لم يكن يفصلنا سوى 25 ميلا عن منزل هال مورس الكائن في تشيمني ريدج، لكن شاحنة هاري تيروبليجر المتهالكة استغرقت أكثر من ساعة للرحلة. لقد كانت رحلة مخيفة حقا، وبالرغم من أنه يبدو لي الآن أن كل لحظة منها لا تزال مطبوعة في ذاكرتي – كل منعطف، كل رجة، كل انخفاض للشاحنة، والأوقات العصيبة التي واجهناها حينما مرت بنا شاحنات وسيارات بالاتجاه الآخر من الطريق (حدث ذلك مرتين) – إلا أنني لا أعتقد أن بمقدوري الآن إعطاء وصف دقيق للمشاعر التي انتابتني آنذاك حيث كنت أجلس في الجزء الخلفي من المركبة مع جون كوفي مستدفئين مثل الهنود بالبطانيات القديمة التي أظهرت بُعد نظر هاري حين أحضرها معه.

كان شعورا بالضياع؛ مثل الألم الفظيع والعميق الذي يشعر به الطفل الصغير حينما يدرك أنه ضلّ الطريق، وكل شيء حوله مجهول المعالم بالنسبة إليه، ولم يعد يعرف كيف السبيل للعودة إلى المنزل. في تلك الليلة كنت برفقة سجين؛ وما هو بسجين عادي، بل سجين اتهم بقتل طفلتين صغيرتين وحُكم عليه بالإعدام لارتكابه هذه الجريمة. إن اعتقادي بأنه كان بريئا مما نسب إليه لن يفيد إذا ما تم القبض علينا، فستدخل السجن وربما العميد ستانتون أيضا. لقد نبذت حياة مليئة بالعمل والمعتقدات بسبب أحد أحكام الإعدام غير العادلة واعتقادا مني بأن ذلك الشخص المعتوه الذي يجلس بجواري ربما كان قادرا على مداواة امرأة تعاني من ورم بالمخ لا يمكن استئصاله جراحيا. وبالرغم من ذلك، فحين رأيت جون يراقب النجوم، أدركت وقد أصابتني

صدمة أنني لم أعد أعتقد، وإن كنت كذلك بالفعل سابقا، أن اضطرابات الجهاز البولي التي أصابتني على سبيل المثال قد بدت قليلة الأهمية وغير مؤلمة الآن تماما كما يحدث عادة مع التجارب المؤلمة والقاسية بمجرد اجتيازها (إذا استطاعت المرأة حقا أن تتذكر كيف كانت تتألم في أثناء ولادتها للطفل الأول، فلن ترغب أبدا بإنجاب آخر كما قالت والدتي ذات مرة). وبالنسبة إلى الفأر جينغلز، ألم يكن من الأرجح أننا كنا مخطئين حيال ما ألمّ به من ألم فظيع بسبب بيرسي؟ أو أن جون – الذي كان يتمتع بقدرة ما على التنويم المغناطيسي بلا أدنى شك – قد خدعنا بطريقة ما وجعلنا نرى أشياء لم نرها من قبل في حياتنا؟ نعود إلى موضوع هال مورس، ففي اليوم الذي فاجأته بالزيارة في مكتبه قابلت رجلا عجوزا بكّاء لا يقدر على الحركة، غير أنني لم أصدق حينها أن هذا هو الجانب الحقيقي لشخصية مراقب السجن، فقد كنت أعتقد أن المراقب مورس الحقيقي هو ذاك الشخص الذي تمكن ذات مرة من كسر يد أحد الأشرار وهو يحاول طعنه، الشخص الذي أظهر لي بدقة ساخرة أن مشاكل ديلاكروا ستُحلّ بغض النظر عن أي شيء. هل فكرتُ أن هال مورس سيقف بكل بساطة جانبا حين نأتي إليه سامحا لنا بإحضار شخص متهم بقتل فتاتين إلى منزله كي يحاول معالجة زوجته؟

بينما نمضي في طريقنا، تزايدت شكوكي حتى أمست علة، فأنا لم أفهم حقا لماذا أقدمت على ما فعلته، أو لماذا أقنعت الآخرين بمصاحبتي بهذه الرحلة الليلية غير المنطقية، ولم أعتقد أنه كان لدينا أي فرصة على الإطلاق لتحقيق الهدف المرجو منها؛ فقد كان الأمر أصعب من الخيال. وبالرغم من ذلك كله لم أبذل أي محاولة لإلغاء الرحلة، ولربما كان يمكنني القيام بذلك، فالأمور لم تخرج من بين أيدينا نهائيا وبشكل حتمي حتى وصولنا إلى منزل مورس. بيد أن ثمة شيئا ما – وأعتقد أنه

WWW.REWITY.COM

على الأرجح لا شيء سوى مشاعر البهجة التي غمرت ذاك العملاق الذي كان يجلس بجواري - قد منعني من طرق صندوق الشاحنة مناديا على هاري كي يغير مساره عائدا إلى السجن حيث كان لا يزال هناك متسع من الوقت.

هكذا كانت الأفكار تجول في خاطري. كنا حينئذ قد اجتزنا الطريق السريع متجهين نحو المقاطعة رقم 5 حيث منها سنمضي قدما نحو طريق تشيمني ريدج. عقب ذلك بحوالى خمس عشرة دقيقة، رأيت في الأفق سطح أحد المنازل يحجب النجوم من علوه فأيقنت في التو أننا قد وصلنا.

خفف هاري من سرعة الشاحنة بتغييره ناقل السرعة من الثاني إلى الأول (وأعتقد أنه ظل يقود الشاحنة بأقصى سرعة لها طيلة الرحلة بلا تغيير في مستويات السرعة). كان محرك الشاحنة يجأر بصورة متقطعة فاهتزت كل أجزاء المركبة بشدة؛ الأمر الذي بث الفزع حتى في قلوب الموجودين في المنزل المواجه لنا.

استدار هاري نحو الممر الصغير الخاص بمنزل مورس ثم أوقف الشاحنة المتذمرة خلف السيارة السوداء الملساء من طراز بويك التابعة للمراقب مورس. أمامنا وعلى اليمين قليلا، كان يقبع منزل غاية في الأناقة صمم حسبما أعتقد على طراز يسمى كيب كود. وربما كان ينبغي لمثل هذا الطراز من المنازل أن يظل على منطقة ريدج، بيد أنه لم يكن هكذا. في هذه الليلة هل القمر بضيائه أكثر من ذي قبل، وبفعل هذا الضياء استطعت أن ألاحظ كيف بدا الإهمال واضحا الآن على ساحة المنزل، التي كانت غالبا ما تظهر بصورة جميلة. كان السبب في ذلك غالبا أن أوراق الأشجار المتناثرة هنا وهناك لم يتم كنسها. كان ذلك، في ظل الظروف الطبيعية، عمل مليندا، غير أنها لم تستطع القيام بهذا العمل خريف هذا العام، ولن تستطيع مطلقا أن ترى تناثر أوراق الشجر

في أثناء فصل الخريف مجددا. كانت هذه هي حقيقة الأمر، وقد أصابني الجنون حينما اعتقدت أن هذا المعتوه يقدر على تغيير هذا الواقع.

بالرغم من ذلك، ربما كان لا يزال هناك متسع من الوقت للنجاة بأنفسنا. هممت برفع البطانية التي كنت ألتحف بها عن كتفي عازما النهوض والميل جانبا لقرع شباك السائق الجانبي وإخباره بمغادرة المكان بأسرع وقت قبل أن -.

في هذه اللحظة أمسك جون كوفي ساعدي بقبضة يده ليجذبني نحو الأرض من دون أي عناء من جانبه كما لو فعلتُ الشيء ذاته مع طفل صغير وقال لي مشيرا بإصبعه "انظر سيدي، شخص ما هناك".

تبعت اتجاه إصبعه وشعرت برهبة تتملك جسدي وقلبي على السواء. كان يوجد شعاع من النور في النوافذ الخلفية. كانت على الأرجح الغرفة التي صارت مليندا تمضي فيها أيامها ولياليها، فهي لم تعد قادرة على استخدام الدرج ولا الخروج لجمع أوراق الشجر المتناثرة على الأرض في أثناء هبوب العاصفة الحالية.

لقد سمعوا صوت الشاحنة؛ شاحنة هاري تيرويليجر من طراز فارمال، ولِمَ لا ومحركها يجأر بصوت عالٍ متقطع حيث يتسرب الوقود بشكل عبثي من أنبوب العادم بلا عائق. يا له من أمر محزن! على كل حال ربما كانت عائلة مورس لا تستطيع النوم بصورة جيدة هذه الأيام.

أضيء أحد الأنوار القريبة من واجهة المنزل (المطبخ)، ثم أُضيئت أنوار حجرة الجلوس، ثم الصالة الأمامية ثم أنوار الشرفة. شاهدت الأنوار وهي تضيء بصورة متعاقبة ومنتظمة كما يشاهد رجل حركة سير منتظمة لفرقة الإطفاء بينما يقف ساندا ظهره إلى أحد الجدران الإسمنتية مدخنا آخر سيجارة معه. لم أقر بصورة نهائية مع نفسي أن قطار العودة قد فاتنا إلا حينما توقف الصوت غير المتواتر لمحرك الشاحنة، وسمعت صرير الأبواب، وتهشم الحصى تحت أقدام هاري وبروتال

WWW.REWITY.COM

عند خروجهما من المركبة.

نهض جون وهو يشدني معه. لقد بدت على وجهه الحماسة والحيوية، ولِمَ لا؟ أتذكر ما كان يجول في خاطري آنذاك. لماذا لا تبدو عليه الحماسة؟ فهو شخص معتوه.

كان بروتال وهاري يقفان جنبا إلى جنب عند الجزء الخلفي من الشاحنة كطفلين صغيرين هبت عليهما عاصفة رعدية، فقد لاحظت عليهما مشاعر خوف وارتباك وعدم ارتياح كتلك التي انتابتني، الأمر الذي زاد الطين بلة بالنسبة إليّ.

نزل جون من الشاحنة، فكان الأمر بالنسبة إليه أقرب للخطوة منه إلى القفز، ثم تبعته وأنا متيبس القدمين تسيطر عليّ حالة من البؤس. قفزت من الشاحنة فكدت أنبطح أرضا على الحصى البارد لولا أنه أمسك بي من ذراعي.

قال بروتال بصوت خافت فيه نبرة استهجان "هذا خطأ، يا للهول، ما هذا الذي كنا نفكر فيه يا بول؟" كانت عيناه واسعتين جدا والخوف يملأهما.

قلت "لقد فات الأوان". دفعت جون كوفي بيدي فمشى طواعية ليقف بجوار هاري، ثم وضعت ذراعي حول ذراع بروتال كما لو كنا في لقاء، وشرعنا نمشي نحو الشرفة حيث الضوء المتوهج قائلا له "دع الكلام لي. هل تفهم؟".

رد بروتال قائلا "نعم، هذا هو الشيء الوحيد تقريبا الذي أفهمه حتى الآن".

نظرت إلى الخلف، وقلت محدثا هاري "ابقَ معه بجوار الشاحنة حتى أطلبك، فأنا لا أريد لمورس أن يراه حتى أكون مهيأ لذلك". عرفت آنذاك أنني لن أستطيع أن أكون مهيأ أبدا.

لم نكد أنا وبروتال نصل بداية الدرج حتى فُتح الباب، مما جنبنا

طرقه بمطرقته النحاسية التي كانت معلقة عليه. كان هال مورس يقف هناك مرتديا سروال ثياب النوم أزرق اللون وقميصا مخطّطا، وشعره الرمادي أشعث بلا تصفيف. افتعل كثيرا من العداوات مع عدد هائل من الناس في أثناء عمله وكان على يقين من ذلك. كان قابضا بيده اليمنى على بندقية - الشيء الأسطواني الطويل بشكل غير عادي والمصوب إلى مستوى أعلى من الأرض نوعا ما - كانت دائما معلقة فوق الموقد. كانت من نوع البنادق التي كانت تعرف باسم نيد بانتلاين سبيشل، وكان قد ورثها عن جده. وفي هذه اللحظة (رأيت ذلك وأنا أرتجف رعبا) كانت جاهزة تماما لإطلاق النيران.

قال متسائلا، "من هذا الذي جاء عند الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل؟"، لم أسمع نغمة خوف في صوته، وقد توقفت - على الأقل في هذه اللحظة - اضطراباته. كانت يده التي تمسك البندقية ثابتة ثبات الصخر، ثم قال "أجبني وإلا..."، وبدأ يرتفع حينئذ أنبوب البندقية الأسطواني.

صرخ بروتال رافعا يديه عاليا باتجاه صاحب البندقية "لا تفعل ذلك أيها المراقب، هذا نحن، هذا بول وأنا و... إنه نحن". لم أسمع صوت بروتال من قبل كما سمعته هذه المرة؛ كما لو أن الاضطرابات التي تملكت مورس قد وجدت طريقها نحو حنجرة بروتوس هويل.

صعد بروتال أولى درجات السلم مما جعل ضوء الشرفة يقع على وجهه، ثم تبعته. أخذ هال مورس يقلب نظره ذهابا وإيابا بيننا وثباته يتحول إلى ارتباك، وسألنا "ماذا تفعلان هنا؟ ليس الوقت متأخرا فحسب، بل أنتما ما زلتما في نوبة العمل، أعرف أنكما هكذا، فلديّ لائحة توزيع الأسماء معلقة في الورشة عندي. فما هو السبب... اللعنة. الأمر لا يتعلق بحجز السجناء، أليس كذلك؟ أو أعمال شغب؟ أخذ يقلب نظره بيننا محدقا أكثر ثم سأل "من معكما هناك بجانب الشاحنة؟".

WWW.REWITY.COM

"دع الكلام لي". هكذا كنت قد ألقيت تعليماتي على بروتال، والآن قد حان وقت التحدث، بيد أنني لا أقدر حتى على فتح فمي. في أثناء طريقي إلى العمل بعد الظهر كنت قد أعددت جيدا ما سأقوله حينما نصل إلى هنا، واعتقدت آنذاك أن ما أعددته لم يكن ضربا من الجنون المحض، ولم يكن معقولا أيضا بل قريبا من المعقول بما يكفي لنجتاز الصعاب ونحصل على الفرصة؛ فرصة جون. أما الآن، فقد تاهت الكلمات التي تدربت على إلقائها بعناية بسبب حالة الارتباك الشديدة التي عصفت بي. اختلطت الأفكار والمشاهد - احتراق ديل، احتضار الفأر، ارتعاش توت توت على الكرسي الكهربائي صائحا بأنه ديك رومي تم طهيه جيدا - داخل رأسي كدوامة رملية.

أيها المراقب... هال... أنا..." هكذا باءت محاولاتي للتحدث بالفشل.

رفع البندقية مجددا وصوبها نحوي تارة ونحو بروتال تارة أخرى من دون إنصات، وقد اتسعت عيناه الحمراوان بشدة. في تلك الأثناء، جاء هاري مجبرا في الغالب من صاحب البنيان الضخم الذي كان يبتسم ابتسامة عريضة بلهاء.

تنفس مورس قائلا "كوفي، جون كوفي". أخذ شهيقا ثم صاح بصوت رفيع لكنه قوي "توقف! توقف هناك، وإلا سأطلق النار عليك".

من مكان ما خلفه نادى صوت أنثوي ضعيف مرتعش "هال؟ ماذا أنت فاعل هناك؟ مع من تتحدث أيها اللعين؟".

استدار للحظة نحو الصوت وقد بدت على وجهه حالة من الارتباك والبؤس. كان ذلك لمجرد لحظة كما قلت، لذا كانت غير كافية بالنسبة إليّ كي أستطيع أن أنتزع البندقية ذات الماسورة الطويلة من يده، حتى وإن كانت كافية، فلم أستطع حتى رفع يديّ، فقد كانتا وكأن حركتهما قد

قيدت من ثقل ما تحملان من أثقال. كان فكري آنذاك مشوشا تماما مثل جهاز المذياع الذي يحاول بث إرساله وسط عاصفة كهربائية. المشاعر الوحيدة التي أستطيع أن أتذكرها هي مشاعر الرعب التي اجتاحتني وحالة الارتباك التي بدت على هال.

وصل هاري وجون كوفي إلى أسفل الدرج، بينما صرف مورس انتباهه عن صوت زوجته واستدار نحونا مجددا رافعا البندقية مرة أخرى. أفصح في ما بعد أنه كان ينوي بالفعل إطلاق النار على كوفي حيث شك في أننا كنا سجناء وأن أصحاب العقول المدبرة لما يحدث كانوا خلف الشاحنة يتسللون في الظلام. لم يفهم سبب مجيئنا، لكن كان الانتقام أرجح الاحتمالات.

قبل أن يتمكن من إطلاق النار، تقدم هاري تيروليجر أمام جون كوفي ثم تحرك أمامه حاميا بذلك جُل جسده. لم يكرهه كوفي على ذلك، بل فعل ذلك من تلقاء نفسه.

قال "لا أيها المراقب مورس، كل شيء على ما يرام! لا يوجد سلاح مع أي منا، لن يتسبب أحد بإحداث أذى، نحن هنا للمساعدة!".

اعترضه مورس قائلا وقد قطب حاجبيه "مساعدة؟ أي مساعدة؟ ولمن المساعدة؟"، توهجت عيناه، ولم أستطع صرف نظري عن البندقية الجاهزة لإطلاق النار.

ارتفع صوت المرأة العجوز، وقد بدا الضعف والوهن عليه مرة أخرى وكأنها تجيبه "تعالَ إلى هنا وافتح الباب أيها اللعين! أحضر أصدقاءك الحمقى معك أيضا! ودعهم يأخذون دورهم أيضا".

نظرت إلى بروتال وقد تملكتني رعشة. لقد فهمت أنها كانت تسبّ - فهمت أن الورم الذي أصابها جعلها نوعا ما تسبّ - لكن ما أقدمت عليه لم يكن مجرد سباب، بل أكثر بكثير.

سألنا مورس مرة أخرى، وقد اختفى العزم والثبات من صوته -

WWW.REWITY.COM

بسبب صيحات زوجته المرتعشة - "ماذا تفعلون هنا؟ أنا لا أفهم سبب وجودكم هنا. أهو لحدوث اقتحام بالسجن، أو...؟".

أزاح جون هاري جانبا - رفعه عاليا وأخذ مكانه - ثم صعد إلى الشرفة. وقف بيني وبين بروتال بضخامة بنيانه مما جعلنا نندفع جانبا نحو أشجار مليندا. رفع مورس عينيه نحوه ليتتبعه، كما يفعل شخص ما حينما يحاول رؤية قمة إحدى الأشجار شاهقة الارتفاع. في تلك اللحظة عادت إليّ القوة فجأة، فتلك الروح الشريرة التي شوشت على أفكاري وخلطتها ببعض كالأصابع القوية التي تنخل الرمل أو حبات الأرز قد ولت. فهمت أيضا لماذا كان هاري قادرا على التصرف بينما لم يكن في وسعي أنا وبروتال إلا الوقوف بلا حراك بيأس وضياع أمام رئيسنا، لقد كان هاري مع جون... وأيا كانت طبيعة الروح التي تقاوم الروح الأخرى، إلا أن هذه الروح كانت ساكنة داخل جون كوفي في تلك الليلة، وتلك الروح هي التي كانت صاحبة اليد الطولى في هذا الموقف، حينما تقدم جون كوفي لمواجهة المراقب مورس. لم تغادر الروح المكان نهائيا، بل رأيتها تنسحب إلى الخلف كالشبح الذي يولي مدبرا في ظل ظهور نور ساطع بصورة مفاجئة.

قال جون كوفي "أريد أن أساعد". نظر مورس إليه مأخوذا وفمه مفتوح. لا أعتقد، حينما التقط كوفي البندقية سريعا من يد مورس ومررها لي، أن هال أدرك أن ذلك حدث بالفعل. أنزلت زناد البندقية بحرص، وحينما فحصت الأسطوانة لاحقا وجدتها خالية من الأعيرة النارية. أتساءل أحيانا ما إذا كان هال على دراية بذلك. في الوقت ذاته، كان جون لا يزال يدمدم قائلا "لقد جئت لأساعدها، أساعدها فقط، هذا كل ما أريده".

صاحت من غرفة النوم الخلفية قائلة "هال!"، بدا صوتها أكثر قوة قليلا الآن، لكن بدا الخوف عليه أيضا كما لو أن الشيء الذي كان قد

أصابنا بالارتباك قد تركنا ومضى إليها الآن. "اطردهم بعيدا، أيا كان هؤلاء! لا نريد بائعين عندنا في منتصف الليل! لا إليكترولكس! لا هوفر! لا سراويل فرنسية! اطردهم! أخبرهم...". شيء ما قطع هذا الفيض المتدفق من الكلمات - ربما كوب ماء - ثم شرعت في البكاء.

قال جون كوفي بصوت خافت جدا أعلى من الهمس بقليل "للمساعدة وحسب، للمساعدة وحسب أيها الرئيس، هذا كل ما في الأمر". لقد تجاهل بكاء المرأة واستخدامها للألفاظ البذيئة على حدّ سواء.

قال مورس "لا يمكنك ذلك، لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك". كانت نغمة صوته كنغمة قد سمعتها من قبل، وبعد لحظة أدركت كيف بدا صوتي حينما ذهبت إلى زنزانة كوفي في الليلة التي عالجني فيها من اضطرابات الجهاز البولي. لقد كنت منوما مغناطيسيا. كنت قد أخبرت ديلاكروا حينئذ أن يعتني بشأنه وسأعتني أنا بشأني. مع الفارق أن كوفي هو الذي كان يعتني بي في الحقيقة حينها، تماما كما يفعل مع هال مورس الآن.

قال بروتال "نحن نعتقد أنه يمكنه ذلك، ولم نخاطر بوظائفنا - وربما التعرض للسجن - لمجرد الحضور إلى هنا فقط والعودة من دون بذل قصارى جهدنا".

لم نكن أنا وبروتال قادرين على فعل ذلك قبل ثلاث دقائق فقط.

أخذ جون كوفي المبادرة منا، واندفع نحو المدخل مارا بمورس الذي رفع إحدى يديه وقد بدا الضعف عليها ليستوقفه (ارتفعت حتى فخذه ثم سقطت، وأنا على يقين أن الرجل الضخم لم يشعر بها حتى)، ثم اجتاز الرواق وهو يجر قدميه متجها نحو حجرة الجلوس، ومنها إلى المطبخ، ومن المطبخ إلى حجرة النوم الخلفية؛ وهناك ارتفع الصوت

www.rewity.com RAYAHEEN WWW.REWITY.COM

الحاد مرة أخرى "ابقَ بعيدا ولا تقترب! مهما تكن، ابقَ مكانك فأنا عارية، وثدياي مكشوفان!".

لم يأبه جون بما قالته، ومضى متبلد المشاعر، منحني الرأس حتى لا يحطم مصابيح الإنارة المثبتة في السقف، ورأسه المستدير ذو اللون البني يلمع، بينما يداه تتأرجحان على جانبيه. بعد دقيقة تبعناه، أنا أولا ثم بروتال وهال جنبا إلى جنب وهاري في الخلف. ثمة شيء واحد استوعبته جيدا آنذاك أن الأمور خرجت عن سيطرتنا وكانت تحت سيطرة جون.

8

جلست السيدة مليندا على مقدمة السرير تحدق بعينين مفتوحتين إلى العملاق الذي ظهر أمامها، فلم تبدُ لي مطلقا مثل مليندا مورس التي عرفتها لمدة 20 عاما؛ حتى إنها لم تبدُ مثل مليندا مورس التي زرتها منذ فترة قصيرة قبل إعدام ديلاكروا. كانت المرأة تبدو كطفل مريض استيقظ على... كانت التجاعيد تطغى على بشرتها الشاحبة. وكانت متغضنة حول العين اليمنى، كأنما تحاول الغمز. نفس هذا الجانب من فمها، تدلى إلى الأسفل، وكان ناب العين الأصفر القديم يتدلى فوق شفتها السفلى الشاحبة. كان شعرها متطايرا فوق رأسها. كانت الغرفة ممتلئة بتلك الأشياء التي تتخلص منها أجسادنا بذوق عندما تكون الأمور معنا على ما يرام. كان وعاء قضاء الحاجة الموجود إلى جوار سريرها ممتلئا إلى نصفه بمادة لزجة صفراء كريهة. جال في خاطري أننا وصلنا متأخرين. لم تكن مرت سوى أيام قليلة على معرفة إصابتها بالمرض، لكن كان الورم في رأسها ينمو بسرعة مرعبة منذ ذلك الوقت. لم أكن أعتقد أن بإمكان جون كوفي مساعدتها الآن.

كانت تشعر بالخوف والرعب عندما دخل كوفي، كما لو كان شيء بداخلها قد تعرف إلى طبيب بإمكانه أن يصل إلى الورم ويقتلعه من مكانه ويضمده. اسمعني جيدا أنا لا أقول أن مليندا مورس ممسوسة، وأنا على وعي من أن، بالرغم من حالة الإثارة التي كنت فيها، تصوراتي كافة عن تلك الليلة يمكن الشك فيها. لكنني لم استبعد كذلك إمكانية المس بشكل نهائي. كان هناك شيء في عينيها، شيء كالخوف. بإمكانكم الوثوق بي في ما يتعلق بذلك؛ لقد رأيت الشعور بالخوف كثيرا لدرجة

WWW.REWITY.COM

أصبح من الصعب ألا أعرفه.

أين ذهب ذلك الشعور، تلاشى بلمح البصر، وحلت مكانه نظرة تنم عن اهتمام قوي وحدسي. وارتعش هذا الفم الذي لا يقوى على الكلام ربما ليعبر عن ابتسامة.

"آه، إنه ضخم" صرخت فائلة. كانت تبدو كفتاة صغيرة أصيبت لتوها بعدوى سيئة في الحلق. سحبت يديها، كان لونهما شاحبا كوجهها، من أسفل اللحاف وشبكتهما معا. "تبدو زنجيا قويا! لطالما سمعت أن الزنوج أقوياء، لكنني لم أعاشر أحدا منهم من قبل!".

تأوه مورس خلفي بصوت ضعيف يملأه اليأس.

لم يكن جون كوفي يعير اهتماما لأي مما حوله. وبعد أن وقف متخشبا لبرهة، كأنما يراقبها من مسافة قصيرة، عبر إلى السرير، الذي كان مضاء بمصباح وحيد إلى جواره.

كان المصباح يلقي دائرة مشعة من الضوء على اللحاف الأبيض الذي تم سحبه إلى الرباط الموجود في ياقة ثياب نومها. خلف السرير، في الظل، كان المقعد الطويل الذي يمتد في الردهة، وكانت هناك بطانية ملونة نسجتها ميلي بيديها في الأيام الخوالي ملقاة نصفها على المقعد والنصف الآخر على الأرضية. كان هال يأخذ غفوة، على الأقل عندما دخلنا.

عندما اقترب جون تغير تعبيره للمرة الثالثة. فجأة رأيت ملينداً، والتي كان عطفها يعني الكثير بالنسبة إليّ على مدار السنين، وكذلك لجانيس عندما تركها الأولاد وأخذت تعاني من الوحدة والملل. كانت ملينداً لا تزال تتطلع إلى معرفة ما يدور حولها، لكنها أصبحت الآن مدركة وواعية.

"من أنت؟"، سألت بصوت واضح ومتعقل. "ولماذا كل هذه الندوب على يديك وذراعيك؟ من الذي أذاك بهذا الشكل؟".

"لا أذكر يا سيدتي من أين أتت هذه الندوب" قال جون كوفي بصوت خفيض، وجلس بجانبها على سريرها.

ابتسمت ملينداً قدر استطاعتها، ارتعش الجانب الأيمن المتدلي، وانفرجت أساريرها. لمست ندبة بيضاء اللون، مثنية كسيف معقوف على ظهر يده اليسرى. "أي نعمة هذه! أتعرف لماذا؟".

قال كوفي بلكنة جنوبية "عندما لا تعرف من أذاك أو أساء إليك، فلن تمضي الليالي في التفكير".

ضحكت لكلامه، كان صوتها نقيا كالفضة في غرفة المرض سيئة الرائحة. كان هال بجانبي الآن يتنفس بسرعة لكنه لا يحاول التدخل. وعندما ضحكت ملينداً، توقف نفسه المتسارع للحظة، وقبضت إحدى يديه الكبيرتين على كتفي. لقد قبض عليها بشدة لدرجة تركت أثرا على جسمي، رأيته في اليوم التالي، لكنني لم أشعر به في ذلك الوقت.

"ما اسمك؟" سألته ملينداً.

"جون كوفي يا سيدتي".

"كوفي كاسم المشروب".

"نعم يا سيدتي، لكنه يكتب بطريقة مختلفة".

اضطجعت إلى الخلف على وسائدها، ثم رفعت جسمها إلى الأعلى قليلا، لكنها لم تستوِ جالسة، وأخذت تنظر إليه. جلس بجانبها، ينظر إلى الخلف، وشكّل ضوء المصباح هالة حولهما كما لو كانا ممثلين على المسرح؛ أضخم رجل أسود في السجن بأكمله والمرأة البيضاء نحيلة الجسم التي تحتضر. أخذت تحدّق إلى عيني جون بانجذاب واضح.

"سيدتي؟".

"نعم، يا جون كوفي؟"، كانت الكلمات تخرج منها بصعوبة وكنا بالكاد نسمعها في هواء الغرفة الفاسد. شعرت أن العضلات تنتفخ في ذراعي وقدمي وظهري. في مكان ما، بعيدا، أشعر بمراقب السجن يتشبث

WWW.REWITY.COM

بذراعي، وأبصر بجانبي هاري وبروتال يطوّق كل منهما الآخر بذراعه، كطفلين صغيرين تاها في الظلام. شيء ما سيحدث. شيء هائل. كل واحد منا شعر به بطريقته الخاصة.

انحنى جون كوفي مقتربا منها. أصدر السرير صريرا مسموعا وسمع حفيف فرش السرير، وظهر القمر كأنما يتبسم من نافذة غرفة النوم. كانت عينا جون المتقدتان تمعنان النظر في وجه السيدة الشاحب.

"آه، لقد رأيته" قال جون. لم يكن يتحدث معها، لا أعتقد ذلك على كل حال؛ وإنما كان يحدّث نفسه. "لقد رأيته، يمكنني المساعدة. بعض الهدوء... الصمت...".

انحنى مقتربا منها أكثر فأكثر. للحظة توقف وجهه الضخم على بعد بوصتين فقط من وجهها. رفع إحدى يديه بجانبه، وانبسطت الأصابع، كأنما يطلب التمهل... الانتظار فقط... ثم عاد لينحني بوجهه مجددا. ووضع فمه الواسع على فمها وضغط على شفتيها حتى انفرجتا. للحظة استطعت أن أرى إحدى عينيها، تحدّق بعيدا عن كوفي، يسكنها إحساس ربما بالدهشة. ثم تحرك رأسه الأصلع الأملس، وبدا كل شيء.

كان هناك صوت صفير بسيط عندما استنشق الهواء من أعماق رئتيها. استمر ذلك لثانية أو اثنتين على الأكثر، ثم تحركت الأرضية تحتنا وكأن زلزالا ضرب المنزل. لم يكن خيالا، فقد شعر الجميع بذلك وتحدثوا عنه بعد ذلك. كان الأمر أشبه بارتطام الموج. لا بد من أن ارتطاما ضخما قد حدث، فقد وقع شيء ثقيل في الردهة، وتبيّن في ما بعد أنها ساعة الحائط الكبيرة. حاول هال مورس إصلاحها، لكنها لم تكن تعمل لأكثر من خمس عشرة دقيقة قبل أن تعود إلى سابق عهدها.

بالقرب من هناك ظهر تشقق تبعه صوت رنين عندما سقط لوح الزجاج من النافذة التي كان يطل منها القمر. ووقعت صورة كانت معلقة

على الحائط من مشبكها - كانت صورة لسفينة تمخر العباب في أحد البحور السبعة - وتهشمت على الأرضية وتناثر الزجاج الذي يغطي وجهها.

شممت رائحة شيء ساخن، ورأيت الدخان يتصاعد من نهاية اللحاف الذي يغطيها. كان الجزء الموجود إلى جانب قدمها اليمنى يتحول إلى اللون الأسود. كنت أشعر وكأنني في حلم، تحررت من يد مورس، وتحركت باتجاه المنضدة القائمة في الغرفة. كان هناك كوب من الماء، محاط بثلاث أو أربع زجاجات دواء سقطت في أثناء الاهتزاز. التقطت الماء وسكبته حيث يخرج الدخان. كان هناك صوت هسهسة.

استمر جون كوفي في تقبيلها ساحبا الهواء من أعماقها، وكان لا يزال رافعا إحدى يديه فيما كانت الأخرى تحمل وزن الهواء. كانت أصابعه متفرقة، وكانت اليد تبدو كقنديل البحر.

وفجأة، تقوس ظهرها. كانت إحدى يديه تدور في الهواء، تنبسط أصابعها وتنقبض، في سلسلة من التشنجات. كانت قدماها تضربان السرير على نحو متتابع. ثم سمعنا شيئا يصرخ. وأكرر مجددا، لست أنا فقط من سمع ذلك؛ وإنما الآخرون كذلك. كان الصوت بالنسبة إلى بروتال كعواء الذئب أو القيوط عندما تعلق قدماه بشرك. أما بالنسبة إليّ، فقد كان أشبه بصرخة النسر التي كنا نسمعها في الصباح الهادئ في تلك الأيام وهو ينشر جناحيه بثبات في الهواء.

في الخارج، كانت الرياح تعصف بقوة جعلت المنزل يهتز مرة أخرى، كان الأمر غريبا لأنه حتى ذلك الوقت لم تكن هناك رياح.

نهض جون كوفي مبتعدا عنها، ورأيت وجهها ينبسط مجددا. لم يعد الجانب الأيمن من فمها متدليا. وعادت عيناها لمظهرهما الطبيعي، وبدت أصغر من سنها بعشر سنوات. أخذ ينظر إليها للحظة أو اثنتين ثم بدأ يسعل. أدار وجهه حتى لا يسعل في وجهها، فقد توازنه (وهو أمر

WWW.REWITY.COM

لم يكن مستبعدا؛ فبالرغم من ضخامة جسمه، لم تكن مقعدته مستقرة على السرير بشكل كافٍ)، وسقط على الأرضية. كان سقوطه كافيا لأن يجعل المنزل يهتز للمرة الثالثة. هبط على ركبتيه رافعا رأسه، وكان يسعل كرجل مسلول في مراحله الأخيرة.

وقلت في نفسي إنه سيبدأ الآن بالتخلص من الأذى. وتوقعت أن يخرج ما لديه في نوبات السعال، وأنه سيخرج الكثير هذه المرة.

لكنه لم يفعل، وإنما استمر في السعال بقوة لا يكاد يجد الوقت لالتقاط الأنفاس. وكانت بشرته السمراء تتحول إلى اللون الرمادي. انتبه بروتال إلى ذلك واقترب منه وجثا على ركبتيه بجانبه، ووضع ذراعه حول ظهره العريض. وكما لو أن حركة بروتال قد كسرت نوبة السعال، وذهب مورس إلى سرير زوجته، وجلس بجوارها في المكان الذي كان يجلس فيه كوفي. وكان يبدو غير منتبه إلى وجود ذلك العملاق الذي يسعل. بالرغم من أن كوفي كان يجثو مرتكزا على قدمه، إلا أن عيني مورس لم تفارقا زوجته التي كانت تحدّق إليه باندهاش. كان النظر إليها أشبه بالنظر في مرآة متربة وقد تم تنظيفها.

"جون!" صرخ بروتال. "تخلص مما أنت فيه! تخلص منه كما فعلت من قبل!".

استمر جون في نوبات السعال الشديد. كانت عيناه مخضلتين، ليس بالدموع، وإنما من الإجهاد. كان اللعاب يتطاير من فمه في رذاذ دقيق، لكن لم يخرج أي شيء آخر.

قام بروتال بلكمه على ظهره مرتين، ثم نظر إليّ "إنه يكاد يختنق! ماذا امتص منها ويكاد يخنقه!".

بدأت أتحرك إلى الأمام. وقبل أن أنتقل خطوتين، تحرك جون على ركبتيه مبتعدا عني إلى ركن الغرفة، وكان لا يزال يسعل بشدة ويتنفس بصعوبة. أسند جبهته إلى ورق الحائط - مزين بزهور بريه تنتشر على سور

حديقة - وأصدر صوت سعال عميق، كمن يريد أن يتقيّأ أحشاءه. تذكرت أنه عند ذلك يقذف بالأذى إلى الخارج، لكن لم تكن هناك أي علامة على ذلك. بقي الحال كما هو باستثناء أن نوبة السعال خفت بعض الشيء.

"أنا بخير يا ريس"، قالها جون وهو لا يزال متكئا بجبهته على الزهور البرية. وظلت عيناه مغمضتين. أنا غير واثق كيف عرف أنني هناك، لكنه عرف. "أنا حقا بخير، انظر كيف حال السيدة".

نظرت إليه غير مصدق، ثم التفت إلى السرير. كان هال يلاطف حاجب مليندا، ورأيت شيئا مدهشا فوقه؛ لقد عادت بعض الخصلات من شعرها إلى اللون الأسود.

سألته "ماذا حدث؟". لقد بدأت وجنتاها تكتسيان بلونهما الطبيعي من جديد. كان الأمر وكأنها سرقت وردتين من ورق الجدران. "كيف أتيت إلى هنا؟ لقد كنا في طريقنا إلى المستشفى في إنديانولا، أليس كذلك؟ كان من المفترض أن يجري أحد الأطباء أشعة إكس على المخ ويأخذ صورا له".

"ارتاحي" قال هال. "ارتاحي يا عزيزتي، لا يهم شيء من ذلك الآن".

"لكنني لا أفهم!"، كانت على وشك البكاء، "لقد توقفنا في استراحة على جانب الطريق... وقمت أنت بشراء باقة من الورد... ثم... أنا هنا. إن الجو مظلم! هل تناولت عشاءك يا هال؟ لماذا أنا في غرفة الضيوف؟ هل أجريت أشعة إكس؟" مرت ببصرها باتجاه هاري من دون أن تراه تقريبا - كانت هذه صدمة، أعتقد - وسلطت بصرها عليّ. "بول؟ هل أجريت أشعة إكس؟".

قلت "نعم، كانت الأشعة واضحة".

"لم يجدوا ورما؟".

فأجبت "لا، قالوا إن نوبات الصداع ستتوقف الآن".

WWW.REWITY.COM

انفجر هال الذي كان يجلس بجانبها باكيا.

اقتربت منه وقبلت وجنته. ثم تحركت عيناها باتجاه الوافد. "من هذا الرجل الزنجي؟ لماذا يقبع في ركن الغرفة؟".

استدرت ورأيت جون يحاول الوقوف على قدميه. ساعده بروتال، وتمكن جون من الوقوف من خلال اندفاعه النهائي إلى الأمام. وبالرغم من ذلك وقف مواجها الحائط مثل طفل يعاني من المرض. فكان ما يزال يسعل بشدة، إلا أن سعاله بات خفيفا الآن.

قلت "جون. استدر، أيها الفتى الضخم، وانظر إلى هذه السيدة".

فاستدار ببطء. وكان وجهه لا يزال شاحبا، وبدا كما لو كان أكبر من عمره بعشر سنوات، مثل رجل كان قويا ذات مرة وخسر في النهاية حربا طويلة استهلك فيها كل قواه.

كانت عيناه متجهتين إلى الأسفل نحو خف السجن الذي ينتعله، ونظر كما لو كان يرغب بقبعة لعصرها.

"من أنت؟"، سألت مرة أخرى. "ما اسمك؟". قال "جون كوفي، يا سيدتي"، فأجابته على الفور "لكن لا تتم تهجئته مثل شراب القهوة".

جلس هال بجانبها. وشعرت به، وربتت على يده من دون أن تبعد عينيها عن الرجل الأسمر.

"حلمت بك"، قالت بصوت ناعم متعجب. "حلمت أنك تتجول في الظلام، وأنا كذلك، ثم التقينا معا".

لم يقل جون كوفي شيئا.

قالت "لقد وجدنا بعضنا في الظلام، قف يا هال، فإنك تبقيني ملازمة لهذا المكان. فنهض ونظر بعدم ثقة حيث أعادت اللحاف. "ملينداء إنك لا تستطيعين -".

قالت "لا تكن سخيفا"، وهزت رجليها. "بالطبع أستطيع". وقامت بتمليس ثوب نومها، وتمددت حتى وصلت إلى قدميها.

همس هال "يا الله". ذهبت إلى جون كوفي وجلس بروتال بعيدا عنها وبدا على وجهه تعبير مخيف، فقد كانت تمشي مضطربة مع أول خطوة تخطوها، لا تقوم بأي شيء سوى أن تدعم رجلها اليمنى قليلا بالثانية، وحتى ذلك لم تقم به لاحقا. وتذكرتُ بروتال وهو يسلم البكرة الملونة لديلاكروا قائلا "اقذفها، فأنا أريد أن أرى كيف تدور". تقدم بعد ذلك الفأر جينغلز ببطء، ولكن في الليلة التالية، مشى ديل على الميل الأخضر، وقد كان صافيا.

وضعت ملينـدا ذراعيها حول جون وعانقته. وقف كوفي هناك للحظة، وسمح بالعناق، ثم رفع إحدى يديه وقام بتحسس رأسها، وقام بذلك برقة لا حدَّ لها. وكان وجهه ما يزال شاحبا. واعتقدت أنه بدا عليلا بشدة.

جلست بعيدا عنه، ونظرت إليه "أشكرك".

"عفوا، يا سيدتي".

استدارت إلى هال، وعادت إليه. وضع ذراعيه حولها. "بول" كان صوت هاري. وأشار برسغه الأيمن إليّ ونقر على وجه ساعته. فقد اقتربت الساعة من الثالثة. سيبزغ نور الصباح بحلول الساعة الرابعة والنصف. فإذا أردنا أن نعيد كوفي إلى كولد ماونتن قبل الصباح، فعلينا الذهاب حالا. أردت إرجاعه. ويرجع سبب هذا إلى أنه كلما بقينا أطول من ذلك، كلما ساءت فرص نجاحنا في النجاة بهذه الفعلة؛ نعم بالطبع. وكذلك أردت أن يكون جون في مكان يسمح لي بصورة شرعية استدعاء الطبيب له، لو اقتضت الحاجة، فمن النظر إليه، أرى أنه قد يحتاج إلى ذلك.

كانا يجلسان على حافة السرير، يعانقان بعضهما، وفكرت في أن أطلب من هال الخروج إلى غرفة المعيشة لكلمة خاصة، ثم أدركت أنني إذا انتظرت طيلة اليوم، فلن يتحرك من مكانه. إلا أنه قد يكون بإمكانه

WWW.REWITY.COM

إبعاد عينيه عنها لثوانٍ قليلة، على الأقل بحلول الوقت الذي يبزغ فيه نور الصباح وليس الآن.

قلت "هال، يتعين علينا الذهاب الآن".

أومأ برأسه من دون النظر إليّ. فقد كان يطالع لون خدي زوجته، والتقوس الطبيعي غير المجهد لشفتيها، والسواد الجديد في بعض الخصلات من شعرها. ربتّ على كتفه، فقد كان من الصعب تماما لفت انتباهه، ولو للحظة على الأقل.

"هال، لم نأتِ إلى هنا أبدا".

"ماذا؟".

قلت "إننا لم نأتِ إلى هنا أبدا، سنتحدث بعد ذلك، لكن هذا كل ما تحتاج إلى معرفته الآن. فإننا لم نأتِ إلى هنا أبدا".

"نعم، حسنا". وأجبر نفسه على النظر إليّ للحظة، من خلال جهد واضح بذله. "لقد أخرجته. فهل يمكنك إرجاعه؟".

"أعتقد ذلك. ربما. ولكن ينبغي لنا أن نذهب".

"كيف عرفت أن بإمكانه القيام بذلك؟"، ثم هز رأسه بعد ذلك، كما لو كان يدرك في قرارة نفسه أن هذا لم يكن الوقت المناسب... "بول... شكرا لك".

فأجبت "لا تشكرني، اشكر جون".

نظر إلى جون كوفي، ثم مدّ إحدى يديه، مثلما فعلت في اليوم الذي اصطحب فيه هاري وبيرسي جون إلى السجن. "شكرا لك. أشكرك شكرا جزيلا".

نظر جون إلى اليد. رماه بروتال بضربة كتف لا تنم عن رقه في جنبه. فبدأ جون برفع يده، ثم صافحه. حرّك كل منهما يده عند المصافحة إلى الأعلى ثم إلى الأسفل ثم رجوعا إلى مستوى الوسط، إلى أن حررا يديهما.

رد بصوت أجش "مرحبا". وبدا لي مثل صوت مليندا عندما صفقت بيدها، وأخبرت جون أن يسدل سرواله. فرد التحية قائلا "مرحبا" للرجل، الذي وفقا لسير الأمور المعتاد، سيمسك القلم بهذه اليد، ثم يوقع أمر إعدام جون كوفي به.

قام هاري بالنقر على ساعته، بشكل أكثر إلحاحا هذه المرة.

قلت "بروت؟ هل أنت مستعد؟".

قالت مليندا بصوت بهيج "أهلا، بروتوس" كما لو كانت تراه للمرة الأولى. "يسعدني أن أراك". هل تودون أيها السادة احتساء الشاي؟ ألا تود، يا هال؟ سأقوم بتحضيره".

نهضت مرة أخرى. "لقد كنت مريضة، لكنني أشعر بتحسن اليوم. أفضل مما كنت عليه منذ سنين".

رد بروتال بقوله "شكرا لك، يا سيدة مورس، ولكن علينا الذهاب. فلقد فات موعد نوم جون". ابتسم ليظهر أنها كانت دعابة، ولكن النظرة التي أبداها إلى جون كانت باعثة على القلق، كما شعرت.

"تقدم، يا جون كوفي". اجتذب ذراع جون ليجعله يذهب، وذهب جون معه.

"دقيقة فقط!" تحررت مليندا من يد هال وجرت بخفة، كما لو كانت فتاة صغيرة، إلى حيث يقف جون. ووضعت ذراعيها حوله وعانقته مرة أخرى. ثم مدت يدها إلى الجزء الخلفي من عنقها وسحبت سلسلة رائعة عن صدرها. وفي نهاية السلسلة قلادة فضية. وأعطتها لجون الذي نظر إليها بشكل جاهل.

قالت "إنها لسان كريستوفر. وأريد منك أن تأخذها، يا سيد كوفي، وأن تضعها، فإنه سيحميك ويجعلك سالما. من فضلك ضعها لأجلي".

نظر جون إليّ، مضطربا، ونظرت إلى هال، الذي قام أولا ببسط يديه ثم أومأ برأسه.

WWW.REWITY.COM

قلت له "خذها يا جون. إنها هدية". وضعها حول رقبته التي تشبه رقبة الثور، وأظهر القلادة على صدره. وتوقف تماما عن السعال الآن، لكنني اعتقدت أنه بدا شاحبا ومريضا أكثر من ذي قبل.

قال "شكرا لك يا سيدتي".

فأجابت "لا. شكرا لك. شكرا لك يا جون كوفي".

9

ركبت الشاحنة مع هاري عائدا، وكان مسرورا تماما أن يكون هناك. انكسر المستوقد، إلا أننا كنا في الهواء الطلق على الأقل. فقد قطعنا نحو عشرة أميال حتى وجد مفرقا أدار الشاحنة فيه. وسألت "ما الأمر. هل هو أحد المكابح؟"، اعتقدت أن المشكلة قد تكمن في ذلك، أو أي شيء آخر. فكل مكوّن من مكوّنات محرك المكابح والإرسال أصدر صوتا، والسيارة على وشك تعرضها لخطأ كارثيّ، أو أن حلها يكمن في التخلص من الشبح بصورة كاملة.

"لا" قال هاري، بصوت آسف. "ذهبت لأتبول، هذا كل ما في الأمر. فقد كان عليّ أن أتبول".

ذهبنا جميعا للتبول عدا جون، فعندما طلب منه بروتال أن ينزل معهم ليتبول، هز رأسه من دون أن يرفع عينيه. فقد كان متكئا على الجزء الخلفي من الشاحنة واضعا بطانية الجيش على كتفيه مثل الشال. ولم أتمكن من فهم طبيعته، إلا أنه يمكنني سماع تنفسه الجاف والأجش، مثل الريح التي تهب خلال القش. ولم أحب ذلك.

مشيت في أجمة من شجر الصفصاف وأنا أفك أزرار سروالي. وكنت لا أزال أعاني من عسر في التبول، لذا لم يتحكم جسدي به بصورة كاملة. إلا أنني كنت ببساطة ممتنا لتمكني من التبول من دون الحاجة إلى الصراخ. وقفت هناك، أتبول وأنظر إلى الأعلى نحو القمر، وكان صعبا علي أن أدرك وقوف بروتال بجانبي يقوم بنفس الشيء حتى قال بصوت منخفض، "اللعنة، لا تجلس على الكرسي الكهربائي".

WWW.REWITY.COM

نظرت إليه، مندهشا ومرعوبا قليلا من التأكيد الضعيف في نبرة صوته. "ماذا تعني؟".

"أعني أنه احتفظ بتلك المواد من دون إخراجها مثلما فعل من قبل لعذر ما. فقد يستغرق الأمر منه أسبوعا - نظرا لضخامة حجمه وقوته - ولكن أراهن على أنه أسرع. سيقوم أحدنا بجولة تفقدية وسيكون راقدا ميتا مثل الحجر على سريره المبيت في الجدار. اعتقدت أنني كنت أتبول، ولكن أصابتني عند ذلك رعشة خفيفة لوت ظهري فانحبس الماء أكثر قليلا". وعندما قمت بإعادة تزرير سروالي، اعتقدت أن ما قاله بروتال أحدث إحساسا تاما. وتمنيت أن يسير كل شيء على ما يرام. لا يستحق جون كوفي الموت على الإطلاق، إذا كنت محقا في استنتاجي حول فتاتي ديتيريتش، ولكن إذا مات، لم أرد أن يكون ذلك بيدي. ولم أكن متأكدا من أنه يمكنني رفع يدي للقيام بذلك، إذا سار الأمر على هذا النحو.

"تقدم"، همس هاري في الظلام. "الوقت يتأخر. دعنا ننتهي من هذا الأمر".

وعندما رجعت إلى السيارة، أدركنا أننا تركنا جون بشكل كامل وحده؛ يا لها من حماقة على مستوى بيرسي ويتمور، اعتقدت أنه ذهب، حيث سينتهز الفرصة ويهرب بمجرد أن يعلم أنه متروك من دون حراسة. لن نجد من آثاره سوى البطانية التي كان يضعها على كتفيه.

لكنه كان لا يزال هناك متكئا على الجزء الخلفي للشاحنة وساعداه مستندان إلى ركبتيه، ونظر إلى الأعلى عند سماعه صوت اقترابنا منه وحاول أن يبتسم لنا. ظهرت الابتسامة لمدة دقيقة على وجهه المنهك ثم اختفت.

سأله بروتال "كيف حالك، أيها الضخم جون؟"، صاعدا مرة أخرى إلى الجزء الخلفي للشاحنة ومستعيدا بطانيته الخاصة به.

أجاب جون بفتور "بخير، يا سيدي. إن الأمر على ما يرام".

ربت بروتال على ركبته، "سنعود حالا. وعندما ننطلق، أتعرف ماذا؟ أنا أنوي أن أدعوك لارتشاف كوب كبير من القهوة بالسكر والقشدة أيضا".

"أعتقد أنك تراهن على التجول إلى جانب الركاب في السيارة. إذا لم نعتقل أو يزج بنا في السجن أولا".

لكنني عشت بهذه الفكرة منذ أن قمنا بزج بيرسي في غرفة الحجز، ولم يقلقني هذا لدرجة أن أظل مستيقظا. نمت نوما خفيفا وحلمت بأيامنا في كالفاري هيل. الرعد في الغرب، ورائحة قد تكون رائحة ثمر شجر العرعر. لقد كنا أنا وبروتال وهاري ودين نقف حولها بأثوابنا وقبعاتنا المعدنية، مثل فيلم لسيسيل بي دي ميلي. كنا نشبه قادة للمئات في الجيش الروماني، على ما أظن. كانت هناك ثلاثة...، وبيرسي ويتمور، وإدوارد ديلاكروا المناصر لجون كوفي. نظرت إلى الأسفل نحو يدي ورأيت أنني أمسك بمطرقة دموية.

صرخ بروتال "علينا أن ننزله من هناك يا بول! علينا أن ننزله!". فبدأت أوضح لبروتال أننا لا نستطيع لأنهم أخذوا السلم، ثم أيقظتني وثبة مفاجئة للشاحنة، كنا نعود إلى المكان الذي أخفى فيه هاري الشاحنة في وقت مبكر في يوم يبدو أنه يمتد عائدا إلى بداية الزمان.

خرجنا نحن الاثنان واستدرنا عائدين إلى الخلف، نزل بروتال من دون أن يصاب بمكروه، لكن ركبتي جون كوفي التوتا وكاد أن يقع. وكان علينا جميعا أن نمسك به، ولم يكد يستند واقفا على قدميه مرة أخرى حتى بدأ نوبة سعال أخرى، وكانت أسوأها جميعا حتى الآن. انحنى يكتم صوت سعاله براحتي يديه اللتين وضعهما على فمه.

عندما خف السعال، قمنا بتغطية مقدمة شاحنة فارمال بأغصان الصنوبر مرة أخرى ثم عدنا من الطريق الذي أتينا منه. لقد كان أسوأ

WWW.REWITY.COM

جزء في هذه المهمة، بالنسبة إليّ على الأقل، هو المئتي ياردة الأخيرتين، ونحن في طريق العودة جنوبا بامتداد الطريق السريع، إذ أستطيع أن أرى (أو أعتقد أنني أستطيع) الضوء الأول الضعيف في الشرق، وتأكدت من أن مزارعا مبكرا في طريقه إلى حصاد يقطينه أو حفر الأثلام الأخيرة من البطاطا الحلوة، سيرانا. وحتى لو لم يحدث ذلك، ربما نسمع شخصا ما (في خيالي يبدو مثل كيرتيس أندرسن) يصرخ فينا "مكانكم!" لأنني استخدمت مفتاح علاء الدين لفتح قفل السياج الذي يحيط بالباب المؤدي إلى النفق. ثم تخرج علينا من الأشجار مجموعتان من الحرس المدججين بالسلاح، لتكون تلك نهاية مغامرتنا الصغيرة.

ما إن وصلنا إلى السياج، حتى كانت ضربات قلبي تزداد شدة لدرجة أنني أكاد أرى بقعا صغيرة بيضاء تتفجر أمام عينيّ مع كل نبضة. كانت يداي باردتين ومخدرتين، وقد استغرقت فترة طويلة غير قادر على إدخال المفتاح في القفل.

قال هاري بصوت أشبه بالنواح "يا الله، مصابيح أمامية".

رفعت رأسي، ورأيت ضوءا كاشفا على الطريق. كادت حلقة المفتاح أن تسقط من يدي، لكنني استطعت الإمساك بها في الثانية الأخيرة.

قال بروتال "ناولني ذلك، سأتولى الأمر".

فقلت له "لا، فقد انتهيت منه"، دلف المفتاح في النهاية إلى الفتحة ودار داخلها، وما هي إلا لحظة وكنا في الداخل. جثمنا خلف السياج، ونحن نشاهد شاحنة بريد صن شاين تمر بالسجن. سمعت بجانبي جون كوفي وهو يتنفس بألم، كان صوته كمحرك نفد وقوده.

لقد رفع باب النفق بسهولة ونحن خارجون، لكننا لم نطلب منه المساعدة على رفعه هذه المرة؛ فلا شك في أنه لم يكن ليستطيع وهو في حالة كهذه. قمنا أنا وبروتال برفع الباب، وقاد هاري جون نازلا

به السلم. كان الرجل الضخم يتعثر في سيره، لكنه استطاع في النهاية أن ينزل. تبعناه أنا وبروتال بأسرع ما يمكننا، ثم أنزلنا الباب خلفنا، وأغلقناه بالقفل مرة أخرى.

"يا الله، أعتقد أننا -"، كان بروتال سيقول شيئا لكنني قاطعته بضربة كوع قوية على أضلاعه.

قلت له "لا تقلها. بل لا تفكر فيها حتى، ليس حتى يعود آمنا إلى زنزانته".

قال هاري "ولا زال هناك بيرسي الذي ينبغي التفكير في ما سنفعل معه". كان لأصواتنا صدى منخفض في النفق المبني من الطوب. "لم ينتهِ المساء ما دام هناك من يعارضنا -".

كما توقعت، كان مساؤنا لا يزال بعيدا عن النهاية.

WWW.REWITY.COM

الجزء السادس

كوفي في الميل

WWW.REWITY.COM

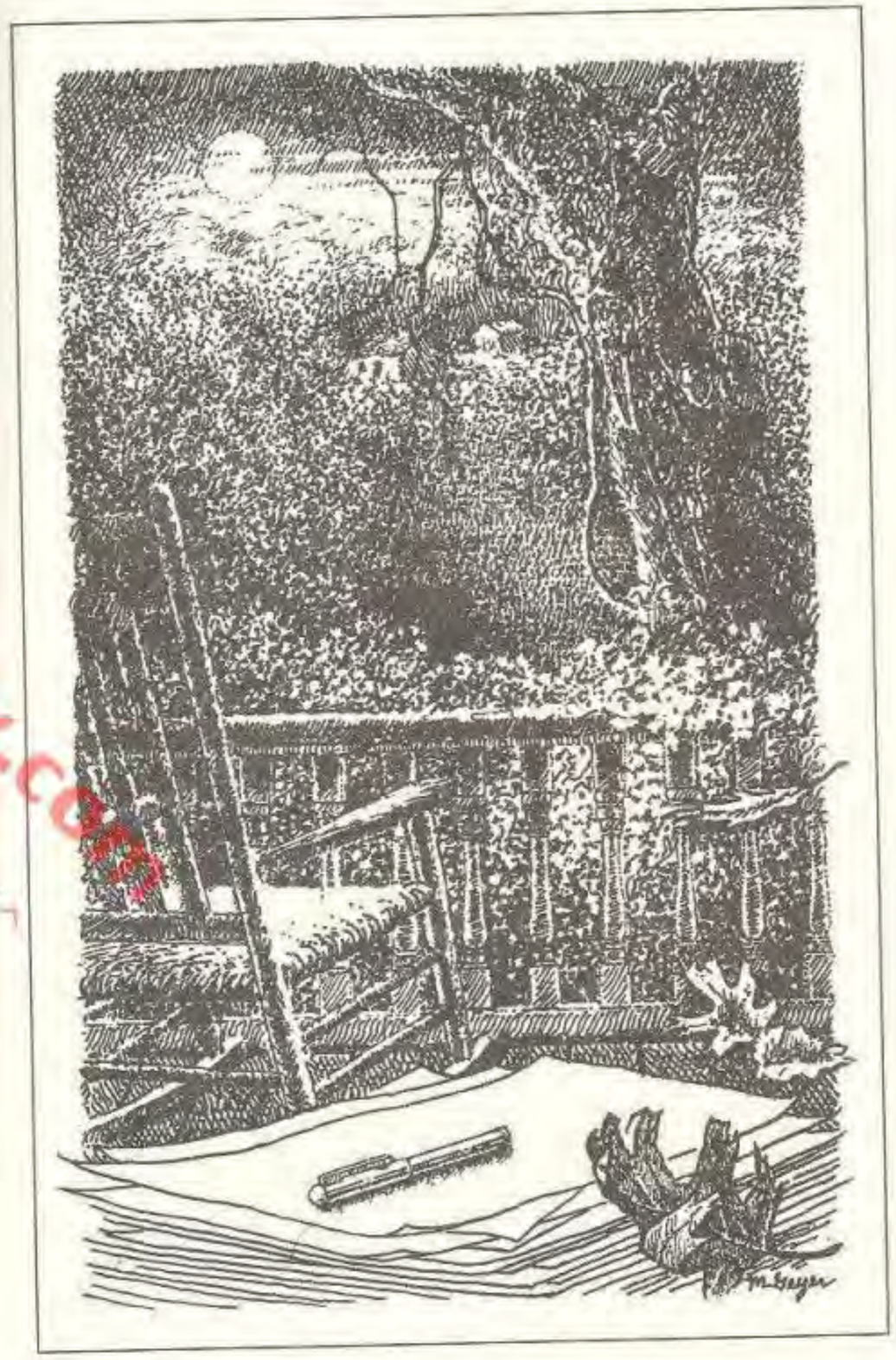

1

جلست في الغرفة المشمسة في جورجيا سنايبز، أمسك بيدي قلم الحبر الذي ورثته عن والدي، وأصبحت خارج نطاق الزمن عندما تذكرت تلك الليلة التي أخذنا فيها أنا وبروتال وهاري جون كوفي من الميل الأخضر إلى مليندا مورس في محاولة لإنقاذ حياتها. كتبت عن تخيير ويليام وارتون، الذي اعتقد نفسه بيلي ذا كيد (وهو مجرم خطير خارج على القانون ذاع صيته في القرن التاسع عشر)؛ كتبت كيف ألبسنا بيرسي سترة السجناء عنوة وزججنا به في غرفة الحجز الموجودة في نهاية رواق الميل الأخضر؛ كتبت عن الرحلة الليلية الغريبة التي قمنا بها - بما فيها من أحداث رعب وبهجة - والإنجاز الذي تحقق بنهايتها. لقد شاهدنا جون كوفي وهو ينتشل امرأة، ليس فقط عن حافة القبر، بل من أعماق القبر ذاته حسبما تراءى لنا.

كتبت عن نمط الحياة السائد في جورجيا سنايبز بالرغم من قلة وعيي به. كتبت عن كبار السن حين كانوا يذهبون لحضور العشاء، ثم يتوجهون جماعات نحو مركز الموارد (حيث يسمح لك بضحكة خافتة) لمشاهدة نصيبهم من المواقف الكوميدية الجماعية. يبدو لي الآن أنني أستطيع أن أتذكر أيضا صديقتي إيلين عندما أحضرت لي شطيرة ذات مرة، موجها لها شكري، ثم تناولي للشطيرة، بيد أنني لا أستطيع أن أتذكر في أي وقت في المساء على وجه التحديد أحضرت لي الشطيرة أو ما الذي كان موجودا بداخلها. جل ما أستطيع أن أتذكره في هذا الشأن يعود إلى العام 1932 حينما كنا نحصل على الشطائر التي تحضر غالبا عن طريق عربة قديمة ذات بوق للوجبات الخفيفة حيث كانت وجبة

WWW.REWITY.COM

اللحم البارد بخمسة سنتات بينما وجبة اللحم المملح بعشرة سنتات.

أتذكر المكان والهدوء الذي خيم عليه وعلى مَن يعيشون حطام العمر فيه وقد استعدوا لقضاء ليلة أخرى من النوم الخفيف المضطرب؛ سمعت ميكي - ربما لم يكن أفضل الممرضين، لكنه كان أكثرهم طيبة بلا شك - ينشد أغنية وادي النهر الأحمر بصوته الحسن بينما يقوم بتوزيع الأدوية مساء.

"يقولون إنك ستترك هذا الوادي... سنفتقد عينيك اللامعتين وابتسامتك الجميلة...". سأحتفظ بتلك الأغنية للتفكير في مليندا مرة أخرى وما قالته لجون عقب حدوث الإنجاز؛ "لقد حلمت بك، حلمت بك تتجول في الظلام وأنا كذلك، ثم وجد كل منا الآخر".

أمست جورجيا سنايبز هادئة، وحل منتصف الليل وانقضى وأنا لا أزال أكتب، تذكرت آنذاك هاري وهو يذكرنا بأنه حتى ولو نجحنا في إعادة جون كوفي إلى السجن مجددا من دون أن يكتشفنا أحد، فإن المشكلة تبقى في بيرسي. أتذكر ما قاله هاري تقريبا "لن يمر المساء على خير ما لم نحلّ مشكلته".

هنا انتهى يومي بالكتابة. وضعت القلم جانبا - للحظات قليلة، لأستعيد بعض النشاط والحيوية - ثم وضعت جبهتي على ذراعي، وأغمضت عينيّ لإراحتهما. وحينما فتحتهما مجددا، ورفعت رأسي كان وهج أشعة شمس الصباح التي اخترقت زجاج النوافذ قد نال مني. نظرت إلى ساعة يدي فوجدتها بعد الثامنة. لا بد من أنني نمت، وجبهتي على ذراعي كرجل عجوز سكران، لمدة ست ساعات على الأقل. نهضت وأنا أجفل كي أستعيد بعض الحيوية والنشاط لظهري. فكرت في النزول إلى المطبخ، وتناول بعض قطع الخبز المحمص، ثم الخروج للتنزه سيرا كما تعودت في كل صباح، ثم وقعت عينيّ على الصفحات المتناثرة التي كتبتها على عجل والموجودة على المكتب. حينئذٍ قررت فجأة

إرجاء نزهة السير مؤقتا. نعم، لقد كان السير صباحا عاديتي، لكن يمكن تأجيله هذا الصباح، علاوة على أنني لم أرغب بلعب الغميضة مع براد دولان ذلك الصباح.

سأكمل كتابة القصة بدلا من التنزه سيرا ذلك الصباح. فأحيانا يكون من الأفضل المضي قدما نحو الهدف المرجو من دون وضع مقدار تقبل الجسم والعقل لهذا الهدف من عدمه في الحسبان، فقد يكون ذلك هو السبيل الوحيد لتحقيقه. إن جل ما أتذكره ذلك الصباح هو كيف أردت عبثا التخلص من شبح جون كوفي الملازم لي.

قلت "حسنا، ميل واحد آخر، لكن أولا...".

ذهبت إلى الحمام الموجود في نهاية رواق الطابق الثاني. وبينما أقف هناك داخل الحمام للتبول، وقعت عينيّ مصادفة على كاشف الدخان المثبت بسقف الحمام، الأمر الذي جعلني أفكر في إيلين وكيف استطاعت في اليوم السابق أن تصرف انتباه براد دولان عني حتى تمكنت من الخروج للتنزه سيرا والقيام بأداء الروتين اليومي الذي طالما تعودت عليه. انتهيت من التبول وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهي.

رجعت إلى الغرفة المشمسة، وأنا أشعر بمزيد من الراحة (خاصة في ما يتعلق بالنصف السفلي من جسمي). وهناك، كان شخص ما - إيلين بلا شك - قد قام بوضع قدر من الشاي بجانب الأوراق التي انتهيت من كتابتها. تناولت بتوق شديد كوبا مبدئيا ثم انتهيت من آخر حتى قبل أن أجلس. عدت إلى مكاني، ونزعت غطاء قلم الحبر، وشرعت في الكتابة من جديد.

كدت أنخرط سريعا في كتابة قصتي قبل أن يسقط خيال أحد الأشخاص فوقي. رفعت رأسي ونظرت إلى الأعلى وتملكني خوف شديد. وجدت دولان واقفا بيني وبين النوافذ وابتسامة عريضة تعلو وجهه.

قال "لقد افتقدتك في نزهتك الصباحية يا بولي، لذا رأيت أنّ

WWW.REWITY.COM

من الواجب أن آتي لرؤيتك ومعرفة ما ألم بك والتأكد من أنك لست مريضا".

قلت "أعرف أن لديك قلبا كبيرا". بدا صوتي حسنا - حتى هذه اللحظة على كل حال - بيد أن ضربات قلبي تسارعت. لقد كنت خائفا منه، ولا أعتقد أن ذلك الأمر جديد بالنسبة إليّ تماما، فقد كان يذكرني بشخص بيرسي ويتمور الذي لم أكن أخشاه إلا حينما كنت صغيرا عندما تعرفت إليه.

اتسعت ابتسامة براد لكنها بالرغم من ذلك أمست أكثر لطفا.

قال "أخبرني الناس أنك موجود هنا منذ البارحة لتكتب تقريرك طوال الليل يا بولي. لكن هذا ليس جيدا بالنسبة إليك، فمن هم في مثل ظروفك أولى بقسط من الراحة".

بدأت أتحدث قائلا "بيرسي -"، لم أكد أنتهي من الكلمة وقد حلت تكشيرة محل ابتسامته ثم أدركت آنذاك غلطتي. أخذت نفسا عميقا وبدأت مجددا في التحدث "براد، ما الذي تأخذه عليّ؟".

بدا مرتبكا للحظة، وربما كان مشوشا قليلا، ثم عادت ابتسامته وقال "ربما لأن وجهك لا يروق لي فحسب، ماذا تكتب على كل حال؟ الوصية الأخيرة؟".

تقدم نحوي رافعا رأسه في محاولة لاختلاس نظرة. وضعت يدي سريعا على الصفحة التي كنت أكتب عليها، ثم بدأت بتجميع الأوراق الأخرى باليد الأخرى، مطبقا بعضها فوق بعض كي أضعها تحت ذراعي لأخفي ما كتبته.

قال كما لو كان يتحدث مع طفل صغير "الآن، هذا لن يفيد أيها العجوز المحب. إذا أراد براد أن يرى شيئا، فسيفعل، وستدرك ذلك".

قبض بيده الفتية القوية بشكل بشع على معصمي، وأخذ يضغط بقوة عليه. استفحل الألم بيدي ثم تأوهت.

قلت محاولا التملص منه "دعني".

رد قائلا وقد فارقت الابتسامة وجهه، بالرغم من أنه كان لا يزال مبتهجا؛ ذاك النوع من الابتهاج الذي تراه فقط على وجوه ذلك الصنف من الناس ممن يتلذذون كلما أمعنوا في حقارتهم "متى تدعني أراها. دعني أراها يا بولي. أريد أن أعرف ماذا تكتب، أريد أن أرى ما إذا كان فيها شيء ما حيث -"، بدأت يدي تتحرك عن الصفحة الأولى. كانت تلك الصفحة تتحدث عن بعض المواقف التي حدثت في أثناء رحلة العودة مع جون من خلال النفق الموجود تحت الطريق.

"دع هذا الرجل وشأنه".

كان الصوت أشبه بضربة سوط قوية في يوم حار جاف... كما أن الطريقة التي قفز بها براد دولان توحي لك كما لو أنه قد تلقى الضربة على مؤخرته. ترك يدي التي وقعت بدورها على أوراقي، ثم أخذ كل منا ينظر نحو الباب.

كانت إيلين كونيللي واقفة هناك، تبدو أكثر نشاطا وقوة من ذي قبل. كانت ترتدي طقم جينز مما أظهر نحافة فخذيها وطول ساقيها؛ وتغطي شعرها بوشاح أزرق. كان بيدها التي تعاني من التهاب في المفاصل صينية عليها عصير، وبيض مقلي، وقطع خبز محمص، والمزيد من الشاي. وكانت عيناها تتألقان ببريق رائع.

سأل براد "ماذا تظنين أنك فاعلة؟ لا يمكنه تناول الطعام هنا".

قالت بنفس نغمة الأمر الجافة "بل يستطيع، وسيتناوله هنا". لم أسمع هذه النغمة من قبل، بيد أنني رحبت بها في هذا الموقف. بحثت عن الخوف في عينيها فلم أجده مطلقا؛ كان فيهما فقط بركان من الغضب. "أنت الذي ستخرج من هنا حالا قبل أن تتحول من شيء تافه مثل الصرصار إلى شيء أكثر تفاهة مثل بعض الطفيليات".

أخذ خطوة إلى الأمام نحوها، وقد بدا عليه شعور بعدم الثقة

WWW.REWITY.COM

والغضب الشديد على حدٍّ سواء. اعتقدت أن اجتماع هذه المشاعر معا قد يؤدي إلى نتائج خطيرة، بيد أن إيلين لم تضطرب أبدا حينما اقترب منها. قال دولان "إنني على يقين الآن ممّن أطلق جهاز إنذار الدخان، لا بد من أنها كلبة ذات مخالب بدلا من اليدين. اخرجي من هنا الآن، فلم ننتهِ أنا وبولي من حديثنا بعد".

قالت "اسمه السيد إيدجكومب، وإذا سمعتك تناديه ببولي مرة أخرى، أعتقد أنني أستطيع أن أعدك بأن عملك هنا في جورجيا سنايبز سينتهي يا سيد دولان".

سألها "من تظنين نفسك؟"، كان يحاول التأثير فيها، وحاول الضحك لكنه لم يفلح.

قالت بصوت هادئ "أعتقد أنني جدة الرجل الذي يشغل منصب المتحدث الرسمي لمجلس النواب في جورجيا الآن، الرجل الذي يحب ذويه يا سيد دولان، خاصة ذويه من كبار السن".

مسحت الابتسامة المصطنعة معالم وجهه كما تُمسح الكتابة عن السبورة بقطعة إسفنج مبللة. لقد رأيت على وجهه شعورا بعدم الثقة، إمكانية أنه تعرض للخداع، ورجاء ألا يكون هكذا، واستنتاج منطقي وشيك ألا وهو أنه من السهل التحقق - يجب أن تكون مدركة لذلك - من مصداقية أقوالها.

بدأت أضحك على حين غرة، وبالرغم من أن الصوت كان أبحّ إلا أنه كان واضحا. كنت أتذكر كيف هددنا بيرسي ويتمور بأقاربه مرات عديدة في الأيام الخوالي الصعبة. والآن، وللمرة الأولى طيلة سنوات عمري العديدة، تصدر مثل هذه التهديدات مرة أخرى... بيد أنها صدرت لأجلي هذه المرة وليس ضدي.

نظر براد دولان إليّ وهو يستشيط غضبا، ثم عاود النظر إليها.

قالت "أعني ما أقوله. في البداية اعتقدت أنني سأتغاضى عما يصدر

منك، فهذا أسهل، لكن حينما يتعلق الأمر بسبّ وتهديد أصدقائي، فلن أسمح بذلك. والآن، اخرج من هنا ولا تنطق بكلمة واحدة أخرى".

تحركت شفتاه كمن يرغب بالتلفظ بكلمة أخرى (كلمة قد تليق بقبحه)، لكنه بالرغم من ذلك لم يتفوه بها. رمقني بنظرة أخيرة ثم خرج مسرعا من أمامها متجها نحو الرواق.

تنفست الصعداء وتنهدت تنهيدة طويلة في حين وضعت إيلين الصينية أمامي ثم جلست في الجانب الآخر المقابل لي، وسألتها "هل حفيدك هو المتحدث باسم المجلس حقا؟".

"نعم هو هكذا".

"إذا، ماذا تفعلين هنا؟".

قالت والابتسامة تعلو شفتيها "إن وظيفة المتحدث باسم بيت الأمة تمنحه من القوة ما يجعله قادرا على التعامل مع هؤلاء الصراصير أمثال براد دولان، لكنها لا تجعله ثريا، بالإضافة إلى أن هذا المكان يروق لي، فأنا أحب الصحبة".

قلت "سآخذ ذلك على أنه نوع من الإطراء". وقد كان.

اقتربت مني ثم رفعت بهدوء شعري عن جبهتي وحاجبيّ وقالت "هل أنت على ما يرام يا بولي؟ يبدو أنك متعب للغاية". كانت أصابعها منهكة، غير أن لمسة يدها كانت مذهلة. أغمضت عينيّ للحظة، وعندما فتحتهما مجددا كنت قد اتخذت قرارا.

قلت "أنا على ما يرام، وقد انتهيت تقريبا. هل تريدين قراءة شيء ما يا إيلين؟"، عرضت عليها الصفحات التي التقطتها بشكل عشوائي. ربما لم تعد مرتبة ترتيبا صحيحا - فقد أصابني دولان بحالة من الرعب الشديد - إلا أنها مرقمة، لذا، يمكنها أن ترتبها بشكل سريع.

نظرت إليّ بتمعن، بيد أنها لم تأخذ ما عرضته عليها، وقالت "هل انتهيت؟".

WWW.REWITY.COM

قلت "ستستغرق قراءة تلك الصفحات إلى ما بعد الظهر، إذا استطعت أن تقرأيها مرة واحدة من دون توقف، هذا كل ما في الأمر".

أخذت الصفحات، وقلبت نظرها فيها وقالت "خط يدك بديع للغاية، حتى حينما يظهر التعب عليها. لن أجد أي صعوبة في قراءتها".

قلت "حينما تنتهين من القراءة، سأكون قد انتهيت من الكتابة، وبمقدورك قراءة الجزء المتبقي في غضون نصف ساعة تقريبا. وبعدها، إذا كانت لا تزال لديك الرغبة... أود أن أعرض شيئا ما عليك".

سألت "هل له علاقة بما تفعله غالبا كل صباح وبعد الظهيرة؟".

أومأت برأسي مؤكدا.

جلست تفكر في الأمر لفترة ليست بالقصيرة كما بدا لي، ثم نهضت والصفحات بيدها وقالت"سأخرج من هنا الآن. الشمس دافئة جدا هذا الصباح".

قلت "لقد انهزم التنين، لكنه هزم هذه المرة من سيدة جميلة".

ابتسمت ثم مالت، وقبلتني على حاجبي في مكان شديد الإحساس يجعلني دائما أشعر بالرعشة، ثم قالت وقد بدا عليها التردد "لنأمل ذلك، لكن بناء على خبرتي، فإن التنانين أمثال براد دولان يصعب التخلص منهم. حظا سعيدا يا بولي. أتمنى أن تنتصر على كل ما قد يتسبب لك بأي أذى".

قلت بينما أفكر في جون كوفي "وأنا أتمنى ذلك أيضا". كان جون كوفي قد قال "لم أستطع القيام بشيء لقد حاولت، لكن فات الأوان".

أكلت البيض الذي أحضرته لي، ثم شربت العصير، ووضعت قطع الخبز المحمص جانبا لتناولها في وقت لاحق. بعد ذلك، أمسكت بقلمي، وشرعت في الكتابة مجددا للمرة الأخيرة حسبما تمنيت.

ميل أخير.

ميل أخضر.

WWW.REWITY.COM

2

عندما أعدنا جون في تلك الليلة إلى العنبر (هـ)، كان ما يلزمنا هو عربة نقل المرضى وليس سيارة فارهة. لقد ساورني شك كبير في أن يكون قد استطاع القيام بذلك بمفرده طوال امتداد النفق، فالمشي منحنيا يستهلك طاقة أكثر من المشي بشكل طبيعي، وقد كان سقف النفق الملعون منخفضا بالنسبة إلى أمثال جون كوفي. لا أحب أن أفكر فيه وهو ينهار ساقطا هناك. كيف يمكننا تفسير ذلك فضلا عن محاولة تفسير إلباس بيرسي سترة المجانين والزج به في غرفة الحجز؟

لكن بفضل الله، حصلنا على عربة نقل المرضى، واستلقى جون كوفي فوقها كحوت منبطح على الشاطئ بينما نحن ندفعه مرة أخرى على سلالم المخزن، ونزل عنها مترنحا ولم يفعل شيئا سوى الوقوف خافضا رأسه وهو يتنفس بحرقة. اكتسى جلده باللون الرمادي، وبدا وكأنه قد تم غمره بالدقيق. لقد ظننت أنه سيكون في المستشفى مع حلول الظهيرة ما لم يكن قد فارق الحياة مع حلولها وهذا ما حدث.

حانت من بروتال نظرة متجهمة ويائسة نحوي، فقلت له "إننا لن نقوى على حمله، ولكن يمكننا مساعدته، فلتساعده من أسفل ذراعه اليمنى وأنا من أسفل ذراعه اليسرى".

وتساءل هاري "وماذا عني؟".

فأجابه بروتال "امشِ خلفنا، فإذا كان على وشك الوقوع إلى الوراء، ادفعه مرة أخرى إلى الأمام، وإذا لم يجدِ ذلك نفعا، فانحنِ قليلا في المكان الذي تتوقع سقوطه أرضا فيه لتخفف الصدمة".

وتلاشى صوت هاري وهو يقول مندهشا "آه، جدير بك أن تعمل

في المسرح، فما أظرفك".

رد بروتال بكل ثقة "حسنا، إنني أتمتع بروح الفكاهة".

أخيرا، تمكنا بالفعل من الصعود بجون، وكم كان قلقي أن يكون قد أصيب بالإغماء ولكنه لم يصب به، فقلت لهاري بأنفاس متقطعة "استدِر خلفي وتأكد من أن غرفة التخزين خالية".

تساءل هاري وهو يعتصر أسفل ذراعي "وإن لم يكن خاليا؟"، فرد بروتال "توقف عن العويل، هلا عدت إلى هنا؟ لا تكن أبله".

فتح هاري الباب قليلا، وأطل برأسه، شعرت وكأنه لبث في ذلك طويلا، وفي النهاية رجع إلينا وهو يبدو مسرورا تقريبا. قال بروتال "الطريق آمن، وهادئ، دعونا نأمل أن يبقى هكذا. هيا يا جون كوفي، إننا على وشك الوصول".

لقد تمكن من عبور المخزن بمفرده ولكن كان علينا مساعدته على صعود ثلاث درجات إلى مكتبي ثم دفعه عبر الباب الصغير، وعندما نهض واقفا مرة أخرى على قدميه، اختلجت أنفاسه وظهر في عينيه بريق كامد. وقد انتابني ذعر حقيقي عندما رأيت الجانب الأيمن من فمه يتدلى إلى الأسفل مما يجعله يشبه رأس ملينداً عندما دخلنا إلى غرفتها ورأيناها متكئة على وسادتها.

سمعنا دين، وأتى إلينا من مكتب إدارة الميل الأخضر. "حمدا لله، لقد ظننت أنكم لن تعودوا، لقد أوشكت أن أصدق بأنه قد تم القبض عليكم أو أن حارس السجن قد أوقفكم أو -"، وتوقف دين عن الحديث ناظرا إلى جون كما لو كان يراه حقا للمرة الأولى "تبا، ممّ يشكو هذا؟ إنه يبدو وكأنه ميت!".

رد بروتال وعيناه تلمعان بتحذير إلى دين "إنه ليس ميتا، أليس كذلك يا جون؟".

انطلقت ضحكة مقتضبة قلقة من دين وقال "بالطبع لا، وأنا لم

أعنِ أنه ميت بالفعل ولكن ماذا عساي أن أقول؟".

تدخلت قائلا "حسنا، لتساعدنا في إرجاعه إلى زنزانته".

تحلقنا مرة أخرى حول جون الذي بدا كالجبل ولكنه الآن جبل عانى لبضع ملايين من السنين من التآكل، إنه جبل حزين. وتحرك جون كوفي ببطء بينما كانت أنفاسه تخرج من فمه كرجل عجوز أسرف في التدخين إلا أنه في النهاية تحرك.

تساءلت "ماذا عن بيرسي؟، هل أحدث صخبا؟".

فرد دين قائلا "لقد أحدث بعض الصخب في بداية الأمر". قال بروتال "إنه يحاول أن يصرخ من وراء الشريط الذي نضعه فوق فمه، اللعنة، أنا أعتقد ذلك، ارحموني". فقال دين "من الجيد أن آذاننا الحساسة كانت في مكان آخر، ومن حينها، وهو يرفس الباب كالبغل بين لحظة وأخرى، أظنكم تعرفون ذلك". لقد ارتاح دين عندما أفهمنا أنه كان يهذي، حيث انزلقت نظارته على طرف أنفه الذين كان يلمع من العرق، ولكنه عدل من وضع نظارته مرة أخرى، ومررنا بزنزانة وارتون، حيث كان هذا الحقير مستلقيا على ظهره ويغط في نوم عميق، إلا أن عينيه كانتا مغمضتين هذه المرة.

قال دين حين رآني أنظر إليه وأضحك "هذا الرجل لا يثير أي مشكلات! فهو لا يتحرك، ما إن استلقى على سريره، حتى انغمس في النوم سريعا. أما عن بيرسي الذي يركل الباب بين حين وآخر، فإنني لا آبه لذلك، لقد سعدت بذلك لأنه يخبرك بالحقيقة، فإذا لم يحدث أي ضوضاء مطلقا، لبدأت في التساؤل ما إذا كان أصيب بصدمة قاتلة بسبب وضع هذه الكمامة فوق فمه، ولكن هذا ليس أفضل شيء، أتدرون ما هو أفضل شيء؟ إن الجو كان هادئا كما لو كان صباح أربعاء الرماد في نيو أورليانز! لم ينم أحد ليلتها!" قال ذلك أخيرا بصوت منتش منتصر. "لقد نجونا من ذلك يا شباب! لقد نجونا!".

WWW.REWITY.COM

دفعه ذلك إلى التفكير في سبب انفجارنا في الضحك في المقام الأول، وسألنا عن ملينداء فقلت "إنها بخير". وصلنا إلى زنزانة جون، وقد بدأ يتلاشى ما قاله دين "لقد نجونا من ذلك يا شباب! لقد نجونا".

تساءل دين "ألا يشبه ذلك. الفأر... أنتم تعرفونه؟". وألقى نظرة سريعة على الزنزانة الفارغة حيث كان ديلاكروا يعيش مع السيد جينغلز ثم هبط إلى غرفة الحجز والتي كانت تبدو وكأنها مخبأ الفأر. وانخفض صوته بنفس الطريقة التي تنخفض فيها أصوات الناس الذين يدخلون دار عبادة ضخمة حيث يخيم الصمت فوق الرؤوس. وقال وهو يبتلع ريقه "هل حدث إنجاز؟".

نظرنا إلى بعضنا نظرة سريعة لتأكيد أننا بالفعل نعرف ذلك. قال هاري "ما فعله هو أنه أعادها من مرضها اللعين. لقد كان إنجازا بالفعل".

فتح بروتال القفل المزدوج للزنزانة ودفع جون دفعة خفيفة إلى داخلها، "الآن، هيا أيها الولد الضخم، لتنل قسطا من الراحة، إنك تستحقها. سننهي هذا الهرج الذي أحدثه بيرسي"، فقال جون بصوت ضعيف ورتيب "إنه رجل شرير". فرد عليه بروتال موافقا بصوت هادئ "حقا بلا شك، فهو شرير، ولكن لا تقلق فلن نسمح له بالاقتراب منك أبدا، ما عليك إلا أن تسترخي في سريرك، وسأحضر لك فنجانا من القهوة حالا، إنها دافئة وقوية، وستشعر وكأنك رجل جديد".

جلس جون ببطء على سريره، واعتقدت أنه سيلقي بنفسه إلى الوراء مواجها الحائط كما هي عادته، ولكنه لم يفعل هذه المرة سوى الجلوس ويداه متشابكتان على نحو غير محكم بين ركبتيه، ورأسه إلى الأسفل بينما نفسه يختلج من فمه. ارتمت قلادة سان كريستوفر التي أعطته إياها ملينداء على قميصه، وبدأت تتأرجح مع كل حركة يقوم بها.

"إنه سيحفظك"... هذا هو ما قالته له، ولكن يبدو أن جون كوفي لم ينعم بشيء من الأمان، إنه يبدو وكأنه قد حل مكان ملينداء على شفا ذلك القبر الذي كان هاري يتحدث عنه.

لكنني لم أستطع التفكير في جون كوفي، واستدرت إلى الآخرين. وقلت "هيا يا دين، أحضر مسدس بيرسي وهراوته". فقال "حسنا". ورجع إلى المكتب، وفتح قفل الدرج الذي كان المسدس والهراوة بداخله، وأحضرهما مرة أخرى، وسألتهم "هل أنتم جاهزون؟"، فهزوا رؤوسهم، ولم أشعر بالفخر بهم كما شعرت تلك الليلة. كان القلق ظاهرا على كل من هاري ودين أما بروتال فقد كان متبلدا كما هو دائما، وقلت لهم "حسنا، سأقوم أنا بالحديث، وكلما قل كلامكم، كان ذلك أفضل وانتهى الأمر بشكل أسرع سواء للأفضل أو الأسوأ، موافقون؟".

فأومأوا برؤوسهم مرة أخرى. فأخذت نفسا عميقا، ثم توجهت إلى حجرة الحجز في الميل الأخضر.

نظر بيرسي إلى الأعلى وقد بدت عيناه كأن بهما حول عندما سقط الضوء عليه. كان يجلس على الأرض يحاول التخلص من الشريط اللاصق الذي وضعته على فمه. وقد بدأ الجزء الذي قمت بلفه حول مؤخر عنقه بالتحرر (ربما بسبب العرق والزيت الذي كان يضعه على شعره)، وواصل محاولة حل الجزء المتبقي. لو تركته ساعة أخرى، لكان حرر الشريط، وأخذ في الصياح طالبا النجدة بكل ما أوتي من قوة.

كان قد استعان بقدميه كي يدفع جسده قليلا إلى الخلف في أثناء دخولنا، ثم توقف، بالطبع حين أدرك أنه لا يوجد مكان يستطيع الذهاب إليه إلا الزاوية الجنوبية الشرقية من الحجرة.

أخذت مسدسه وهراوته من دين، وأمسكت بهما باتجاه بيرسي. وسألته "هل تريدهما؟".

فنظر إليّ بحذر، ثم أومأ برأسه موافقا.

WWW.REWITY.COM

فقلت "بروتال، هاري، أوقفاه على قدميه".

انحنيا وأمسكا به من تحت إبطيه، ثم رفعاه. توجهت نحوه حتى أصبحت أواجهه مباشرة. كنت أشم رائحة العرق الذي يتصبب منه. وربما نتج بعض هذا العرق عن محاولاته للتخلص من السترة أو توجيه بعض النقرات على الباب كما سمعها دين، إلا أنني أعتقد أن أغلب هذا العرق كان سببه الخوف. الخوف مما قد نفعله معه عندما نعود إليه.

سأكون بخير، فهم ليسوا قتلة، هذا ما سيفكر فيه بيرسي... ثم ربما سيفكر في سباركي العجوز، وقد يمر بخاطره أننا ربما كنا قتلة بالفعل. أنا نفسي قتلت سبعة وسبعين شخصا، وهو عدد يفوق ما قتله كل الرجال الذين وضعت لهم حزام الصدر، أكثر حتى من عدد قتلى الرقيب يورك نفسه في الحرب العالمية الأولى. قتل بيرسي لن يبدو منطقيا، ولكن هذه ليست المرة الأولى التي تبدو فيها تصرفاتنا غير منطقية، ربما هذا هو ما قاله لنفسه عندما جلس ويداه مربوطتان خلف ظهره، في أثناء محاولته فك الشريط المثبت على فمه. كما أن المنطق في الغالب ليس له سلطة كبيرة على أفكار الشخص عندما يكون هذا الشخص جالسا على الأرض في حجرة ذات جدران رطبة، وهو مقيد تماما كما لو كان ذبابة عالقة في خيوط العنكبوت.

قلت لنفسي بأنني إن لم أسيطر عليه الآن، فلن تسنح لي الفرصة لفعل ذلك مجددا أبدا.

فقلت "سأحل الشريط عن فمك إن وعدتني ألا تصرخ. أريد أن أتحدث معك، لا أن ندخل في مباراة صراخ. فما رأيك؟ هل ستلزم الهدوء؟".

رأيت أمارات الارتياح ترتسم على وجهه حين أدرك أنه إذا كنتُ أريد أن أتحدث، فهذه هي فرصته الحقيقية للتخلص من هذا الموقف تماما. فأومأ برأسه موافقا.

فقلت له "أما إذا بدأت بإحداث جلبة، فسأعيد الشريط إلى فمك. هل تفهمني؟".

فأومأ لي موافقا، وإن بدا عليه نفاد الصبر هذه المرة.

فاقتربت منه، وأمسكت بطرف الشريط الذي بدأ بفكه بالفعل، وجذبته سريعا. فأحدثت هذه الجذبة صوت تقشر عالٍ. فجفل بروتال. وصرخ بيرسي متألما، وبدأ بحك فمه. وحاول أن يتحدث، ولكنه أدرك أنه لا يستطيع ذلك وهو واضع يده على فمه، فخفضها.

فقال حانقا "أخرجني من هذه السترة البشعة يا هذا".

فقلت "حالا".

فقال "الآن! الآن! الآ -".

فصفعته على وجهه. حدث هذا سريعا قبل حتى أن أنتبه إليه... لكنني بالطبع كنت أعرف أن هذا قد يحدث. حتى في أثناء حديثي الأول عن بيرسي مع واردن مورس، كنت أعرف أن الأمر قد يصل إلى ذلك. يد الإنسان كالحيوان نصف الهجين، مفيدة في أغلب الأحيان، لكنها أحيانا تنفلت وتصفع أول شيء تراه.

كان صوت الصفعة عاليا للغاية، كصوت كسر غصن شجرة. لهث دين. وحدّق بيرسي إلى وجهي مصدوما، واتسعت عيناه حتى بدتا وقد أوشكتا على الخروج من محجريهما. فتح فمه، ثم أغلقه، وفتحه ثم أغلقه، كفم السمكة في حوض الأسماك.

قلت "اصمت وأنصِت إليّ. أنت تستحق العقاب جزاء ما فعلته لديل، وقد أعطيناك ما تستحقه. لم يكن أمامنا غير ذلك. لقد اتفقنا جميعا، عدا دين، وهو سينضم إلينا، لأننا سنجعله يندم إن لم يفعل. أليس كذلك يا دين؟".

فهمس دين قائلا "نعم، اعتبر الأمر منتهيا". وبدا شاحب الوجه تماما.

WWW.REWITY.COM

واصلت أقول "وسنجعلك تندم على اليوم الذي ولدت فيه. سنخبر الناس كيف تسببت بإفساد إعدام ديلاكروا".

"أفسدته!".

"وكيف كدت تتسبب بمقتل دين. سنعلم الجميع ما يجعلك بعيدا عن أي منصب قد يضعك فيه قريبك".

كان بيرسي يهز رأسه بغضب. لم يكن يصدق هذا الأمر، أو ربما لم يكن يستطيع تصديقه. ظل مكان صفعتي مطبوعا على وجهه مثل علامة قارئ الكف.

"ومهما سيحدث، سنراك وأنت تُضرب بقسوة. ولن نكون مضطرين إلى القيام بذلك بأنفسنا. فلنا رجالنا أيضا يا بيرسي، هل أصابك الحمق حتى إنك لا تدرك هذا؟ إنهم ليسوا في مراكز مرموقة في عاصمة الولاية، ولكنهم يعرفون كيف يجعلون بعض الأمور تبدو شرعية. فهم أناس لهم أصدقاء وأخوة وآباء هنا. وسيسعدهم أن يؤدبوا تافها مثلك. ولن يقوموا بذلك إلا كي يحصل مَن يهتمون بأمره على ثلاث ساعات إضافية في ساحة التمارين كل أسبوع".

توقف بيرسي عن هز رأسه. وأصبح يحدق إليّ بعينيه فقط وقد تحجرت الدموع فيهما، من دون أن تسقط. أظن أنها كانت دموع غضب أو حنق. أو ربما هذا ما كنت أتمناه.

"حسنا، الآن انظر إلى الجانب الإيجابي من هذا الأمر يا بيرسي. إن مجرد نزع الشريط اللاصق عن فمك، قد آلمك كثيرا كما أرى، ولكن في ما عدا ذلك، فلا أرى أن أي شيء فيك قد جُرح إلا كرامتك... ويجب ألا يعلم بهذا الأمر أحد سوى الموجودين في هذه الحجرة الآن. ولن نخبر بذلك أحدا، أليس كذلك يا رجال؟".

فهزوا رؤوسهم مؤيدين. وقال بروتال "بالطبع لن نخبر أحدا، فما

يحدث في الميل الأخضر لا يخرج من الميل الأخضر. هذا ما يحدث دوما".

فقلت "ستتوجه إلى بريار ريدج، وسنتركك وحدك حتى تذهب بنفسك. هل تريد أن ينتهي الأمر إلى هذا الحد يا بيرسي، أم تريد أن تصعب الأمور على نفسك؟".

فأخذ يفكر في الأمر، وسادت فترة صمت طويلة للغاية.

كدت أرى ما يدور في رأسه وهو يقلب الأمر ويرفض الردود المحتملة. لكن في النهاية أعتقد أن هناك حقيقة أشد هيمنت على بقية حساباته، ومع أن الشريط اللاصق قد نزع عن فمه، إلا أنه كان لا يزال مرتديا سترة السجن، وربما كان عليه أن يتبول مثل خيل السباق.

قال "حسنا. سنعتبر الموضوع منتهيا. والآن أخرجني من هذه السترة. أشعر أن كتفي -".

تقدم بروتال إلى الأمام، وأزاحني جانبا، وأمسك وجه بيرسي بأصابع يده الكبيرة، وضغط بها على خد بيرسي الأيمن، بينما انغرس إبهامه في خده الأيسر.

قال "لثوانٍ قليلة، أولا، استمع إليّ. بول هنا هو القائد، لذا يحتاج إلى أن يتحدث بلباقة أحيانا".

حاولت أن أتذكر أي شيء لبق ربما قلته لبيرسي، لكنني لم أجد. ولكنني رأيت أن من الأفضل ألا أتكلم، فقد بدا بيرسي مرعوبا إلى حدٍّ معقول، ولم أكن أرغب بإفساد هذه النتيجة.

"لا يفهم الناس دوما أن اللباقة ليست ضعفا، ولهذا جئت الآن، فأنا لا أقلق من كوني لبقا. فأنا أقول الأشياء بصورة صريحة وواضحة. لذا، فهذا الأمر واضح إذا لم تفِ بوعدك، فستصبح أضحوكة. وسنعاقبك على ذلك، مهما ابتعدت، وحتى إن ذهبت إلى آخر العالم. ستنال منا ما يجعلك تتمنى الموت، ولن تناله. هل تفهمني؟".

WWW.REWITY.COM

فأومأ له. ومع غرس بروتال إبهامه في خدّه كما كان، بدا بيرسي مذعورا تماما.

تركه بروتال وابتعد. أومأت لهاري الذي ذهب خلف بيرسي لينزع عنه السترة.

قال هاري "فكّر في هذا الأمر مليا. فكّر مليا وما فات مات".

كان الأمر مفزعا للغاية، حيث رأيت ثلاثة وحوش في زي أزرق، وشعرت باليأس يدب في أوصالي. ربما سيلزم الهدوء ليوم أو لأسبوع، كي يحسب نتائج أفعاله، لكن في النهاية سيجتمع أمران، ثقته باتصالاته وعجزه عن الخروج من الموقف الذي رأى نفسه فيه خاسرا. وعندما يحدث هذا، سيثبت شجاعته. ربما استطعنا أن ننقذ حياة مليندا مورس بأن أخذنا جون إليها، ولم أكن لأغير هذا ("مقابل أي شيء" كما اعتدنا أن نقول في تلك الأيام)، ولكن في النهاية ربما انهزمنا بالضربة القاضية. لم يكن أمامنا أي وسيلة لإقناع بيرسي بالنجاح في هذه الصفقة، ليس بعد أن ابتعد عنا، وبدأ يعيد ما مضى لإثبات شجاعته.

نظرت نظرة جانبية سريعة نحو بروتال، وعرفت أنه يعلم ذلك أيضا. ولم يفاجئني هذا الأمر. فليس بروتوس فتى السيدة هال من النوع الذي يسهل خداعه مطلقا. لقد أومأ لي برفع كتفه قليلا ثم خفضها بإشارة سريعة ولكنها كافية. كان معنى هذه الإشارة وماذا في هذا؟ ما الجديد يا بول؟ لقد أدينا ما علينا، وبأفضل ما استطعنا.

نعم، ولم تأتِ النتائج سيئة تماما أيضا.

فك هاري آخر زر في سترة المساجين. وبعبوس بسبب الاشمئزاز والغضب الشديد، نزعها بيرسي عن جسده وألقاها عند قدميه. لم يكن ينظر إلى أيٍّ منا، بصورة مباشرة.

قال لي "أعطِني مسدسي وهراوتي". فأعطيته إياهما. ألقى مسدسه في جرابه ودفع هراوته في الحلقة المخصصة لها.

"بيرسي، إذا كنت تفكر في هذا الأمر -".

قال وهو يسير سريعا كي يتجنب مقابلتي "أنوي ذلك، أنوي التفكير مليا في هذا الأمر. بدءا من الآن. في طريقي إلى المنزل، يستطيع أي منكم يا رجال التوقيع بالنيابة عني عندما يحين وقت انتهاء العمل". وصل إلى باب حجرة الحجز، ونظر إلينا نظرة متفحصة يملأها الغضب والإحراج والازدراء؛ وهي نظرة جامعة قاتلة من أجل سر كنا نتمنى أن نحفظه.

"إلا إذا كنتم بحاجة بالطبع إلى إيجاد تبرير لسبب تركي العمل مبكرا".

غادر الحجرة، وصعد إلى الميل الأخضر بخطوات سريعة، حيث نسي في خضم ثورته لماذا كان هذا الممر الأوسط ذو الأرضية الخضراء واسعا هكذا. لقد ارتكب هذا الخطأ مرة في ما مضى، وأفلت من العقاب. ولن يفلت منه هذه المرة.

تبعته إلى خارج باب الحجرة، محاولا إيجاد طريقة لاسترضائه؛ لم أكن أريد أن يترك العنبر (هـ) بهذه الطريقة، وهو متسخ وغير مهندم، ولا يزال صدغه متأثرا بضربة يدي. وتبعني الثلاثة الآخرون.

ما حدث بعد ذلك، حدث بسرعة كبيرة للغاية؛ فقد انتهى كل شيء في دقيقة واحدة، وربما أقل. وبالرغم من ذلك، فما زلت أتذكر ما حدث خلال هذا اليوم، ربما لأنني أخبرت جانيس بكل ما حدث عندما عدت إلى المنزل وهذا ما ثبته في ذهني. ما حدث بعد ذلك، اجتماع الفجر مع كيرتيس أندرسن وفريق التحقيق والصحافة، والاجتماع الذي أعده لنا هال مورس (الذي كان قد عاد في ذلك الوقت بالطبع) ومجلس الاستجواب الذي عُقد أخيرا في عاصمة الولاية؛ لقد انقشعت هذه الأحداث كغيرها سريعا من ذاكرتي. ولكن بالنسبة إلى ما حدث بعد ذلك هناك في الميل الأخضر، فأنا أتذكره جيدا.

WWW.REWITY.COM

كان بيرسي يسير على الجانب الأيمن من الميل الأخضر خافضا رأسه، وسأقول هذا كثيرا، لم يكن لأي سجين عادي أن يصل إليه. ولكن جون كوفي لم يكن سجينا عاديا. لقد كان جون كوفي عملاقا، ويستطيع الوصول إلى ما لا يستطيع غيره الوصول إليه.

رأيت ذراعيه الطويلتين السوداوين تنطلقان من بين القضبان، وهو يصرخ "انظر، انظر يا بيرسي!"، بدأ بيرسي يستدير، وسقطت يده اليسرى على هراوته. ثم أُمسك به في مواجهة زنزانة جون كوفي، حيث ارتطم الجانب الأيمن من وجهه بالقضبان.

استشاط غضبا، واستدار إلى كوفي، رافعا هراوته. كان جون في مرمى الهراوة بالطبع، حيث كان وجهه يكاد ينعصر بين قضيبين من قضبان الباب، وبدا كما لو كان يريد إخراج رأسه كله من بين القضبان. كان الأمر مستحيلا بالطبع، لكن هكذا كان يبدو ساعتها. كانت يده اليمنى تتلمس طريقها حتى عثرت على الجزء الخلفي من عنق بيرسي، والتفت حولها، وجذبت رأس بيرسي إلى الأمام، أسقط بيرسي هراوته بين القضبان وفوق صدغ جون، ونزفت الدماء، إلا أن جون لم يبالِ بذلك، حيث كان فمه يضغط على فم بيرسي، وسمعت صوت زفير سريع كما لو كان نفسا طويلا، وكان بيرسي يتأرجح كسمكة في صنارة، ويحاول أن يبتعد ولكنه لم يحصل على أي فرصة لذلك حيث كان جون يضغط بذراعه اليمنى على عنقه ويمسكه بقوة. لقد ظهر وجهاهما وكأنهما ذابا معا كوجهي عاشقين يقبلان بعضهما من بين القضبان.

صرخ بيرسي، ولكن بصوت مكتوم كما لو كان الصوت يمر عبر شريط، وقام بمحاولة أخرى للابتعاد إلى الوراء، وللحظة واحدة، تباعدت الشفاه قليلا فظهر مد أسود على هيئة دوامة تتدفق من جون كوفي إلى بيرسي ويتمور، وكان ذلك المد الذي لا يصل إليه من خلال فمه المرتعش يصل عن طريق أنفه، ثم انثنت اليد التي كانت فوق عنقه،

وتم دفع بيرسي إلى الأمام مرة أخرى ليلتقي بفم جون كما لو كان قد تم تثبيته فيه.

انفتحت يد بيرسي اليسرى، وسقطت هراوته الثمينة المصنوعة من خشب الجوز على مشمع الأرضية الأخضر، ولم يستطع أن يلتقطها مرة أخرى.

حاولت أن أتقدم إلى الأمام، واندفعت بالفعل، ولكنني شعرت بخطواتي ضعيفة وواهنة، وانتزعت مسدسي ولكن الحزام كان لا يزال ممسكا بعصا الجوز ولم أستطع تخليصه في البداية من جرابه، وشعرت بالأرض تهتز تحت أقدامي كما لو كانت غرفة النوم الخلفية في كيب كود اللعينة الخاصة بواردن مورس، لم أكن متأكدا من ذلك، ولكن كنت أعرف أن أحد المصابيح العلوية قد تعرض للكسر وأن شظاياه المتكسرة انهمرت فوقنا، وصرخ هاري من فرط المفاجأة.

أخيرا، استطعت أن أحرر قليلا رباط الأمان الذي يلتف حول مسدسي. ولكن قبل أن أسحبه من جرابه، دفع جون بيرسي بعيدا ثم عاد إلى زنزانته. كان جون غاضبا للغاية ويمسح فمه، كما لو كان قد أكل شيئا سيئ الطعم.

صرخ بروتال قائلا "ماذا سيفعل؟ ماذا سيفعل يا بول؟".

فقلت "إن كان قد أخذ من مليندا شيئا، فقد حصل عليه بيرسي الآن".

كان بيرسي واقفا أمام قضبان زنزانة ديلاكروا القديمة. كانت عيناه واسعتين وخاويتين. اقتربت منه بحذر، متوقعا منه أن يبدأ بالسعال والشعور بالاختناق كما فعل جون بعد أن انتهى من مليندا، لكنه لم يفعل. كان واقفا هناك فحسب.

فأخذت أطقطق براجمي أمام وجهه. "بيرسي! استيقظ يا بيرسي! استيقظ!".

WWW.REWITY.COM

لـم يكـن هنـاك أي رد فعـل. انضـم إليّ بروتال، وأخذ يحاول إفاقة بيرسي بالتربيت على وجهه الخالي من أي تعبير بيديه.

فقلت له "هذا لن يجدي".

فتجاهلني، وصفق بيديه بشدة مرتين أمام وجه بيرسي تماما. وقد أتى ذلـك ثمـاره، أو بـدا الأمـر هكـذا. فقـد ارتعش جفنـاه، وبدأ يحدّق حولـه، وقـد بـدت عليـه أمـارات الـدوار كما لو كان قد تلقى ضربة على رأسه، ويحاول العودة إلى وعيه. ونقل بصره من بروتال إليّ. وبعد كل هـذه السـنوات، أجـزم أنـه لـم يـرَ حينئذ أيا منا، ولكنني كنت أظن حينها أنه رآنا، كنت أعتقد أنه يتغلب على الدوار.

اندفع بعيدا عن القضبان، ووقف على قدميه متأرجحا قليلا. فعمد بروتـال إلـى سـنده، قائـلا "علـى رسـلك يا رجل، هـل أنت بخير؟"، لم يجـب بيرسـي، بـل تخطـى بروتـال واتجه نحو مكتـب المناوبة. لم يكن يترنح فعليا، لكنه كان يميل إلى جهة اليسار.

حـاول بروتـال اللحـاق بـه. ولكننـي دفعـت يده بعيـدا، قائلا "دعه وشـأنه". هل كنت سـأقول هذه العبارة لو كنت أعلم ما سـيحدث بعد ذلك؟ لقد سألت نفسي هذا السؤال آلاف المرات منذ خريف عام 1932، ولكنني لم أجد أي جواب.

تقدم بيرسـي اثنتي عشـرة خطوة أو أربع عشـرة خطوة، ثم توقف مرة أخرى، وخفض رأسه. كان حينها أمام زنـزانة بيل وارتون الشرس. وكان وارتون لا يزال يحدث تلك الضوضاء المزعجة. لم توقظه كل هذه الأحـداث. لقـد قُتـل وهـو نائـم، ولكننـي الآن حين أنظر إلى هذا الأمر، أرى أن نومـه العميـق هـذا قـد جعلـه أوفـر حظا من أغلب الرجال الذين انتهى بهم الحال هنا. كان بالقطع أوفر حظا مما يستحق.

قبل أن نعلم ما يحدث، سحب بيرسي مسدسه، وتقدم إلى قضبان زنـزانة وارتون، وأفرغ الرصاصات الست في الرجل النائم، بسرعة رهيبة.

وكان الصوت في هذا المكان المغلق عاليا للغاية، وعندما قصصت هذا الأمر على جانيس في صباح اليوم التالي، كانت أذناي لا تزالان متأثرتين بذلك الصوت الرهيب، حتى إنني بالكاد كنت أسمع صوتي.

أسـرعنا إليه، نحن الأربعة. فوصل دين إلى هناك أولا - لا أعلم كيف، فقد كان خلفي أنا وبروتال عندما أمسك كوفي ببيرسي - ولكن هذا ما حدث. أمسك بمعصم بيرسي، وكان على استعداد لنـزع المسدس من يد بيرسي بالقوة، ولكنه لم يكن مضطرا إلى ذلك. فقد تخلى بيرسي عن المسدس ببساطة، فسقط على الأرض. ونظر إلينا بعينين متحجرتين. خيم على المكان صوت همس ورائحة نشادر قوية لأن بيرسي تبول لا إراديا، ثم سُـمع صوت وزادت هذه الرائحة النتنة في المكان. واسـتقر نظره على زاوية بعيدة من الممر. لقد فقد البصر، على حدٍّ علمي. وفي بداية هذا الأمر تقريبا، كتبت أن بيرسي كان في بريار ريدج في الوقت الذي عثر فيه بروتال على شظايا ملونة من بكرة السيد جينغلز بعد ذلك بشهرين، ولم أكذب في هذا الشأن. إنه لم يحظَ بمكتب مرفه، كما لم يكن لديه بعض المرضى العقليين ليسـيء معاملتهم. ولكنني أتصور أنه كانت لديه غرفة خاصة على الأقل.

فقد كانت له اتصالاته على كل حال.

كان وارتون مستلقيا على جانبه ومسندا ظهره على حائط زنـزانته. لـم أسـتطع أن أرى الكثيـر حينهـا، إلا أننـي رأيـت الكثير من الدماء التي تتدفق على الأرض وتلطخ الحائط، ولكن محقق الوفيات قال إن بيرسي قد أطلق الرصاص من دون هدف وكأنه امرأة. ولم أندهش كثيرا، لأنني تذكـرت ديـن وهـو يصـف بيرسـي فـي ما مضى وهو يسـدد هراوته نحو الفأر وكاد أن يصيبه. أما هذه المرة، فقد كانت المسافة أقصر والهدف ثابتا لا يتحرك. طلقة في الفخذ، وأخرى في البطن، وثالثة في الصدر، وثلاث طلقات في الرأس.

WWW.REWITY.COM

كان بروتال يسعل ويلوح لتبديد دخان المسدس. وكنت أنا نفسي أسعل، ولكنني لم ألاحظ الأمر حينها.

قال بروتال "انتهى الأمر". كان صوته هادئا، إلا أننا لم نخطئ نظرة الرعب في عينيه.

فنظرت إلى المدخل، ورأيت جون كوفي جالسا على طرف سريره.

كان يشبك يديه بين ركبتيه، ولكن رأسه كان مرفوعا، ولم تعد أمارات المرض بادية عليه.

أومأ إليّ قليلا، فأومأت إليه بدوري، وقد أدهشني تصرفي هذا، كما أدهشني سلوكي حين عرضت عليه المساعدة.

قال هاري كما لو كان يهذي "ماذا سنفعل؟ يا الله، ماذا سنفعل؟".

رد بروتال بنفس النبرة الهادئة "ليس في وسعنا أن نفعل أي شيء. سنُشنق، أليس كذلك يا بول؟".

بدأ عقلي يفكر بسرعة بالغة. ونظرت إلى هاري ودين اللذين كانا يحدقان إليّ كطفلين يملأهما الفزع. ونظرت إلى بيرسي الذي كان يقف هناك ويداه متدليان وفكه أيضا. ثم نظرت إلى صديقي القديم، بروتوس هويل. وقلت "سنكون على ما يرام".

أخيرا، بدأ بيرسي بالسعال. وانحنى إلى الأمام، واضعا يديه على ركبتيه محاولا التقيؤ. وبدأ وجهه يتحول إلى اللون الأحمر. وفتحت فمي، ناويا أن أقول للآخرين أن يتراجعوا، ولكنني لم أجد الفرصة لذلك. وأصدر صوتا كان مزيجا بين صوت التقيؤ الجاف ونقيق الضفادع كبيرة الحجم، وفتح فمه، وتقيأ أشياء مموجة وسوداء اللون. وقد كان ما يخرج منه كثيفا للغاية، حتى إننا للحظة لم نستطع أن نتبين رأس بيرسي. فقال هاري بصوت ضعيف تملأه الدموع "رحماك يا الله". ثم تحول لون

تلك الأشياء إلى اللون الأبيض المتألق كضوء الشمس على الثلوج في شهر يناير. وبعد دقيقة، انقشعت الغمامة. واعتدل بيرسي ببطء، واستأنف النظرة الخاوية على امتداد الميل الأخضر.

قال بروتال "إننا لم نرَ هذا، أليس كذلك يا بول؟".

"لا لم أرَ شيئا، وأنت لم ترَ شيئا. هل رأيت شيئا يا هاري؟".

فقال هاري "لا".

"وأنت يا دين؟".

"رأيت ماذا؟" نزع دين نظارته، وبدأ ينظفها. وظننت أنها ستسقط من يديه المرتعشتين، لكنه تمسك بها.

"رأيت ماذا... هذا جيد. هذا هو الأسلوب الصحيح بالضبط. والآن، أنصتوا إلى قائدكم يا رجال، وأحسنوا التصرف من المرة الأولى، لأن الوقت ضيق. الأمر بسيط. فدعونا لا نعقده".

WWW.REWITY.COM

3

أخبرت جانيس بالأمر كله عند الساعة الحادية عشرة تقريبا من صباح ذلك اليوم؛ وهو صباح اليوم التالي، هذا ما كتبته تقريبا، ولكنه كان اليوم نفسه بالطبع. كان أطول يوم في حياتي بلا شك. فقلت الكثير من المعلومات كما فعلت هنا، وأنهيت حديثي بوصف كيف انتهى الحال بويليام وارتون حين تمدد ميتا على سريره، بعد أن انهمر عليه الرصاص من مسدس بيرسي.

لا لم يكن الأمر هكذا. لقد أنهيت حديثي في الحقيقة بوصف تقيؤ بيرسي البشع. من الصعب أن تخبر أحدا بهذا الأمر، حتى زوجتك، لكنني أخبرتها.

بينما كنت أتحدث إليها، أحضرت لي فنجانا من القهوة مملوءا إلى منتصفه فقط، حيث كانت يدي في البداية تهتز بشدة لدرجة أنني لم أستطع أن أحمل فنجانا كاملا من دون أن أسكب ما في داخله. وعندما انتهيت من كلامي، بدأت الرجفة تختفي قليلا، وشعرت أنني أستطيع أن أتناول بعض الطعام، كبيضة مثلا أو القليل من الحساء.

"ما أنقذنا هو أن أيا منا لم يكن مضطرا إلى الكذب".

فقالت وهي تومئ لي "ما عليكم سوى إغفال بعض النقاط. أمور صغيرة، مثل كيفية إخراجك لشخص محكوم عليه في قضية قتل من السجن، وكيفية قيامه بعلاج امرأة كانت تحتضر، وكيف أثار جنون هذا المدعو بيرسي ويتمور بأن فعل - ماذا فعل؟ - بأن جعله يأكل طعاما فاسدا؟".

فقلت "لا أعلم يا جانيس. ما أعلمه فقط هو أنكِ إن واصلتِ

الحديث بهذه الطريقة، فسينتهي بك الأمر إلى تناول هذا الحساء بمفردك أو إطعامه للكلب".

"أنا آسفة، ولكنني على حق، أليس كذلك؟".

فقلت "نعم. إلا في ما يتعلق بأننا قد هربنا بـ...، بماذا؟ لا يمكنك أن تسمي هذا الأمر هروبا، كما أن إجازة ليست هي الوصف الصحيح. الرحلة الميدانية. لا يستطيع بيرسي نفسه أن يخبرهم بهذا الأمر، حتى إن عاد".

رددت قائلة "إن عاد. ما مدى احتمال عودته؟".

فهززت برأسي إشارة إلى أنه لا علم لديّ. ولكنني كنت أعلم في الحقيقة، لم أكن أظن أنه سيعود، ليس في عام 1932 أو 1942 أو حتى 1952. كنت محقا في هذا الأمر. فقد أقام بيرسي ويتمور في بريار ريدج حتى احترق المبنى تماما في العام 1944. وقد لقي سبعة عشر زميلا مصرعهم جراء هذا الحريق، ولكن بيرسي لم يكن من بينهم. فبينما كان لا يزال صامتا وخاويا بمعنى الكلمة - الكلمة التي أعرفها لوصف هذه الحالة هي حالة الذهول التام - اقتاده أحد الحراس إلى الخارج قبل أن تصل النيران إلى جناحه بفترة طويلة. فانتقل إلى مؤسسة أخرى - لا أتذكر اسمها، وأعتقد أن اسمها ليس مهما على كل حال - وتوفي في العام 1965. على حدّ علمي، أن آخر مرة تحدث فيها، كان حينما أخبرنا أنه يمكننا التوقيع بالنيابة عنه عندما يحين انتهاء دوام العمل... إلا أننا كنا نرغب بشرح أسباب تركه للعمل مبكرا.

المفارقة هي أننا لم نضطر مطلقا إلى تفسير أي شيء. فقد بيرسي صوابه، وأخذ يطلق الرصاص على ويليام وارتون حتى أرداه قتيلا. هذا ما قلناه، وكانت كل كلمة منها صحيحة. عندما وجه أندرسن سؤالا إلى بروتال عن حال بيرسي قبل إطلاق النار، وأجاب بروتال بكلمة واحدة - هي "هادئ" - كدت أنفجر ضاحكا، إلا أنني تمالكت نفسي

WWW.REWITY.COM

بصعوبة. لأن هذا كان صحيحا أيضا، فقد كان بيرسي هادئا، وكان يبدو معظم نوبته وكأنه أحدهم وضع شريطا على فمه، وكان أفضل ما فعله أن غمغم بحروف غير مفهومة.

قام كيرتيس باحتجاز بيرسي هناك حتى الساعة الثامنة، وقد كان بيرسي صامتا تماما، ولكن أكثر إثارة للرعب. وحينها حضر هال مورس، حيث بدا شرسا ولكن كفؤا، ومستعدا للعودة إلى القيادة. لقد سمح له كيرتيس أندرسن بالقيام بذلك، وبتنهيدة ارتياح استطعنا جميعا سماعها. ذهب الشيخ المذهول والخائف، وقد كان واردون هو الذي ذهب بخطى سريعة إلى بيرسي، وأمسكه من كتفه بيديه الكبيرتين وهزه بشدة.

وصرخ قائلا "يا بني!" في وجه بيرسي الخالي من أي تعبير؛ ولكنني ظننت أن وجهه كان قد بدأ بالذوبان مثل الشمع. "يا بني! هل تسمعني؟ تحدث إليّ إذا كنت تسمعني! أريد أن أعرف ماذا حدث!".

بالطبع لم يصدر أي شيء عن بيرسي. كان أندرسن يريد إقصاء واردن، ومناقشة كيف سيمكنهم التعامل مع الموقف - فقد كان الأمر يمثل فرصة سياسية نادرة - ولكن مورس تجاهله لبعض الوقت على الأقل، وسحبني إلى الميل الأخضر. لقد كان جون كوفي يرقد على سريره موجها وجهه إلى الحائط، وقدماه تتدليان بشكل مفرط، كحاله دائما. لقد بدا كما لو كان نائما، وربما كان هكذا... ولكن كانت حقيقته تختلف دوما عما يبدو عليه، كما عرفنا بعد ذلك.

سأل مورس بصوتٍ خفيض "هل لما حدث في منزلي أي علاقة بما حدث هنا لدى عودتك؟ سأغطي موقفك قدر ما أستطيع، حتى إن كلفني هذا وظيفتي، ولكن يجب أن أعلم الحقيقة".

هززت رأسي. وعندما تحدثت، كنت أحرص أيضا على خفض نبرة صوتي. كان هناك دزينة تقريبا من حرس السجن منتشرين في الممر. وكان هناك رجلٌ آخر يلتقط صورا لوارتون في زنزانته. وانتقل كيرتيس

أندرسن لمراقبة هذا الأمر، وفي ذلك الوقت كان بروتال فقط هو الذي يتابعنا بنظره. "لا يا سيدي. لقد أعدنا جون إلى زنزانته تماما كما ترى، ثم أخرجنا بيرسي من حجرة الاحتجاز، حيث احتجزناه لدواعي حفظ الأمن. كنت أظن أنه سيغضب لذلك، ولكنه لم يفعل. فقد طلب مسدسه وهراوته فقط. ولم يقل أي شيء بعدها، بل ترك المكان فقط متجها نحو الممر. ثم سحب مسدسه، وبدأ يطلق النار عندما وصل إلى زنزانة وارتون".

"هل تعتقد أن وجوده في حجرة الحجز... قد أثر في عقله؟".

"لا يا سيدي".

"هل ألبسته سترة السجناء؟".

"لا يا سيدي، فلم يكن هناك حاجة إلى ذلك".

"هل كان هادئا؟ لم يقاوم؟".

"لم يقاوم".

"حتى عندما رآك قاصدا وضعه في حجرة الحجز، كان هادئا ولم يقاوم؟".

"هذا صحيح". شعرت برغبة بإضافة المزيد من التفاصيل إلى هذه النقطة لإعطاء بيرسي مبررا أو أكثر، ولكنني قمعت هذه الرغبة. كلما كان الأمر أبسط، كلما كان أفضل، وكنت أعلم ذلك. "لم يكن هناك جلبة. فقد توجه ببساطة إلى أحد الأركان البعيدة وجلس". "لم يتحدث عن وارتون حينها؟"، "لا يا سيدي".

"ولم يتحدث كذلك عن كوفي؟"، هززت رأسي، "هل من الممكن أن بيرسي كان يتربص بوارتون؟ هل كان يحمل شحناء ضده؟".

قلت، خافضا صوتي أكثر "ربما. لم يكن بيرسي مهتما باتجاه سيره يا مورس. فوصل وارتون، وأمسك به أمام القضبان وعامله بعنف". توقفتُ عن الكلام قليلا. "بل تحرّش به".

WWW.REWITY.COM

"ليس هناك ما هو أسوأ من ذلك؟ فقط... عاملة بعنف، ... وانتهى الأمر عند هذا؟".

"نعم، ولكن الأمر كان مؤلما لبيرسي بالقدر نفسه. فقد قال وارتون شيئا أهان به رجولة بيرسي".

"آه". ظل مورس ينظر بطرف عينه إلى جون كوفي، كما لو كان يريد أن يتأكد دوما من وجود كوفي بالفعل. "هذا لا يفسر ما حدث له، ولكنه قد يوضح السبب الذي جعله ينقض على وارتون بعينه دون كوفي أو أحد رجالك. وبمناسبة الحديث عن رجالك يا بول، هل سيتفقون جميعا على وصف ما حدث؟".

فقلت له "نعم يا سيدي". "وسيفعلون" قلت ذلك لجانيس، وأنا أبدأ بتناول الحساء الذي أحضرته إلى المائدة. "سأرى".

فقالت "لقد كذبت، كذبت على مورس".

حسنا، هذه هي الزوجة المناسبة لك، أليس كذلك؟ لا تكفّ عن البحث عن الثقوب في أفضل سترة لديك وغالبا ما تعثر عليها.

"إن كنت ترغبين بالنظر إلى الأمر من هذه الناحية، فإنني أعتقد أنني قد كذبت. ولكنني لم أرد أن أخبره شيئا يزعج كلا منا في حياته. وأنا أعتقد أنه في مأمن. فهو لم يكن حاضرا من الأساس. فقد كان في بيته يرعى زوجته حتى استدعاه كيرتيس".

"هل أخبرك شيئا عن حال مليندا؟".

لم يخبرني حينها، فلم يكن لدينا وقت لذلك، ولكننا تحدثنا مرة أخرى حين كنتُ أنا وبروتال في سبيلنا إلى مغادرة المكان. "مليندا لا تتذكر الكثير من الأشياء، ولكنها بخير. تتحرك وتسير. وتتحدث عن أحواض الزهور في العام القادم".

جلست زوجتي تنظر إليّ وأنا أتناول الحساء لبعض الوقت. ثم سألتني "هل يعلم مورس أن هذا الأمر إنجاز يا بول؟ هل يعي

ذلك؟".

"نعم. نحن جميعا نعي ذلك. كل مَن شاهد ذلك الموقف".

فقالت "أتمنى أحيانا لو أنني كنت هناك أيضا، ولكنني في أغلب الأحيان أشعر بالسعادة إذ لم أحضر ذلك الموقف".

قلت لها بينما كنت ألوي الطبق كي أملأ آخر ملعقة من الحساء "بل ربما كنتِ ستعدين له بعض الحساء. فهي لذيذة للغاية يا عزيزتي".

"حسنا". ولكنها لم تكن تفكر في الحساء أو الطهي. فقد كانت تنظر عبر النافذة إلى قمم الجبال، واضعة ذقنها على يدها، وكان الغموض يخيم على عينيها مثلما يخيم الضباب على تلك القمم في صباح الأيام الصيفية الحارة، كذلك اليوم الذي عُثر فيه على الفتاتين ديتيريتش، فكرت في هذا الأمر من دون مبرر. كنت أتساءل ما الذي جعلهما لا تصرخان.

فقد ضربهما القاتل وكانت هناك دماء على الشرفة وعلى الدرج. فكيف لم تصرخا؟

سألتني جانيس بعد أن أبعدت نظرها عن النافذة أخيرا "أنت تعتقد أن جون كوفي هو الذي قتل المدعو وارتون، أليس كذلك؟ وليس أن الأمر مجرد حادث أو أي شيء من هذا القبيل، أنت تعتقد أنه استغل بيرسي ويتمور كالمسدس الموجه إلى وارتون".

"نعم".

"لماذا؟".

"لا أعلم".

"هلا أخبرتني مرة أخرى عما حدث حين أخرجت كوفي من الميل الأخضر. هذا الجزء فقط".

فقلت لها. أخبرتها كيف أن الذراع الهزيلة التي خرجت من بين القضبان وصاحبه يصرخ ويمسك بيد جون قد ذكرتني بالثعابين المائية

WWW.REWITY.COM

التي كنا كلنا نخشاها في طفولتنا بينما كنا نسبح في النهر، وكيف أن كوفي قال إن وارتون رجل شرير. وبنبرة تقترب إلى الهمس.

"وقال وارتون...". عادت زوجتي للنظر عبر النافذة، ولكنها كانت تستمتع إليّ جيدا.

"قال وارتون هذا صحيح أيها الزنجي، شرير كما أردت".

"وهذا كل شيء".

"نعم. كان لديّ إحساس أن شيئا ما سيحدث بعدها، ولكن لم يحدث شيء. أمسك بروتال يد وارتون بعيدا عن جون، وطلب منه أن يستريح، وهذا ما فعله وارتون. لقد خرج كي يبدأ هذا الأمر. وقال شيئا ما عن أن الزنوج يجب أن يكون لهم كرسي كهربائي مخصص لهم، وكان هذا كل شيء. وعاد كلٌ منا إلى عمله".

"أطلق عليه جون كوفي لقب رجل شرير؟".

"نعم، وقال الشيء نفسه أيضا عن بيرسي مرة واحدة. أو ربما أكثر من مرة. لا أذكر المناسبة بالضبط، لكنني متأكد أنه قال له ذلك".

"ولكن وارتون لم يوجه أي هجوم ضد جون كوفي بصورة شخصية، أليس كذلك؟ أعني كما فعل مع بيرسي".

"لا، فموقعا زنزانتيهما - زنزانة وارتون في الأعلى بجانب مكتب المناوبة من ناحية، وزنزانة جون في الأسفل على الناحية الأخرى - لم يسمحا لهما حتى برؤية بعضهما بعضا".

"أخبرني مرة أخرى عما بدا على ملامح كوفي حين جذبه وارتون".

"جانيس، هذا لن يفيدنا في شيء".

"ربما يفيد وربما لا يفيد. أخبرني كيف كان يبدو".

تنهدتُ قائلا "يمكنك القول إنه كان مصدوما. فقد كان يلهث. كما كنتِ ستفعلين، لو كنتِ تستلقين على الشاطئ تحت أشعة الشمس، بينما

تسللتُ أنا لأصب على ظهرك القليل من الماء البارد. أو كما لو أنه قد صُفع على وجهه".

قالت "بالطبع، فقد أفزعه أن يمسك به أحدهم فجأة، وجعله ينتبه هنيهة".

فقلت "نعم"، ثم أردفت قائلا "لا".

فقالت لي "أيهما؟ نعم أم لا؟".

"لا، لم يكن مفزوعا. كانت حالته كما كان حين طلب مني أن أدخل زنزانته كي يعالجني. أو حين طلب مني أن أعطيه الفأر. لقد كان مندهشا من أثر المفاجأة، ولكن ليس لأن أحدهم قد أمسك به... ليس لهذا السبب على كل حال... يا الله، لا أعلم يا جانيس".

قالت "وهو كذلك، ستتركه، كل ما في الأمر أنني لا أستطيع تخيل لماذا فعل جون هذا. فهو ليس عنيفا بطبيعته. الأمر الذي أدى إلى سؤال آخر، بول كيف يمكنك إعدامه إذا كنت محقا بشأن هاتين الفتاتين؟ كيف يمكنك وضعه على الكرسي الكهربائي بينما القاتل شخص آخر؟".

تململت في كرسيّ. ضرب مرفقي بالطبق فأوقعته على الأرض وانكسر. راودتني فكرة ما. كان الأمر حدسيا أكثر منه منطقيا عند هذه النقطة، إلا أنه كان لها رونق خاص.

سألت جانيس منزعجة "بول؟ ما خطبك؟".

قلت "لا أعرف. ليس لديّ فكرة على وجه التحديد، لكن سأحاول اكتشاف ما إذا كان باستطاعتي".

WWW.REWITY.COM

4

نتج عن إطلاق النار سيرك من ثلاث حلقات، الحاكم في الأولى والسجن في الثانية وبيرسي ويتمور المسكين الذي انفجر رأسه في الثالثة. ومن هو مدير الحلبة؟ تعاقب على هذه المهمة عدد من رجال الصحافة المهذبين. لم يكونوا على هذا القدر من السوء في ذلك الوقت كما هم الآن - فلم يسمحوا لأنفسهم أن يكونوا سيئين هكذا - لكن حتى في ذلك الوقت قبل جيرالدو ومايك والاس وغيرهما، كانوا يسعون إلى الظهور بمظهر حسن للغاية بينما كل منهم لديه ما يعيبه. هذا هو ما حدث هذه المرة، وبالرغم من استمرار العرض، فقد كان جيدا.

لكن حتى السيرك المفعم بالنشاط، الذي يضم الأشخاص غريبي الأطوار الذين يبعثون على الخوف والمهرجين خفيفي الظل وأشرس الحيوانات، كان يجب أن يغادر المدينة في نهاية الأمر. غادر هذا السيرك بعد مجلس المساءلة، الذي بدا خاصا للغاية ومخيفا، ولكن اتضح في الواقع أنه خانع وروتيني تماما. في ظل ظروف أخرى، كان يمكن أن يطالب الحاكم بلا شك برأس شخص آخر، لكن ليس هذه المرة. استخدم ابن أخ زوجته المفرقعات مما تسبب بقتل أحد الأشخاص. لقد قتل قاتلا - كان الأمر كذلك على الأقل، وشكرا لله على ذلك - لكن بيرسي كان قد قام بالفعل بإطلاق الرصاص على الرجل وهو نائم في زنزانته، الأمر الذي لم يكن من قبيل التسلية. إذا أضفت حقيقة أن الشاب محل اهتمامنا ظل وقد جن جنونه، فلك أن تفهم لماذا أراد الحاكم لذلك أن ينتهي، وفي أقرب وقت ممكن.

لم يكشف أبدا عن رحلتنا إلى منزل واردن مورس في شاحنة

هاري تيرويليجر. لم يكشف أبدا عن حقيقة ارتداء بيرسي سترة السجناء وحبسه في حجرة الحجز خلال فترة غيابنا. لم يكشف أبدا عن حقيقة تنويم ويليام وارتون عندما أطلق بيرسي النار عليه كذلك. لماذا؟ لم يكن لدى السلطات أي سبب يدعوها للاشتباه في متعلقات وارتون سوى نصف دزينة من الرصاصات. تخلص منها محقق الوفيات، وضعه الحانوتي في التابوت، وكانت هذه هي نهاية الرجل الذي وشم على ساعده صورة بيلي ذا كيد. ويمكنك القول إنني سعيد بهذه النهاية.

بصفة عامة، فقد استمرت الجلبة أسبوعين تقريبا. لم أجرؤ خلال هذه الفترة على المراوغة، ناهيك عن أخذ إجازة للتحقق من الفكرة التي راودتني على طاولة المطبخ ذات صباح بعد فترة الاضطراب. كنت أعلم على وجه اليقين أن السيرك قد غادر المدينة عندما ذهبت إلى العمل في أحد الأيام جافلا في منتصف نوفمبر؛ الثاني عشر منه على ما أعتقد. كان هذا هو اليوم الذي عثرت فيه على الورقة التي كنت دائما ما أخشاها وسط مكتبي؛ حكم الإعدام على جون كوفي.

وقّع عليها كيرتيس أندرسن بدلا من هال مورس، إلا أنها كانت بالطبع قانونية في كلتا الحالتين، وقد تطلبت بالطبع المرور بهال حتى تصل إليّ. أستطيع تخيل هال جالسا إلى مكتبه في الإدارة وهذه الورقة بين يديه، جالسا هناك يفكر في زوجته التي أثارت حالتها خلال تسعة أيام دهشة الأطباء في مستشفى إنديانولا العامة. لقد سلمها الأطباء وثائق حكم الإعدام الخاص بها، إلا أن جون كوفي مزقها تماما. ومع ذلك، فقد حان دور كوفي الآن كي يجتاز الميل الأخضر، ومَن باستطاعته إيقافه من بيننا؟ من يمكنه إيقاف ذلك من بيننا؟

كان التاريخ على قرار الإعدام هو العشرين من نوفمبر. أي بعد ثلاثة أيام من معرفتي به؛ الخامس عشر، أعتقد أن جانيس هاتفتني وهي مستاءة تماما. وخلال فترة لا تتجاوز إعداد فنجان من القهوة، كنت أقود

WWW.REWITY.COM

سيارتي التي تقفز على نحو سيئ باتجاه الشمال، إلا أنها كانت سيارة فورد يمكنك الاعتماد عليها. قبلتني جانيس في طريقي للخروج وتمنت لي حظا جيدا، شكرتها من دون أدنى فكرة واضحة عن الحظ الجيد الذي قد ينطوي عليه عثوري عما أبحث عنه أو عدم عثوري عليه. كل ما أعرفه على وجه التحديد أنني لم أشعر برغبة بالغناء في أثناء القيادة. ليس في ذلك اليوم.

بحلول الثالثة بعد الظهر في ذلك اليوم كنت قد وصلت إلى إقليم ريدج. وصلت إلى محكمة مقاطعة بوردوم قبل موعد انتهاء العمل بها مباشرة، اطلعت على بعض السجلات ثم جاءني العمدة الذي أخبره كاتب المحكمة أن غريبا كان يبحث بفضول بين معلوماتنا السرية. أراد العمدة كاتلت معرفة ماذا عساي أفعل. أخبرته. فكر كاتلت في الأمر بروية ثم أخبرني شيئا مشوقا. قال إنه سينكر أنه قال أي شيء على الإطلاق إذا ما نشرت ذلك، لم يكن ذلك دليلا قاطعا على كل حال، إلا أنه كان شيئا هاما بلا شك. كان شيئا هاما بالتأكيد. فكرت في الأمر طوال طريقي إلى البيت، وفي تلك الليلة كان هناك الكثير من التفكير والقليل من النوم الذي كان عزيزا على جانبي من السرير.

استيقظت في اليوم التالي وما كادت شمس الصباح تشرق، وقدت سيارتي باتجاه جنوب الولاية إلى مقاطعة ترابينغاوس. حاولت تجنب هومر كريبس، الذي يشبه كيسا ضخما من الأحشاء والماء، وتحدثت إلى نائب العمدة روب ماكجي بدلا منه. لم يرد ماكجي الإنصات إلى ما كنت أخبره به. كان شديد الانفعال بخصوص عدم الرغبة بالاستماع إلى الأمر. أيقنت عند نقطة ما أنه سيلكمني على فمي حتى يتوقف عن الاستماع، لكنه وافق في نهاية الأمر على الخروج وطرح عدد من الأسئلة على كلاوس ديتيريتش. أعتقد في غالب الأمر أنه تيقن أنني لن أتوقف عن الحديث. قال ماكجي، "هو يبلغ تسعة وثلاثين عاما فقط، إلا أنه

يبدو رجلا مسنا هذه الأيام، وهو ليس بحاجة إلى شخص مثلك يعتقد أنه محقق كي يثير حنقه في الوقت الذي بدأت فيه بعض المآسي بالهدوء. امكث هنا في المدينة. لا أريدك أن تكون على مسافة قريبة من مزرعة ديتيريتش، بل أريد أن أجدك عند انتهائي من الحديث مع كلاوس. إذا بدأت الشعور بعدم الارتياح، فتناول قطعة فطيرة من المطعم هنا. فهي مفيدة لإنقاص الوزن. تناولت قطعتين وكانت دسمة بعض الشيء.

عندما جاء ماكجي إلى المطعم، وجلس إلى الطاولة بجواري، حاولت قراءة تعابير وجهه ولكنني فشلت. تساءلت، "حسنا؟".

قال "تعال معي إلى المنزل، حيث يمكننا الحديث. هذا المكان عام للغاية ولا يناسب مزاجي".

كان لقاؤنا على شرفة روب ماكجي الأمامية. كنا كلانا نرتدي ملابس ثقيلة ونشعر بالبرودة، إلا أن السيدة ماكجي لم تكن تسمح بالتدخين في أي مكان في منزلها. كانت امرأة سابقة لعصرها. تحدث ماكجي لبعض الوقت. فعلها كما لو كان رجلا لا يتمتع على الإطلاق بما يسمعه خارجا من فمه.

تساءل وقد احتدّ تماما "لا يثبت هذا شيئا، وأنت تعلم ذلك، أليس كذلك؟". كانت نبرة صوته حادة وهو يدفع بسيجارته التي يلفها في منزله نحوي بطريقة عدوانية بينما يتحدث، لكن وجهه كان سقيما. ليست كل الأدلة هي ما تراه وتسمعه في المحكمة، وكلانا نعرف ذلك. كانت لديّ فكرة جعلت النائب ماكجي للمرة الأولى في حياته يتمنى لو أنه كان في مثل حمق رئيسه.

قلت "أعرف ذلك".

"وإذا كنت تعتقد أنه يمكنك الحصول على محاكمة جديدة له على أساس هذا الأمر فقط، فيجدر بك إعادة التفكير يا سيدي. جون كوفي زنجي، ونحن أشداء تماما، في مقاطعة ترابينغاوس، في ما يتعلق بمنح

WWW.REWITY.COM

محاكمات جديدة للزنوج".

"أعلم ذلك أيضا".

"إذا، ماذا عساك تفعل؟".

قذفت بالسيجارة من فوق سياج الشرفة إلى الشارع. ثم نهضت. ستكون الرحلة إلى المنزل طويلة وباردة، ولكن كلما انطلقت باكرا كلما وصلت باكرا. قلت للنائب ماكجي "هذا ما تمنيت معرفته، لكن ذلك لم يحدث. كل ما عرفته في تلك الليلة على وجه التحديد هو أن تناول قطعة أخرى من الفطائر كان خطأ".

قال ماكجي وهو لا يزال يتحدث بتلك النبرة ذات الحدة الجوفاء "سأقول لك شيئا أيها المتذاكي. لا أعتقد أنه كان ينبغي لك إثارة الموضوع أصلا".

قلت "ليست أنا من أثار الموضوع"، ثم قدت سيارتي عائدا إلى المنزل.

وصلت متأخرا بعد منتصف الليل، لكن زوجتي كانت مستيقظة بانتظاري. خالجني شعور ما إذا كانت بالفعل بانتظاري، إلا أنني شعرت بالسعادة لرؤيتها، فقد وضعت ذراعيها حول رقبتي وجسدها الجميل ملامسا لجسدي. قالت "مرحبا أيها الغريب".

قلت لها "نعم يا سيدتي" ورفعتها بين ذراعي. رفعتها بين ذراعي. أخذتها إلى غرفة النوم، تذكرت عيني جون كوفي اللتين لا تكفان عن البكاء. وقول مليندا مورس إنها حلمت بي هائما في الظلام، وكذلك كنت.

لا أزال أرقد بجانب زوجتي وذراعاها حول عنقي، ثم بدأت بالبكاء.

قالت زوجتي مذهولة وخائفة "بول!". لا أعتقد أنها رأتني أبكي أكثر من ست مرات من قبل خلال فترة زواجنا بأكملها. لم أكن أبدا،

خلال السير العادي للأمور، رجلا باكيا. "ما الأمر يا بول؟".

قلت بينما أبكي "من المفترض أن أقتل جون كوفي بالكرسي الكهربائي خلال أقل من أسبوع، إلا أن ويليام وراتون هو من قتل الفتاتين ديتيريتش. إنه بيل المتوحش".

WWW.REWITY.COM

5

في اليوم التالي، تناولت نفس مجموعة السجانين الذين تناولوا الغداء في مطبخي بعد عملية إعدام ديلاكروا الفاسدة الغداء عندي هناك مرة أخرى. هذه المرة، حضر مجلس الحرب شخص خامس؛ زوجتي. جانيس هي من أقنعتني بإعلام الآخرين، كان الهاجس الأول لديّ ألا أخبرهم. سألتها "أليس ما يجعل الأمر سيئا بالفعل هو أننا نعرف؟".

أجابت "أنت لا تفكر في الأمر بشكل واضح. ربما يعود ذلك إلى أنك لا تزال مستاء. فهم يعلمون بالفعل أسوأ ما في الأمر، وهو أن جون متهم بجريمة لم يرتكبها. ومهما يكن من أمر، فقد يحسن ذلك من الأمور".

لم أكن متيقنا، لكنني أذعنت لرأيها. توقعت حدوث صخب عند إخباري بروتال ودين وهاري بما أعرفه (لم أستطع إثبات ذلك، لكنني أعلم على كل حال)، لكن ساد في البداية صمت حذر. قال دين، وقد أخذ قطعة أخرى من البسكويت الذي أعدته جانيس، وبدأ بوضع مقدار هائل من الزبدة عليه "هل تعتقد أن جون رآه؟ هل رأى وارتون وهو يقتل الفتاتين، أو يغتصبهما؟".

قلت "أعتقد أنه لو كان رأى ذلك لحاول إيقافه. أعتقد أنه فعل ذلك. إن كان قد رأى وارتون وهو يهرب، وإن فعلها، فقد نسي الأمر بعد ذلك".

قال دين "بالتأكيد. هو استثنائي، إلا أن ذلك لا يجعله ذكيا. لقد اكتشف فقط أنه كان وارتون عندما لمسه وارتون عبر قضبان زنزانته".

كان بروتال يومئ برأسه. "لذلك بدا جون مندهشا للغاية... مذهولا". أومأت برأسي "هل تذكر كيف كان يفتح عينيه؟".

"لقد استخدم بيرسي ضد وارتون كمسدس، كان هذا ما قالته جانيس، وهو ما لم أنفك أفكر فيه. لماذا أراد جون كوفي قتل وايلد بيل؟ قد يكون بيرسي - سحق بيرسي فم ديلاكروا أمامه مباشرة، وأحرق بيرسي ديلاكروا حيا وجون يعرف ذلك - لكن ماذا عن وارتون؟ افتعل وارتون المشاكل مع معظمنا بطريقة أو بأخرى، لكنه لم يفعل مع جون على الإطلاق، وذلك على حد علمي. بالكاد تبادل معه القليل من الحديث طوال الفترة التي كانوا فيها معا في الميل، ونصف هذا الحديث كان ليلة أمس. لماذا يريد ذلك؟ كان من مقاطعة بوردوم، وبالنسبة إلى الفتيان البيض هناك، أنت لا ترى زنجيا إلا وينصاع لأوامرك. إذا، لماذا فعلها؟ ما الذي رآه أو شعر به عندما لمسه وارتون ما جعله يشعر بالسوء لدرجة أن يحتفظ بالسم الذي أخرجه من جسد ملينداً؟".

أضاف بروتال "وشلّ نصف جسده في أثناء قيامه بذلك".

"بل أكثر من ثلاثة أرباع جسده. كل ما استطعت التفكير فيه هما توأم ديتيريتش، لقد كان الأمر سيئا للغاية بحيث يتعذر تفسير ما فعله. قلت في نفسي إنها فكرة خرقاء، الكثير من المصادفات، لا يمكن أن يكون الأمر هكذا. ثم تذكرت شيئا كتبه كيرتيس أندرسن في أول مذكرة عثرت عليها عن وارتون؛ إن وارتون كان مجنونا متوحشا، وقد تسكع في كل أنحاء الولاية قبل السطو المسلح الذي قتل فيه كل هؤلاء الأشخاص. تسكع في كل أنحاء الولاية. التصقت هذه العبارة بذهني. ثم كانت الطريقة التي حاول بها خنق دين عندما وصل. ما جعلني أفكر في الأمر".

قال دين "الكلب". كان يحك برأسه حيث كان وارتون يلف السلسلة. لا أعتقد أنه كان واعيا لما يفعله. "كيف كسر عنق الكلب؟".

WWW.REWITY.COM

"على كل حال، ذهبت إلى مقاطعة بوردوم لفحص سجلات المحكمة عن وارتون؛ كل ما لدينا هنا هو السجلات الخاصة بجرائم القتل التي دفعت به إلى الميل الأخضر. نهاية أعماله، بطريقة أخرى. إلا أنني أردت البداية".

سأل بروتال قائلا "هي مشكلة كبيرة، أليس كذلك؟".

"نعم. تخريب وسرقات وإشعال النيران في أكوام القش، بل وسرقة مواد متفجرة؛ سرق هو وصديق له إصبع ديناميت وفجراه بالقرب من أحد الجداول. بدأ في ذلك مبكرا، وهو في العاشرة من عمره، إلا أن ما أردته كان يسبق ذلك. ثم تحول العمدة ليرى من أنا وما الذي أفعله، وكان هذا من حسن الحظ. كذبت، وقلت إن البحث في زنزانته كشف عن مجموعة من الصور في فراش وارتون؛ كانت صورا لفتيات صغيرات لا يرتدين شيئا. قلت إنني أريد أن أعرف ما إذا كانت هناك أي معلومات عن وارتون تتعلق بكونه شاذا، حيث كان هناك قضيتان عالقتان في تينيسي سمعت عنهما. حرصت على عدم ذكر توأم ديتيريتش على الإطلاق. كما لا أعتقد أنهما خطرتا بباله".

قال هاري "بالطبع لا. ولماذا يفعل؟ لقد حُلت هذه القضية في النهاية".

قلت "أعتقد أنه ليس هناك معنى من تعقب هذه الفكرة، فلم يكن هناك أي شيء في ملف وارتون. أعني، كان هناك الكثير، لكن لم يكن أي منه يتعلق بهذا الأمر. ثم ضحك العمدة كاتلت وقال إنه ليس كل ما فعله بيل وارتون من مفاسد مذكور في ملفات المحكمة، وما أهمية ذلك على كل حال؟ لقد مات، أليس كذلك؟ قلت إنني أفعل ذلك كي أشبع فضولي فقط، وليس لسبب آخر، وهو ما جعل العمدة كاتلت يهدأ. أعادني إلى مكتبه، وأجلسني ثم قدم إليّ فنجان قهوة وقطعة حلوى. قال لي إنه منذ ستة عشر شهرا عندما كان وارتون بالكاد يبلغ الثامنة عشرة،

أمسك به رجل في الجزء الغربي من المقاطعة في الحظيرة مع ابنته. لم يكن اغتصابا على وجه الدقة، وصف الرجل الأمر لكاتلت على أنه لم يتعدَّ كونه تحرشا، آسف عزيزتي".

قالت جانيس "لا عليك". إلا أنها بدت شاحبة.

سأل بروتال "كم كان عمر الفتاة؟".

قلت "تسعة أعوام".

أجفل الرجل.

"ربما كان بإمكان الرجل أن يطارد وارتون لو كان لديه إخوة أو أبناء أعمام أشداء يساعدونه، لكن لم يكن لديه أحد منهم. لذا فقد ذهب إلى كاتلت، ولكنه أوضح أنه ما أراد إلا تحذير وارتون. لم يكن أيٌّ منا يرغب بظهور شيء بهذه البشاعة على العلن، إذا كان هذا ممكنا. وعلى كل حال، كان العمدة كاتلت يتعامل مع ملف وارتون الإجرامي منذ زمن، فقد أدخله إلى الإصلاحية لثمانية أشهر أو ما شابه عندما كان وارتون في الخامسة عشرة، وقرر أنه كفى ما حدث. كان له ثلاثة نواب، ذهبوا إلى مكان وارتون، وأزاحوا زوجة وارتون جانبا عندما بدأت بالبكاء والعويل، ثم حذروا السيد ويليام وارتون بيلي ذا كيد مما حدث للمغفلين الذين أخذوا الفتيات الصغيرات اللواتي لم يبلغن بعد. قال لي كاتلت "لقد حذرناه، حذرناه حتى أدمينا رأسه وخلعنا كتفه".

كان بروتال يضحك رغما عنه. قال "يبدو مثل بيردوم كاونتي، حسنا، ليس تماما".

قلت "كان ذلك بعد ثلاثة أشهر تقريبا، حين هرب وارتون، وبدأ حياة اللهو التي انتهت بجريمة السرقة. بالإضافة إلى جرائم القتل التي جعلتنا نلقي القبض عليه".

قال هاري "إذا، فقد حاول العبث في إحدى المرات مع فتاة قاصر". نزع نظارته، ونفخ عليها، ثم قام بتلميعها. "قاصر جدا، مرة واحدة لا

WWW.REWITY.COM

تعني بالضرورة سوء الطبع، أليس كذلك؟".

تقول زوجتي وهي تعض على شفتيها حنقا "الرجل لا يفعل مثل هذا الأمر مرة واحدة فقط".

ثم أخبرتهم عن زيارتي إلى مقاطعة ترابينغاوس. لقد كنت صريحا للغاية مع روب ماكجي؛ لم يكن لديّ الخيار في الحقيقة. ليس لديّ حتى هذا اليوم أي فكرة عن القصة التي حاكها للسيد ديتيريتش، ولكن ماكجي الذي جلس إلى جانبي على العشاء بدا كما لو كان عمره سبع سنوات.

في منتصف مايو، قبل شهر تقريبا من وقوع السرقة وجرائم القتل التي أنهت حياة وارتون المهنية القصيرة ليصبح شخصا خارجا على القانون، كان كلاوس ديتيريتش قد طلى حظيرته (وطلى بشكل عرضي بيت الكلب باوزر المجاور للسقيفة). لم يكن يرغب بأن يحبو ابنه على سقالة عالية، وكان الطفل في المدرسة على كل حال، لذا فقد استخدم أحد الأشخاص لمراقبة ولده. شخص لطيف. وهادئ للغاية. ومرت ثلاثة أيام من العمل. لا، لم يبت هذا الشخص داخل المنزل، فلم يكن كلاوس مغفلا كي يصدق أن اللطف والهدوء يعنيان دوما الأمان، خاصة في تلك الأيام، حيث كانت الطرقات المحيطة تعج بالرعاع. فالرجل الذي لديه أسرة يجب أن يكون حذرا. على كل حال، لم يكن الرجل بحاجة إلى الاستضافة، فقد أخبر ديتيريتش أنه قد حجز غرفة في المدينة، في فندق إيفا برايس. فقد كانت هناك سيدة تدعى إيفا برايس في تيفتون، وكانت بالفعل تؤجر غرفا للنزلاء، ولكن لم يكن لديها في شهر مايو مقيم بأوصاف الرجل الذي استخدمه ديتيريتش، لم يكن لديها إلا الأشخاص المعتادون الذين يرتدون بذلات ذات مربعات ويعتمرون قبعات سوداء، أي الباعة المتجولون. أخبرني ماكجي بذلك لأنه توقف في طريق عودته عند مزرعة ديتيريتش بنزل السيدة برايس.

أضاف قائلا "حتى وإن كان هذا صحيحا، فليس هناك قانون يمنع نوم المرء في الغابة، يا سيد إيدجكومب؛ فأنا نفسي فعلت هذا مرة أو مرتين".

لم يبت الرجل المستخدم في منزل ديتيريتش، لكنه تناول معهم العشاء مرتين. ربما قد التقى بالفتاتين، كورا وكاثي. ربما استمع إلى ثرثرتهما، ربما تحدثتا عن مدى اشتياقهما إلى فصل الصيف التالي، لأنهما لو أحستا التصرف وكان الطقس معتدلا، فإن أمهما قد تسمح لهما أحيانا بالنوم في السقيفة حيث تستطيعان اللعب معا وكأنهما من علية القوم تعبران غريت بلينز بعربات كبيرة تجرها الخيول.

أتخيله جالسا هناك على الطاولة وهو يأكل الدجاج المشوي، وخبز السيدة ديتيريتش المقطع إلى قطع سميكة، وهو يستمع ويحافظ على تغطية عينه التي تشبه عين الذئب، ويحني رأسه ويبتسم قليلا، ويخزن كل ذلك في رأسه.

قالت جانيس بشك "هذا لا يبدو مثل الرجل الهمجي الذي أخبرتني عنه عندما جاء إلى الميل للمرة الأولى يا بول". قال هاري "مطلقا، أنتِ لم تريه في مستشفى إنديانولا يا سيدتي. كان واقفا هناك فقط فاغرا فاه وباديا كالأبله. وتركنا نلبسه ملابسه. كنا نظنه مخدرا أو معتوها. أليس كذلك، يا دين؟".

فأومأ دين برأسه موافقا.

قلت لهم "بعد يوم من انتهائه من العمل بالحظيرة وانصرافه، سرق رجل مقنّع مكتب الشحن الخاص بهامبي في غارفيس. هرب ومعه سبعين دولارا. كما سرق دولارا فضيا يرجع إلى العام 1892، كان وكيل الشحن يحمله كقطعة جالبة للحظ. كان هذا الدولار الفضي بحوزة وارتون عند إلقاء القبض عليه، ولم تكن غارفيس تبعد إلا ثلاثين ميلا عن تيفتون".

WWW.REWITY.COM

قالت زوجتي "إذا، فهذا اللص أو الرجل الهمجي الذي تعتقد أنه توقف لمدة ثلاثة أيام لمساعدة كلاوس على طلاء حظيرته، تناول العشاء معهم من دون أي تحفظ، كما لو كان أحد أصدقاء الأسرة".

قال بروتال "أكثر ما يخيف في هؤلاء الرجال أمثاله هو عدم قدرتك على توقع ما سيفعلونه. ربما كان يخطط لقتل عائلة ديتيريتش وسرقة المنزل، ولكنه عدل عن قراره بسبب تغير ما في الظروف أو شيء من هذا القبيل. أو ربما أراد أن يلهو قليلا. ولكن على الأرجح تماما أنه كان مهتما بهاتين الفتاتين، وكان ينوي العودة إلى المنزل. ألا تعتقد ذلك يا بول؟".

فأومأت برأسي موافقا. فقد كنت بالطبع أعتقد ذلك. "ثم أن هناك الاسم الذي أطلقه على ديتيريتش".

فسألتني جانيس "أي اسم؟".

"ويل بوني".

"بوني؟ لا -".

"هذا هو الاسم الحقيقي لبيلي ذا كيد".

"حقا!"، ثم اتسعت عيناها. "يا الله! إذا، فأنت تستطيع إثبات براءة جون كوفي! الحمد لله! كل ما عليك هو أن تطلع السيد ديتيريتش على صورة لويليام وارتون... فلا بد من أن هذه الصورة البشعة سـ...".

تبادلنا أنا وبروتال نظرة قلقة. كان دين يبدو متفائلا إلى حدٍّ ما، ولكن هاري كان يحدق إلى يديه، كما لو أن اهتمامه قد زاد فجأة بأظافر يديه.

سألت جانيس "ما الخطب؟ لمَ تنظران إلى بعضكما بهذه الطريقة؟ بالطبع هذا الرجل ماكجي سـ...".

قلت "أعتقد أن روب ماكجي رجل طيب، ولكنه ليس سوى مسؤول قانوني". وأضفت "ولكن ليس له أي وزن في مقاطعة ترابينغاوس. لقد

خضعت السلطة في هذه المقاطعة للعمدة كريبس، ولا أعتقد أنه سيعيد فتح قضية ديتيريتش بناء على ما كان يمكنني اكتشافه إلا إذا أمطرت في جهنم".

"ولكن... إذا كان وارتون موجودا هناك... إذا كان باستطاعة ديتيريتش تحديد صورة له وهم يعرفون أنه كان هناك..."، قال بروتال، "ويعني هذا الأمر بالنسبة إليه أنه بالرغم من أنه كان هناك في مايو، فإن ذلك لا يعني أنه عاد وقتل هاتين الفتاتين في يونيو". تحدث بصوت منخفض ورخيم، بنفس الطريقة التي تتحدث بها عندما تخبر شخصا ما بأن هناك حالة وفاة في العائلة. "ومن جهة، فأنت لديك هذا التابع الذي ساعد كلاوس ديتيريتش على الطلاء ثم غادر المكان. لا شك في أنه ارتكب جرائم في كل الأنحاء ولكن لا يوجد أي دليل ضده على مدى الأيام الثلاثة التي كان يتجول فيها في تيفتون في شهر مايو. من جهة أخرى، فقد عثرت على هذا الزنجي كبير الحجم، ضخم الحجم، الذي وجدته على ضفة النهر ممسكا فتاتين صغيرتين ميتتين حيث كان يحملهما عاريتين بين ذراعيه".

"بول على حق، يا جانيس. قد يكون لدى ماكجي شكوكه ولكن لم يعرها ماكجي اهتماما. كريبس هو الشخص الوحيد الذي يمكنه إعادة فتح القضية، ولا يرغب كريبس بحدوث تداخل مع ما يعتقد بأنها ستكون نهاية سعيدة؛ إنه زنجي. وليس واحدا منا على كل حال. جميل. سأذهب إلى كولد ماونتن وسأحصل على شريحة لحم وماء ثم أشاهده وهو يلقى مصيره، وينتهي كل شيء". استمعت جانيس إلى كل هذا الحوار وارتسم الهلع على وجهها ثم تحولت إليّ. "ولكن ماكجي يصدق ذلك يا بول! يمكنني رؤية هذا الأمر في وجهك. النائب ماكجي يدرك أنه اعتقل الرجل الخطأ. ألن يقف في وجه العمدة؟".

فقلت "إن وقوفه في وجه العمدة يعني خسارته لعمله. أجل، أعتقد

WWW.REWITY.COM

أنه يعرف في قرارة نفسه أن وارتون هو من ارتكب الجريمة. ولكن ما يقوله لنفسه إنه إذا أغلق فمه حتى يتقاعد كريبس أو توافيه المنية، فسيظل محتفظا بعمله. ستسير الأمور على نحو مختلف بعد ذلك. هذا هو ما يردده في قرارة نفسه للوصول إلى الراحة، وهذا ما أتخيله. وأعتقد أنه لا يختلف كثيرا عن هومر في أمر واحد، وهو أن كوفي في نهاية المطاف مجرد زنجي. إن الأمر ليس كإعدام رجل أبيض".

أضافت جانيس "وإذا، ماذا؟ يجب أن تذهب إليهم"، شعرت بالبرودة تتسرب إلى قلبي من لهجتها القاطعة. "اذهب إليهم وأخبرهم بما توصلت إليه".

"كيف يتسنى لنا إخبارهم بما توصلنا إليه، يا جانيس؟"، سألها بروتال بنفس الصوت المنخفض.

"هل يتعين علينا إخبارهم بكيفية جذب وارتون لجون في أثناء إخراجنا إياه من السجن ليقوم بإنجاز يشفي من خلاله زوجة وارتون؟".

"كلا... بالطبع لا، ولكن..."، اتضحت هشاشة الموقف كقشرة الجليد. قالت "إذا، اكذبوا"، ونظرت إلى بروتال بتحدٍّ ثم انتقلت إليّ بهذه النظرة التي كانت كافية لإشعال النار في جريدة.

"نكذب". كررت هذه العبارة. "نكذب حول ماذا؟".

"حول ذهابك إلى بوردوم كاونتي ثم نزولا إلى مقاطعة ترابينغاوس، اذهب إلى العمدة كريبس، وأخبره أن وارتون قد أخبرك بأنه قام باغتصاب وقتل الفتاتين، وأنه اعترف لك بذلك". تحولت بنظرتها النارية تجاه بروتال لوهلة. "يمكنك تقديم يد المساعدة إليه، بروتوس. يمكنك قول إنك كنت هناك عند اعترافه، وأنك سمعته أيضا. ولهذا السبب، من المحتمل أن بيرسي قد استمع إليه كذلك وأن ذلك هو السبب الذي أدى إلى إقصائه. لقد أطلق الرصاص على وارتون لأنه لم يكن باستطاعته

WWW.REWITY.COM

التفكير في ما فعله وارتون بهاتين الفتاتين. لقد سلب عقله. فقط... ماذا؟ ماذا الآن، بسم الله؟".

لم يقتصر الأمر عليّ أنا فقط وبروتال؛ لقد حدّق إليها هاري ودين أيضا، بنظرة يملأها الرعب.

قال هاري "لن نخبر عن أي من هذه الأمور مطلقا، سيدتي". لقد تحدث كما لو كان يتحدث مع طفل. "إن أول شيء سنسأل عنه هو لماذا لم نبلغ بذلك. من المفترض أن نقوم بالإبلاغ عن أي شيء يقوله السجناء عن الجرائم السابقة. جرائمهم أو جرائم غيرهم".

قال بروتال "وكذلك، كيف لنا أن نصدقه؟". إن شخصا مثل وارتون يكذب في كل شيء، جانيس؛ الجرائم التي ارتكبها، والأشخاص الخطرون الذين يعرفهم، والنساء اللواتي نمن في فراشه، ودرجاته المميزة في المدرسة العليا وحتى الطقس".

"لكن... لكن..."، وكان وجهها مكروبا. حاولت أن أضع ذراعي حولها لأهدّئ من روعها، ولكنها دفعتني بقسوة. "ولكنه كان هناك! لقد كان يطلي الحظيرة الخاصة بهم! وتناول طعام العشاء معهم!".

قال بروتال "كل الأسباب الإضافية التي تجعله يرتكب الجريمة. في نهاية المطاف، ما الضرر؟ لماذا لا يتباهى؟ لا يمكنك أن تنفذ حكم الإعدام في شخص مرتين".

"دعني أرى إذا ما كنت فهمت الأمر جيدا. نحن الجالسون حول هذه المائدة نعرف أن جون كوفي لم يقتل الفتاتين، بل وحاول إنقاذ حياتهما كذلك، والنائب ماكجي لا يعلم كل هذا بالطبع، ولكن لديه فكرة جيدة إلى حدّ ما مفادها أن الرجل محكوم عليه بالموت لجرائم لم تقترفها يداه. ولا يزال من غير الممكن عقد جلسة محاكمة جديدة له، من غير الممكن إعادة فتح القضية".

قال دين "أجل سيدتي". كان يلمّع نظارته بحنق. "هذه هي

المأساة".

جلست، وأطرقت برأسها تفكر. همّ بروتال لقول شيء ما، فرفعت يدي لإسكاته. أنا لم أعتقد أن جانيس يمكنها التفكير في طريقة لإخراج جون من قفص القتل الذي وضع نفسه فيه، ولكنني لا أعتقد أن هذا الأمر مستحيل أيضا. لقد كانت امرأة بالغة الذكاء، زوجتي. ومتشبثة بقراراتها إلى حدّ بعيد كذلك. وهذه الصفات يمكنها أحيانا أن تحول الجبال إلى وديان.

قالت في نهاية المطاف "حسنا. عليك إخراجه بنفسك".

"سيدتي؟"، نظر هاري مذهولا. وخائفا أيضا.

"يمكنك أن تفعل ذلك، لقد فعلتها من قبل، أليس كذلك؟ يمكنك أن تفعلها مرة أخرى. وهذه المرة لن يرجع ثانية".

سألها دين "سيدة إيدجكومب، هل ترغبين بأن تكوني من يشرح لأطفالي سبب وجود والدهم في السجن؟ متهما بمساعدة قاتل على الهروب من السجن؟".

"لن يحدث شيء من ذلك يا دين، سنسير وفق خطة، سنجعل الأمر يبدو وكأنه عملية هروب حقيقية".

قال هاري "ضعي في الحسبان أن من سيقوم بهذه الخطة شخص لا يتذكر كيف يربط شريط حذائه، ينبغي أن يكون الأمر مقنعا لهم".

نظرت إليه وهي حائرة.

قال بروتال "لن يجدي ذلك نفعا، حتى إذا فكرنا في طريقة ما، فإن ذلك لن يجدي".

فردت عليه بصوت أقرب إلى البكاء "لِمَ لا؟ لِمَ لا؟".

فقلت أنا "لأنه رجل أسود أصلع الرأس له ست أقدام كل قدم طولها ثماني بوصات وليس لديه عقل يعينه حتى على أن يطعم نفسه، كم سيمضي من الوقت قبل أن يتم إعادة القبض عليه؟ ساعتان؟ ست

ساعات؟".

فقالت "لقد بقي طويلا قبل ذلك من دون أن ينتبه إليه أحد". وانهمرت دمعة على خدها، مسحتها بظهر يدها.

كان ذلك تعبيرا عن نية صادقة، فقد أرسلت بعض الخطابات إلى بعض أصدقائي وأقاربي في أقصى الجنوب أسألهم إذا ما كانوا قد رأوا في الجرائد أي شيء عن رجل تنطبق مواصفاته على جون كوفي، ولم أعثر على أي شيء. فعلت جانيس الشيء نفسه، ولم نتوصل إلا إلى ظهور واحد له حتى الآن في مدينة في ألاباما، حيث ضرب إعصار إحدى دور العبادة هناك في أثناء عزف الجوقة الموسيقية في العام 1929، وقام رجل أسود ضخم بإخراج شخصين من تحت الأنقاض، كان كلاهما يبدوان للوهلة الأولى أنهما ميتان ولكن مع تبين الأمر لم يصب أي منهما بأي ضرر بالغ، وكان ذلك أشبه بإنجاز حسبما قال أحد شهود العيان، وقد اختفى ذلك الرجل الأسود الذي كان رجل الدين الذي قد استخدمه للقيام ببعض المهام اليومية على نحو مثير.

قال بروتال "إنك محق، لقد اختفى لفترة طويلة، لكن عليك أن تتذكر أنه اختفى طويلا قبل أن يتهم باغتصاب وقتل فتاتين صغيرتين".

جلست زوجتي من دون رد، هادئة. ثم قامت كالعاصفة، وفعلت شيئا ما صدمني بشدة، مثلما كانت دموعي ستصدمها، مدت يدها، وأزاحت كل شيء موجود على المائدة بضربة واحدة من ذراعها أسقطت الأطباق والأكواب والكؤوس وآنية المائدة الفضية وطبق الملفوف وطبق القرع وطبق اللحم واللبن وإبريق الشاي البارد، سقطت كل هذه الأشياء عن المائدة وأصبحت على الأرض، يا له من خراب.

صاح دين وهو يقفز إلى الخلف بعيدا عن المائدة قائلا "اللعنة". وكان قد أوشك أن يسقط على ظهره.

تجاهلته جانيس، ووجهت نظرها نحوي أنا وبروتال ونحوي بصفة

WWW.REWITY.COM

خاصة وتساءلت "أيها الجبناء، هل تعنون أنكم ستقتلونه، هل تقتلون الرجل الذي أنقذ حياة مليندا مورس والذي حاول إنقاذ حياة هاتين الفتاتين الصغيرتين؟ حسنا، لن ينقص من العالم سوى رجل أسود واحد، أليس كذلك؟ يمكنكم مواساة أنفسكم بذلك، زنجي واحد لا أكثر".

نهضت واقفة، ونظرت إلى مقعدها ثم ركلته، فارتدّ المقعد، وسقط فوق الطعام المسكوب، وحاولت أن أمسك بمعصمها ولكنها أفلتته.

قالت، "لا تلمسني، الأسبوع القادم في نفس الميعاد ستكون أنت القاتل، لست أفضل من ذلك الرجل وارتون، لذلك إياك أن تلمسني".

خرجت إلى الشرفة الخلفية، وأخفت وجهها في مئزرها، وأجهشت في البكاء، نظرنا نحن الأربعة إلى بعضنا بعضا، وبعد وقت قليل، تحاملت على قدمي، وجلست أنظف تلك الفوضى، انضم بروتال إليّ في البداية ثم تبعه هاري ودين، ولكنهما رحلا عندما بدا المكان مرتبا مرة أخرى.

لم يتفوه أحد بكلمة طوال الوقت، فلم يبقَ في الحقيقة شيء يقال.

6

كانت الليلة إجازتي، جلست في غرفة المعيشة في منزلنا الصغير أدخن السجائر، وأستمع إلى المذياع، وأشاهد الظلام يأتي من بعيد خارجا من الأرض ليبتلع السماء. التلفاز اختراع جيد، ليس لديّ أي اعتراض عليه، بيد أنني أكره الطريقة التي يشدك بها بعيدا عن العالم لا إلى شيء سوى شاشته الفضية، ولهذا، ربما يكون المذياع أفضل منه.

دخلت جانيس، وجثت بجوار مسند مقعدي، وأخذت يدي، وبقينا لبرهة من دون أن نتلفّظ بكلمة واحدة، نستمع إلى حفلة كلية المعارف الموسيقية للموسيقار كاي كيسر، ونشاهد النجوم وهي تلمع في السماء. كان الأمر على ما يرام بالنسبة إليّ.

قالت جانيس "آسفة إذ نعتك بالجبان، إنني أشعر بالضيق مما قلته لك أكثر من أي شيء قلته طوال فترة زواجنا بالكامل".

فسألتها "حتى في تلك المرة التي كنا نخيم فيها في الهواء الطلق ووصفتني بالأبله؟"، ثم انفجرنا في الضحك وقبلتها مرة أو مرتين وعادت المياه إلى مجاريها، لقد كانت فاتنة الجمال، إنها عزيزتي جانيس التي لا أزال أحلم بها، كم أنا عجوز ومرهق من هذه الحياة، سأحلم أنها تمشي إلى غرفتي هنا، هذا المكان المنسي الذي تشبه رائحته رائحة المراحيض والكرنب المسلوق، إنني أحلم بها في ريعان شبابها وجمالها وبعينيها الزرقاوين وصدرها النافر الجميل الذي لا أستطيع أن أبعد يديّ عنه، تدخل هذه الغرفة وتقول لي لم أكن يا حبيبي في حادث الحافلة، لقد أخطأت. أنا أحلم بذلك حتى الآن، وأبكي أحيانا عندما أستيقظ وأتيقن أن ذلك كان حلما، إنه أنا الذي نادرا ما بكيت

WWW.REWITY.COM

عندما كنت صغير السن.

سألتني أخيرا "هل يعرف هال؟".

"هل يعرف أن جون بريء؟ لا أستطيع أن أفهم كيف يمكنه ذلك".

"هل بإمكانه المساعدة؟ هل له أي تأثير في كريبس؟".

"لا يا عزيزتي، مطلقا".

أومأت برأسها، كما لو كانت توقعت ذلك. "إذا، لا تخبره. إذا لم يكن بإمكانه المساعدة، فلا تخبره بالله عليك".

"لا".

نظرت إليّ بعينين ثابتتين. "لن تتمارض وتتغيّب عن العمل تلك الليلة. لن يفعل ذلك أحد منكم. لا يمكنك ذلك".

"لا، لا يمكننا ذلك. إذا كنا هناك، فبإمكاننا على الأقل جعل الأمر سريعا بالنسبة إليه. يمكننا جعل الأمر كذلك. لن يكون الأمر كما كان مع ديلاكروا". للحظة، كانت قصيرة رحمة بي، رأيت القناع الأسود يشتعل على رأس ديل كاشفا عن عينيه المشتعلتين كجمرتين.

"ليس من مخرج لك، أليس كذلك؟"، أخذت بيدي، ولامست خدها الناعم. "بول المسكين. أيها العجوز المسكين".

لم أقل شيئا. لم يحدث لي قبل أو بعد ذلك في حياتي أن شعرت وكأنني أهرب من شيء ما. كأنني آخذ جانيس معي - نحن الاثنان وحقيبة سفر بيننا - لنهرب إلى أي مكان.

كررت "حبيبي العجوز المسكين"، ثم قالت "تحدث معه".

"من؟ جون؟".

"نعم. تحدث معه. حاول أن تعرف ماذا يريد".

فكّرت في هذا الأمر، ثم أومأت برأسي. كانت محقّة. دائما ما كانت محقّة.

7

بعد ذلك بيومين، في اليوم الثامن عشر، أخذ بيل دودج وهانك بيترمان وشخص آخر لا أتذكره، شخص معاون، جون كوفي إلى العنبر (د) كي يستحم، وتدربنا على إعدامه في أثناء غيابه. لم ندع توت توت يأتي ليأخذ مكان جون، كنا نعرف جميعا، حتى من دون تصريح، أن من شأن ذلك أن يكون فاحشا.

ففعلت أنا ذلك.

"جون كوفي"، قال بروتال بنبرة صوت متهدجة بينما أنا أجلس متيبسا على سباركي العجوز، "لقد حكم عليك بالموت على الكرسي الكهربائي، قضى بهذا الحكم هيئة المحلفين المكونة من أقرانك...".

أقران جون كوفي؟ يالها من دعابة. على حدّ علمي، لم يكن هناك مثيل له على ظهر البسيطة. ثم فكرت في ما قاله جون بينما كان يحدق إلى سباركي العجوز من الدرجة الأخيرة في السلم المؤدي إلى الأسفل من مكتبي "لا يزالون هناك، أسمعهم يصرخون".

"أخرجوني من هنا"، صحت بصوت أجش، "حرروا هذه المقابض ودعوني أنهض".

فعلوا كما أمرتهم، لكن شعرت للحظة بأنني مجمد هناك، كما لو أن سباركي العجوز لا يريد أن يتركني أذهب.

في طريق عودتنا إلى الوحدة، تحدث بروتال إليّ بصوت منخفض، حتى لا يسمع دين وهاري اللذان كانا جالسين بعيدا خلفنا. "لقد قمت في حياتي بعدد من الأمور التي لا أفتخر بها، إلا أن هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها حقا بالخوف من الذهاب إلى الجحيم".

WWW.REWITY.COM

نظرت إليه لأتيقن من أنه لا يمزح. لا أعتقد أنه كان يمزح. "ماذا تعني؟".

قال "أعني أننا نعد العدة لنقتل هبة من الله، لنقتل شخصا لم يؤذِ أحدا منا، أو أي شخص آخر. ماذا عساي أقول عندما ينتهي بي الأمر واقفا بين يدي الديّان ويطلب مني أن أفسر لماذا فعلت ذلك؟ هل أقول إن هذه وظيفتي؟".

8

عندما انتهى جون من الاستحمام وغادر المعاونون، قمت بفتح زنزانته، وجلست بجانبه على السرير. كان بروتال جالسا إلى مكتب المناوبة. ونظر فرآني في مكاني هناك، لكنه لم يقل شيئا، وعاد ليشغل نفسه بالأعمال الورقية التي كان يقوم بها.

نظر إليه جون بعينيه المحمرتين وهو على وشك البكاء... ولكنه كان هادئا مع ذلك، كما لو أن البكاء ليس شيئا سيئا، وهو كذلك ما إن تعتاد عليه، بل لقد ابتسم ابتسامة خفيفة. كانت رائحة الصابون تفوح منه كطفل أخذ حمامه المسائي.

قال لي "مرحبا يا ريس". ثم مد يديه وأخذ يدي بينهما، حدث ذلك منه على نحو تلقائي.

"مرحبا يا جون". كانت هناك غصة صغيرة في حلقي، حاولت التخلص منها. "أعتقد أنك تعرف أننا نقترب من الأمر. يومان آخران".

لم يقل شيئا، جلس مكانه فقط قابضا على يدي. أعتقد، عندما أعود للتفكير في الأمر، أن شيئا ما بدأ يعتمل داخله، لكنني كنت مهيئا - ذهنيا وشعوريا - لأداء واجبي بالإخطار.

"هل هناك شيء خاص تشتهيه هذه الليلة على الغداء يا جون؟ إننا على استعداد أن نحضر لك أي شيء تريده، حتى شراب الشعير إن أردت، لكي تضعها هنا في فنجان القهوة، هذا كل ما في الأمر".

قال جون"لم أتذوقها من قبل".

WWW.REWITY.COM

"إذا، ماذا تشتهي؟".

تقطّب حاجباه أسفل جمجمته التي يبدو جلدها بنيا خاليا من الشعر، وبعد ذلك ابتسم "رغيف من اللحم سيكون شيئا جيدا".

"رغيف من اللحم. مع الصلصة". شعرت بوخز كالذي يشعر به المرء في ذراعه عندما ينام عليها، باستثناء أن هذا الوخز سرى في جسدي كله. في جسمي. "ماذا تريد إلى جانب ذلك؟".

"لا أعرف يا ريس، أي شيء لديك، باميا، ربما، لكن ليست مطلبا ضروريا".

قلت "حسنا"، واعتقدت أنه سيطلب الخوخ الذي تعده السيدة جانيس إيدجكومب كتحلية. "الآن، ماذا عن رجل الدين؟ شخص تتلو معه بعض الدعاء، الليلة بعد القادمة؟ إنه يريح الإنسان، لقد رأيت ذلك الكثير من المرات. يمكنني الاتصال بريفيريند تشستر، إنه الشخص الذي أتى عندما كان ديل -".

قال جون "لا أريد رجل دين. لقد كنت محسنا إليّ، يا ريس، يمكنك أن تقول بعض الدعاء، إذا أردت، سيكون ذلك حسنا. يمكنني الاستماع إليك قليلا، أعتقد".

"أنا يا جون، لا يمكنني -".

ضغط على يدي بشيء من القوة ثم قال "يمكنك، أليس كذلك يا ريس؟".

"أعتقد ذلك" سمعت نفسي أقولها. بدا صوتي وكأن له صدى. "أعتقد أن بإمكاني القيام بذلك، إذا اقتضى الأمر".

كان الشعور قويا في داخلي، كان مثلما كان من قبل، عندما عالجني من عدوى البول، لكنه كان مختلفا كذلك. وليس ذلك لأنني لا أعاني من أي مشكلات هذه المرة فقط، إنما لأنه لا يعرف أنه يقوم بذلك هذه المرة أيضا. وفجأة أحسست بالرعب وبالرغبة بمغادرة المكان، كانت

الأنوار تشتعل داخلي بالرغم من أنها لم تكن موجودة من قبل. ليس فقط في عقلي وإنما في جسدي كله.

قال جون كوفي "لقد أحسنت أنت والسيد هويل والرؤساء الآخرون معاملتي. أعرف أنك كنت تشعر بالقلق، لكن عليك أن تتخلص من ذلك الآن. لأنني أرغب بالرحيل أيها الزعيم".

حاولت الكلام لكنني لم أستطع. لكنه استطاع. إن ما قاله بعد ذلك كان أطول حديث سمعته منه.

"أنا متعب حقا من الألم الذي أسمعه وأشعر به أيها الزعيم، متعب من السير على الطريق وحيدا كطائر صغير في المطر. لم يكن لي مطلقا شخص أسير معه أو يخبرني إلى أين نحن سائران أو من أين نحن قادمان أو لماذا، أنا متعب من قسوة الناس على بعضهم بعضا. إن الآلام تملأ رأسي كشظايا من زجاج مكسور، متعب من المرات التي حاولت فيها المساعدة ولم أستطع، متعب من البقاء في الظلام. إن الألم مصيري في كل شيء وينتظرني أينما توجهت. آلامي أنوء تحت حملها ولو كان بإمكاني التخلص منها لفعلت، لكنني لا أقدر".

حاولت أن أقول له توقف عن ذلك، توقف عن ذلك، واترك يدي وإلا غرقت إن لم تفعل، سأغرق أو أنفجر.

"لن تنفجر"، قال لي، مبتسما قليلا للفكرة التي راودتني... لكنه ترك يدي.

انحنيت إلى الأمام، ألهث. كان بإمكاني أن أرى أدق الشقوق في الأرضية الإسمنتية، كل تجويف، كل قطعة وامضة، نظرت إلى الأعلى؛ كتبت هناك أسماء في الأعوام 1924، 1926، 1931. انمحت هذه الأسماء وانمحى من كتبوها كذلك، هكذا يقال، لكنني أعتقد أنه لا يمكن أن تمحو شيئا تماما، ليس عن هذا الزجاج المعتم للعالم، والآن أراها مجددا، مجموعة متشابكة من الأسماء تتراكب على بعضها بعضا، وكان

www.rewity.com RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

النظر إليها أشبه بالاستماع إلى الموتى يتحدثون ويغنون ويصرخون طلبا للرحمة، شعرت كأن عيني تكادان تجحظان من محجريهما، وسمعت نبضات قلبي، وصوت اندفاع الدماء في شراييني وأوردتي كرسائل تنبعث إلى مكان ما.

سمعت صافرة قطار على مسافة بعيدة؛ ربما قطار الساعة الثالثة والخمسين دقيقة المتجه إلى برايس فورد، لكنني لست متأكدا، لأنني لم أسمع صافرته من قبل أبدا. لا يمكن أن أسمعه من كولد ماونتن، لأنه لا يمر بسجن الولاية سوى عن بعد عشرة أميال إلى الشرق على الأقل، لم يحدث أن سمعته من السجن أبدا، حتى نوفمبر من العام 1932، حتى ذلك اليوم.

انفجر مصباح كهربائي في مكان ما داخل المبنى، وأحدث دويا كقنبلة.

"ما الذي فعلته بي؟"، همست. "ما الذي فعلته بي يا جون؟".

"آسف يا ريس" قالها بطريقة هادئة. "لم أكن أعتقد... ليس بكثير، أعتقد، ستشعر بأنك طبيعي قريبا".

نهضت، وتوجهت إلى باب الزنزانة. كنت أشعر وكأنني أمشي في حلم. عندما وصلت إليه سمعته يقول "تتساءل لماذا لم تصرخا. إنه الشيء الوحيد الذي تبحث له عن إجابة، أليس كذلك؟ لماذا لم تصرخ هاتين الفتاتان عندما كانتا لا تزالان هناك في الرواق".

استدرت ونظرت إليه، يمكنني أن أرى كل ومضة حمراء في عينيه، وكل فتحة من مسام وجهه... ويمكنني أن أشعر بآلامه تلك التي حملها عن أناس آخرين، كما تمتص قطعة الإسفنج المياه. يمكنني أن أرى الظلام الذي تحدث عنه كذلك، ذلك الظلام الذي يملأ كل آفاق العالم التي رآها، في تلك اللحظة داخلني شعور بالشفقة عليه والارتياح لأجله. نعم إنه شيء مرعب الذي سنفعله، ولن يحول دونه حائل، ومع ذلك

فإننا سنسدي إليه معروفا.

قال جون "لقد رأيت ذلك عندما جذبني ذلك الشخص السيّئ. وعندما عرفت كان قد فعلها، لقد رأيته ذلك اليوم، كنت بين الأشجار ورأيته يلقي بهما ويفر هاربا، لكن -".

"نسيت"، قلت له.

"هذا صحيح أيها الزعيم، حتى لمسني، نسيت".

"لماذا لم تصرخا يا جون؟ لقد آذاهما لدرجة جعلتهما تنزفان، كان أبواهما في الأعلى، إذا، لماذا لم تصرخا؟".

نظر إليّ جون بعينيه الغارقتين في التفكير. "لقد قال لإحداهما "لو صدرت منك ضجة، فسأقتل أختك، وليس أنت"، وقال الشيء نفسه للأخرى. أتدرك ذلك؟".

"نعم"، همست، أدرك ذلك. إن سقيفة عائلة ديتيريتش تقع في مكان مظلم، انكب عليهما وارتون كغول. ربما بدأت إحداهما بالصراخ، لذا قام بضربها، وبدأت تنزف من أنفها. وتبع ذلك معظم ما حدث.

قال جون "لقد قتلهما بحبهما. حبهما لبعضهما. أتتخيل الأمر؟".

أومأت برأسي غير قادر على الكلام.

ابتسم، كانت الدموع تنهمر مرة أخرى، لكنه ابتسم "هذا ما يحدث كل يوم"، قال دامعا "في كل مكان في العالم". ثم انكب على الأرض وجهه نحو الحائط.

خرجت متجها نحو الميل، أغلقت زنزانته، ومشيت إلى مكتب المناوبة، كنت أشعر وكأنني أعيش حلما. تحققت من أنني أستطيع سماع أفكار بروتال، همسا خافتا للغاية، كان يفكر في تهجئة كلمة يستلم على ما يبدو، كان يعتقد أن التاء تكتب قبل السين. ثم نظر إلى الأعلى وابتسم، وتوقف عندما نظر إليّ جيدا. "بول؟" سألني. "هل أنت بخير؟".

"نعم". أخبرته بعدها بما أخبرني به جون، ليس كل ما قاله، ولم

WWW.REWITY.COM

أخبره بالطبع بما اعتراني عندما لمسني (لم أخبر أي شخص بذلك الجزء، ولا حتى جانيس؛ إيلين كونيللي ستكون أول من يعرف ذلك، إذا كانت ترغب بقراءة هذه الصفحات الأخيرة)، لكنني رددت ما قاله جون عن رغبته بالرحيل. وهو ما أراح بروتال قليلا، لكنني شعرت بأنه (سمعته؟) يتساءل ما إذا كنت قد اختلقت ذلك حتى أريحه من عناء التفكير. ثم شعرت بأنه يقرر أن يصدق ذلك، لأن ذلك ببساطة سيجعل الأمور أسهل قليلا عندما تحين اللحظة.

سألني "بول، هل عاودتك العدوى، تبدو مبللا".

قلت له "لا، أعتقد أنني بخير". لم أكن بخير، لكنني شعرت في ذلك الوقت بأن جون كان بخير وأنني سأكون بخير كذلك. وشعرت بذلك الوخز آخذا في التلاشي.

"على كل حال، سيكون من الأفضل أن تذهب إلى مكتبك، وتستريح لبعض الوقت".

كان ذلك هو آخر ما أشعر أنني أريده في تلك اللحظة، كانت الفكرة تبدو سخيفة للغاية لدرجة جعلتني أضحك منها. إن ما كنت أشعر برغبة به هو أن أبني لنفسي منزلا صغيرا، ثم أقوم بتسقيفه، وحراثة حديقة خلفه وزراعتها بالنباتات، كل ذلك قبل العشاء.

قلت لنفسي إن هكذا تسير الأمور. كل يوم في أرجاء البسيطة كافة. هذا الظلام، في كل أنحاء العالم.

"سأقوم بجولة إلى الإدارة بدلا من ذلك، لأراجع بعض الأشياء هناك".

"ما دمت ترغب بذلك...".

ذهبت إلى الباب، وفتحته ثم نظرت إلى الخلف. قلت "لقد توصلت إلى الصواب، ي - س - ت - ل - م، السين قبل التاء. لكن على كل حال هناك استثناءات للقواعد في أغلب الأحوال -".

توجهت إلى الخارج، لا أشعر بالحاجة إلى النظر خلفي لأراه وهو يحدق فاغرا فاه من الدهشة.

لم أكفّ عن الحركة طوال الوقت المتبقي من هذه الوردية، لم أكن قادرا على الجلوس لأكثر من خمس دقائق قبل أن أعاود النهوض مجددا. ذهبت إلى الإدارة، ثم عدت منها، ثم ذهبت إليها عبر فناء التمرين الفارغ، لا بد من أن الحراس القابعين في الأبراج اعتقدوا أنني مجنون. لكن مع انتهاء الوردية، بدأ يداخلني الهدوء مجددا، وخفّت حدة الأفكار التي تعصف في رأسي كأوراق متناثرة.

في منتصف طريقي إلى المنزل هذا الصباح، عاودتني العدوى قوية مجددا. كان عليّ أن أتوقف بسيارتي الفورد على جانب الطريق وأخرج منها، وأن أعدو لمسافة نصف ميل تقريبا، رأسي إلى الأسفل، وذراعاي تدوران كمضخة، يندفع الهواء إلى داخل حلقي وخارجا منه دافئا كشيء حملته تحت إبطك. ثم أخيرا، بدأت أشعر أنني عدت إلى حالتي الطبيعية. عدت أهرول إلى حيث تركت سيارتي، ثم مشيت بقية الطريق يندفع نفسي في الهواء البارد. عندما وصلت إلى المنزل، قلت لجانيس إن جون كوفي قال إنه مستعد وإنه راغب بالرحيل عن هذا العالم. فهزت رأسها وقد بدت عليها الراحة. هل استراحت حقا؟ لا أعرف. قبل ذلك بست ساعات أو حتى ثلاث ساعات كان بإمكاني أن أعرف، لكن الآن لا يمكنني. كان ذلك جيدا. لقد ظل جون يقول إن التعب نال منه، الآن أفهم السبب، إن القدرة التي كانت لديه كان من شأنها أن تتعب أي شخص، لم يكن لأي شخص أن يعيش طويلا مستريحا وهو يملكها.

عندما سألتني جانيس لماذا أبدو مبتلا وتفوح مني رائحة العرق، أخبرتها أنني أوقفت السيارة في طريقي إلى المنزل وعدوت لبعض الوقت، عدوت بقوة، لقد أخبرتها بذلك مرارا؛ (هناك الكثير من

WWW.REWITY.COM

الصفحات هنا الآن يمكنني أن أنظر من خلالها إلى الوراء وأتحقق من الأشياء). لم يكن النوم يمثل جزءا كبيرا من حياتنا الزوجية، لكن لم أخبرها بالسبب.

ولم تسألني هي عنه.

9

كانت ليلة هادئة بلا عواصف عندما جاء دور جون كوفي للذهاب إلى الميل الأخضر. وكان الطقس في هذه المناطق يميل إلى البرودة في هذا الوقت من العام، أعتقد في الثلاثينيات، وكانت ملايين النجوم قد ملأت الأرجاء، ونشرت ضياءها على الحقول حيث بدت الغابة لامعة متألقة من وراء أعمدة السياج الحديدي، وتلألأت كحبات الماس فوق مزارع الذرة في شهر تموز.

كان بروتوس هويل في الخارج مواجها لذلك؛ وهو الذي من المفترض به أن يقوم بعملية تغطية الرأس وإعطاء أوامره لفان هاي بأن يبدأ التشغيل عندما يحين الوقت. وكان بيل دودج في الداخل مع فان هاي. وحين قاربت الساعة الحادية عشرة والثلث مساء يوم 20 نوفمبر، ذهبت بصحبة كل من دين وهاري إلى زنزانتنا الوحيدة المأهولة حيث كان جون كوفي جالسا عند حافة سريره ويداه متشابكتان بين ركبتيه وعلى ياقة قميصه الأزرق بعض أثار مقدار ضئيل من مرق اللحم. نظر إلينا من خلال القضبان، وقد بدا عليه الهدوء أكثر منا. وشعرت ببرودة في كلتا يديّ، وقد احمرت وجنتاي. فأدركنا شيئا وهو أنه مستعد، وقد سهل ذلك من مهمتنا على أقل تقدير؛ ولكن كان علينا أن ندرك أمرا آخر وهو أننا على وشك أن نقتله صعقا بالكهرباء عقابا له على جريمة ارتكبها شخص آخر.

كانت آخر مرة رأيت فيها هال مورس حوالى الساعة السابعة مساء هذا اليوم. وذلك في مكتبه، وهو يزرر معطفه. كان وجهه شاحبا ويداه ترتعدان بشكل غير عادي لدرجة أنني أردت أن أقصي يديه جانبا وأقوم أنا

WWW.REWITY.COM

بتزرير معطفه كما لو كان طفلا صغيرا. والمفارقة هنا أن مليندا كانت تبدو في حال أفضل مما كان عليه هال مساء تنفيذ حكم الإعدام في كوفي، وذلك عندما ذهبت مع جانيس لزيارتها نهاية الأسبوع الماضي.

قال لنا "أنا لن أحضر إعدام هذا الشخص، كيرتيس سيكون هناك، وأعلم أن كوفي سيكون بين أيدٍ رحيمة معك أنت وبروتوس".

قلت "حسنا يا سيدي، سنبذل قصارى جهدنا، هل هناك شيء عن بيرسي؟".

بالطبع كنت أقصد، هل سيعود؟ هل هو جالس الآن في إحدى الغرف في مكان ما ويخبر أحد الأشخاص - أحد الأطباء على الأرجح - وبلغة بيرسي، كيف أمسكنا به من معطفه البني وألقينا به في غرفة الحجز مثلما نفعل مع الأطفال المشاغبين؟ ولو كان هذا ما يحدث، فهل سيصدقونه؟

لكن وفقا لمورس فإن بيرسي على الحال نفسه؛ لا يتحدث، وكأنه، كما يقولون، ليس في هذا العالم. كان لا يزال في إنديانولا "يتم تقييمه" كما قال هال، يبدو مرتبكا تجاه هذه العبارة. ولكن لو لم يكن ليتحسن، فإنه سيتم نقله عما قريب.

حينها سأل هال "هل يبدو كوفي متماسكا؟". أخيرا تمكن من تزرير معطفه.

فأومأت برأسي قائلا "سيكون على ما يرام".

فأومأ برأسه متفقا معي، ثم ذهب ناحية الباب، تبدو عليه علامات الشيخوخة والمرض متسائلا ومتعجبا "كيف يمكن للخير والشر أن يتعايشا جنبا إلى جنب داخل الشخص نفسه؟ كيف يمكن للرجل الذي عالج زوجتي أن يقتل هاتين الفتاتين الصغيرتين؟ هل تجد تفسيرا لذلك؟".

قلت له إنني لا أجد، لله في خلقه شؤون، وإن الخير والشر يعيشان بداخلنا، ولم نكن لنسأل عن السبب. معظم ما قلته له تعلمته في دار عبادة

باريس جيسيس، الله القادر، وكان هال يومئ طيلة الوقت ويبدو عليه نوع من القوة والوقار أيضا. كان باديا على وجهه حزن شديد وكان يرتعد، حسنا، فلم أشكّ أبدا في ذلك؛ ولكن لم تكن هناك أي دموع هذه المرة لأن لديه زوجته وأصدقاءه الذين ينتظر العودة إليهم، وهي كانت على ما يرام. بفضل جون كوفي، فقد أصبحت بخير حال، والرجل الذي وقّع شهادة الوفاة لجون يمكنه أن يغادر ويذهب إليها. لم يكن بحاجة إلى مشاهدة ما سيتم. سيمضي هذه الليلة في دفء زوجته بينما سيمكث جون كوفي مستلقيا على لوح خشبي داخل سرداب مستشفى كونتري، يزداد جسده برودة تضاهي برودة تلك الساعات الموحشة والصامتة المتجهة ناحية الفجر. لقد حملت داخل أعماقي بعض الكره تجاه هال على هذه الأشياء. كرها ليس بالكثير وسأتغلب عليه ولكنه كان كرها، حسنا.

في هذه اللحظة دخلت إلى الزنزانة يتبعني كل من دين وهاري، كلاهما شاحبا الوجهين وتنتابهما حالة من الكآبة. سألت جون "هل أنت مستعد يا جون؟".

فأومأ، "نعم يا سيدي. أعتقد ذلك".

"حسنا، عندي شيء لأقوله قبل أن نغادر".

"تستطيع أن تقول ما تشاء يا سيدي".

"جون كوفي، باعتباري أحد الضباط العدليين...".

أكملت كلامي إلى نهايته، وعندما انتهيت وقف هاري تيرويليجر بجانبي ومد يده. وظهرت الدهشة على جون لثوانٍ ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة وصافحه. بدا على دين الشحوب أكثر من ذي قبل وقال بصوت أجش، "أنت تستحق أفضل من ذلك يا جون. وأنا أشعر بالأسف لذلك".

أجاب جون قائلا "سأكون على ما يرام، فهذا هو الجزء الأصعب وسأكون بخير حال فورا".

WWW.REWITY.COM

ثم نهض من مكانه تتدلى قِلادة سان كريستوفر التي أهدته إياها مليندا فوق قميصه.

فقلت، "إنني مضطر إلى أخذها يا جون، من الممكن أن أضعها مرة أخرى بعد... بعد، إذا ما أردت ذلك، ولكن لا بد من أن آخذها في الوقت الحالي".

لقد كانت مصنوعة من الفضة ولو ظلت متدلية على جسده عندما يقوم فان هاي بتوصيل التيار فربما تنصهر على جسده. حتى وإن لم يحدث لها ذلك فستتعرض للطلاء الكهربائي تاركة صورة مفخمة لها على صدره. فقد رأيت ذلك من قبل. نعم، لقد رأيت تقريبا كل شيء طيلة سنوات عملي في الميل، ولقد كان ذلك أكثر من جيد بالنسبة إليّ، لقد أيقنت ذلك الآن.

سحب جون السلسلة بيده، ووضعها في يدي. ووضعتها في جيبي، وأخبرته أن يتحرك إلى خارج الزنزانة. لم تكن هناك حاجة كي أفحص رأسه وأتأكد من أن جهاز الموصل الكهربائي سيكون محكم الغلق فقد كان رأسه ناعما مثل راحة يدي.

قال "لقد غلبني النوم في فترة الظهيرة ورأيت حلما يا سيدي، لقد حلمت بفأر ديل".

"حقا يا جون؟"، وسرت إلى يساره ووقف هاري إلى يمينه وسار دين خلفنا ومشينا متجهين إلى الميل الأخضر. بالنسبة إليّ كانت تلك المرة الأخيرة التي آخذ فيها هذا المسار مع أحد السجناء.

فقال "نعم، حلمت أنه ذهب إلى هذا المكان الذي تحدث عنه هويل، مدينة الفئران. وحلمت أن هناك أطفالا، وكيف كانوا سعداء بتلك الحيل التي يقوم بها! ياه!"، ثم ضحك على ما يدور في ذهنه وسرعان ما عادت الجدية إلى وجهه. وأكمل قائلا "وحلمت بأن هاتين الفتاتين الشقراوين كانتا هناك. وابتسمتا لي أيضا وعانقتهما ولم تكن هناك دماء

تتدفق من رأسيهما وكانتا بحالة جيدة. وشاهدنا كلنا السيد جينغلز وهو يقوم بدفع بكرة الخيوط وكيف كنا نضحك سعداء بذلك".

قلت، "حقا؟". كنت أعتقد أنه لا يمكنني تحمل ذلك لوقت طويل، لا أستطيع، كنت على وشك البكاء أو الصراخ أو ربما كان قلبي سينفجر من الأسى والحزن وأنها ستكون النهاية له.

دخلنا إلى مكتبي. نظر جون حوله للحظات، ثم جثا على ركبتيه من دون أن يطلب منه ذلك. كان هاري خلفه ينظر باتجاهي بعينين تملأهما الأفكار. بينما كان دين يبدو شاحبا من الموقف.

جثوت على ركبتي إلى جانب جون أتذكر ذلك الموقف الغريب المتناقض الذي وقعت فيه بعد كل هذا الكم الكبير من السجناء الذين سبق وأن قمت بمساعدتهم على إنهاء رحلتهم، هذه المرة كنت أنا ذلك الشخص الذي يحتاج إلى مَن يأخذ بيده ليساعده. هذا ما شعرت به على كل حال.

تساءل جون "ما الذي يجب أن ندعو الله من أجله يا سيدي؟".

قلت له من دون تفكير وأنا مغمض العينين "القوة، يا رب العالمين ساعدنا حتى ننهي ما بدأناه ولترحم هذا الرجل، جون كوفي - نطقتها مثل الشراب ولكن ليس بنفس التهجئة - ولترحب به في سمائك ولتحفظه. اللهم كن في عوننا حتى نودعه على الطريق الذي يستحقه وتمم لنا على خير. آمين".

ثم فتحت عيني ونظرت إلى دين وهاري. كان كلاهما بحال أفضل إلى حدٍّ ما. وكانا بحاجة إلى بعض الثواني لالتقاط أنفاسهما. شككت في أن دعائي كان السبب في ذلك.

نهضت عن الأرض، وأنا أمسك بذراع جون. ثمّ نظر إليّ نظرة يملأها الخوف والأمل. وقال "إنني أتذكر أحد الأدعية التي علمني إياه أحد الأشخاص عندما كنت صغيرا، على الأقل أعتقد أنني أتذكر. فهل

WWW.REWITY.COM

لي أن أردّده؟".

فقال دين، "ردّدها هنا، فلا يزال هناك المزيد من الوقت يا جون".

مسحت عينيّ بذراعي. وبينما كنت أستمع إليه، كنت أفكر في ديل فقد رغب بالدعاء هو كذلك.

قلت "آسف لذلك يا جون".

قال "لا بأس".

ثم ضغط على ذراعي وابتسم. وعندها... ساعدني، ساعدني إلى أبعد الحدود.

10

لم يكن هنالك حضور كبير - ربما كان هناك أربعة عشر شخصا، أي نصف عدد الذين حضروا إعدام ديلاكروا. وكان هومر كريبس هناك، يملأ كرسيه كالعادة، ولكنني لم أر النائب السيد ماكجي. فمثلما فعل واردن مورس، من الواضح أنه قرر عدم الحضور هذه المرة.

في مقدمة الصف الأمامي كان يجلس زوجان عجوزان لم أستطع التعرف إليهما بداية، بالرغم من أنني قد رأيت صورهما في العديد من المقالات الصحفية قبل ذلك اليوم في الأسبوع الثالث من شهر نوفمبر. بعد ذلك، وبمجرد أن اقتربنا من المنصة حيث كان ينتظر سباركي العجوز، انطلقت السيدة،

"فلتمت ببطء يا ابن...!".

حينها أدركت أنهما الزوجان ديتيريتش، كلاوس وميرجوري. لم أتعرف إليهما في البداية لأنك غالبا لا ترى أشخاصا في ذلك المكان لم يتعدوا عقدهم الرابع.

في هذه اللحظة دفع جون بكتفيه إلى الأمام بمجرد سماع صوت السيدة واستحسان الشريف كريبس. كان هانك بيترمان الحارس الذي كان قابعا بالقرب من الحاضرين لم يرفع عينيه عن كلاوس ديتيريتش. وكان ذلك بناء على أوامري، لكن كلاوس لم يتحرك نهائيا تجاه جون في هذه الليلة. لقد بدا هائما وكأنه في عالم آخر.

أما بروتال الذي كان واقفا إلى جوار سباركي العجوز فقد أشار ناحيتي بإصبعه بمجرد أن وصلنا إلى المنصة. فقد أخرج مسدسه وأمسك بمعصم جون ورافقه ناحية الكرسي الكهربائي بكل هدوء كما لو كان

WWW.REWITY.COM

صبيا يصطحب صديقته إلى حلبة الرقص.

سأل بصوت منخفض، "هل كل شيء على ما يرام يا جون؟".

"نعم يا سيدي، ولكن...".

كانت عيناه تتحركان من جانب إلى آخر في محجريهما، وللمرة الأولى كان ينظر مرعوبا ثم صاح، "ولكن يوجد هنا الكثيرون ممن يكرهونني، أستطيع أن أشعر بهم. يؤلمونني ويثقبون في جلدي مثلما يفعل النحل، ألم ألم".

فقال له بروتال بنفس الصوت المنخفض، "إذا، فلتشعر كيف نشعر بك، نحن لا نكرهك؛ هل تستطيع أن تشعر بذلك؟".

فأجابه بصوته الذي كان يرتعد أكثر من ذي قبل وقد بدأت عيناه تلقيان بدموعهما البطيئة مرة أخرى، "نعم يا سيدي".

صرخت ميرجوري ديتيريتش قائلة "اقتلوه مرتين!".

كان صوتها المغتاظ والثائر كالصفعة على وجه جون. انكمش جون ناحيتي، وبدأ بالنواح. "هيا، اقتلوا قاتل الأطفال ومغتصبهم، اقتلوه مرتين!".

كان كلاوس لا يزال ينظر وكأنه في حلم يقظة، فجذبها على كتفه، وبدأت تنشج.

رأيت هاري تيرويليجر وهو يبكي أيضا. ولم يشاهد أحد من الحاضرين دموعه لأن ظهره كان ناحيتهم، ولكنه كان يبكي. ولكن ماذا يمكن أن نفعل؟ أقصد تجاه الاستمرار في ذلك؟

قمت أنا وبروتال وأدرنا جون. قام بروتال وضغط على إحدى كتفي الرجل الضخم حتى جلس، ثم أمسك بذراعي سباركي البلوطيتين العريضتين وعيناه تتحركان من ناحية إلى أخرى، ولسانه يتحرك سريعا ليبلل أحد أركان فمه ثم يتحرك إلى الجانب الآخر.

جثوت على ركبتي ومعي هاري. وكنا يوم أمس قد أتينا ببعض

الحدادين الموثوق بهم في السوق ليقوموا بلحام رباطين حديديين ذوَي أبعاد مرنة للكرسي الكهربائي، ذلك نظرا إلى كون قدما جون بحجم قائمة إحدى الأبقار. ما زلت أعيش لحظات كالكابوس لما اعتقدته من أن الرباطين الحديديين لن يتناسبا مع مقاس جون، وأننا سنضطر إلى إعادته إلى زنزانته حين يتضح أن سام برودريك رئيس عمال الورشة لم يقم بعمله على الوجه المطلوب. قمت أنا وأعطيت دفعة أخرى أخيرة قوية براحتي يدي بينما كان الرباط الحديدي الذي من ناحيتي مغلقا. فاهتزت رجلا جون ولهث من الألم، فقد قرصت قدمه.

"آسف يا جون". همست له، ونظرت في الوقت ذاته إلى هاري، كان قد انتهى بسهولة من تثبيت الرباط الحديدي (فإما أن أبعاد الرباط الحديدي ناحيته كانت أكبر قليلا من مقاسه أو أن ربلة الساق اليمنى لجون كانت أصغر قليلا)، ولكنه كان ينتظر النتيجة بتعبير فيه شيء من الشك. خمنت أن بإمكاني فهم السبب في ذلك، فالرباطان الحديديان المعدّلان كانا يبدوان وكأنهما جائعان، وفكّا الرباطين كانا مثل فكّي التمساح.

قلت، "كل شيء على ما يرام"، تمنيت أن أكون صادقا... وأنني أقول الحقيقة. "امسح وجهك يا هاري".

مسح هاري وجهه بذراعه، مزيلا دموعه عن وجنتيه وعرقه عن جبهته. ثم استدرنا بعد ذلك، ووجدت هومر كريبس الذي كان يتحدث بصوت مرتفع إلى الرجل الجالس بجانبه (النائب العام، الذي ينطق حكمه مرتديا بدلته السوداء عتيقة الطراز)، قد التزم الصمت. لقد حان الوقت.

كان بروتال قد قام بتثبيت أحد معصمي جون، فيما ثبت دين المعصم الآخر. ومن فوق كتفي دين أستطيع أن أرى الطبيب وهو لم يعد فضوليا كعادته، واقفا مقابل الجدار وبين قدميه حقيبته السوداء. في

WWW.REWITY.COM

هذه الأيام، أعتقد أنهم يقومون بمهامهم فقط، خاصة مهمة حقن السوائل، أما في ذلك الوقت فكان عليك أن تستدعيهم إذا ما احتجت إليهم. ربما كان لديهم في ذلك الوقت فكرة أكثر وضوحا عن واجبات الطبيب التي ينبغي القيام بها، وإنهم يسيئون للعهد الذي أخذوه على أنفسهم عندما أقسموا أن يبذلوا ما في وسعهم حتى ينتزعوا الآلام من الناس.

أومأ دين برأسه إلى بروتال. ثم حرك بروتال رأسه وكان من الواضح أنه يشير إلى الهاتف الذي لم يكن ليجلب اتصالا بخصوص أمثال جون كوفي، ونادى جاك فان هاي "الدورة الأولى".

كانت هناك دندنة شبيهة بتلك الأصوات التي تصدر عن ثلاجة متهالكة، وازدادت الإضاءة قليلا. كانت لظلالنا أشكال سوداء أكثر حدة تتسلق الجدران وتبدو وكأنها تحوم وترفرف حول ظل الكرسي مثل النسور. أخذ جون نفسا عميقا، بينما بدت مفاصل أصابعه شاحبة اللون.

صرخت السيدة ديتيريتش من بين ذراعي زوجها، "هل هذا مؤلم؟ أتمنى أن يكون كذلك! أتمنى أن يكون ذلك مؤلما مثل نار الجحيم!". ضمها زوجها إليه، وإحدى فتحتي أنفه تنزف، ولاحظت قطرة حمراء تأخذ طريقها إلى الأسفل متجهة نحو شاربه. وعندما قرأت في الصحف في شهر مارس التالي أنه توفي بسبب سكتة قلبية، كنت أقل الناس اندهاشا لذلك على وجه الأرض.

وقف بروتال في مجال رؤية جون، ولمس كتفيه بينما كان يتحدث معه. لم يكن أمرا طبيعيا، لكن لا يعرف بذلك من الحضور إلا كيرتيس أندرسن الذي لم يبدُ أنه لاحظ الأمر. أعتقد أنه من نوع الرجال الذين لا يعتنون بشيء سوى القيام بمهام عملهم الحالي. لا يريدون سوى تأديتها. كان قد تطوع في الجيش بعد بيرل هاربور ولكنه لم يسافر أبدا إلى الخارج، ثم مات في حادث شاحنة في فورت براج.

ارتاح جون ليد بروتال. لا أعتقد أنه فهم الكثير، إن يكن قد فهم شيئا على الإطلاق، مما كان يقوله له بروتال ولكنه شعر بالراحة ليد بروتال وهي على كتفه. وبروتال الذي مات بنوبة قلبية منذ حوالى خمسة وعشرين عاما (كان يأكل شطائر السمك بينما يشاهد المصارعة الحرة على شاشة التلفاز عندما حدث له ذلك، هكذا قالت أخته) كان إنسانا طيبا، ربما كان أفضلنا. لم يكن لديه أدنى صعوبة في فهم كيف يمكن للإنسان أن تكون لديه الرغبة بالرحيل وفي الوقت ذاته خائفا من الرحلة.

"جون كوفي، لقد حكم عليك بالإعدام على الكرسي الكهربائي، هذا الحكم أيدته هيئة المحلفين وحكم به قاضٍ ذو سمعة طيبة في هذه الولاية. اللهم اجعل هذا بلدا آمنا. هل لديك أي شيء تقوله قبل تنفيذ الحكم؟".

بلل جون شفتيه مرة أخرى، ثم قال بوضوح خمس كلمات "إنني حزين لما أنا فيه".

صرخت والدة الطفلتين الراحلتين، "لا بد من أن تكون هكذا! أيها الوحش، لا بد من أن تكون هكذا! لا بد من أن تكون هكذا أيها اللعين!".

تحولت عينا جون ناحيتي، لم أرَ فيهما أي استسلام، ولم تنبثق منهما أي طمأنينة. كيف سيطيب لي أن أخبركم أنني استشعرت أي طمأنينة، وكيف سيطيب لي أن أخبر نفسي بذلك. ما رأيته كان الخوف والبؤس وصورة غير مكتملة. لقد كانت عيناه كعيني حيوان مذعور سقط في المصيدة. فقد فكرت في ما قاله عن وارتون وكيف أنه اختطف كورا وكاثي ديتيريتش من السقيفة من دون إثارة المنزل لقد قتلهما وقتل معهما حبهما. هذا ما يحدث يوميا. في كل مكان على وجه الأرض.

أخذ بروتال القناع الجديد عن المشبك النحاسي خلف الكرسي،

WWW.REWITY.COM

ولكن بمجرد أن شاهده جون وأدرك ما هو هذا الشيء، اتسعت عيناه، وامتلأت رعبا. نظر نحوي، وأستطيع الآن أن أرى قطرات ضخمة من العرق تقبع فوق رأسه العاري. قطرات عرق ضخمة تشبه في ضخامتها بيض طائر أبو الحناء.

قال بهمس أشبه بالبكاء، "من فضلك يا سيدي، لا تضع هذا الشيء على وجهي، أرجوك لا تضعني في الظلام، لا تجعلني أدخل إلى الظلام، فأنا خائف من الظلام".

كان بروتال ينظر إلي رافعا حاجبيه، وقد تجمد في مكانه، والقناع في يده. كانت عيناه تقولان إنه يمكنه أن يقوم بالمهمة في كلتا الحالتين. فكرت سريعا جدا بقدر المستطاع. يعتبر القناع شكلا تقليديا، ولكن لم ينصّ عليه القانون، والهدف منه في الحقيقة هو مراعاة شعور الحاضرين. قررت فجأة أن الحاضرين ليسوا بحاجة إلى أن تنزل بهم الرحمة، بصفة خاصة، هذه المرة. فإن جون لم يقترف عملا لعينا في حياته كي يحكم بموته تحت قناع. فالحاضرون لم يدركوا ذلك ولكننا أدركنا هذا الأمر، وقررت أن ألبي له طلبه الأخير. أما بالنسبة إلى ميرجوري ديتيريتش، فربما ترسل إليّ برقية شكر.

همست قائلا، "حسنا يا جون".

أعاد بروتال القناع إلى مكانه. ومن خلفه صرخ هومر كريبس بسخط وبصوته الأجش العميق قائلا، "أيها الولد! ضع هذا القناع على وجهه! هل تظن أننا نريد مشاهدة عينيه وهما تنفجران؟".

فقلت له من دون أن ألتفت إليه "اهدأ يا سيدي، هذا إعدام وأنت لست مسؤولا عن ذلك".

فهمس هاري قائلا، "ليس أكثر من مسؤوليتك عن القبض عليه أيها القذر". مات هاري عام 1982 عن عمر ناهز الثمانين، رجلا عجوزا، ليس من فئتي بالطبع، لكنهم كانوا قلة. مات بسبب أحد أنواع سرطان

الأمعاء.

انحنى بروتال، وأخرج من جعبته القرص الإسفنجي. وضغط بإصبعه عليه وعصر منه السائل، ولكنه بالكاد كان مضطرا إلى ذلك ورأيت ذلك الشيء البني القبيح المتقطر وأدخله في الخوذة ثم وضعها على رأس جون. ولأول مرة لاحظت أن بروتال كان شاحب اللون إلى حدٍّ بعيد، على وشك أن يغمى عليه، وأعتقد أنه كان يقول في قرارة نفسه أنه وللمرة الأولى في حياته يطارده خطر الجحيم لأننا كنا بصدد قتل هبة من عند الله. وانتابني شعور مفاجئ ورغبة بالغثيان، ولكنني تمكنت من السيطرة على نفسي. كانت قطرات المياه تتساقط من القرص الإسفنجي على جانبي وجه جون.

قام دين ستانتون بوضع الحزام حول صدر جون - بعد أن فتح الحزام إلى آخره - وأعطاني إياه. فقد بذلنا كل هذا المجهود كي نحمي دين ليلة رحلتنا، لأن لديه أطفالا؛ ولم يكن أحد يعلم أنه لن يعيش أكثر من أربعة أشهر أخرى. فبعد انتهاء قصة جون كوفي، طلب دين أن يتم نقله بعيدا عن سباركي العجوز إلى المبنى (جـ)، وهناك طعنه أحد السجناء في عنقه، وأطلق العنان لدمائه كي تسيل على الأرض القذرة. لم أعرف السبب، ولا أعتقد أن هناك مَن يعرف السبب. حينما أرجع بذاكرتي إلى تلك الأيام، أرى في سباركي العجوز أحد أشكال الحماقة. كانت طبيعتنا هشة وضعيفة مثل الزجاج المحطم حتى في أحسن الأحوال. أن نقتل بعضنا بالغاز والكهرباء وبهدوء أعصاب؟ قمة الحماقة والرعب.

تفحّص بروتال الحزام، ثم رجع إلى الخلف، وانتظرته كي يتكلم، ولكنه لم يتكلم. حيث وضع يديه خلف ظهره، ووقف في وضع الانتباه العسكري، كنت أعلم أنه لن يفعل، أو بالأحرى لن تكون لديه القدرة على القيام بذلك. لم أظن أنني سأستطيع أيضا، ولكن حين نظرت إلى

WWW.REWITY.COM

عيني جون الخائفتين الباكيتين، وأيقنت أنني مضطر، حتى ولو صاحبتني اللعنة إلى الأبد، فأنا مضطر.

قلت بصوت ساحق بالكاد تعرفت إليه كصوتي "الدورة الثانية".

طنت القبعة. إبهامان وثمانية أصابع ضخمة ارتفعت من نهاية ذراعي الكرسي البلوطيتين العريضتين وتحركت بشدة وارتعدت في جميع الاتجاهات، ارتعدت الأطراف، وحاولت ركبتاه الضخمتان الهرب، لكن أنى ذلك من الأربطة الحديدية. انطفأت ثلاثة من المصابيح الضوئية المعلقة فوق رأسه محدثة صوتا انفجاريا! فصرخت ميرجوري ديتيريتش، وأغمي عليها بين ذراعي زوجها. توفيت في ممفيس بعد ذلك بثمانية عشر عاما، حيث أرسل لي هاري نعيها، ماتت في حادثة سيارة.

اندفع جون من شدة التيار إلى الأمام على عكس اتجاه حزام الصدر، وللحظة تقابلت أعيننا. كانت عيناه لا تزالان واعيتين وكنت أنا آخر شيء رآه جون بينما نحن ندفعه ليسقط عن حافة الحياة. بعدها سقط منحنيا إلى الأمام، وانحرفت الخوذة قليلا عن رأسه يتصاعد منها الدخان المفحم. لكن الأمر تم بسرعة وربما بلا ألم أو معاناة، مثلما يدّعي دائما صانعو تلك الكراسي (حتى إن أكثرهم عنفا دائما ما تكون لديهم الرغبة للتحقق منها بأنفسهم)، ولكن تمت المهمة بسرعة كبيرة. أصبحت اليدان منهكتين مرة أخرى، وتحولت الحلقات ذات اللون الأزرق والأبيض تحت أظافره إلى اللون الأرجواني الداكن، وألسنة الدخان لولبية الشكل تأخذ طريقها من فوق وجنتيه اللتين كانتا لا تزالان رطبتين بالمياه المالحة التي سالت من القرص الإسفنجي، واختلطت بدموعه.

الدموع الأخيرة لجون كوفي.

11

كنت بخير حال حتى رجعت إلى منزلي، وكان الفجر على وشك البزوغ، وبدأت الطيور شدوها. أوقفت سيارتي، وخرجت منها، وصعدت من السلم الخلفي، وحينذاك بدأت تغمرني ثاني أكبر الأحزان التي حلت عليّ في حياتي. كنت أفكر، كيف كان خائفا من الظلام. تذكرت المرة الأولى التي تقابلنا فيها، وكيف طلب حينها أن نترك له مصباحا مضاء في الليل، فتجمدت قدماي، جلست على الدرج، ووضعت رأسي بين ركبتي وبكيت. لم يكن بكائي حزنا على جون وحده، ولكن كان بكائي حزنا علينا جميعا.

خرجت جانيس، وجلست بجواري، ووضعت إحدى ذراعيها على كتفي، وقالت "أنت لم تؤلمه بقدر الإمكان، هل آلمته؟".

فهززت رأسي نافيا وقلت "هو أراد الرحيل".

قالت "ادخل إلى المنزل، ولنحتسِ فنجانا من القهوة".

ساعدتني على الوقوف. وذكرني ذلك بجون وكيف قد ساعدني على النهوض بعد أن دعونا سويا.

قاومت حتى مر الصباح الأول ومن بعده الظهيرة الأولى ثم حان وقت رجوعي إلى العمل. الوقت يأخذ معه كل شيء سواء أرضينا أم أبينا. الوقت يأخذ كل شيء ويحمل كل شيء بعيدا، وفي النهاية لا نجد إلا الظلام، أحيانا نجد الآخرين في هذا الظلام، وأحيانا نفقد أثرهم مرة أخرى. أعرف كل ذلك باستثناء أن هذا قد وقع عام 1932، عندما كان السجن لا يزال في كولد ماونتن.

بالطبع كان لا يزال هنالك الكرسي الكهربائي.

WWW.REWITY.COM

12

عند حوالى الساعة الثانية والربع بعد الظهر، جاءتني صديقتي إيلين كونيللي حيث كنت جالسا في الغرفة المشمسة وأمامي آخر صفحات قصتي مرتبة أمامي، وكان وجهها شاحبا للغاية وتحت عينيها هالات داكنة، أعتقد أنها كانت تبكي.

كنت أنظر من خلال النافذة إلى التلال الموجودة شرقا وقد وضعت يدي عند نهاية معصمي وهي تخفق، ولكن كانت تخفق بهدوء شديد، وكنت أشعر إلى حدٍّ ما بأنني خاوٍ من داخلي. لقد كان شعورا مريعا ورائعا في الوقت ذاته.

كان من الصعب أن أواجه عيني إيلين؛ كنت خائفا من الكره والاحتقار اللذين ربما أجدهما في عينيها، لكنّ عينيها كانتا كحالهما دوما، حزينتين وحائرتين، وليس فيهما أي كره أو احتقار أو إنكار.

فسألتها وقد أمسكت ببعض من الأوراق التي كانت أمامي، "هل تريدين باقي القصة. إنها هنا، ولكنني سأتفهم إذا لم يكن لديك الرغبة -".

فقالت "ليست المسألة هي ما أريده، ولكن يجب أن أعرف كيف انتهت، بالرغم من أنني أعتقد أنك قد نفذت فيه حكم الإعدام في النهاية. إن تدخل القدرة الإلهية في تحديد مصائر الأشخاص العاديين مبالغ فيه في هذه القصة. أعتقد ذلك، ولكن قبل أن آخذ تلك الأوراق... بول...".

توقفت فجأة عن الكلام كما لو كانت غير متأكدة كيف ستكمل. انتظرت، فأحيانا لا تستطيع مساعدة الناس، وأحيانا من الأفضل ألا

تحاول ذلك.

"بول، أنت تتحدث هنا كما لو كان لديك طفلان ناضجان في العام 1932؛ ليس لديك طفل واحد، بل اثنان. إذا لم تتزوج بجانيس عندما كنت في الثانية عشرة من عمرك وهي في الحادية عشرة، شيء من هذا القبيل -".

فابتسمت قليلا وقلت، "كنا صغيرين عندما تزوجنا؛ الكثير من الناس كانوا هكذا - أمي مثلا - ولكن لم نكن صغيرين لهذه الدرجة".

"إذا، كم يبلغ عمرك؟ كنت دائما ما أفترض أنك في بدايات عقدك الثامن، ومن الممكن أن أكون أصغر سنا منك، ولكن وفقا لذلك...".

فقلت، "عندما جاء جون إلى الميل الأخضر كنت قد بلغت الأربعين عاما، فقد ولدت عام 1892 وبذلك فإن عمري مئة وأربع سنوات، ما لم تكن حساباتي غير صحيحة".

فحدقت إليّ من دون أن تتكلم.

فقدمت ما تبقى من الأوراق التي خططتها بيدي، متذكرا مرة أخرى كيف لمسني جون هناك في زنزانته.

لن تنفجر، قال لي ذلك مبتسما لما يدور في ذهني، ولكنني لم أنفجر، ولكنّ شيئا ما حدث لي، شيئا لا نهاية له.

قلت لها، "اقرأي ما تبقى من القصة وستجدين إجاباتي فيها".

فقالت بصوت خافت، "حسنا، أنا خائفة قليلا، لا يمكنني أن أكذب حيال ذلك، ولكن... لا مانع. أين ستكون؟".

قمت من مكاني ممددا جسدي ومستمعا بطقطقة ظهري. شيء واحد كنت متأكدا منه وهو أنني كنت في غاية الإعياء والمرض بسبب الغرفة المشمسة. قلت لها، "سأكون هناك في ملعب الكروكي، لا يزال هناك شيء أود أن أريك إياه، وهو في ذاك الاتجاه".

قالت، "هل هو... مرعب؟"، رأيت في نظرتها الخائفة الطفلة

WWW.REWITY.COM

الصغيرة وقد عادت إلى الزمن الذي كان يعتمر فيه الرجال القبعات المصنوعة من القش في فصل الصيف ويرتدون جلود حيوان الراكون في الشتاء.

فقلت لها مبتسما، "لا، ليس مرعبا".

أخذت الصفحات وقالت "حسنا، سآخذ تلك الأوراق إلى غرفتي وأراك في ملعب الكروكي..."، قلبت الأوراق تقدرها وقالت "أربعة؟ أليس كذلك؟".

"بالضبط". قلت لها وأنا أفكر في براد دولان الفضولي، لا بد من أنه ذهب الآن.

مدت يدها نحوي، وصافحتني ثم تركت الغرفة. فوقفت للحظات أنظر باتجاه المائدة التي أصبحت خالية تماما باستثناء وجبة الإفطار التي أحضرتها لي إيلين هذا الصباح، أخيرا ذهبت أوراقي المبعثرة. أحيانا لم أستطع أن أصدق أنني قد أنهيتها... وكما تلاحظون، فقد قمت بتدوين كل هذا بعد تنفيذ حكم الإعدام بجون كوفي، وحتى بعد أن أعطيت آخر دفعة من الأوراق لإيلين، لم أنتهِ بعد، هناك جزء ما في داخلي يعرف السبب.

ألاباما

أخذت آخر قطعة من الخبز المحمص عن الصينية، ونزلت متجها إلى ملعب الكروكي، حيث توقفت تحت أشعة الشمس، وشاهدت عددا من المباريات الزوجية والبطيئة، كان اللاعبون يلوحون ناحيتي بمضاربهم الخشبية، يفكرون في ما يدور برأس رجل عجوز، ثم تركوني للشمس كي تنشر الدفء في عظامي المتهالكة.

حوالى الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة بدأ أفراد وردية الساعة الثالثة إلى الحادية عشرة يتوافدون الواحد تلو الآخر من ساحة ركن

السيارات، وعند تمام الثالثة غادر أفراد وردية النهار جميعا في مجموعات عدا براد دولان الذي كان يسير وحده. كان مشهدا مبهجا نوعا ما، فربما لم يذهب العالم كله إلى الجحيم بعد. كان أحد كتيباته الساخرة بارزا من جيبه الخلفي. إن الطريق إلى موقف السيارات يمر من خلال ملعب الكروكي، ولذلك فقد رآني هناك ولكنه لم يلوح لي أو حتى يعبس في وجهي. لا بأس بذلك بالنسبة إليّ. ركب سيارته الشيفروليه القديمة التي حملت ملصقا على متلقي الصدمات. ثم غادر إلى حيث يذهب عندما لا يكون هنا، مخلفا وراءه أثرا من زيت المحرك.

عند حوالى الساعة الرابعة، لحقت بي إيلين، تماما كما وعدتني. كان يبدو في عينيها أنها كانت تبكي، وضعت ذراعيها حولي وعانقتني قائلة "يا له من مسكين جون كوفي، وبول إيدجكومب أيضا".

سمعت جانيس تقول، كم أنت مسكين يا بول. أيها العجوز المسكين.

بدأت إيلين تبكي مرة أخرى، فاحتضنتها في ملعب الكروكي تحت أشعة الشمس التي قاربت على الغروب، وبدا ظلّانا كما لو كانا يتراقصان مع بعضهما.

أخيرا، تمالكت نفسها، وارتدّت إلى الخلف قليلا، وعثرت على منديل في جيب قميصها، ومسحت دموعها المنهمرة من عينيها وقالت "ماذا حدث لزوجة واردن يا بول؟ ماذا حدث لمليندا؟".

قلت لها "لقد كان إنجاز العصر، على الأقل من وجهة نظر أطباء مستشفى إنديانولا".

أخذت بيدها، ومشينا باتجاه الممر الذي يخرجنا من ساحة رَكن سيارات الموظفين والمؤدي في الوقت ذاته إلى الغابة، باتجاه السقيفة الموجودة بجوار السور الفاصل بين جورجيا سنايبز وعالم الشباب، قلت لها "لقد ماتت نتيجة أزمة قلبية وليس بسبب سرطان المخ بعد ذلك

WWW.REWITY.COM

بعشرة أعوام أو أحد عشر عاما، وتوفي هاري عن عمر الثلاثة والأربعين نتيجة سكتة قلبية ربما في يوم بيرل هاربور، حسبما أتذكر، وهكذا فقد عاشت بعده عامين. انظري المفارقة".

"وماذا عن جانيس؟".

قلت لها "أنا لست جاهزا للحديث عن ذلك اليوم، سأخبرك في وقت لاحق".

"هذا وعد؟".

"أعدك بذلك". لكنه كان عهدا لم أستطع أبدا الوفاء به. فبعد ثلاثة أشهر من ذلك اليوم الذي مشينا فيه معا باتجاه الغابة، (لكم وددت أن أحتضن يدها لولا خشيتي من أن أتسبب بالألم لأصابعها المنتفخة)، ماتت إيلين في سريرها، كما حدث مع مليندا مورس تماما، فقد ماتت نتيجة سكتة قلبية. وذكر الممرض أنها كانت تبدو هادئة، كما لو كان الموت قد أتاها فجأة من دون أن يسبب لها أي معاناة. أتمنى أن يكون محقا في ما قاله، فقد أحببت إيلين، وأشعر بالحنين إليها هي وجانيس وبروتال؛ إلى جميعهم.

واصلنا السير حتى السقيفة الثانية في الممر الذي يوجد عند نهاية السور في أجمة من أشجار الصنوبر، وكانت الظلال تغطي سقفها المنخفض ونوافذها. اتجهت نحوها، وتراجعت إيلين إلى الوراء للحظات خائفة.

قلت لها "ليس ثمة ما يخيف، تقدمي".

لم يكن هناك مزلاج في الباب - كان فيه مزلاج ذات مرة ولكنه فقد - ولذلك استعنت بلفافة من الكرتون لإغلاقه. قمت بإزالتها، ودخلنا إلى السقيفة، وتركت الباب مفتوحا على مصراعيه كي يبدد الضوء ذلك الظلام الذي يملأ أركانها.

"بول، ما هذا؟... آه. آه!" وكانت "آه" الثانية أقرب إلى الصراخ.

كانت هناك طاولة في أحد الأركان، وعليها مصباح كهربائي وحقيبة أوراق بنية اللون، وعلى الأرضية المتسخة كان هناك صندوق سجائر ماركة هاف - أيه - تامبا، كنت قد حصلت عليه من متعهد إعادة ملء زجاجات المشروبات وماكينات الحلوى. فقد طلبت منه هذا الصندوق بصفة خاصة، وبما أن شركته كانت تبيع أيضا منتجات التبغ، فكان من السهل عليه إحضاره. وقد عرضت عليه أن يأخذ ثمن الصندوق - كان ذلك من السلع القيمة في أثناء عملي في كولد ماونتن كما أخبرتكم - ولكنه أبى أن يأخذ شيئا.

عند حافة الصندوق، كنت تستطيع أن ترى عينين صغيرتين براقتين زيتيّتي اللون.

قلت بصوت منخفض "سيد جينغلز، تعالَ إلى هنا أيها العجوز وشاهد هذه السيدة".

كدت أسقط على الأرض؛ تألمت ولكنني عاودت النهوض. في البداية، لم أكن أتخيل أنه سيتمكن من تسلق جانب الصندوق هذه المرة، ولكنه فعلها بعد أكثر من محاولة، وقع على جانبه ثم وقف مجدّدا وجاء ناحيتي. ركض جينغلز وهو يعرج على إحدى قائمتيه الخلفيتين، فقد عاودته الإصابة التي ألحقها به بيرسي في شيخوخته. شيخوخته البالغة. فباستثناء رأسه وحافة ذيله فقد تغير لون وبره إلى اللون الرمادي.

قفز إلى راحة يدي، ورفعته، ثم مد عنقه إلى الأمام ليتنشق أنفاسي وأذناه قابعتان إلى الخلف وعيناه الصغيرتان الداكنتان تملأهما الحدة. مددت يدي ناحية إيلين التي أخذت تنظر إلى الفأر بتعجب فاغرة فاها من الدهشة.

قالت وهي تنظر إليّ "مستحيل، بول، يا للهول، أليس هذا... مستحيل!".

مددت يدي إلى الحقيبة الموجودة على الطاولة، وأخذت منها بكرة

WWW.REWITY.COM

الخيوط التي لونتها بنفسي؛ ليس بأقلام كرايون كما لونها ديل أول مرة، ولكن بأقلام ماجيك ماركرز، اختراع فائق الخيال في العام 1932. كانت براقة مثل ديل. سيداتي سادتي، أهلا وسهلا بكم في سيرك الفئران!

جلست مرة أخرى، ونزل السيد جينغلز عن راحة يدي، فقد كان كهلا، وكان قلقا كما هو دائما. منذ اللحظة التي التقطت فيها بكرة الخيوط من الحقيبة، لم يشغل بال السيد جينغلز أي شيء سوى تلك البكرة. دحرجت البكرة على أرضية الكوخ غير المستوية ثم ركض خلفها في الحال. لم يركض بسرعته القديمة وكان من المؤلم مشاهدته وهو يعرج، ولكن لماذا كان يتوجب عليه أن يكون سريعا أو راسخا في مكانه؟ فكما قلت، كان كهلا فانيا، الأب الذي انحدرت منه الفئران، أربعة وستون عاما على الأقل.

وصل إلى البكرة التي اصطدمت بالحائط وارتدّت. وأخذ يدور حولها ثم رقد على جانبه. حاولت إيلين الاتجاه إلى الأمام ولكنني أعدتها إلى الخلف. بعد دقيقة استعاد السيد جينغلز اتزانه مجددا، وقام بدفع البكرة بأنفه ببطء شديد إلى ناحيتي. عندما جاء أول مرة - وجدته راقدا على السلم المؤدي إلى المطبخ بنفس هذه الطريقة كما لو كان قد سافر مسافة طويلة أرهقت بدنه -كان لا يزال قادرا على قيادة البكرة ودفعها كما قد فعل طيلة هذه السنوات الماضية في الميل الأخضر. كان ذلك منذ زمن، ولكن الآن، لم تعد قدماه الخلفيتان قادرتين على دعمه. مع ذلك، فقد تلقى أنفه تعليما كما هو معتاد، فما عليه سوى أن يحفظ اتزان البكرة على مسارها من خلال التنقل في ما بين طرفي البكرة دافعا إياها بأنفه. عندما وصل إليّ، وضعته على راحة يدي - لم يكن وزنه يزيد بكثير عن وزن الريشة - أمسكت البكرة بيدي الأخرى التي لم تفارقها أبدا عيناه الداكنتان البراقتان.

قالت إيلين بصوت منكسر "لا تفعل ذلك مجددا يا بول، فأنا لا

أقوى على مشاهدته".

فهمت كيف كان شعورها، ولكنني اعتقدت أنها كانت غير مصيبة في طلبها. لقد أحب المطاردة وجلب بكرة الخيوط؛ وبعد كل هذه السنوات، لا يزال يحب ذلك كثيرا. علينا جميعا أن نكون سعداء الحظ بعواطفنا.

قلت "يوجد في الحقيبة حلوى النعناع أيضا، نعناع كندا. وأعتقد أنه لا يزال يحبها - فلن يتوقف عن تنشقها إذا ما أخرجت له إحداها - ولكن قدرته على الهضم لن تسعفه على أكلها. لذلك أحضرت له الخبز المحمص بديلا عنها".

جثوت على ركبتيّ، وكسرت له قطعة هشة من الخبز المحمص الذي أحضرته معي من الغرفة المشمسة ووضعتها على الأرضية. اتجه نحوها السيد جينغلز، وشمّها ثم أمسك بها بين براثنه، وبدأ بأكلها وذيله الأنيق ملتف حوله بشكل رائع حتى انتهى من أكلها ثم نظر إلى الأعلى منتظرا المزيد.

قلت لإيلين وقد أعطيتها الخبز المحمص "في بعض الأحيان، قد تندهشين لشهيتنا نحن الكهول. فلتحاولي".

قامت بكسر قطعة أخرى، ووضعتها على الأرض، فاقترب السيد جينغلز منها، وشمّها ونظر إلى إيلين... ثم أخذها، وبدأ بأكلها.

قلت "هل رأيت؟ إنه يعلم أنك لست معتادة على هذه المهمة".

"من أين جاء يا بول؟".

"لا أعرف. ذات يوم عندما كنت خارجا إلى عملي في الصباح الباكر، وجدته راقدا على سلم المطبخ. وأدركت في الحال أنه هو، ولكن أتيت بإحدى بكرات الخيوط من سلة المهملات في غرفة الغسيل فقط كي أتأكد. وأحضرت له صندوق سجائر وبطنته بأنعم المواد التي تمكنت من العثور عليها، فهو مثلنا يا إيلين، لا يزال يحتفظ بجزء من حيويته

WWW.REWITY.COM

للحياة. فلا يزال يعشق بكرته، ولا يزال يحب زيارة رفيق البكرة القديم. منذ ستين عاما وأنا أحمل في داخلي قصة جون كوفي، منذ ستين عاما وأكثر، والآن أفضيت بها، وإلى حد ما فأنا أعرف سبب رجوعه، وهو أن يجعلني أعرف أنه يتوجب علي الإسراع والقيام بذلك بينما ما زال أمامنا وقت. ولأنني مثله تماما؛ ذاهب إلى هناك".

"إلى أين؟".

قلت لها "آه، أنت تعرفين". وقفنا نترقب السيد جينغلز للحظات صامتين، ثم قمت من دون مبرر بدحرجة البكرة مجددا بالرغم من أن إيلين طلبت مني ألا أفعل. ربما يرجع السبب إلى أنه في مطاردته للبكرة يشبه العجائز وهم يقيمون شكلا من أشكال العلاقات الجسدية البطيئة والحريصة والتي ربما لا تكون لديكم الرغبة بمشاهدته أنتم أيها الشباب المقتنعون تماما أنه عندما تصلون إلى هذه المرحلة من الشيخوخة ستكون حالة استثنائية، ولكن لا تزال لديكم الرغبة للقيام بذلك.

تقدم السيد جينغلز خلف البكرة مرة أخرى وهو يتألم بشكل واضح، وتتملكه سعادة قديمة مفرطة وواضحة (على الأقل من وجهة نظري).

همست وهي تشاهده يذهب قائلة "نوافذ اللبلاب الزجاجية".

"نوافذ اللبلاب الزجاجية"، وافقتها مبتسما.

"جون كوفي لمس الفأر بنفس الطريقة التي لمسك بها، فهو لم يعالجك فقط مما أصابك حينها، ولكنه جعلك... مقاوما؟".

"أعتقد أنها كلمة لا بأس بها".

"مقاوما للأشياء التي تهدمنا، مثل الأشجار عندما يكتسحها النمل الأبيض. أنت... وهو؛ السيد جينغلز. عندما وضعه جون في راحة يده".

"هذا صحيح. تلك القوة التي تمتع بها جون - هذا ما أعتقده

على كل حال - والآن فقد زالت أخيرا هذه القوة، وشق النمل الأبيض طريقه ناخرا في لحائنا، بالرغم من أنه استغرق وقتا أطول من المعتاد، ولكنه وصل إلى غايته. ربما تبقى في عمري سنوات قليلة ولا يزال الإنسان يعمر أكثر من الفئران، على ما أعتقد، ولكن عمر السيد جينغلز قد أوشك على الانتهاء".

وصل جينغلز إلى البكرة وأخذ يدور حولها ثم سقط على جانبه وهو يتنفس بسرعة (كنا نستطيع أن نرى رئتيه من تحت وبره الرمادي وهما تتحركان مثل الأمواج)، ثم عاد، ونهض، وبدأ يدفعها بشجاعة بأنفه. كان وبره رمادي اللون، وكانت مشيته خلف البكرة وهو يدفعها غير متزنة، ولكن عينيه زيتيتي اللون كانتا لا تزالان تحتفظان ببريقهما.

قالت "هل تعتقد أنه كان يريدك أن تقوم بكتابة ما كتبته. هل الأمر هكذا يا بول؟".

قلت "ليس السيد جينغلز، ولكن القوة التي -".

"لماذا؟ بولي وإيلين كونيللي أيضا!"، جاء الصوت صارخا من ناحية الباب المفتوح. كان الصوت مرعبا ومهددا.

"وبما أنني على قيد الحياة! ما الذي تفعلانه هنا؟".

فالتفت، ولم أكن مندهشا على الإطلاق أن يكون براد دولان هو الذي كان قادما ناحية الباب وكان مبتسما كشخص ينتابه شعور بأنه قد خدعك على الوجه الأكمل. كم تبلغ المسافة التي قطعها بسيارته بعد انتهاء ورديته؟ ربما ما يقطعه راعي البقر بحثا عن علبتي شراب.

قالت إيلين بهدوء أعصاب "اخرج من هنا، اخرج الآن".

فرد عليها وهو لا يزال مبتسما "لا تقولي لي أن أخرج أيتها العجوز الشمطاء، يمكن أن تقولي لي ذلك وأنت فوق التل، ولكنك الآن لست فوق التل، من المفترض ألا تكوني هنا، لقد تخطيت حدودك، هل هذا عش الغرام الصغير يا بولي؟ هل هذا ما لديك هنا؟ غرفة دعارة معدة

WWW.REWITY.COM

للعجائز..."، واتسعت عيناه عندما شاهد أخيرا المقيم في السقيفة وقال، "ما هذا؟".

لم ألتفت كي أنظر. كنت أعرف ماذا هناك، فقد اختلط الماضي بالحاضر وتراءت لي صورة مرعبة ثلاثية الأبعاد في حقيقتها. لم يكن براد دولان هو الذي كان واقفا عند مدخل الكوخ ولكنه بيرسي ويتمور. في لحظة ما سيقتحم الغرفة ويسحق السيد جينغلز (الذي لم يعد لديه أمل في النجاة منه) تحت حذائه، ولكننا هذه المرة لن نجد جون كوفي ليساعده وهو على حافة الموت. لن نجد جون كوفي، تماما مثلما لم أجده عندما احتجت إليه في ذلك اليوم الممطر في ألاباما.

نهضت واقفا، لا أشعر بآلام مفاصلي أو عظامي هذه المرة، واندفعت ناحية دولان وصرخت قائلا، "دعه وشأنه، فلتدعه وشأنه يا بيرسي، وإلا أقسم أنني سـ...".

"مَن ذلك الذي تدعوه بيرسي؟"، ودفعني حتى كدت أسقط على الأرض. أمسكت بي إيلين، ومن المؤكد أنها تألمت من ذلك، وأعادت إليّ توازني. "ليست هذه المرة الأولى التي تقومان فيها بذلك، وأنت توقف عن هذا الذعر فأنا لن أؤذيه. لست بحاجة إلى أن أؤذي هذا القارض المحتضر".

فالتفت معتقدا أن السيد جينغلز لا يزال مستلقيا على جانبه كي يأخذ أنفاسه كما يفعل عادة، كان على جانبه، حسنا، ولكن توقفت حركة التنفس تحت وبره، حاولت أن أقنع نفسي أنني لا أزال أراه يتنفس، وحينها شهقت إيلين شهقة عالية، وانحنت على الفأر الذي رأيته لأول مرة في الميل الأخضر متجها إلى مكتب المناوبة بلا خوف أو ذعر كشخص يتحدى أقرانه... أو أصدقاءه. لا يزال راقدا على جنبه وهو في راحة يدها، عيناه فاترتان وساكنتان. لقد مات.

ابتسم دولان بشكل بغيض كاشفا أسنانه التي قلما عرفت طريق

عيادة الأسنان وقال، "آه، يا للشفقة! هل فقدنا للتو حيوان العائلة الأليف؟ هل لا بد لنا الآن من أن نقيم جنازة صغيرة بالورود و -".

صرخت فيه إيلين بصوت عالٍ وبقوة جعلته يرجع إلى الخلف خطوة، وسلبت عن وجهه تلك الابتسامة قائلة، "اخرس! اخرج من هنا وإلا لن تعمل هنا يوما آخر بعد اليوم، بل لن تبقى هنا ساعة واحدة، أقسم لك بذلك!".

"لن تستطيع الحصول حتى على قطعة خبز وأنت واقف خلف موائد الفقراء". قلت ذلك بصوت منخفض للغاية لدرجة أن كليهما لم يسمعاني. لم أستطع أن أرفع عيني عن السيد جينغلز وهو مستلقٍ على راحة إيلين يشبه أصغر سجادة وبر في العالم.

فكّر براد في العودة إليها وكان محقًا في تحديها، فلم تكن السقيفة مكانا معتمدا لنزلاء جورجيا سنايبز، وكنت أدرك ذلك جيدا؛ ولكنني لم أتجنبه. لم يفعل لأنه كان إنسانا جبانا في قرارة نفسه بالضبط مثل بيرسي. وربما كان قد تأكد من صحة ادعائها بأن حفيدها شخصية هامة. وعموما، وبالرغم من أنه قد أشبع فضوله بمعرفة ما يدور واكتشف اللغز الذي أرهقه وهو أن هناك فأرا لرجل عجوز كان يعيش في الكوخ وقد مات الآن نتيجة سكتة قلبية أو ما شابه بينما كان يدفع بكرة الخيط الملونة.

قال "أنا لا أعرف لماذا تتصرفان هكذا، كلاكما، ليس ككلب أو ما شابه".

صرخت فيه إيلين "اخرج، اخرج أيها الجاهل، أي عقل صغير ومنحرف ذلك الذي تملكه!".

شحب لونه، وظهرت البقع الباقية من حب الشباب في وجهه حمراء داكنة "سأذهب، ولكن عندما تأتي إلى هنا غدا... يا بولي... ستجد مزلاجا جديدا على هذا الباب. هذا المكان ممنوع على النزلاء. لا

WWW.REWITY.COM

يهم ما ستقوله تلك العجوز الشمطاء عني، انظر إلى الأرضية فقد تعفنت! لو حاولت المرور ستُكسر قدماك الواهنتان كحطب يابس، لذلك، خذ فأرك الميت فقط إذا كنت تريده واذهب، فسقيفة الغرام هذه لن تكون مفتوحة بعد اليوم".

استدار بعد ذلك، وذهب بخطوات واسعة كرجل يعتقد أنه خرج على الأقل متعادلا. انتظرت حتى ذهب، ثم أخذت بلطف السيد جينغلز عن راحة يد إيلين، ووقعت عيناي على الحقيبة التي فيها حلوى النعناع، وبدأت دموعي بالانهمار. لا أعرف لماذا أصبح البكاء عندي سهلا هذه الأيام.

سألت إيلين بمجرد أن بدأت خطوات براد دولان في الاضمحلال وقلت لها "هل تساعدينني على دفن صديق قديم؟".

وضعت ذراعها حولي ورأسها على كتفي وقالت "بالطبع يا بول". وبأحد أصابعها أخذت تقلب جسم السيد جينغلز الساكن وأكملت "لكم يسرني ذلك".

بذلك، أحضرنا منكاشا صغيرا من الحديقة، وقمنا بدفن الفأر صديق ديل بينما تمتد ظلال الظهيرة من الأشجار، ثم رجعنا كي نتناول عشاءنا، ونحيا ما تبقى من عمرنا. وجدت نفسي أفكر في ديل وهو راكع على السجادة الخضراء في مكتبي ويداه مطويتان ورأسه الأصلع يلمع تحت ضوء المصباح، ديل الذي قد طلب منا يوما أن نعتني بالسيد جينغلز وأن نحذر من ذلك الشرير كي لا يوقع به الأذى مرة أخرى. ولكن، في النهاية أوقع بنا ذلك الشرير جميعا الأذى، أليس كذلك؟

"بول؟ هل أنت بخير؟"، سألتني إيلين بصوت عطوف ومرهق. إن مجرد حفر قبر لفأر كي يستريح فيه إلى الأبد، يبدو موقفا مثيرا لعجوزين مثلنا.

ضممتها بذراعي التي كانت لا تزال حولها قائلا "أنا بخير".

قالت "انظر، سيكون غروبا رائعا للشمس، ما رأيك أن نجلس في الخارج ونشاهده؟".

قلت "حسنا". جلسنا هناك على العشب الجميل لبعض الوقت وقد وضعت ذراعي حول خاصرتها وهي كذلك؛ نترقب الألوان البراقة الصاعدة من السماء حتى تلاشت وتحولت إلى اللون الرمادي.

WWW.REWITY.COM

13

1956
ألاباما تحت المطر

كانت حفيدتي الثالثة فتاة جميلة تسمى تيسا بصدد التخرج من جامعة فلوريدا. ذهبنا إلى جرايهاوند، كنت وقتها في الرابعة والستين، مجرد مراهق. وكانت جانيس في التاسعة والخمسين لكنها لا تزال جميلة كما كنت أراها دوما. كنا جالسين على الكرسي على طول الطريق تتشاحن معي لأنني لم أشترِ لها كاميرا جديدة لتسجيل هذا الحدث السعيد. فقلت لها إن بإمكاننا التسوق طيلة اليوم بعد أن نصل إلى هناك، وإنه من الممكن أن نشتري واحدة إذا ما أرادت، فالميزانية كانت ستسمح على كل حال، لكن أعتقد أنها كانت تتشاحن معي ربما لأنها قد ملت من الطريق ومن ذلك الكتاب الذي أحضرته معها وهو كتاب بيري مازون. كان كل شيء بذاكرتي قد تحول إلى اللون الأبيض لبعض الوقت، بالضبط مثل الفيلم الذي يترك تحت ضوء وحرارة الشمس.

هل تتذكرون تلك الحادثة؟ أعتقد أن قلة ممن يقرأون هذه الرواية يتذكرونها، لكن غالبيتهم لا يفعلون، مع أنها تصدرت العناوين الرئيسية بالصفحات الأولى للجرائد عندما وقعت. كنا خارج برمنجهام وكانت تمطر، وكانت جانيس تشكو لي من كاميرتها القديمة عندما انفجر إطار الحافلة التي نستقلها، بدأت الحافلة تتأرجح على جانبي الطريق وعلى الإسفلت الذي غمرته مياه الأمطار. فجأة، اصطدمت بها شاحنة محملة بالأسمدة. ودفعت الشاحنة بسرعة تزيد عن ستين كيلومترا في الساعة

الحافلة تجاه دعامات أحد الجسور لتصطدم بشدة بالعمود الخرساني وتنشطر إلى نصفين. انشطرت الحافلة إلى نصفين تلمع عليهما قطرات المطر وكل نصف منهما في اتجاه معاكس للآخر، فانفجر النصف الذي يحوي خزان الوقود ليرسل إلى السماء الرمادية الممطرة كرات اللهب الحمراء والسوداء. منذ لحظات كانت جانيس تشكو من كاميرا الكوداك القديمة، وفي اللحظة التالية وجدت نفسي مستلقيا على الجانب الآخر من الطريق تحت الأمطار أحدّق إلى سروال أزرق اللون كتبت عليه كلمة الأربعاء باللون الأسود وقد سقط من حقيبة أحد الأشخاص. كانت هناك حقائب مفتوحة في كل مكان، وأجساد بشرية، وأشلاء متناثرة. كان هناك ثلاثة وسبعون شخصا في الحافلة، أربعة منهم فقط هم الذين نجوا من تلك الحادثة، كنت أحدهم، الشخص الوحيد الذي لم تكن إصابته خطيرة.

نهضت مترنحا بين الحقائب المبعثرة والمفتوحة وأشلاء الأشخاص أصرخ مناديا على زوجتي، رفست بقدمي أحد المنبهات، أتذكر ذلك، وأتذكر أنني رأيت صبيا في الثالثة عشرة من عمره ميتا مستلقيا على الأرض بين شظايا الزجاج المنثور منتعلا حذاء بي. أف. فلاير وقد فقد نصف وجهه. شعرت بالأمطار تلطمني على وجهي، وبعدها سرت من خلال النفق السفلي، فتوقفت الأمطار للحظات. وعندما وصلت إلى الناحية الأخرى عاودت الأمطار مرة أخرى لتلطم وجنتي وجبهتي. وإلى جانب شاحنة السماد المقلوبة والمحطمة، رأيت جانيس وهي ملقاة على الأرض. تعرفت إليها من خلال فستانها الأحمر وكان ثاني أكثر الفساتين المفضلة لديها. كانت تدخر الأفضل لمناسبة التخرج.

لم تكن قد ماتت حينها. وقد اعتقدت أنه كان من الأفضل - بالنسبة إليّ إن لم يكن بالنسبة إليها - لو كانت قد توفيت في الحال. ربما كان هذا ليجعل من الممكن لي أن أدعها ترحل بعد فترة قصيرة وبشكل

WWW.REWITY.COM

طبيعي أكثر. أو ربما كنت أضحك على نفسي فقط. لكن الحقيقة الوحيدة التي كنت على يقين منها هي أنني لم أكن لأتركها ترحل أبدا.

كانت ترتعد، وقد انتُزِعت فردة حذائها، ورأيت قدمها العارية وهي ترتعد. وكانت عيناها مفتوحتين، وعينها اليسرى مملوءة بالدماء. وبينما جلست أنا القرفصاء بجوارها تحت الأمطار التي تحمل رائحة الدخان، كان كل ما استطعت أن أفكر فيه هو تلك الرعشة التي كانت تعني لي أنها كانت تصعق بالكهرباء، تصعق بالكهرباء وأنه لا بد لي من أن أسارع وأوقف ذلك قبل فوات الأوان.

صرخت "ساعدوني، ساعدوني، ليساعدني أحد!".

لكن لم يساعدني أحد، بل لم يأتِ أحد في الأساس. فقد كانت الأمطار تضرب بقوة كل ما هو تحتها وتكاد تسويه أرضا. احتضنتها بين ذراعي وكان شعري الأسود ساكنا على رأسي بلا حركة، ولم يأتِ أحد. أخذت تنظر إليّ بعينيها الساكنتين وبحدة وقد اختلطت بالدوار، بينما تنزف الدماء من رأسها المهشّم كالسيل. وبجوار يدها التي كانت ترتعد وتتشنج بلا وعي وجدت قطعة من الصلب المطلي بالكروم مكتوب عليها كلمة رمادي. بالقرب من ذلك، كان هناك ربع جسد بشري تقريبا لمن كان في يوم ما رجل أعمال مرتديا بذلة صوفية بنية اللون.

صرخت مرة أخرى "ليساعدني أحد!" والتفت ناحية النفق السفلي، ورأيت هناك جون كوفي واقفا في الظلال، هو نفسه ظل، رجل ضخم الجثة ذو ذراعين طويلتين ورأس أصلع، فصرخت مناديا، "جون! أرجوك يا جون ساعدني! أرجوك ساعد جانيس!".

تسللت قطرات المطر داخل عيني، فومضت لحظة، ونظرت فلم أجده، كنت أستطيع أن أرى الظلال التي يبدو أنني حسبتها جون، ولكن لم تكن الظلال وحدها هي التي رأيتها، أنا متأكد من ذلك، كان هناك، ربما كان بصورة شبح، ولكنه كان هناك حيث رأيته، ينهمر المطر على

وجهه ليختلط مع سيول دموعه التي لا تنتهي.

ماتت بين ذراعي، هناك تحت الأمطار بجوار شاحنة الأسمدة ورائحة الوقود المحترق لا تزال في أنفي. لم تكن هناك لحظة وعي؛ العينان صافيتان، والشفتان تتحركان بهمس في تصريح أخير عن الحب. كنت قد شعرت بها حينها ترتجف بشدة بين يدي، وغابت بعدها عن الدنيا. تذكرت ملياندا مورس لأول مرة منذ سنين. حينها، كانت قابعة في سريرها وقد أيقن كل أطباء مستشفى إنديانولا العام أنها حتما ستفارق الحياة، كانت ملياندا تبدو منتعشة وهادئة وهي تحدق إلى جون كوفي باندهاش، وقالت له لقد حلمت بك تتجول في الظلام، وأنا كذلك. ثم عثرنا على بعضنا.

وضعت رأس زوجتي المهشّم على إسفلت الطريق السريع الذي غمرته مياه الأمطار، وجثوت على ركبتي (لم يكن الأمر عسيرا فقد أصبت بجرح بسيط على جانب يدي اليسرى فقط) وصرخت باسمه على مدى ظلال النفق السفلي قائلا، "جون! جون كوفي! أين أنت؟".

سرت باتجاه تلك الظلال، أركل بقدمي كل ما يعترضني، عربة أطفال ملطخة بالدماء، نظارة معدنية وقد تحطمت إحدى عدساتها، يد مقطوعة وفي خنصرها خاتم من العقيق الأحمر، "لقد أنقذت زوجة مورس، فلماذا لا تنقذ زوجتي؟ لماذا جانيس؟ لماذا لا تنقذ زوجتي جانيس؟".

لم أجد إجابة، ولم أشم سوى رائحة الوقود المحترق والأجساد المتفحمة، والأمطار تهطل بلا توقف من السماء الرمادية على الأرض بينما ترقد زوجتي على الطريق بجواري وقد فارقت الحياة. لم أجد الإجابة حينها، ولا أجدها الآن. ولكن بالطبع لم تكن ملياندا مورس هي الوحيدة التي أنقذها جون كوفي عام 1932، وليس فقط فأر ديل، الفأر الذي كان يقوم بتلك الألعاب ببكرة الخيوط، والذي كان يبدو وكأنه

www.rewity.com RAYAHEEN
WWW.REWITY.COM

يبحث عن ديل طويلا قبل أن يظهر ديل وكذلك جون كوفي.

جون كوفي أنقذني أنا أيضا، بعد ذلك بسنوات، كنت واقفا تحت أمطار ألاباما المنهمرة وأبحث عن رجل لم يكن واقفا في ظلال الأنفاق، واقفا بين الحقائب المبعثرة والأجساد المحطمة، لقد تعلمت بل أدركت شيئا مفزعا وهو أنه أحيانا لا تجد فرقا على الإطلاق بين الخلاص واللعنة.

لقد شعرت بشيء تلو الآخر يتدفق داخلي عندما كنا جالسين معا على سريره في الثامن عشر من نوفمبر عام 1932. شيء يخرج منه ليسكن داخلي، قوة غريبة تخرج من بين أيدينا المتشابكة بطريقة لا يمكن لحبنا أو أملنا أو نوايانا الحسنة أن تقوم بها إلى حدّ ما، ولكن تلك المشاعر والأحاسيس التي بدأت برعشة خفيفة، ثم تحولت إلى شيء هائل ومتقلب، كانت تحوي خلالها قوى لم أكن قد عرفتها من قبل حتى ذلك الحين. فمنذ ذلك اليوم لم تصبني أمراض الرئة نهائيا أو الأنفلونزا أو حتى التهابات الحلق. ولم تصبني أبدا أي عدوى بولية أخرى. كنت أصاب بنزلات البرد ولكن على فترات طويلة ومتباعدة تصل إلى ست وسبع سنوات بين الواحدة والأخرى، بالرغم من أن الذين لا يصابون بنزلات البرد غالبا ما يكونون معرضين للإصابة بنزلات شديدة، ولكن لم يحدث ذلك معي على الإطلاق. ذات مرة، وفي هذه السنة البغيضة 1956، كنت قد أصبت بالحصاة الصفراوية، وبالرغم من أنني أفترض أنه سيبدو أمرا غريبا لبعض من يقرأون ذلك، وبالرغم من كل ما قلته، فقد لازمتني آلام هذا المرض وكانت تلك هي الآلام الخطيرة التي كنت أعانيها منذ أن بدأت عندي مشاكل الكليتين قبل حوالى أربعة وعشرين عاما. فجميع الأمراض التي أخذت في طوفانها أصدقائي وأمثالهم - أجيال لم يتبقَّ منها أحد - مثل النوبات القلبية والأورام الخبيثة وأمراض الكبد وأمراض الدم؛ كلها انحرفت بعيدا عني كسائق ينحرف بسيارته

ليتفادى قتل غزال أو راكون على الطريق. حتى الحادث الخطير الوحيد الذي تعرضت له لم يصبني بأذى سوى بخدش بسيط في يدي. في العام 1932، منحني جون كوفي لقاح الحماية، أو بالأحرى، صعقني بالحياة. نعم، سأفارق الحياة في نهاية الأمر - سأموت بالطبع فقد انتهت عندي كل أوهام الخلود التي ظلت راسخة في ذهني وذلك مع موت السيد جينغلز - ولكنني كنت أتمنى الموت قبل أن يجدني. ولعلني أقول الحقيقة، فقد تمنيت الموت الذي لم أتمنّه من قبل وذلك بمجرد أن فارقت إيلين الحياة. وهل أحتاج لأخبركم بذلك؟

راجعت تلك الصفحات مقلبا إياها بيدي المرتجفتين اللتين تملأهما البقع البنية، وسألت نفسي عما إذا كانت تطوي داخلها أي معنى مثل تلك الكتب التي من المفترض أنها ذات شأن عظيم. رجعت بذاكرتي إلى عظات الطفولة التي كنا نستمع إليها في دار العبادة، وأتذكر كيف كان الواعظ قد اعتاد أن يقول إن لا شيء يخفى عن الله. وعندما أفكر في السيد جينغلز وأتذكر شظايا الخشب الصغيرة التي وجدناها في تلك الفتحة تحت شعاع الضوء، أرى برهانا على هذا القول. والآن، أتذكر جون عندما قال إن وارتون قتل ابنتي ديتيريتش التوأم بحبهما لبعضهما، وأن ذلك يحدث كل يوم في كل مكان.

أتذكر السيد جينغلز وهو يحتضر بينما أعطيته ظهري وأعرت انتباهي إلى رجل شرير لا يملك أيا من مشاعر الرحمة. وأتذكر جانيس في لحظاتها الأخيرة قبل أن تفارق الحياة فاقدة الوعي بينما أنا جاثٍ بجوارها تحت المطر.

توقف عن ذلك، هذا ما حاولت أن أقوله لجون في الزنزانة ذلك اليوم. اترك يدي، سأغرق إن لم تتركها. سأغرق أو أنفجر.

"لن تنفجر" هكذا أجابني مبتسما وكأنه كان يستمع إلى ما يدور في ذهني. والأمر الغريب هنا، هو أنني لم أغرق أو أنفجر. فكل ما

WWW.REWITY.COM

أعاني منه هو أحد أمراض الشيخوخة الشائعة، وهو الأرق.

في الأوقات المتأخرة من الليل، أرقد مستلقيا على سريري، أستمع إلى الأصوات اليائسة لسعال العجائز من الرجال والنساء. في أحيان أخرى أستمع إلى رنين الهاتف أو إلى صرير أحد الأحذية وهي تسير في الرواق، أو إلى صوت تلفاز السيدة جافيتس الصغير والذي يظل مشغّلا حتى آخر نشرات الأخبار. أظل راقدا هنا، وإذا ما أطل القمر من نافذتي أمضي بعض الوقت أراقبه. أرقد هنا وأفكر في بروتال ودين وأحيانا أتذكر ويليام وارتون وهو يقول حسنا أيها الزنجي، أنا شرير كما ترغب. وأتذكر ديلاكروا وهو يقول شاهد هذا يا سيدي إيدجكومب، لقد علمت السيد جينغلز لعبة جديدة. وأتذكر إيلين، وهي واقفة عند باب الغرفة المشمسة تطلب من براد دولان أن يدعني وشأني. في بعض الأوقات يغلبني النعاس، وأرى في منامي ذلك النفق تحت الأمطار وجون كوفي واقف تحت الظلال. لم يكن ذلك خداعا بصريا في تلك الأحلام القصيرة، لقد كان هو دائما ويقينا، صديقي الصبي الكبير، واقفا هناك يراقب ما يحدث. وأتذكر جانيس وكيف فقدتها، وكيف ذهبت بعيدا من بين يديّ تحت الأمطار وقد تلونت بلون الدماء، وأنا لا أزال منتظرا. نعم كل نفس ذائقة الموت، لن يستثنى أحد، أعرف ذلك، ولكن أحيانا، يا الله، يكون الميل الأخضر طويلا جدا.

WWW.REWITY.COM